كتاب

نور اليقين

في سيرة سيد المرسلين

لمؤلفه

„ محمد الخضرى "

(الحائز شهادة التدريس من مدرسة دار العلوم الخديوية)
(والمدرس بمدرسة القضاء الشرعى)

„ بمصر "

سنة ١٤١٣ هـ
١٩٩٢م

„ ماوراء النهر "

(صورة اجازة المؤلف)

القاهرة في ٢٣ ربيع الاوّل سنه ١٣٢٧

سيدى المحترم حضرة المفضال ابراهيم الادريسى

السلام عليكم ورحمة الله وبعد فقد وصلنى كتابكم الذى تطلبون فيه منى الاذن بطبع كتابى نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين بمطبعة «الملت» بقزان. وانى اجيب السيد على ذلك بانى أسر جدا اذا كان هذا الكتاب قد حاز قبولا لديكم وآذنكم بطبعه فى مطبعتكم وأتمنى لكم ولمن معكم من المسلمين خيرا وسلاما اسأل الله ان يوفقنى وإياكم لخير قومنا والسلام.

محمد الخضرى

المدرس بمدرسة القضاء الشرعى

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك يامن اوضحت لنا سبل الهداية. وازحت عن بصائرنا غشاوة الغواية ونصلي ونسلم على من أرسلته شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً الى الله باذنه وسراجاً منيراً وعلى الاصحاب الذين هجروا الاوطان. يبتغون من الله الفضل والرضوان. والانصار الذين آووا ونصروا. وبذلوا لاعزاز الدين ماجمعوا وما ادخروا (اما بعد) فيقول محمد الخضرى ابن المرحوم الشيخ عفيفى الباجورى كنت أجد من نفسى منذ النشأة الاولى ارتياحاً لقراءة تواريخ السالفين وقصص الغابرين وأجدها لعقل الانسان أحسن مهذب وانصح معلم. وكنت أرى فى تاريخ نبينا عليه الصلاة والسلام وما لقيه من أذى قومه حينما دعاهم الى الحق وعظيم صبره حتى هجر أوطانه وبلاده اعظم مربّ لافكار المسلمين فانه يدلهم على مايجب اتباعه وما يلزم اجتنابه ليسودوا كما ساد سابقوهم وخصوصاً مايتعلق بالحكّام من اجتذاب النفوس النافرة والتأليف بين القلوب المختلفة وما يتعلق بقواد الجيوش من

تأليف الرجال واحكام المعدات حتى يتم لهم النصر على اعدائهم وما يتعلق بالعامة من اتحاد قلوبهم وصيرورتهم يداً على من سواهم فكنت أجد من قرائتها ارتياحاً عظيماً وكانت نفسي كثيراً ماتأسف على ترك المسلمين لها فقلما أجد من يشتغل بها ولكني كنت أقدم لهم العذر بتطويل الكتب المؤلفة في هذا الموضوع فلماقدمت مدينة المنصورة جمعتني النوادى مع محمود بك سالم القاضي بمحكمة المنصورة المختلطة فوجدت منه علماً بدينه تقف دونه فحول الرجال وتتأخر عن مسابقته فيه الأبطال . فقلما توضع مسألة دينية الا وجدته مبرزاً فيها مفصحاً عن الجواب عنها . اما علمه بسيرة الرسول الاكرم صلى الله عليه وسلم فعنده منها الخبر اليقين وكنت كثيراً ما اسمعه يتشوّف لعمل سيرة خالية من الحشو والتعقيد تنتفع بها عامة المسلمين فقلت يالله لقد وافق هذا السيد الكريم مافي نفسي ولكني كنت أرى في عزيمتي قصوراً عن تنفيذ رغبته وتتميم أمنيته فان المقام عظيم وصعوباته اعظم ولكن لم أر من الامر بداً تلقاء ما كنت أسمعه من كبار رجال المنصورة فانهم اكثروا من الاماني لعمل هذا الكتاب العميم النفع الجزيل الفائدة فقمت معتمداً على الله راجياً منه ان يوفقني لما فيه رضاه وواصلت السير بالسرى حتى بلغت المنى فجاء بحمد الله كتاباً سهل المنال عذب المورد تنتفع به العامة وترجع اليه الخاصة وقد كان موردى في تأليفه القرآن الشريف وصحيح السنة مما رواه الامامان البخارى ومسلم ولم أخرج عنهما الا فيما لابد منه من تفهيم العبارات فكان يساعدني الشفاء للقاضي عياض والسيرة الحلبية والمواهب اللدنية للقسطلاني واحياء علوم الدين للغزالي . هذا واسأل الله من فيض فضله ان يوفق أئمتنا وامراءنا للاقتداء بسيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم واحياء معالم دينه حتى يؤيدوا بروح من عند الله.

وقد آن ان نشرع فيما قصدناه مستعينين بحول الله فنقول

النسب الشريف

السيد الاكرم الذى شرف الناس بوجوده هو (محمد بن عبد الله) من زوجه آمنة بنت وهب الزهرية (١) القرشية (ابن عبد المطلب) من زوجه فاطمة بنت عمرو المخزومية (٢) القرشية وكان عبد المطلب شيخاً معظماً فى قريش يصدرون عن رأيه فى مشكلاتهم ويقدمونه فى مهماتهم (ابن هاشم) من زوجه سلمى بنت عمرو النجارية (٣) الخزرجية (ابن عبدمناف) من زوجه عاتكة بنت مرة السلمية (٤) (ابن قصى) من زوجه حبى بنت حليل الخزاعية (٥) وكان الى قصى فى الجاهلية حجابة البيت وسقاية الحاج واطعامه المسمى بالرفادة والندوة وهى الشورى لايتم امر الا فى بيته واللواء لاتعقد راية لحرب الابيده ولما اشرف على الموت جعلها فى يد أحد أولاده عبدالدار ولكن بنوعبد مناف اجمعوا رأيهم على ان لايتركوا بنى عمهم عبدالدار يستأثرون بهذه المفاخر وكاد يفضى الامر الى القتال لولا ان تدارك الامر عقلاء الفريقين فأعطوا بنى عبدمناف السقاية والرفادة فداما فيهم الى أن انتهتا للعباس بن عبدالمطلب ثم لبنيه من بعده أما الحجابة فبقيت بيد بنى عبدالدار وأقرها لهم الشرع فهى فيهم الى الآن وهم بنو شيبة بن عثمان ابن ابى طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبدالدار وأما اللواء فدام فيهم

---

١) من بنى زهرة بن كلاب من قريش

٢) من بنى مخزوم بن يقظة بن مرة من قريش

٣) من بنى النجار من الخزرج والخزرج احدى القبيلتين اللتين كانتا تقيمان بالمدينة وهما الاوس والخزرج وهما اخوان وسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا انصارا

٤) من بنى سليم بن منصور احدى قبائل قيس عيلان بن مضر بن نزار

٥) من بنى خزاعة بن عمرو احدى قبائل قمعة بن الياس بن مضر وهم الذين كانوا يتولون البيت قبل قريش

حتى أبطله الإسلام وجعله حقاً للخليفة على المسلمين يضعه فيمن يراه صالحاً له وكذلك الندوة وقصي (ابن كلاب) من زوجه فاطمة بنت سعد وهي يمانية من أزدشنوءة (ابن مرة) من زوجه هند بنت سرير من بني فهر بن مالك (ابن كعب) من زوجه محشية بنت شيبان من بني فهر أيضاً (ابن لؤي) من زوجه ام كعب مارية بنت كعب من قضاعة (ابن غالب) من زوجه أم لؤي عاتكة بنت يخلد من بني النضر بن كنانة (ابن فهر) من زوجه أم غالب ليلى بنت الحارث من هذيل وفهر هو قريش في قول الاكثرين فكل من كان من ولده فهو قرشي وكانت قريش اثنتي عشرة قبيلة بنو عبد مناف وبنو عبدالدار بن قصي وبنو أسد بن عبدالعزى بن قصي وبنو زهرة ابن كلاب وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة وبنو تيم بن مرة وبنو عدي بن كعب وبنو سهم بن هصيص بن عمرو بن كعب وبنو جمح بن هصيص بن عمرو بن كعب وبنو عامر بن لؤي وبنو تيم بن غالب وبنو الحارث ابن فهر وبنو محارب بن فهر والمقيمون منهم بمكة يسمون قريش البطاح والذين بضواحيها قريش الظواهر (ابن مالك) من زوجه جندلة بنت عامر من جرهم (ابن النضر) من زوجه عاتكه بنت عدوان بن قيس عيلان (ابن كنانة) من زوجه برة بنت مر من بني تميم (ابن خزيمة) من زوجه عوانة بنت سعد بن قيس عيلان (ابن مدركة) من زوجه سلمى بنت أسلم من قضاعة (ابن الياس) من زوجه خندف المضروب بها المثل في الشرف والمنعة (ابن مضر) من زوجه الرباب بنت جندة بن معد (ابن نزار) من زوجه سودة بنت عك (ابن معد) من زوجه معانة بنت جوشم من جرهم (ابن عدنان)

هذا هو النسب المتفق على صحته من علماء التاريخ والمحدثين أما النسب فوق ذلك فلا يصح فيه طريق غاية الامر انهم اجمعوا على أن

نسب الرسول صلى الله عليه وسلم ينتهى الى اسماعيل بن ابراهيم ابى العرب المستعربة . نسب شريف كماترى آباء طاهرون وامهات طاهرات لم يزل عليه السلام ينتقل من اصلاب أولئك الى ارحام هؤلاء حتى اختاره الله هادياً مهدياً من أوسط العرب نسباً فهو من صميم قريش التى لها القدم الاول فى الشرف وعلو المكانة بين العرب ولا تجد فى سلسلة آبائه الا كراماً ليس فيهم مسترذل بل كلهم سادة قادة وكذلك أمهات آبائه من ارفع قبائلهن شأناً ولا شك ان شرف النسب وطهارة المولد من شروط النبوة وكل اجتماع بين آبائه وامهاته كان شرعياً بحسب الاصول العربية ولم ينل نسبه شىء من سفاح الجاهلية بل طهره الله من ذلك والحمد لله

زواج عبد الله بآمنة وحملها

كان عبد الله بن عبد المطلب من أحب ولد أبيه فزوجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب وسنه ثمانى عشرة سنة وهى يومئذ من افضل نساء قريش نسباً وموضعا ولما دخل عليها حملت برسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يلبث أبوه أن توفى بعد الحمل بشهرين ودفن بالمدينة عند اخواله بنى عدى بن النجار فانه كان ذهب لتجارة الى الشام فأدركته منيته بالمدينة وهو راجع ولما تمت مدة حمل آمنة وضع ولدها فاستبشر العالم بهذا المولود الكريم الذى بث فى ارجائه روح الآداب وتمم مكارم الاخلاق وقد حقق المرحوم محمود باشا الفلكى ان ذلك كان فى صبيحة يوم الاثنين تاسع ربيع الاول الموافق لليوم العشرين من ابريل سنة ٥٧١ من الميلاد وهو يوافق السنة الاولى من حادثة الفيل

(١) وكانت ولادته في دار ابى طالب بشعب بنى هاشم وكانت قابلته الشفاء ام عبد الرحمن بن عوف ولما ولد أرسلت أمه لجده تبشره فأقبل مسروراً وسماه محمداً ولم يكن هذا الاسم شائعاً قبل عند العرب ولكن اراد الله ان يحقق ماقدره وذكره في الكتب التى جاءت بها الانبياء كالتوراة والانجيل فألهم جده ان يسميه بذلك انفاذاً لامره وكانت حاضنته أم أيمن بركة الحبشية أمة أبيه عبد الله وأول من ارضعه ثويبة أمة عمه ابى لهب

الرضاع

وكان من عادة العرب أن يلتمسوا المراضع لمواليدهم في البوادى ليكون انجب للولد وكانوايقولون ان المربى فى المدن يكون كليل الذهن فاتر العزيمة فجاءت نسوة من بنى سعد بن بكر يطلبن اطفالا يرضعنهم فكان الرضيع المحمود من نصيب حليمة بنت ابى ذؤيب السعدية واسم زوجها أبو كبشة وهو الذى كانت قريش تنسب له الرسول صلى الله عليه وسلم حينما يريدون الاستهزاء به فيقولون هذا ابن أبى كبشة يكلم من السماء . ودرّت البركات على أهل ذاك البيت الذين أرضعوه مدة وجوده بينهم وكانت تربو عن اربع سنوات (٢)

حادثة شق الصدر

وحصل له وهو بينهم حادثة مهمة وهى شق صدره واخراج حظ الشيطان

١) حادثة شهيرة حصلت بمكة فارخت بها العرب كعادتهم هم وكل امة فى التاريخ بالامور المهمة وقد ذكر القرآن هذه الحادثة فى سورة الفيل وحاصلها ان ملكا من ملوك الحبشة الذين امتلكوا اليمن بعد حمير اغار على مكة وقصد هدم كعبتها وكان معه فيل عظيم لم يكن العرب راوا مثله فاكراما للنبى المنتظر وغيرة على بيته الكريم جعل الله كيد الاعداء فى تضليل وارسل عليهم طيرا ابابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف ماكول واراح قريشا من عناء مقاومتهم اه

٢ السيرة الحلبية

منه فأحدث ذلك عند حليمة خوفاً فردته الى أمه وحدثتها قائلة بينما هو واخوته في بهْمٍ لناخلف بيوتنا اذ أتى أخوه يعدو فقال لى ولابيه ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوّطانه (١) فخرجت انا و ابوه نحوه فوجدناه منتقعاً لونه (٢) فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له مالك يابُنَّى فقال جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض فقال أحدهما لصاحبه أهو هو قال نعم فاقبلا يتدرانى فأضجعانى فشقا بطنى فالتمسا فيه شيئاً فأخذاه وطرحاه ولاأدرى ماهو

(وفاة آمنة وكفالة عبد المطلب ووفاته وكفالة ابى طالب)

ثم ان امه اخذته منها وتوجهت به الى المدينة لزيارة اخوال أبيه بنى عدى ابن النجار وبينما هى عائدة أدركتها منيتها فى الطريق فماتت بالابواء (٣) فحضنته أم أيمن وكفله جده عبد المطلب ورَقَّ له رقةً لم تعهدله فى ولده لما كان يظهر عليه مما يدل على ان له شأناً عظيما فى المستقبل وكان يكرمه غاية الاكرام ولكن لم يلبث عبدالمطلب ان توفى بعد ثمانى سنوات من عمر الرسول صلى الله عليه وسلم فكفله شقيق أبيه أبو طالب فكان له رحيما وعليه غيوراً وكان أبو طالب مقلًّا من المال فبارك الله له فى قليله وكان الرسول صلى الله عليه وسلم فى مدة كفالة عمه مثال القناعة والبعد عن السفاسف التى يشتغل بها الاطفال عادة كما روت ذلك أم أيمن حاضنته فكان اذا أقبل وقت الاكل جاء الاولاد يختطفون وهو قانع بما سييسره الله له

السفر الى الشام المرة الاولى

ولما بلغ سنه عليه السلام اثنتى عشرة سنة اراد عمه وكفيله السفر بتجارة الى الشام فاستعظم الرسول صلى الله عليه وسلم فراقه فرقّ له وأخذه معه

١) يحركانه بسوط ٢) شبيها بالنقع وهو التراب
٣) قرية بين مكة والمدينة وهى اقرب الى المدينة

وهذه هى الرحلة الاولى ولم يمكثوا فيها الا قليلا وقد أشرف على رجال القافلة وهم بقرب بُصْرى (١) بَحيرا الراهب فسألهم عما رآه فى كتبهم المقدسة من بعثة نبى من العرب فى هذا الزمن فقالوا انه لم يظهر للآن وهذه العبارة كثيراً ما كان يلهج بها أهل الكتاب من يهود ونصارى قبل بعثة الرسول «فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين» (٢)

حرب الفجار

ولما بلغ سنه عليه السلام عشرين سنة حضر حرب الفَجار وهى حرب كانت بين كنانة ومعها قريش وبين قيس وسببها انه كان للنعمان ابن المنذر ملك العرب بالحَيرة (٣) تجارة يرسلها كل عام الى سوق عكاظ (٤) لتباع له وكان يرسلها فى أمان رجل ذى مَنعة وشرف فى قومه ليجيزها فجلس يوماً وعنده البراض بن قيس الكنانى وكان فاتكاً خليعاً خلعه قومه لكثرة شره وعروة بن عتبة الرحال فقال من يجيز لى تجارتى هذه حتى يبلغها عكاظ فقال البراض أنا أجيزها على بنى كنانة فقال النعمان انما أريد من يجيزها على الناس كلهم فقال عروة ابيت اللعن (٥) أكلب خليع يجيزها لك أنا أجيزها على أهل الشيح والقيصُوم من أهل نجد (٦) وتهامة (٧)

١) قرية على الحدود بين بلاد الشام وبلاد العرب

٢) سورة البقرة ٣) بلدة غرب الفرات كان يقيم بها ملك العرب من قبل ملوك فارس فتحها خالد بن الوليد فى السنة الثانية عشرة (راجع اتمام الوفاء)

٤) سوق كانت تعقده العرب كل عام لتعرض فيه تجارتها وما قاله فصحاؤها من قصائد الفخر وما اشبه ذلك من مفاخر العرب وهى اشبه فى ذلك بمعارض اوروبا الآن

٥) تحية عربية ومعناها باعدت كل مايستحق المذمة

٦) هو المرتفع من بلاد العرب وهو وسطها

٧) هو ما انخفض من سواحل البلاد العربية والشرقى منها يسمى البحرين والفاصل بين نجد وتهامة الحجاز فى الغرب واليمامة فى الشرق

فقال البراض أَوَتجيزها على كنانة ياعروة قال وعلى الناس كلهم فأسرها البراض في نفسه وتربص له حتى اذا خرج بالتجارة قتله غدراً ثم أرسل رسولا يخبر قومه كنانة بالخبر ويحذرهم قيساً قوم عروة أما قيس فلم تلبث بعد أن بلغها الخبر ان همت لتدرك ثأرها حتى أدركوا قريشا وكنانة بنخلة (٤) فاقتتلوا ولما اشتد البأس وحميت قيس احتمت قريش بحرمها وكان فيهم رسول الله ثم ان قيسا قالوا لخصومهم انا لا نترك دم عروة فموعدنا عكاظ العام المقبل وانصرفوا الى بلادهم يحرض بعضهم بعضا فلما حال الحول جمعت قيس جموعها وكان معها ثقيف وغيرها وجمعت قريش جموعها من كنانة والاحابيش وهم حلفاء قريش وكان رئيس بنى هاشم الزبير بن عبد المطلب ومعه اخوته أبو طالب وحمزة والعباس وابن اخيه النبى الكريم وكان على بنى أمية حرب ابن أمية وله القيادة العامة لمكانه فى قريش شرفا وسناً وهكذا كان على كل بطن من بطون قريش رئيس ثم تناجزوا الحرب فكان يوماً من أشد أيام العرب هولا ولما استحل فيه من حرمات مكة التى كانت مقدسة عند العرب سمى يوم الفجار وكادت الدائرة تدور على قيس حتى انهزم بعض قبائلها ولكن أدركهم من دعا المتحاربين للصلح على أن يحصوا قتلى الفريقين فمن وجد قتلاه اكثر اخذ دية الزائد فكانت لقيس زيادة أخذوا ديتها من قريش وتعهد بها حرب بن أمية ورهن لسدادها ولده ابا سفيان وهكذا انتهت هذه الحرب التى كثيراً ماتشبه حروب العرب تبدؤها صغيرات الامور حتى ألف الله بين قلوبهم وازاح عنهم هذه الضلالات بانتشار نور الاسلام بينهم

حلف الفضول

وعند رجوع قريش من حرب الفجار تداعوا لحلف الفضول فتم فى دار عبدالله بن جُدعان التيمى أحد رؤساء قريش وكان المتحالفون

٤) موضع بن مكة والطائف

بنى هاشم و بنى المطلب ابنى عبد مناف و بنى أسد بن عبد العزى و بنى زهرة بن كلاب و بنى تيم بن مرة تحالفوا وتعاقدوا ان لايجدوا بمكة مظلوماً من اهلها او من غيرهم من سائر الناس الا قاموا معه حتى ترد اليه مظلمته وقد حضر هذا الحلف رسول الله عليه السلام مع اعمامه وقال بعد ان شرفه الله بالرسالة (لقد شهدت مع عمومتى حلفاً فى دار عبد الله بن جدعان ما أحب ان لى به حُمْرَ النَّعم ولو دُعيت به فى الاسلام لاجبت) وذلك لانه عليه السلام مبعوث بمكارم الاخلاق وهذا منها وقد اقر دين الاسلام على كثير يرشدك الى هذا قوله عليه السلام (بعثت لاتمم مكارم الاخلاق) وقد دعا بهذا الحلف كثيرون فأنصفوا

رحلته الى الشام المرة الثانية

ولما بلغ سنه عليه السلام خمساً وعشرين سنة سافر الى الشام المرة الثانية وذلك ان خديجة بنت خويلد الاسدية (١) كانت سيدة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم اياه فلما سمعت عن السيد من الامانة وصدق الحديث مالم تعرفه فى غيره حتى سماه قومه الامين استأجرته ليخرج فى مالها الى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره فسافر مع غلامها ميسرة فباعا وابتاعا وربحا ربحاً عظيماً وظهر للسيد الكريم فى هذه السفرة من البركات ماحببه فى قلب ميسرة غلام خديجة

زواجه خديجة

فلما قدما مكة ورأت خديجة ربحها العظيم سرت من الامين عليه السلام وأرسلت اليه تخطبه لنفسها وكان سنها نحو الاربعين وهى من أوسط قريش حسباً واوسعهم مالا فقام الامين عليه السلام مع اعمامه حتى دخل على عمها عمرو بن أسد فخطبها منه بواسطة عمه أبى طالب فزوجها

١ من بنى اسد بن عبد العزى بن قصى

عمها وقد خطب أبو طالب في هذا اليوم. فقال الحمدلله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع اسماعيل وضئضىء (١) معد وعنصر مضر وجعلنا حضنة بيته وسوّاس حرمه وجعله لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً وجعلنا حكام الناس ثم ان ابن أخي هذا محمد بن عبدالله لا يوزن به رجل شرفا ونبلاً وفضلاً وان كان في المال قلا فان المال ظل زائل وأمر حائل وعارية مُستردّة وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل وقد خطب اليكم رغبة في كريمتكم خديجة وقد بذل لها من الصداق (كذا) وعلى ذلك تم الامر. وقد كانت متزوجة قبله بأبي هالة توفى عنها وله منها ولد اسمه هالة وهو ربيب المصطفى عليه السلام

بناء البيت

ولما بلغ سنه عليه السلام خمسا وثلاثين سنة جاء سيل جارف فصدع جدران الكعبة بعد توهينها من حريق كان اصابها قبل فأرادت قريش هدمها ليرفعوها ويسقفوها فانها كانت رضيمة (٢) فوق القامة فاجتمعت قبائلهم لذلك ولكنهم هابوا هدمها لمكانها في قلوبهم فقال لهم الوليد بن المغيرة أتريدون بهدمها الاصلاح أم الاساءة قالوا بل الاصلاح قال ان الله لا يهلك المصلحين وشرع يهدم فتبعوه وهدموا حتى وصلوا الى أساس اسماعيل وهناك وجدوا صحافاً نقش فيها كثير من الحكم على عادة من يضعون أساس بناء شهير ليكون تذكرة للمتأخرين بعمل المتقدمين ثم ابتدؤا في البناء وأعدّوا لذلك نفقة ليس فيها مهر بغيّ ولا بيع ربا وجعل الاشراف من قريش يحملون الحجارة على اعناقهم وكان العباس ورسول الله فيمن يحمل وكان الذي يلي البناء نجار رومي اسمه باقوم وقد خصص لكل ركن جماعة من العظمآء ينقلون اليه الحجارة وقد ضاقت بهم النفقة الطيبة عن اتمامه على قواعد اسماعيل فأخرجوا منها الحجر وبنوا عليه جداراً قصيراً علامة على

١) اصل ٢) بناء رضيم مبنى بالصخر اهـ من اساس البلاغة

انه من الكعبة ولما تم البناء ثمانى عشرة ذراعاً بحيث زيد فيه عن اصله تسع أذرع ورفع الباب عن الارض بحيث لا يصعد اليه الا بدرج أرادوا وضع الحجر الاسود موضعه فاختلف اشرافهم فيمن يضعه وتنافسوا فى ذلك حتى كادت تشب بينهم نار الحرب ودام بينهم هذا الخصام أربع ليال وكان اسنّ رجل فى قريش اذ ذاك ابو امية بن المغيرة المخزومى عم خالد ابن الوليد فقال لهم ياقوم لا تختلفوا وحكموا بينكم من ترضون بحكمه فقالوا نكل الامر لاول داخل فكان هذا الداخل هو الامين المأمون عليه الصلاة والسلام فاطمأن الجميع له لما يعهدون فيه من الامانة وصدق الحديث وقالوا هذا الامين رضيناه هذا محمد لانهم كانوا يتحاكمون اليه اذ كان لايدارى ولا يمارى فلما اخبروه الخبر بسط رداءه وقال لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم وضع فيه الحجر وامرهم برفعه حتى انتهوا الى موضعه فأخذه ووضعه فيه وهكذا انتهت هذه المشكلة التى كثيراً ما تكون امثالها سبباً فى انتشار حروب هائلة بين العرب لولا ان يمنّ الله عليهم بعاقل مثل أبى أمية يرشدهم الى الخير وحكيم مثل الرسول صلى الله عليه وسلم يقضى بينهم بما يرضى جميعهم ولا يستغرب من قريش تنافسهم هذا لان البيت قبلة العرب وكعبتهم التى يحجون اليها فكل عمل فيه عظيم به الفخر والسيادة وهو اول بيت وضع للعبادة بشهادة القرآن الكريم قال تعالى فى سورة آل عمران (ان اول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمناً) وكان يلى امره بعد ولد اسماعيل قبيلة جرهم فلما بغوا وظلموا من دخل مكة اجتمعت عليهم خزاعة وأجلوهم عن البيت ووليته خزاعة حيناً من الدهر ثم اخذته منهم قريش فى عهد قصى بن كلاب وبسببه أمنوا فى بلادهم فكانت قبائل العرب تهابهم واذا احتموا به كان حصناً اميناً من اعتداء العادين امتنّ الله عليهم بذلك فى تنزيله فقال فى سورة القصص (أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمنا ويتخطف الناس من حولهم).

معيشته عليه السلام قبل البعثة

لم يرث عليه السلام من والده شيئاً بل ولد يتيماً عائلاً فاسترضع فى بنى سعد ولما بلغ مبلغاً يمكنه معه ان يعمل عملا كان يرعى الغنم مع اخوته من الرضاع فى البادية وكذلك لما رجع الى مكة كان يرعاها لاهلها على قراريط كما ذكر ذلك البخارى فى صحيحه ووجود الانبياء فى حال التجرد عن الدنيا ومشاغلها أمر لابد منه لانهم لو وجدوا اغنياء لالهتهم الدنيا وشغلوا بها عن السعادة الابدية ولذلك ترى جميع الشرائع الالهية متفقة على استحسان الزهد فيها والتباعد عنها وحال الانبياء السالفين أعظم شاهد على ذلك فكان عيسى عليه السلام أزهد الناس فى الدنيا وكذلك كان موسى وابراهيم وكانت حالهم فى صغرهم ليست ذات سعة بل كلهم سواء تلك حكمة بالغة أظهرها الله على انبيائه ليكونوا نموذجاً لمتبعيهم فى الامتناع عن التكالب على الدنيا والتهافت عليها وذلك سبب البلايا والمحن وكذلك رعاية الغنم فما من نبى الا رعاها كما أخبر عن ذلك الصادق المصدوق فى حديث للبخارى وهذه أيضاً من بالغ الحكم فان الانسان اذا استرعى الغنم وهى اضعف البهائم سكن قلبُه الرأفة واللطف تعطفاً فاذا انتقل من ذلك الى رعاية الخلق كان قد هذّب أولا من الحدة الطبيعية والظلم الغريزى فيكون فى اعدل الاحوال. ولما شب عليه السلام كان يتاجر وكان شريكه السائب بن ابى السائب وذهب بالتجارة لخديجة رضى الله عنها الى الشام على جعل يأخذه. ولما شرفت خديجة بزواجه وكانت ذات يسار عمل فى مالها وكان يأكل من نتيجة عمله وحقق الله له ما امتن عليه به فى سورة الضحى بقوله جل ذكره (ألم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلاً فأغنى) فالايواء والاغناء قبل النبوة والهداية بالنبوة هداه للكتاب والايمان ودين ابراهيم عليه السلام ولم يكن يدرى

ذلك قبل . قال تعالى فى سورة الشورى (وكذلك أوحينا اليك روحاً من امرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا)

سيرته فى قومه قبل البعثة

كان عليه السلام أحسن قومه خلقاً واصدقهم حديثاً واعظمهم أمانة وأبعدهم عن الفحش والاخلاق التى تدنّس الرجال حتى كان أفضل قومه مروءة واكرمهم مخالطة وخيرهم جواراً واعظمهم حلماً واصدقهم حديثاً فسموه الامين لما جمع الله فيه من الامور الصالحة الحميدة . والفعال السديدة من الحلم والصبر والشكر والعدل والتواضع والعفة والجود والشجاعة والحياء حتى شهد له بذلك ألدّ اعدائه النضر بن الحارث من بنى عبد الدار حيث يقول قد كان محمد فيكم غلاماً حدثا أرضاكم فيكم واصدقكم حديثاً وأعظمكم امانة حتى اذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم قلتم ساحر لا والله ما هو بساحر قال ذلك فى معرض الاتفاق على ما يقولونه للعرب الذين يحضرون الموسم حتى يكونوا متفقين على قول مقبول يقولونه . ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان قائلاً هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال قال لافقال هرقل ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذبُ على الله ورد ذلك فى اول صحيح البخارى . وقد حفظه الله فى صغره من كل اعمال الجاهلية التى جاء شرعه الشريف بضدها(١) وبغضت اليه الاوثان بغضاً شديداً حتى ما كان يحضر لها احتفالا او عيداً مما يقوم به عبادها وقال عليه السلام (لما نشأت بغّضت الىّ الاوثان وبغض الى الشعر ولم أهم بشىء مما كانت الجاهلية تفعله الا مرتين كل ذلك يحول الله بينى وبين ما أريد من ذلك ثم ما هممت بسوء بعدهما حتى اكرمنى الله برسالته قلت ليلة لغلام كان يرعى معى لو أبصرت لى غنمى حتى

---

١) الشفاء للقاضى عياض

ادخل مكة فاسمر كما يسمر الشباب فخرجت لذلك حتى جئت اول دار من مكة أسمع عزفاً بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم فجلست لذلك فضرب الله على اذنى فنمت فما ايقظنى الا مس الشمس ولم أقض شيئاً ثم عرانى مرة أخرى مثل ذلك) وكان عليه السلام لا يأكل ما ذبح على النصب(١) وحرم شرب الخمر على نفسه مع شيوعه فى قومه شيوعاً عظيماً وذلك كله من الصفات التى يحلى الله بها انبياءه ليكونوا على تمام الاستعداد لتلقى وحيه فهم معصومون من الادناس قبل النبوّة وبعدها أما قبل النبوّة فليتأهلوا للامر العظيم الذى سيسند اليهم وأما بعدها فليكونوا قدوة لاممهم . عليهم من الله أفضل الصلوات واتم التسليمات .

ما أكرمه الله به قبل النبوة

اوّل منحة من الله له ما حصل من البركات على آل حليمة الذين كان مسترضعاً فيهم فقد كانوا قبل حلوله بناديهم مجد بين فلما صار بينهم صارت غنيماتهم تؤوب من مرعاها وان أضراعها لتسيل لبناً ويرحم الله البوصيرى حيث يقول فى همزيته

واذا سخر الاله أناساً * لسعيد فانهم سعداء

ثم اعقب ذلك ماحصل من شق صدره واخراج حظ الشيطان منه وليس هذا بالعجب على قدرة الله تعالى فمن استبعد ذلك كان قليل النظر لا يعرف من قوّة الله شيئاً لان خرق العادات للانبياء ليس بالامر المستحدث ولا المستغرب . ومن المكرمات الالهية تسخير الغمامة له فى سفره الى الشام حتى كانت تظله فى اليوم الصائف لا يشترك معه أحد فى القافلة كما روى ذلك ميسرة غلام خديجة الذى كان مشاركاً له فى سفره وهذا ماحببه الى خديجة حتى خطبته لنفسها وتيقنت أن له فى المستقبل شأناً ولذلك

١) هى حجارة تنصب تصب عليها دماء الذبائح وتعبد

لما جاءته النبوة كانت أسرع الناس ايماناً به ولم تنتظر آية أخرى زيادة على ما علمته من مكارم الاخلاق وما سمعته من خوارق العادات ومن منن الله عليه ما كان يسمعه من السلام عليه من الاحجار والاشجار (١) فكان اذا خرج لحاجته أبعد حتى لا يرى بناء ويفضى الى الشعاب وبطون الاودية فلا يمر بحجر ولاشجر الا سمع الصلاة والسلام عليك يا رسول الله وكان يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحداً وقد حدث بذلك عن نفسه وليس فى ذلك كبير اشكال فقد سخر الله الجمادات للانبياء قبله فعصا موسى التقمت ما صنع سحرة فرعون بعد ان تحولت حية تسعى ثم رجعت كما كانت ولما ضرب بها الحجر نبع منه الماء اثنتى عشرة عيناً لكل سبط من اسباط بنى اسرائيل عين وكذلك غيره من الانبياء سخر الله لهم ما شاء من انواع الجمادات لتدل العقلاء على عظيم قدرهم وخطارة شأنهم

تبشير التوراة به

أنزل الله التوراة على موسى محتوية على الشرائع التى تناسب أهل ذاك الزمن ونوّه فيها بذكر كثير من الانبياء الذين علم الله انه سيرسلهم فمما جاء فيها تبشيراً برسولنا الكريم خطاباً لسيدنا موسى عليه السلام (٢) (وسوف أقيم لهم نبياً مثلك من بين اخوتهم واجعل كلامى فى فمه ويكلمهم بكل شيء آمره به ومن لم يطع كلامه الذى يتكلم به باسمى فانا الذى انتقم منه فأما النبى الذى يجترىء على بالكبرياء ويتكلم باسمى بما لم آمره به أو باسم آلهة أخرى فليقتل واذا احببت ان تميز بين النبى الصادق والكاذب فهذه علامتك ان ما قاله ذلك النبى باسم الرب ولم يحدث فهو كاذب يريد تعظيم نفسه ولذلك لا تخشاه) ويقول اليهود ان هذه البشارة ليوشع بن نون خليفة موسى عليه السلام مع انهم كانوا ينتظرون فى مدة المسيح

١) السيرة الحلبية ٢) الاصحاح الثامن من سفر التثنية

نبياً آخر غير المسيح فانهم (١) أرسلوا ليوحنا المعمدان (يحيى) يسألونه عن نفسه فقالوا له أنت ايليا فقال لا فقالوا انت المسيح فقال لا فقالوا انت النبى فقال لا فقالوا ما بالك اذاً تعمد اذا كنت لست ايليا ولا المسيح ولا النبى. فهذه تدل على ان التوراة تبشر بايليا والمسيح ونبى لم يأت حتى زمن المسيح ثم ان التوراة تقول فى صفة النبى انه مثل موسى وقد نصت فى آخر سفر التثنية على انه لم يقم فى بنى اسرائيل نبى مثل موسى وورد فى هذه البشارة ان النبى الذى يفترى على الله يقتل ويشبه ذلك فى القرآن قوله تعالى فى سورة الحاقة (ولو تقوّل علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين (٢) ونبينا صلى الله عليه وسلم مكث بين اعدائه الالداء من مشركين ويهود ثلاثا وعشرين سنة يدعوهم فيها الى الله ومع ذلك عصمه الله منهم وأنزل عليه تطمينا لخاطره فى سورة المائدة (والله يعصمك من الناس) اكان يعجز الله وهو القادر على كل شىء ان يعاقب من ينسب اليه مالم يقله وهو الذى قال فى سورة الشورى (ام يقولون افترى على الله كذباً فان يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته انه عليم بذات الصدور) وقد اخبرتنا هذه البشارة عن العلامة التى نعرف بها صدق النبى من كذبه وهى الاخبار بما سيأتى وقد اخبر النبى عليه السلام عن اشياء كثيرة فحدثت كما اخبر عنها ومنها مالا ينفع معه الحدس والتخمين كالاخبار بأن الروم سيغلبون بعد ان قهرهم الفرس قهراً شديداً حتى كادوا يحتلون القسطنطينية عاصمة ملكهم فالاخبار اذاً بأن الروم سيرتدون ما فقد منهم بعد بضع سنين لايكون الا من عند الله ولذلك استغربه جداً بعض المشركين من قريش وراهن على ذلك أبا بكر الصديق رضى الله عنه وقد حقق الله الخبر فاستحق الصديق الرهن وهذا قليل من كثير سيأتيك تفصيله ان شاء الله تعالى.

---

١) الاصحاح الاول من انجيل يوحنا
٢) عرق فى القلب اذا انقطع مات صاحبه

وروى القاضي عياض في الشفاء ان عطاء بن يسار سأل عبد الله ابن عمرو بن العاص عن صفة رسول الله عليه السلام فقال أجل والله انه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن يا ايها النبي إنا ارسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولاسخاب (١) في الاسواق ولايدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بان يقولوا لا اله الا الله ويفتح به اعيناً عمياً وآذاناً صما وقلوباً غلفاً

وروى مثله عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه الذي كان رئيس اليهود فلم تعمه الرياسة حتى يترك الدين القويم وكذلك كعب الاحبار وفي بعض طرق الحديث ولا صخب في الاسواق ولا قوال للخنا أسدده لكل جميل وأهب له كل خلق كريم واجعل السكينة لباسه والبر شعاره والتقوى ضميره والحكمة مقوله والصدق والوفاء طبيعته والعفو والمعروف خلقه والعدل سيرته والحق شريعته والهدى امامه والاسلام ملته واحمد اسمه اهدى به بعد الضلالة واعلم به بعد الجهالة وارفع به بعد الخمالة واسمي به بعد النكرة واكثر به بعد القلة واغني به بعد العيلة واجمع به بعد الفرقة واؤلف به بين قلوب مختلفة واهواء متشتتة وامم متفرقة وأجعل أمته خير امة اخرجت للناس . وقد اخبر عليه السلام عن صفته في التوراة فقال وهو الصادق الامين عبدي احمد المختار مولده مكة ومهاجره بالمدينة اوقال طيبة وامته الحمادون الله على كل حال

(تبشير الانجيل)

بشر عيسى عليه السلام قومه في الانجيل بالفارقليط ومعناه قريب من محمد أو أحمد ويصدقه في القرآن قول الله تعالى في سورة الصف (واذ قال عيسى ابن مريم يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد)

١ شديد الصوت

وقد وصف المسيح هذا الفارقليط باوصاف لا تنطبق الا على نبينا فقال انه يوبّخ العالم على خطيئته وانه يعلمهم جميع الحق لانه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع وهذا ما ورد فى القرآن الكريم فى سورة النجم (وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحيٌ يوحى)وقد ورد فى انجيل برنابا الذى ظهر منذ زمن قريب واخفته حجب (١) الجهالة ذكر اسم الرسول عليه السلام صراحة

(حركة الافكار قبل البعثة)

وهذا يسهّل لك فهم الحركة العظيمة من الاحبار والرهبان قبيل البعثة فكان اليهود يستفتحون على عرب المدينة برسول منتظر فقد حدّث عاصم بن عمرو بن قتادة عن رجال من قومه قالوا انما دعانا للاسلام مع رحمة الله تعالى لنا ما كنا نسمع من احبار يهود كنا أهل شرك واصحاب أوثان وكانوا اهل كتاب عندهم علم ليس لنا وكانت لاتزال بيننا وبينهم شرور فاذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا قد تقارب زمان نبى يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرَم فكثيراً ما نسمع ذلك منهم فلما بعث الله رسوله محمداً أجبنا حين دعانا الى الله وعرفنا ما كانوا يتواعدوننا به فبادرناهم اليه فآمنا وكفروا وانما قال لهم اليهود نقتلكم معه قتل عاد وارم لان من صفته عليه السلام فى كتبهم ان هذا النبى يستأصل المشركين بالقوة ولم يكونوا يظنون ان الحسد والبغى سيتمكنانّ من افئدتهم فينبذون الدين القيّم فيحق عليهم العذاب فى الدنيا والآخرة وكان امية ابن ابى الصّلْت المتنصّر العربى كثيراً ما يقول انى لا جد فى الكتب صفة نبى يبعث فى بلادنا . وحدث سلمان الفارسى رضى الله عنه عن نفسه انه صحب قِسّيساً فكان يقول له يا سلمان ان الله سوف يبعث رسولا اسمه احمد يخرج من جبال تهامة علامته ان يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة وهذا الحديث كان من اسباب اسلام سلمان ولما راسل عليه السلام ملوك

١) ترجم الى العربية وهو الآن طبع بمصر

الارض لم يهن كتابه الا كسرى الذى ليس عنده علم من الكتاب اما جميع ملوك النصارى كالنجاشي ملك الحبشة و المقوقس ملك مصر وقيصر ملك الروم فا كرموا وفادة رسله ومنهم من آمن كالنجاشي ومنهم من ردردا لطيفاً وكاد يسلم لولا غلبة الملك كقيصر ومنهم من هادى كالمقوقس ولم يكن عليه السلام فى قوة يُرهب بها هؤلاء الملوك اللهم ماذاك الا لانهم يعلمون ان المسيح عليه السلام بشر برسول يأتى من بعده ووافقت صفات رسولنا ما عندهم فاجابوا بالتى هى احسن . أما ما سمع من الهواتف والكهّان قبيل زمنه فهو ما لا يدخل تحت حصرٍ وليس بعد ما ذكرتُه لك زيادة لمستكثر ومع ذلك كله فالاعمال التى جاد الله بها على يديه و الاقوال التى اتانا بها اعظم مقوّ لحجته ومؤيد لدعوته. وسيأتى عليك بيان ذلك كله بأجلى بيان فتأمله ترشد هداك الله الى الصراط السوى

بدء الوحى

لما بلغ عليه السلام سنّ الكمال وهو اربعون سنة ارسله الله للعالمين بشيراً ونذيراً ليخرجهم من ظلمات الجهالة الى نور العلم وكان ذلك فى اول فبراير سنة ٦١٠ من الميلاد كما اوضحه المرحوم محمود باشا الفلكي. واول مابدىء به من الوحى الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا الاجاءت مثل فلق الصبح وذلك لِما جرت به عادة الله فى خلقه من التدريج فى الامور كلها حتى تصل الى درجة الكمال ومن الصعب جداً على البشر تلقّى الوحى من الملك لاول مرة ثم حُبّب اليه عليه السلام الخَلاءُ ليبتعد عن ظلمات هذا العالم وينقطع عن الخلق الى الله فان فى العزلة صفاءَ السريرة وكان يخلو بغار (١) حراء فيتعبّد فيه الليالى ذوات العدد فتارة عشراً وتارة اكثر الى شهر وكانت عبادته على دين أبيه ابراهيم عليه السلام ويأخذ لذلك زاده فاذا فرغ رجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فبينما هو قائم فى بعض الايام على

١) جبل على مقربة من مكة

الجبل اذ ظهر له شخص وقال ابشر يامحمد أنا جبريل وأنت رسول الله الى هذه الامة ثم قال له اقرأ قال ماانا بقارئ فانه عليه السلام أمّى لم يتعلم القراءة قبلاً فاخذه فغطه بالنمط الذى كان ينام عليه حتى بلغ منه الجهد ثم ارسله فقال اقرأ فقال ما انا بقارىء فأخذه فغطه ثانية ثم ارسله فقال اقرأ قال ماانا بقارىء فاخذه فغطه الثالثة ثم ارسله فقال (اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم) فرجع بها عليه السلام يرجف فوءاده مما ألم به من الروع الذى استلزمته مقابلة الملك لاول مرة فدخل على خديجة زوجه فقال زمّلونى (١) زملونى لتزول عنه هذه القشعريرة فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة واخبرها الخبر لقد خشيت على نفسى لان الملك غطه حتى كاد يموت ولم يكن له عليه السلام علم قبل ذلك بجبريل ولا بشكله فقالت كلّا والله مايخزيك الله ابداً انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق فلا يسلط الله عليك الشياطين اوالاوهام ولا مراء ان الله اختارك لهداية قومك ولتتأكد خديجة مما ظنته أرادت ان تتثبت ممن لهم علم بحال الرسل ممن اطلعوا على كتب الاقدمين فانطلقت به حتى أتت ورقة ابن نوفل ابن عم خديجة وكان امرأ قد تنصر فى الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الانجيل بالعبرانية ماشاء الله ان يكتب وكان شيخاً كبيراً قدعمى فقالت له خديجة ياابن عم اسمع من ابن اخيك فقال يا ابن أخى ماذاترى فأخبره عليه السلام خبر مارأى فقال له ورقة هذا الناموس الذى نزل الله على موسى لانه يعرف ان رسول الله الى انبيائه هو جبريل ثم قال ياليتنى فيها جذعاً (شاباً جلداً) اذ يخرجك قومك من بلادك التى نشأت بها لمعاداتهم اياك وكراهيتهم لك حينما تطالبهم بتغيير اعتقادات وجدوا عليها آباءهم فاستغرب عليه السلام مانسب لقومه مع مايعلمه من

---

١) لفونى فى ثوب

حبهم له لاتصافه بمكارم الاخلاق وصدق القول حتى سموه الامين وقال أو مُخرجيّ هم قال لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به الا عودى. وقد نطق بذلك القرآن الكريم قال تعالى فى سورة ابراهيم (وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا) ولتمام تصديق ورقة برسالة الرسول الاكرم عليه السلام قال وان يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزّراً (معضداً) ثم لم يلبث ورقة أن توفى

فترة الوحى

وفتر الوحى مدة لم يتفق عليها المؤرخون وارجح اقوالهم فيها اربعون يوماً ليشتد شوق الرسول للوحى وقد كان، فإنّ الحال اشتدت به عليه السلام حتى صار كلما أتى ذروة جبل بدا له أن يرمى نفسه منها حذراً من قطيعة الله له بعد ان أراه نعمته الكبرى وهى اختياره لان يكون واسطة بينه وبين خلقه فيتبدّى له الملك قائلاً أنت رسول الله حقاً فيطمئن خاطره ويرجع عما عزم عليه حتى أراد الله ان يظهر للموجود نور الدين فعاد اليه الوحى

عود الوحى

فبينما هو يمشى اذ سمع صوتاً من السماء فرفع اليه بصره فاذا الملك الذى جاءه بحراء جالس بين السماء والارض فرعب منه لتذكّر مافعله فى المرة الاولى فرجع وقال دثّرونى دثرونى فانزل الله تعالى عليه (يا ايها المدثر قم فأنذر) حذّر الناس من عذاب الله ان لم يرجعوا عن غيّهم وما كان يعبد آباؤهم (وربك فكبر) خُصّه بالتعظيم ولا تشرك معه فى ذلك غيره (وثيابك فطهر) لتكون مستعداً للوقوف بين يدى الله اذ لا يليق بالمؤمن ان يكون مستقذراً نجساً (والرجز فاهجر) أى اهجر اسباب الرجز وهو العذاب بان تطيع الله وتُنفذ امره (ولا تمنن تستكثر) ولا تهب احداً هبة وانت تطمع ان تستعيض من الموهوب له أكثر مما وهبت فهذا ليس من شأن الكرام (ولربك فاصبر) على ما سيلحقك من أذى قومك حينما تدعوهم الى الله

الدعوة سرا

فقام عليه السلام بالامر ودعا لعبادة الله أقواماً جفاةً لادين لهم الا ان يسجدوا لاصنام لاتنفع ولا تضر ولا حجةلهم الا انهم متبعون لما كان يعبد آباؤهم وليس عندهم من مكارم الاخلاق الا ما كان مرتبطاً بالعزة والانفة وهو الذى كثيراًما كان سبباً فى الغارات والحروب واهراق الدماء فجاءهم رسول‌الله بما لا يعرفونه فذوو العقول السليمة بادروا الى التصديق وخلع الاوثان ومن أعمته الرياسة ادبر واستكبر كيلا تسلب منه عظمته. وكان اول من سطع عليه نور الاسلام خديجة بنت خويلد زوجه وعلى بن ابى طالب ابن‌عمه وكان مقيماً عنده يطعمه ويسقيه ويقوم بأمره لان قريشاً كانوا قد اصابهم مجاعة وكان ابو لب مُقِلّاً كثيرالاولاد فقال عليه السلام لعمه العباس بن عبد المطلب ان اخاك أبا طالب كثير العيال والناس فيما ترى من الشدة فانطلق بنا اليه لنخفف من عياله تأخذ واحداً وانا واحداً فانطلقا وعرضا عليه الامر فأخذ العباس جعفر بن ابى طالب واخذ عليه السلام علياً فكان فى كفالته كاحد اولاده الى ان جاءت النبوة وقد ناهز الاحتلام فكان تابعاللنبى فى كل اعماله ولم يتدنس بدنس الجاهلية من عبادة الاوثان واتباع الهوى واجاب ايضاً زيد بن حارثة بن شُرَحبيل الكلبى مولاه عليه السلام وكان يقال‌له زيد بن محمد لانه لما اشتراه اعتقه وتبناه وكان المتبنى معتبراً كابن حقيقى يرث ويورث واجابت ايضاً أم أيمن حاضنته التى زوجها لمولاه زيد. وأول من اجابه من غير اهل بيته ابوبكر بن ابى‌قحافة بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن‌مرة التيمى القرشى كان صديقاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل النبوة يعلم مااتصف به من مكارم الاخلاق ولم يعهد عليه كذباً منذ اصطحبا فأول ماأخبره برسالة الله أسرع بالتصديق وقال بأبى انت وامى اهل الصدق انت اشهد لن لا اله الا الله وانك رسول الله. كان رضى الله عنه صدراً معظماً فى قريش على سعة من المال وكرم الاخلاق وكان من اعف الناس

سخياً يبذل المال محبباً فى قومه حسن المجالسة ولذلك كله كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنزلة الوزير فكان يستشيره فى أموره كلها وقال فى حقه (ما دعوت احداً الى الاسلام الا كانت له كبوة غير أبى بكر) وكانت الدعوة الى الاسلام سراً حذراً من مفاجأة العرب بأمر شديد كهذا فيصعب استسلامهم فكان عليه السلام لايدعو الا من يثق به ودعا ابو بكر الى الاسلام من يثق به من رجال قريش فاجابه جمع (منهم) عثمان بن عفان بن ابى العاص بن امية بن عبد شمس بن عبدمناف الاموى القرشى ولما علم عمه الحكم باسلامه اوثقه كتافاً وقال ترغب عن دين آبائك الى دين مستحدث والله لا أحلك حتى تدع ما انت عليه فقال عثمان والله لا ادعه ولا افارقه فلما رأى الحكم صلابته فى الحق تركه وكان شاباً لا يتجاوز العشرين من عمره (ومنهم) الزبير بن العوام ابن خويلد بن اسد بن عبد العزى بن قصى القرشى وامه صفية بنت عبد المطلب وكان عم الزبير يرسل الدخان عليه وهو مقيد ليرجع الى دين آبائه فقواه الله بالثبات وكان شاباً لا يتجاوز سن الاحتلام (ومنهم) عبدالرحمن ابن عوف بن عبد عوف بن عبد الحارث بن زهرة بن كلاب الزهرى القرشى وكان اسمه فى الجاهلية عبد عمرو فسماه عليه السلام عبدالرحمن (ومنهم) سعد بن ابى وقاص مالك بن أهيب بن عبدمناف بن زهرة بن كلاب الزهرى القرشى ولما علمت امه حمنة بنت ابى سفيان بن أمية باسلامه قالت له ياسعد بلغنى انك قد صبأت فوالله لايظلنى سقف من الحر والبرد وان الطعام والشراب علىّ حرام حتى تكفر بمحمد وبقيت كذلك ثلاثة ايام فجاء سعد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكا اليه أمر امه فنزل فى ذلك تعليما قول الله تعالى فى سورة العنكبوت (ووصينا الانسان بوالديه حسناً وان جاهداك على ان تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما الىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) وصاه جل ذكره بوالديه وأمره بالاحسان اليهما مؤمنين كانا او كافرين اما اذا دعواه للاشراك فالمعصية متحتمة لان كل حق وان عظم

ساقط هنا فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ثم قال الىّ مرجعكم من آمن منكم ومن اشرك فاجازيكم حق جزائكم وفى ختام هذه الآية فائدتان التنبيهُ على ان الجزاء الى الله فلا تحدّث نفسُك بجفوتهمّا لاشراكهما والحضّ على الثبات فى الدين لئلا ينال شرَّ جزاء فى الاخرى (ومنهم) طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة التيمى القرشى وقد كان عرف من الرهبان ذكر الرسول وصفته فلما دعاه ابو بكر وسمع من رسول الله ما نفعه الله به ورأى الدين متيناً بعيداً عما عليه العرب من المثالب بادر الى الاسلام (وممن) سبقوا الى الاسلام صهيب الرومى وكان من الموالى وعمار بن ياسر العنسى وقد قال رضى الله عنه رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومامعه الاخمسة أعبد وامرأتان وابو بكر وكذلك اسلم ابوه ياسر وامه سُمَيَّة (ومن) السابقين الاولين عبد الله بن مسعود كان يرعى الغنم لبعض مشركى قريش فلما رأى الآيات الباهرة وما يدعو اليه عليه السلام من مكارم الاخلاق ترك عبادة الاوثان ولزم رسول الله وكان رضى الله عنه كثير الدخول على الرسول لايحجب ويمشى امامه ويستره اذا اغتسل ويوقظه اذا نام ويلبسه نعليه اذا قام فاذا جلس ادخلهما فى ذراعيه (ومن) السابقين الاولين ابو ذرّ الغفارى وكان من اعراب البادية فصيحاً حلو الحديث ولما بلغه مبعث رسول الله قال لاخيه اركب الى هذا الوادى فاعلم لى علم هذا الرجل الذى يزعم انه نبى يأتيه الخبر من السماء واسمع من قوله ثم أئتنى فانطلق الاخ حتى قدم مكة وسمع من قول الرسول ثم رجع الى ابى ذر فقال رايته يأمر بمكارم الاخلاق ويقول كلاماً ما هو بالشعر فقال ما شفيتنى مما أردتُ فتزود وحمل قربة له فيها ماء حتى قدم مكة فاتى المسجد فالتمس النبى صلى الله عليه وسلم ولايعرفه وكره ان يسأل عنه لما يعرفه من كراهة قريش لكل من يخاطب رسول الله حتى اذا ادركه الليل رآه علىّ فعرف انه غريب فأضافه عنده ولم يسأل احد منهما صاحبه عن شىء (على قاعدة الضيافة عند العرب لايسأل الضيف عن سبب قدومه الا بعد ثلاث) فلما

اصبح احتمل قربته وزاده الى المسجد وظل ذلك اليوم ولايراه الرسول حتى امسى فعاد الى مضجعه فمربه على فقال امانال للرجل ان يعرف منزله الذى اضيف به بالامس فاقامه فذهب معه لايسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى اذا كان اليوم الثالث عاد على مثل ذلك ثم قال له على الاتحدثني ماالذى اقدمك قال ان اعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني فعلت ففعل فاخبره قال فانه حق وهو رسول الله فاذا اصبحت فاتبعني فاني ان رأيت شيأ اخافه عليك قمت كأني اريق الماء فان مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي ففعل فانطلق يتبع اثره حتى دخل على النبي ودخل معه فسمع من قوله واسلم مكانه فقال له النبي ارجع الى قومك فأخبرهم حتى يأتيك امرى قال والذى نفسي بيده لاصرخنّ بها بين ظهرانيهم فخرج حتى اتى المسجد فنادى باعلى صوته أشهد ان لااله الا الله وان محمداً رسول الله فقام القوم فضربوه حتى اضجعوه واتى العباس فأكب عليه وقال ويلكم اولستم تعلمون انه من غفار وان طريق تجارتكم الى الشام عليه فانقذه منهم ثم عاد من الغد لمثلها فضربوه وثاروا اليه فأكب العباس عليه (رواه البخارى) كان رضى الله عنه من اصدق الناس قولا وازهدهم فى الدنيا (ومن) السابقين سعيد بن زيد العدوى القرشي وزوجه فاطمة بنت الخطاب اخت عمر وام الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية زوج العباس بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم ابن عم رسول الله صلى الله وسلم وابو سلمة عبد الله بن عبد الاسد المخزومى القرشي ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجه ام سلمة وعثمان بن مظعون الجمحي القرشي واخواه قدامة وعبدالله والارقم ابن ابى الارقم المخزومى القرشي (ومن) السابقين الاوّلين خالد بن سعيد ابن العاص بن امية بن عبدالشمس الاموى القرشي. كان ابوه سيد قريش اذا اعتمّ لم يعتم قرشي اجلالا له وكان خالد قد رأى فى منامه انه سيقع فى هاوية فأدركه رسول الله وخلصه منها فجاء اليه وقال إلامَ تدعو يامحمد

قال ادعوك الى عبادة الله وحده لاشريك له وان تخلع ما انت عليه من عبادة حجر لايسمع ولايبصر ولايضر ولاينفع والاحسانِ الى والديك وان لاتقتل ولدك خشية الفقر وان لا تقرب الفاحشة ماظهر منها ومابطن وان لاتقتل نفساً حرم الله قتلها الا بالحق وان لا تقرب مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشدّه وان توفى الكيل والميزان بالقسط وان تعدل فى قولك ولو حكمت على ذوى قرباك وان توفى لمن عاهدت فأسلم رضى الله عنه وحينئذ غضب عليه ابوه و آذاه حتى منعه القوت فانصرف الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يلزمه ويعيش معه ويغيب عن ابيه فى ضواحى مكة واسلم بعده اخوه عمرو بن سعيد . وهكذا دخل هؤلاء الاشراف فى دين الاسلام ولم يكن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سيف يضرب به اعناقهم حتى يطيعوه صاغرين وليس معه ما يرغب فيه حتى يترك هؤلاء العظماء آباءهم وذوى الثروة منهم فيتبعوا الرسول ليأكلوا من فضل ماله بل كان الكثير منهم واسع الثروة أكثر منه عليه السلام كابى بكر وعثمان وخالد بن سعيد وغيرهم والذين اتبعوه من الموالى اختاروا الاذى والجوع والمشقات معاتباع الرسول بحيث لو اتبعوا ساداتهم لكانوا فى هذه الدنيا أهدأ بالاً وانعم عيشة اللهم ليس ذلك الا من هداية الله وسطوع انوار الدين عليهم حتى ادركوا ما هم عليه من الضلالة وما عليه رسول الله من الهدى

(الجهر بالتبليغ)

مضت كل هذه المدة والنبى عليه السلام لا يظهر الدعوة فى مجامع قريش العمومية ولم يكن المسلمون يتمكنون من اظهار عبادتهم حذراً من تعصب قريش فكان كل من اراد العبادة ذهب الى شعاب مكة يصلى مستخفياً . ولما دخل فى الدين ما يربو على الثلاثين وكان من اللازم اجتماع الرسول بهم ليرشدهم ويعلمهم اختار لذلك دار الارقم بن أبى

الارقم وهو ممن ذكرنا اسلامهم ومكث عليه السلام يدعو سراً حتى نزل عليه قوله تعالى فى سورة الحجر (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) فبدل الدعوة سراً بالدعوة جهراً ممتثلاًأمر ربه واثقابوعده ونصره فصعد على الصفا فجعل ينادى يابنى فهر يابنى عدى لبطون قريش فجعل الرجل اذا لم يستطع ان يخرج أرسل رسولا لينظر الخبر فجاء أبو لهب بن عبد المطلب وقريش فقال عليه السلام أرأيتم لو اخبرتكم ان خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم اكنتم مصدقىَّ قالوا نعم ما جربنا عليك كذباً قال فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد فقال أبو لهب تباً لك ألهذا جمعتنا فانزل الله فى شأنه (تبت يدا ابى لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب وأمرأته حمالة الحطب فى جيدها حبلٌ من مسد) والقصد من حمل الحطب المشى بالنميمة لانها كانت تقول على رسول الله الاكاذيب فى نوادى النساء ثم نزل عليه فى سورة الشعراء(وأنذر عشيرتك الاقربين)وهم بنو هاشم و بنو المطلب و بنو نوفل و بنو عبدشمس أولاد عبدمناف (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فان عصوك) أى العشيرة الاقربون (فقل انى برىء مما تعملون) فجمعهم عليه السلام وقال لهم ان الرائد لا يكذب أهله والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم والله الذى لا اله الا هو انى لرسول الله اليكم خاصة والى الناس كافة والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون ولتجزون بالاحسان احساناً وبالسوء سوءاً وانها لجنة أبداً أولنار أبداً فتكلم القوم كلاماً ليناً غير عمه ابى لهب الذى كان خصماً لدوداً فانه قال خذوا على يديه قبل ان تجتمع عليه العرب فان اسلمتموه اذاً ذللتم وان منعتموه قتلتم فقال أبو طالب والله لنمنعنه مابقينا ثم انصرف الجمع

ولما جهر رسول الله عليه الصلاة والسلام بالدعوة سخرت منه قريش واستهزؤا به فى مجالسهم فكان اذا مر عليهم يقولون هذا ابن ابى كبشة

يكلم من السماء وهذا غلام عبد المطلب يكلم من السماء لايزيدون على ذلك فلما عاب آلهتهم وسفّه عقولهم وقال لهم والله ياقوم لقد خالفتم دين أبيكم ابراهيم ثارت فى رؤسهم حمية الجاهلية غيرةً على تلك الآلهة التى كان يعبدها آباؤهم فذهبوا الى عمه أبى طالب سيد بنى هاشم الذى أخذ على نفسه حمايته من أيدى أعدائه فطلبوا منه أن يخلى بينهم وبينه أو يكفه عما يقول فردهم رداً جميلا فانصرفوا عنه ومضى رسول الله لما يريده لا يصدّه عن مراده شىء فتزايد الامر واضمرت قريش الحقد والعداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحث بعضهم بعضاً على ذلك ثم مشوا الى أبى طالب مرة اخرى وقالوا له ان لك سناً وشرفاً ومنزلة منا وانا قد طلبنا منك أن تنهى ابن أخيك فلم تنهه عنا وانا والله لانصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه عقولنا وعيب آلهتنا فانهم كانوا اذا احتجوا فى استمرارهم على عدم اتباع الحق ذمهم لعدم استعمال عقولهم فيما خلقت له قال تعالى فى سورة البقرة (واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولا يهتدون) وقال فى سورة المائدة (واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لايعلمون شيئاً ولا يهتدون) وقال فى سورة لقمان (واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير) وقال فى سورة الزخرف فى بيان حجتهم الداحضة (بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون) ولما شبههم بمن قبلهم من الامم فى هذه المقالة الدالة على التعصب والعناد قال (قل أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا انا بما ارسلتم به كافرون) فلما تمسكوا بحجة التقليد لآبائهم جر ذلك الى وصف آبائهم بعدم العقل وعدم الهداية فهاج ذلك أضغانهم وقالوا لابى طالب اما ان تكفه أو ننازله واياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين ثم انصرفوا فعظم على ابى طالب فراق قومه ولم يطب نفساً

بخذلان ابن اخيه فقال يا ابن‌اخي ان القوم جاؤني فقالوا لي كذا فأبق على نفسك ولا تحملني من الامر مالا اطيق فظن الرسول ان عمه خاذله فقال والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الامر مافعلت حتى يظهره الله او اهلك دونه ثم بكى وولى فقال ابو طالب اقبل يا ابن اخي فأقبل عليه فقال اذهب فقل ما احببت والله لا اسلمك

الايذاء

ورای رسول الله من المشركين كثير الاذى وعظيم الشدة خصوصا اذا ذهب الى الصلاة عند البيت وكان من اعظمهم اذى لرسول الله جماعة سموا لكثرة أذاهم بالمستهزئين (فأولهم) واشدهم ابو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي قال يوماً يا معشر قريش ان محمداً قد أتى ما ترون من عيب دينكم وشتم آلهتكم وتسفيه احلامكم وسب آبائكم اني اعاهد الله لاجلسن له غداً بحجر لااطيق حمله فاذا سجد في صلاته رضخت[٢] به راسه فاسلموني عند ذلك او امنعوني فليصنع بي بعد ذلك بنو عبدمناف ما بدا لهم فلما اصبح اخذ حجراً كماوصف ثم جلس لرسول الله ينتظره وغدا عليه السلام كما كان يغدو الى صلاته وقريش في انديتهم[٣] ينتظرون ما ابو جهل فاعل فلما سجد عليه السلام احتمل ابو جهل الحجر ثم اقبل نحوه حتى اذا دنا منه رجع منهزماً[٤] منتقعاً[٥] لونه من الفزع ورمى حجره من يده فقام اليه رجال من قريش فقالوا مالك يا ابا الحكم قال قمت اليه لافعل ما قلت لكم فلما دنوت منه عرض لي فحل[١] من الابل والله ما رأيت مثله قط همّ بي ان يأكلني فلما ذكر ذلك لرسول الله قال ذاك جبريل ولو دنا لاخذه وكان ابو جهل كثيراً ماينهى الرسول عن صلاته في البيت فقال له مرة بعد ان رآه يصلي ألم انهك عن هذا فأغلظ له رسول الله القول وهدده فقال اتهددني وانا اكثر اهل الوادي نادياً فأنزل الله تهديداً له في آخر سورة اقرأ (كلا

لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية ناصية كاذبة خاطئة فاليدع ناديه سندع الزبانية كلا لاتطعه واسجد واقترب) ومن اذيته للرسول ما حكاه عبد الله بن مسعود من رواية البخارى قال كنا مع رسول الله فى المسجد وهو يصلى فقال أبو جهل الا رجل يقوم الى فَرْث جزور بنى فلان فيلقيه على محمد وهو ساجد فقام عقبة بن ابى مُعَيْط بن ابى عمرو بن أمية بن عبد شمس وجاء بذلك الفرث فالقاه على النبى صلى الله عليه وسلم وهو ساجد فلم يقدر احد من المسلمين الذين كانوا بالمسجد على القائه عنه لضعفهم عن مقاومة عدوهم ولم يزل عليه السلام ساجداً حتى جاءت فاطمة بنته فاخذت القذر ورمته فلما قام دعا على من صنع هذا الصنع القبيح فقال اللهم عليك الملأ من قريش وسمى اقواماً قال ابن مسعود فرأيتهم قتلوا يوم بدر. ومما حصل لرسول الله مع أبى جهل ان هذا ابتاع اجمالاً من رجل يقال له الأراشى فمطله باثمانها فجاء الرجل مجمع قريش يريد منهم مساعدة على اخذ ماله فدلوه على رسول الله لينصفه من أبى جهل استهزاء لما يعلمونه من افعال ذاك الشقى بالرسول فتوجه الرجل اليه وطلب منه المساعدة على أبى جهل فخرج معه حتى ضرب عليه بابه فقال من هذا قال محمد فخرج منتقعاً لونه فقال له الرسول أعط هذا حقه فقال ابو جهل لاتبرح حتى تأخذه فلم يبرح الرجل حتى أخذ دينه فقالت قريش ويلك يا أبا الحكم مارأينا مثل ما صنعت قال ويلكم والله ما هو الا ان ضرب على بابى حتى سمعت صوتاً مُلئت منه رعباً وان فوق رأسى فحلاً من الابل ما رأيت مثله (ومن جماعة المستهزئين) ابو لهب بن عبد المطلب عم رسول الله كان اشد عليه من الاباعد فكان يرمى القذر على بابه لانه كان جاراً له فكان الرسول يطرحه ويقول يا بنى عبد مناف اىّ جوار هذا وكانت تشاركه فى قبيح عمله زوجه ام جميل بنت حرب بن امية فكانت كثيراً ما تسب رسول الله

وتتكلم فيه بالنمائم وخصوصاً بعد ان نزل فيها وفى زوجها سورة ابى لهب
(ومن) المستهزئين عقبة بن أبى معيط كان الجار الثانى لرسول الله
وكان يعمل معه كأبى لهب صنع مرة وليمة ودعا لها كبراء قريش وفيهم
رسول الله فقال عليه السلام والله لا آكل طعامك حتى تؤمن بالله فتشهد
فبلغ ذلك أبىّ بن خلف الجمحى القرشى وكان صديقاً له فقال ما شىء بلغنى
عنك قال لا شىء دخل منزلى رجل شريف فابى ان يأكل طعامى حتى
اشهد له فاستحييت ان يخرج من بيتى ولم يطعم فشهدت له قال أُبىّ
وجهى من وجهك حرام ان لقيت محمداً فلم تطأ عنقه وتبزق فى وجهه
وتلطم عينه فلما رأى عقبة رسول الله فعل به ذلك فأنزل الله فيه فى سورة
الفرقان (ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول
سبيلاً يا ويلتى ليتنى لم اتخذ فلاناً خليلاً لقد أضلنى عن الذكر بعد اذجاءنى
وكان الشيطان للانسان خذولاً) ومن اشد ما صنعه ذلك الشقى برسول الله
ما رواه البخارى فى صحيحه قال بينما النبى يصلى فى حجر الكعبة اذ
أقبل عقبة بن ابى معيط فوضع ثوبه فى عنق رسول الله فخنقه خنقاً شديداً
فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبى صلى الله عليه وسلم وقال
(أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم) (ومن)
جماعة المستهزئين العاصى بن وائل السهمى القرشى والد عمرو بن العاص
كان شديد العداوة لرسول الله وكان يقول غرّ محمد اصحابه أن
يحيوا بعد الموت والله ما يهلكنا الا الدهر فقال الله رداً عليه فى دعواه فى
سورة الجاثية (وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا
الدهر مالهم بذلك من علم ان هم الا يظنون) وكان عليه دين لخباب
ابن الارت احد رجال المسلمين فتقاضاه اياه فقال العاصى أليس يزعم
محمد هذا الذى أنت على دينه ان فى الجنة ما يبتغى أهلها من ذهب أوفضة

او ثياب اوخدم قال خباب بلي قال فانظرني الى هذا اليوم فساوني مالاً وولداً واقضيك دينك فانزل الله فيه في سورة مريم (افرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لاوتين مالاً وولداً أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مداً ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً)

(ومن) جماعة المستهزئين الاسود بن عبد يغوث الزهري القرشي من بني زهرة اخوال رسول الله كان اذا رأى اصحاب النبي مقبلين يقول قد جاءكم ملوك الارض استهزاء بهم لانهم كانوا متقشفين ثيابهم رثة وعيشهم خشن وكان يقول لرسول الله سخرية اما كلمت اليوم من السماء (ومنهم) الاسود بن المطلب الاسدي ابن عم خديجة كان هو وشيعته اذا مر عليهم المسلمون يتغامزون وفيهم نزل في سورة التطفيف (ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون واذا مروا بهم يتغامزون واذا انقلبوا الى اهلهم انقلبوا فكهين واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون)

(ومنهم) الوليد بن المغيرة عم ابي جهل كان من عظماء قريش وفي سعة من العيش سمع القرآن مرة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لقومه بني مخزوم والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن وان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان اعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق وانه يعلو وما يعلى فقالت قريش صبأ والله الوليد لتصبأن قريش كلها فقال ابو جهل انا اكفيكموه فتوجه وقعد اليه حزيناً وكلمه بما احماه فقام فأتاهم فقال تزعمون ان محمداً مجنون فهل رأيتموه يهوس وتقولون انه كاهن فهل رأيتموه يتكهن وتزعمون انه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط وتزعمون انه كذاب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب فقالوا في كل ذلك اللهم لا ثم قالوا فما هو ففكر قليلاً ثم قال ما هو الا ساحر اما رأيتموه يفرق بين الرجل واهله وولده ومواليه فارتج النادي فرحاً فانزل الله في شأن الوليد في سورة المدثر مخاطباً

لرسوله(ذرنى ومن خلقت وحيداً.وجعلت له مالاً ممدوداً.وبنين شهوداً.
ومهدت له تمهيدا.ثم يطمع ان ازيد.كلا انه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعوداً
انه فكر وقدّر.فقتل كيف قدّر.ثم قتل كيف قدر.ثم نظر ثم عبس وبسر. ثم ادبر
واستكبر فقال ان هذا الاسحر يوثر.ان هذا الاقول البشر. سأصليه سقر)
وانزل فيه ايضاً فى سورة ن(ولا تطع كل حلّاف) كثير الحلف وكفى بهذا زاجراً لمن
اعتاد الحلف(مهين)حقير واراد به الكذاب لانه حقير فى نفسه(هماز) عياب
طعان (مشاء بنميم) ينقل الاحاديث للافساد بين الناس (مناع للخير معتد أثيم.
عتلّ) غليظ جاف (بعد ذلك زنيم) دخيل (ان كان ذامال وبنين-اذا تتلى
عليه آياتنا قال اساطير الاولين. سنسمه على الخرطوم) كناية عن الاذلال
والتحقير لان الوجه اكرم عضو والانف اشرف مافيه ولذلك اشتقوا
منه كل مايدل على العظمة كالانفة وهى الحمية فالوسم على اشرف عضو
دليل الاذلال والاهانة (ومن) المستهزئين النضر بن الحارث العبدرى
من بنى عبدالدار بن قصى كان اذا جلس رسول الله مجلساً للناس يحدثهم
ويذكرهم مااصاب من قبلهم قال النضر هلموا يامعشر قريش فانى احسن
منه حديثا ثم يحدث عن ملوك فارس وكان يعلم احاديثهم ويقول ما
احاديث محمد الّا اساطير الاولين وفيه نزل فى سورة لقمان (ومن الناس
من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً
اولئك لهم عذاب مهين . واذا تتلى عليه آياتنا ولّى مستكبراً كأن لم يسمعها
كأنّ فى اذنيه وقراً فبشره بعذاب أليم) وكل هؤلاء انتقم الله منهم كما قال
تعالى فى التنزيل فى سورة الحجر (انا كفيناك المستهزئين. الذين يجعلون
مع الله الهاً آخر فسوف يعلمون) وقد وضع الله جل ذكره الوعد فى
صورة الماضى للتحقق من وقوعه لان الآية مكية وهلاك هذه الفئة كان
بعد الهجرة فمنهم من قتل كأبى جهل والنضر بن الحارث وعقبة بن ابى

معيط ومنهم من ابتلاه الله بأمراض شديدة فهلك منها كأبى لهب والعاص بن وائل والوليد بن المغيرة.

اسلام حمزة

وكان بعض ايذائهم هذا سبباً لاسلام عمه حمزة بن عبد المطلب فقد ادركته الحمية عند ما عيرته[١] بعض الجوارى بايذاء ابى جهل لابن أخيه فتوجه الى ذلك الشقى وغاضبه وسبه وقال كيف تسب محمداً وانا على دينه ثم انار الله بصيرته بنور اليقين حتى صار من احسن الناس اسلاما وأشدهم غيرة على المسلمين واقواهم شكيمة[٢] على اعداء الدين حتى سمى اسد الله

وكما أوذى الرسول عليه الصلاة والسلام اوذى اصحابه لاتباعهم له وخصوصاً من ليس له عشيرة تحميه وترد كيد عدوه عنه وكل هذا الاذى كان حلواً فى اعينهم ما دام فيه رضا الله فلم يُفتَنوا عن دينهم بل ثبتهم الله حتى أتم أمره على أيديهم وصاروا ملوك الارض بعد أن كانوا مستضعفين فيها كما قال جل ذكره فى سورة القصص (ونريد أن نَمُنَّ على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) وقد حقق ما أراد (ومن) الذين أوذوا فى الله بلال بن رباح كان مملوكاً لامية بن خلف الجمحى القرشى فكان يجعل فى عنقه حبلاً ويدفعه الى الصبيان يلعبون به وهو يقول أحدٌ أحدٌ لم يشغله ما هو فيه عن توحيد الله وكان أمية يخرج به فى وقت الظهيرة فى الرَّمضاء وهى الرمل الشديد الحرارة لو وضعت عليه قطعة لحم لنضجت ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له لا تزال هكذا حتى تموت او تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى فيقول أحدٌ أحدٌ. مر به أبو بكر يوماً فقال يا أمية أما تتقى الله فى هذا المسكين حتى متى تعذبه قال انت افسدته فانقذه مما ترى فاشتراه منه واعتقه فأنزل الله فيه وفى أمية فى سورة الليل (فأنذرتكم

ناراً تلظى . لايصلاها الاالاشقى) امية بن خلف (الذى كذب وتولى . وسيجنبها الاتقى) الصديق (الذى يؤتى ماله يتزكى وما لاحد عنده من نعمة تجزى . الاابتغاء وجه ربه الاعلى . ولسوف يرضى) بما يعطيه الله فى الاخرى جزاءً أعماله . وقد نبه الله جل ذكره على أن بذل الصديق ماله فى شراء بلال وعتقه لم يكن الا ابتغاء وجه ربه وكفى بهذا اشرفاً وفضلاً للصديق رضى الله عنه وأرضاه وقد أعتق غير بلال جماعة من الأرقّاء أسلموا فعاقبهم مواليهم (منهم) حمامة أمّ بلال وعامر بن فهيرة كان يعذب حتى لايدرى مايقول وأبو فكيهة كان عبداً لصفوان بن أمية بن خلف (ومنهم) امرأة تسمى زنيرة عذبت فى الله حتى عميت فلم يزدها ذلك الا ايماناً وكان أبو جهل يقول ألا تعجبون لهؤلاء وأتباعهم لو كان ماأتى به محمد خيراً ما سبقونا اليه أفتسبقنا زنيرة الى رشد فأنزل الله فى سورة الاحقاف (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا اليه واذلم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم) (وممن) أعتق أبو بكر بعد شرائه أمّ عنيس كانت أمة لبنى زهرة وكان يعذبها الاسود بن عبد يغوث (وممن) عذب فى الله عمار بن ياسر وأخوه وأبوه وأمه كانوا يعذبون بالنار فمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صبراً آل ياسر فموعدكم الجنة اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت أما أبو عمار وأمه فماتا تحت العذاب رحمهما الله وأما هو فثقل عليه العذاب فقال بلسانه كلمة الكفر فان ابا جهل كان يجعل له دروع الحديد فى اليوم الصائف ويلبسه اياها فقال المسلمون كفر عمار فقال عليه السلام عمار ملى ايماناً من فرقه الى قدمه وأنزل الله فى شأنه استثناء فى حكم المرتد فقال جل ذكره فى سورة النحل (من كفر بالله من بعد ايمانه الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضبٌ من الله ولهم عذابٌ عظيم) (وممن) أوذى فى الله خباب بن الارتّ سُبى فى الجاهلية فاشترته أم انمار وكان حداداً

وكان النبى يألفه قبل النبوّة فلما شرفه الله بها أسلم خباب فكانت مولاته تعذبه بالنار فتأتى بالحديدة المحماة فتجعلها على ظهره ليكفر فلا يزيده ذلك الا ايماناً وجاء خباب مرة الى رسول الله ﷺ وهو متوسد برده في ظل الكعبة فقال يارسول الله الا تدعو الله لنا فقعد عليه السلام محمراً وجهه فقال انه كان من قبلكم ليمشط احدهم بأمشاط الحديد مادون عظمه من لحم وعصب ويوضع المنشار على فرق رأس أحدهم فيشق مايصرفه ذلك عن دينه وليظهرن الله تعالى هذا الامر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لايخاف الا الله والذئب على غنمه قال ذلك عليه السلام وهو فى هذه الحال الشديدة التي لايتصور فيها اعقل العقلاء وانبل النبلاء قوّة منتظرة اوسعادة مستقبلة اللهم الا أن ذلك وحي يوحى اليه ثم انزل الله تعالى تثبيتاً للمؤمنين اول سورة العنكبوت (الم أحسب الناس أن يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لايفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) (وممن) أوذي فى الله أبو بكر الصديق ولما اشتد عليه الاذى أجمع أمره على الهجرة من مكة الى جهة الحبشة فخرج حتى أتى برك الغماد (١) فلقيه ابن الدغنة وهو سيد قبيلة عظيمة اسمها القارة فقال الى أين يا أبا بكر فقال أخرجني قومى فأريد أن أسيح فى الارض وأعبد ربى فقال ابن الدغنة مثلك يا أبابكر لايخرج انك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق فأنا لك جار وارجع واعبد ربك ببلدك فرجع وارتحل ابن الدغنة معه وطاف فى أشراف قريش فقال لهم أبو بكر لايخرَج مثله أتخرجون رجلا يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقرى الضيف ويعين على نوائب الحق فلم تكذب

---

١) موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلى البحر وقيل موضع فى اقصى اراضى هجر اه من ياقوت

قريش بجوار ابن الدغنة وقالوا له مر أبا بكر فليعبد ربه في داره فليصل فيها ماشاء وليقرأ ماشاء ولايؤذينا بذلك ولا يستعلن فانا نخشى أن يفتن نساءناوابناءنافقال ذلك ابن الدغنة لابي بكر فلبث بذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره ثم بدا لابي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون اليه وكان رجلاً بكاء لا يملك عينيه اذا قرأ القرآن فأفزع ذلك أشراف قريش فأرسلوا الى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا انا كنا قد أجرنا ابابكر بجوارك على ان يعبد ربه في داره فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه وانا قد خشينا ان يفتن نساءناوابناءنا فان احب ان يقتصر على ان يعبد ربه بفناء داره فعل وان ابى الا ان يعلن ذلك فسله ان يرد اليك ذمتك. فانا قد كرهنا ان نخفرك ولسنا مقرين لابي بكر الاستعلان فأتى ابن الدغنة ابا بكر فقال قد علمت الذي عاقدت لك عليه فاما ان تقتصر على ذلك واما ان ترجع الى ذمتي فاني لا أحب ان تسمع العرب اني أخفرت في رجل عقدت له فقال ابو بكر فاني ارد عليك جوارك وارضى بجوار الله (رواه البخاري) وكان ذلك سببا لايصال اذى عظيم الى ابي بكر رضى الله عنه . وبالجملة فلم يخل احد من المسلمين من اذية لحقته ولكن كل ذلك ضاع سدى تلقاء ثباتهم وعظيم ايمانهم فانهم لم يسلموا لغرض دنيوي يرجون حصوله فيسهل ارجاعهم ولكن وفقهم الله لادراك حقيقة الايمان فراوا كل شي دونه سهلاً

ولما راى كفار قريش ان ذلك الاذى لم يجدهم نفعاً بل كلما زادوا المسلمين اذى ازداد يقينهم اجتمعوا للشورا فيما بينهم فقال لهم عتبة بن ربيعة العبشمي من بني عبد شمس بن عبد مناف وكان سيداً مطاعاً في قومه يامعشر قريش الا اقوم لمحمد فأكلمه واعرض عليه اموراً عله

يقبل بعضها فنعطيه اياها ويكف عنافقالوا ياأبا الوليد فقم اليه فكلمه فذهب الى رسول الله وهو يصلي في المسجد وقال ياابن اخى انك منا حيث قد علمت من خيارنا حسباً ونسباً وانك قداتيت قومك بأمر عظيم فرّقت به جماعتهم وسفهت أحلامهم وعِبت آلهتهم ودينهم وكفرت من مضى من آبائهم فاسمع منى اعرض عليك اموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها فقال عليه السلام قل يا ابا الوليد أسمع فقال ياابن اخى ان كنت انما تريد بما جئت به من هذا الامر مالا جمعنا لك من اموالنا حتى تكون اكثرنا مالاً وان كنت تريد شرفاً سوّدناك علينا حتى لانقطع امراً دونك وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا وان كان هذا الذى يأتيك رئيٌ من الجن لاتستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه اموالنا حتى نبرّئك منه فانه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى فقال عليه السلام لقد فرغت يا اباالوليد قال نعم قال فاسمع منى فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم اول سورة فصلت

(بسم الله الرحمن الرحيم حٓم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيراً ونذيراً فأعرض اكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا قلوبنا فى اكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى أنما الهكم اله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه وويل للمشركين. الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون . ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم اجرٌ غير ممنون قل ائنكم لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين وتجعلون له انداداً ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها اقواتها فى اربعة ايام سواءً للسائلين. ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعاً اوكرهاً قالتا اتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات فى يومين واوحى فى كل سماءٍ امرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم. فان

اعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود اذ جائتهم الرسل من بين ايديهم ومن خلفهم الاّ تعبدوا الاالله قالوا لو شاء ربنا لانزل ملائكة فانا بما ارسلتم به كافرون) فأمسك عتبة بفيه وناشده الرحم ان يكف عن ذلك فلما رجع عتبة سالوه فقال والله لقد سمعت قولا ماسمعت مثله قط والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسحر يا معشر قريش اطيعوني فاجعلوها لي خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لكلامه الذي سمعت نبأ فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وان يظهر على العرب فعزه عزكم فقالوا لقد سحرك محمد فقال هذا رايي (ثم) عرضوا عليه بعد ذلك أن يشاركهم في عبادتهم ويشاركونه في عبادته فانزل الله في ذلك (قل يا ايها الكافرون لا اعبد ما تعبدون . ولا انتم عابدون ما اعبد . ولا انا عابد ما عبدتم . ولا انتم عابدون ما اعبد . لكم دينكم ولي دين) فلا تتوهموا اني اجيبكم لطلبكم من الاشراك بالله فأيسوا منه وطلبوا بعد ذلك ان ينزع من القرآن ما يغيظهم من ذم الاوثان والوعيد الشديد فيأتي بقرآن غيره او يبدله فأنزل الله جواباً لهم في سورة يونس (قل ما يكون لي ان ابدله من تلقاء نفسي ان اتبع الا ما يوحى الي) . وقد حصل له مع كفار قريش نادرة تكون لمن استهان بالضعيف كمصباح يستضىء به وهي انه بينما الرسول عليه السلام مع كبراء قريش واشرافهم يتألفهم ويعرض عليهم القرآن وما جاء به من الدين اذ اقبل عليه عبدالله بن ام مكتوم الاعمى وهو ممن اسلموا قديماً والنبي مشتغل بالقوم وقد لقي منهم مؤانسة حتى طمع في اسلامهم فقال له عبد الله يا رسول الله علمني مما علمك الله واكثر عليه القول فشق ذلك على الرسول وكره قطعه لكلامه وخاف عليه السلام ان يكون التفاته لذلك المسكين ينفر عنه قلب اولئك الاشراف فأعرض عنه فعاتبه الله على ذلك بقوله اول سورة عبس (عبس وتولى ان جاءه الاعمى

وما يدريك لعله يزكى او يذكر فتنفعه الذكرى . اما من استغنى . فأنت له تصدّى . وما عليك الا يزكى . وأما من جائك يسعى . وهو يخشى . فأنت عنه تلهى) فما عبس رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها فى وجه فقير وكان اذا اقبل عليه عبد الله بن ام مكتوم يقول له مرحباً بمن عاتبنى فيه ربى

ولما راى المشركون ان هذه المطالب التى يعرضونها لاتقبل منهم ارادوا ان يدخلوا من باب آخر وهو تعجيز الرسول بطلب الآيات فاجتمعوا وقالوا يامحمد ان كنت صادقاً فأرنا آية نطلبها منك وهى ان تشق لنا القمر فرقتين فأعطاه الله هذه المعجزة وانشق القمر فرقتين فقال رسول الله اشهدوا وهذه القصة رواها عبد الله بن مسعود وهو من السابقين الاولين رويت عنه من طرق كثيرة ورواها عبد الله بن عباس وغيره ورواها عنهم جمع غزير حتى صار الحديث كالمتواتر وقد ذكرها القرآن الكريم فى قوله تعالى اوّل سورة القمر (اقتربت الساعة وانشق القمر) فحينما راى المعاندون هذه الآية الكبرى قال بعضهم لقد سحركم ابن ابى كبشة فانزل الله فيهم (وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) ثم سألوا الرسول بعد ذلك آيات لايقصدون بذلك الا التعنت والعناد فمنها ان قالوا كما فى سورة الاسراء (لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعاً . او تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيراً . او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً او تأتى بالله والملائكة قبيلا . او يكون لك بيت من زخرف او ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرأه) ولم يجبهم الله الا بقوله (قل سبحان ربى هل كنت الا بشراً رسولا) لان الله علم ما تكنّه جوانحهم من التعصب والعناد فلا يؤمنون مهما جاءهم من البينات كما قال جل ذكره فى سورة الانعام (وما يشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون) وكيف

يرجي الخير ممن قالوا كما فى سورة الانفال (اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم) ولم يقولوا ان كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا اليه وهذه سنة من سنن الانبياء اذا رأوا من طلاب الآيات عناداً وانهم يطلبونها تعجيزاً لايسألون الله انفاذ هذه الآيات كيلا يحل بقومهم الهلاك كما حصل لعاد وثمود وغيرهم وهذا هو المراد من قوله تعالى فى سورة الاسراء (وما منعنا ان نرسل بالآيات الا ان كذب بها الاولون) وقد حصل للمسيح عليه السلام انه لما وقف امام هيردوس طلب منه آية فلم يجبه الى طلبه فلما راى ذلك سخر منه ورده الى عدوه بيلاطس بعد ان كان يأسف عليه ويتمنى لقاءه وذلك مذكور فى الاصحاح الثالث والعشرين من انجيل لوقا (هذا) ولما راى المشركون ضعفهم عن مقاومة المسلمين بالبرهان تحوّلوا الى سياسة القوة التى اختارها قوم ابراهيم عندما عجزوا عنه حيث (قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم) كما فى سورة الانبياء اما هؤلاء فازدادوا بالاذى على كل من اسلم رجاء صدهم عن اتباع الرسول عليه السلام ولم يتركوا باباً الا ولجُوه فقال عليه السلام لاصحابه تفرقوا فى الارض فان الله سيجمعكم فسألوه عن الوجه فأشار الى ارض الحبشة

هجرة الحبشة الاولى

فعند ذلك تجهز ناس للخروج من ديارهم واموالهم فراراً بدينهم كما اشار عليه السلام وهذه هى اول هجرة من مكة وعدة اصحابها عشرة رجال وخمس نسوة وهم عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله وابو سلمة وزوجه ام سلمة واخوه لامه ابو سبرة بن ابى رهم وزوجه ام كلثوم وعامر بن ربيعة وزوجه ليلى وابو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وزوجه سهلة بنت سهل وعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن مظعون ومصعب بن عمير وسهيل بن البيضاء والزبير بن العوّام وجلهم من قريش

وكان عليهم فيما روى ابن هشام عثمان بن مظعون فساروا على بركة الله ولما انتهوا الى البحر استأجروا سفينة اوصلتهم الى مقصدهم فأقاموا آمنين من اذى يلحق بهم من المشركين ولم يبق مع النبى عليه السلام الا القليل

اسلام عمر

وفى ذلك الوقت أسلم الشهم الهُمام عمر بن الخطاب العدوى القرشى بعد ما كان عليه من كراهية المسلمين وشدة أذاهم . قالت ليلى احدى المهاجرات لارض الحبشة مع زوجها كان عمر بن الخطاب من أشد الناس علينا فى اسلامنا فلما ركبت بعيرى أريد أن أتوجه الى ارض الحبشة اذا انا به فقال لى الى اين يا ام عبد الله فقالت قد آذيتمونا فى ديننا نذهب فى ارض الله حيث لانؤذى فقال صحبكم الله فلما جاء زوجى عامر اخبرته بما رايت من رقة عمر فقال ترجين ان يسلم والله لايسلم حتى يسلم حمار الخطاب وذلك لما كان يراه من قسوته وشدته على المسلمين ولكن حصلت له بركة دعوة المصطفى صلى الله عليه وسلم فانه قال قبيل اسلامه اللهم اعز الاسلام بعمر وكان اسلامه فى دار الارقم بن ابى الارقم التى كان المسلمون يجتمعون فيها وقد حقق الله باسلامه ما رجاه عليه السلام فقد قال عبد الله بن مسعود من رواية البخارى (ما زلنا اعزة منذ اسلم عمر) فانه طلب من رسول الله ان يعلن صلاته فى المسجد ففعل وقد ادرك الكفار كآبة شديدة حينما رأوا عمر اسلم وكانوا قد ارادوا قتله حتى إجتمع جمع منهم حول داره ينتظرونه فجاء العاص بن وائل السهمى وهو من بنى سهم حلفاء بنى عدى قوم عمر وعليه حلة حِبَرة وقميص مكفوف بحرير فقال لعمر ما بالك فقال زعم قومك انهم سيقتلوننى أن اسلمت قال لاسبيل اليك فأنالك جار فأمن عمر وخرج العاص فوجد الناس قد سال

بهم الوادى فقال اين تريدون قالوا نريد هذا ابن الخطاب الذى صبأ قال لاسبيل اليه فرجع الناس من حيث أتوا

رجوع مهاجرى الحبشة

وبعد ثلاثة اشهر من خروج مهاجرى الحبشة رجعوا الى مكة حيث لاتتيسر لهم الاقامة فيها لانهم قليلو العدد وفى الكثرة بعض الانس واضف الى ذلك انهم اشراف قريش ومعهم نساؤهم وهؤلاء لايطيب لهم عيش فى دار غربة بهذه الحالة

وقد اولع بعض المؤرخين بحكاية يجعلونها سبباً فى رجوع مهاجرى الحبشة وهى انه بلغهم اسلام قومهم حينما قرأ عليهم الرسول سورة النجم وتكلم فيها كلاماً حسناً عن آلهتهم حيث قال بعد (أفرأيتم اللات والعزى. ومناة الثالثة الاخرى) تلك الغرانيق (جمع غرنوق وهى الطيور ويراد بها الملائكة) العلى وان شفاعتهن لترتجى فسجدوا اعظاماً لذلك وفرحاً وهذا مما لاتجوز روايته الا على قليلى الادراك الذين ينقلون كل ما وجدوه غير متثبتين من صحته وها نحن نسوق لك ادلة النقل والعقل على بطلان ماذكر. أما الحديث فسنده ومتنه قلقان فالسند قال فيه القاضى عياض فى الشفاء لم يخرجه أحد من اهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم واما المتن فليس اصحاب رسول الله ولا المشركون مجانين حتى يسمعوا مدحاً اثناء ذم ويجوز ذلك عليهم فبعد ذكر الاصنام قال (ان هى الا اسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان) فالكلام غير منتظم ولو كان ذلك قد حصل لاتخذه الكفار عليه حجة يحاجونه بها وقت الخصام وهم من نعرفهم من العناد فيما ليس فيه ادنى حجة فكيف بهذه وليس ذلك القبل اقل من تحويل القبلة الى الكعبة وهذا قالوا فيه ماقالوا حتى سماهم الله سفهاء وانزل فيهم فى سورة البقرة (سيقول السفهاء من الناس ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها) ولكن لم يسمع عن اى واحد

من رجالاتهم والمتصدرين للعناد منهم ان قال مالك ذممت آلهتنا بعد ان مدحتها وكان ذلك اولى لهم من تجريد السيوف وبذل مهج الرجال على ان المؤرخين الذين ينقلون هذه العبارة ويجعلونها سبباً لرجوع مهاجرى الحبشة يقولون اثناء كلامهم ان الهجرة كانت فى رجب والرجوع كان فى شوال ونزول سورة والنجم كان فى رمضان فالمدة بين نزول السورة ورجوع المهاجرين شهر واحد والمتأمل ادنى تأمل يرى ان الشهر كان لا يكفى فى ذاك الزمن للذهاب من مكة الى الحبشة والاياب منها لانه لم يكن اذ ذاك مراكب بخارية تسهل السير فى البحر ولا تلغراف يوصل خبر اسلام قريش لمن بالحبشة فلا غرابة بعد ذلك ان قلنا ان هذه الخرافة من موضوعات اهل الاهواء الذين ابتلى الله بهم هذا الدين ولكن الحمد لله فقد من علينا بحفظ كتابنا المجيد الذى يحكم بيننا وبين كل مفتر كذاب ففى السورة نفسها (وما ينطق عن الهوى) والذى يلقيه الشيطان من اقبح مايروى فكيف يقوله عليه السلام او يجرى على لسانه مما يثبت الشكوك فى الوحى الامر الذى يريده السفهاء رد الله كيدهم فى نحرهم . والذى ورد فى الصحيح فى موضوع هذا السجود ما رواه عبد الله بن مسعود ان النبى عليه السلام قرأ والنجم فسجد وسجد من كان معه الا رجلا اخذ كفاً من حصى وضعه على جبهته وقال يكفينى هذا فرأيته قتل بعد كافراً وليس فى هذا الحديث ادنى دلالة على ان الذين سجدوا معه هم مشركون بل الذى يفيده قوله فرأيته قتل بعد كافراً انه كان مسلماً ثم ارتد وهذا ماحصل من بعض ضعاف القلوب الذين لم يتحملوا الاذى فكفروا منهم على بن امية بن خلف (هذا) ولما رجع مهاجرو الحبشة الى مكة لم يتمكن من الدخول اليها الا من وجد له مجيراً فدخل ابو سلمة فى جوار خاله ابى طالب ودخل عثمان بن مظعون فى جوار الوليد بن المغيرة وقد رد عليه جواره حينما رأى ماصنعه بالمسلمين فلم يران يكون مرتاحاً واخوانه يعذبون

كتابة الصحيفة

ولما ضاقت الحيل بكفار قريش عرضوا على بنى عبد مناف الذين منهم الرسول عليه السلام دية مضاعفة ويسلمونه فأبوا عليهم ذلك ثم عرضوا على ابى طالب ان يعطوه سيداً من شبانهم يتبناه ويسلم اليهم ابن اخيه فقال عجباً لكم تعطونى ابنكم اغذوه لكم واعطيكم ابنى تقتلونه فلما رأوا ذلك اجمعوا امرهم على منابذة بنى هاشم وبنى المطلب ولدى عبد مناف واخراجهم من مكة والتضييق عليهم فلايبيعونهم شيئاً ولايبتاعون منهم حتى يسلموا محمداً للقتل وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها فى جوف الكعبة فانحاز بنوهاشم بسبب ذلك فى شعب ابى طالب ودخل معهم بنو المطلب سواء فى ذلك مسلمهم وكافرهم ماعدا ابا لهب فانه كان مع قريش وانخذل عنهم بنو عميهم عبد شمس ونوفل ابنى عبد مناف فجهد القوم حتى كانوا يأكلون ورق الشجر وكان اعداؤهم يمنعون التجار من مبايعتهم وفى مقدمة المانعين ابولهب

هجرة الحبشة الثانية

وبعد دخول الرسول وقومه الشعب امر جميع المسلمين ان يهاجروا للحبشة حتى يساعدوا بعضهم على الاغتراب فهاجر معظمهم وكانوا نحو ثلاثة وثمانين رجلاً وثمانى عشرة امرأة وكان من الرجال جعفر بن ابى طالب وزوجه اسماء بنت عميس والمقداد ابن الاسود وعبدالله بن مسعود وعبيد الله بن جحش وامرأته ام حبيبة بنت ابى سفيان وتوجه لهم الذين اسلموا من جهة اليمن وهم الاشعريون ابوموسى وبنو عمه ولما رأت قريش ذلك ارسلت فى اثرهم عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بهدايا الى النجاشى ليسلم المسلمين فرجعا شر رجعة ولم ينالا من النجاشى الا اهانة لما خاطبوه به من اخفار ذمته فى قوم لاذوا به اما بنو هاشم فمكثوا

فى الشعب قريباً من ثلاث سنوات فى شدة الجهد والبلاء لايصلهم شيء من الطعام الاخفية

نقض الصحيفة

وقد قام خمسة من اشراف قريش يطالبون بنقض هذه الصحيفة الظالمة وهم هشام بن عمرو بن الحارث العامرى وهو اعظمهم فى ذلك بلاء وزهير بن أبى أمية المخزومى ابن عمة الرسول عاتكة والمطعم بن عدى النوفلى وأبو البخترى بن هشام الاسدى وزمعة بن الاسود الاسدى واتفقوا على ذلك ليلاً فلما أصبحوا غدا زهير وعليه حلة فطاف بالبيت ثم أقبل على الناس فقال يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى لا يبيعون ولا يبتاعون والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة فقال أبو جهل كذبت فقال زمعة لابى جهل أنت والله اكذب ما رضينا كتابتها حين كتبت فقال أبو البخترى صدق زمعة وقال المطعم بن عدى صدقتما وكذب من قال غير ذلك وصدق على ما قيل هشام بن عمرو فقام اليها المطعم بن عدى فشقها وكانت الارضة قد اكلتها فلم يبق فيها الا ما فيه اسم الله وقد أخبر النبى عليه السلام عمه أبا طالب بذلك قبل أن يفعل ماذكر فخرج القوم الى مساكنهم بعد هذه الشدة

وفود نجران

وقد وفد على الرسول بعد الخروج من الشعب وفد من نصارى نجران بلغهم خبره من مهاجرى الحبشة فسارعوا بالقدوم عليه حتى يروا صفاته مع ما ذكر منها فى كتبهم وكانوا عشرين رجلاً أو قريباً من ذلك فقرأ عليهم القرآن فآمنوا كلهم فقال لهم أبو جهل ما رأينا ركباً أحمق منكم أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل فصبأتم فقالوا سلام عليكم لا

نجاهلكم لكم ما أنتم عليه ولنا ما اخترناه فأنزل الله فى ذلك فى سورة القصص (الذين آتينا هم الكتاب من قبله هم به يؤمنون واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين أولئكَ يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون واذاسمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لانبتغى الجاهلين) وقد كان اهل مكة حينما عجزوا عن أمر رسول الله ولم يتمكنوا من مقارعة الحجة بالحجة رموه بالسحر مرة وبالكذب أخرى وبالجنون طوراً وبالكهانة مرة كل ذلك شأن العاجز المعاند الذى لا يستحيى لمزيد عناده ان يقول (اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم)

وفاة خديجة رضى الله عنها

وبعد خروجه عليه السلام من الشعب بقليل وقبل الهجرة بثلاث سنين توفيت خديجة بنت خويلد زوجه رضى الله عنها كان عليه السلام كثيراً ما يذكرها ويترحم عليها ولا غرابة فهى أول نفس زكية صدقت رسول الله فيما جاء به عن ربه وقد جاء منها بأولاده كلهم ما عدا ابراهيم فمنها زينب وهى اكبر بناته تزوّجها فى الجاهلية ابو العاص بن الربيع واعقب منها أمامة التى تزوّجها على بن أبى طالب بعد وفاة فاطمة ومنها رقية وام كلثوم تزوّجهما عثمان الاولى بمكة قبل الهجرة وهاجر بها الى الحبشة والثانية بالمدينة بعد أن ماتت اختها ومنها فاطمة وهى اصغر بناته تزوّجها على بن ابى طالب وقد جاءت خديجة بأولاد توفوا صغاراً ولم يعش بعد رسول الله من أولاده الا فاطمة عاشت بعده قليلاً ولما توفيت خديجة حزن عليها رسول الله حزناً شديداً لما كانت عليه من الرقة لرسول الله ومحاجزة الكفار عنه لما لها من الجاه فى عشيرتها بنى زهرة

ومنها القاسم وكان به يكنى رسول الله صلى الله عايه وسلم وعبدالله الملقب بالطيب والطاهر

(زواج سودة)

وعقد عليه السلام في الشهر الذى ماتت فيه خديجة على سودة بنت زمعة العامرية القرشية بعد أن توفى عنها زوجها وابن عمها السكران ابن عمرو وقد كانت آمنت بالله وبرسوله وخالفت أقاربها وبنى عمها وهاجرت معزوجها الى الحبشة فى المرة الثانية خوف الفتنة وعقب رجوعه من هجرته توفى عنها فلم يكن ثم أجمل مما صنعه الرسول بزوج رجل آمن به ولو تركت لقومها مع ماهم عليه من الغلظة وكراهة الاسلام لفتنوها وكرم نسبها فى قومها يمنعها من التزوّج برجل أقل منها نسباً وشرفاً

(زواج عائشة رضى الله عنها)

وبعد ذلك بشهر عقد على عائشة بنت صديقه أبى بكر وهى لاتتجاوز السابعة من عمرها ولم يتزوّج عليه السلام بكراً غيرها ودخل عليها بالمدينة أما سودة فدخل عليها بمكة

وبعد وفاة خديجة بنحو شهر توفى عمه أبوطالب الذى كان يمنعه من أذى اعدائه ومع انه كان لايكذب رسول الله فيما جاء به بل يعتقد صدقه لم ينطق بالشهادتين حتى آخر لحظة من حياته وفيه نزل فى سورة القصص (انك لاتهدى من أحببت ولكنّ الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) ولكن لاعماله العظيمة التى عملها مع رسول الله نرجو أن يخفف عنه وعدم اسلامه بل هو وغالب أقارب الرسول فيه من الحكمة ما لايخفى فانهم لو بادروا باتباعه لقيل قوم يطلبون سيادة وفخراً ليسا لهم فجاؤا بهذا الامر المفترى ولكن لما رأى

المعاندون ان متبعيه هم الغرباء عنه الذين ليسوا من عشيرتِهِ بل من أعدائها أحياناً كعثمان بن عفان من بنى امية لم يكن عندهم أدنى حجة يقيمونها اللهم الا دعاويهم الكاذبة التى كانوا يتمسكون بها حينما تصدعهم الحجة وهو قولهم ساحر يفرق بين المرء وزوجه وكاهن يتكهن بالغيب وقد سمّى رسول الله هذا العام الذى فقد فيه زوجه وعمه عام الحزن ولما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله مالم يمكنها نيله فى حياة أبى طالب واشتد الامر عليه حتى كانوا ينثرون التراب على رأسه وهو سائر ويضعون أوساخ الشاة عليه فى صلاته وتعلقت به كفار قريش مرة يتجاذبونه ويقولون له أنت الذى تريد أن تَجعل الآلهةَ الهاً واحدا فما تقدم أحد من المسلمين حتى يخلصهُ منهم لما هم عليه من الضعف الا أبو بكر فانهُ تقدّم وقال أتقتلون رجلاً أن يقول ربّىَ الله

هجرة الطائف

فلما رأى عليه السلام استهانة قريش به أراد أن يتوجه الى ثقيف بالطائف (١) يرجو منهم نصرة على قومه ومساعدته حتى يتمم أمر ربه لانهم اقرب الناس الى مكة وله فيهم خؤلة فان ام هاشم بن عبد مناف عاتكة السلمية من بنى سليم بن منصور وهم حلفاء ثقيف فلما توجه اليهم ومعهُ مولاه زيد بن حارثة قابل رؤساءهم وكانوا ثلاثة عبد ياليل ومسعود وحبيب اولاد عمرو بن عمير الثقفى فعرض عليهم نصرته حتى يؤدى دعوته فردوا عليه رداً قبيحا ولم ير منهم خيرا وحينذاك طلب منهم ان لا يشيعوا ذلك عنه كيلا تعلم قريش فيشتدّ اذاهم لانهُ استعان عليهم بأعدائهم فلم تفعل ثقيف ما رجاه منهم عليه السلام بل ارسلوا سفهاءهم وغلمانهم يقفون فى وجهه فى الطريق ويرمونهُ بالحجارة حتى ادموا عقبه وكان زيد بن حارثة يدرأ عنه الى ان انتهى الى شجرة كُرم واستظل

١) بلد فى الجنوب الشرقى من مكة

بها وكانت بجوار بستان لعتبة وشيبة ابنى ربيعة وهما من اعدائه وكانا في البستان فكره رسول الله مكانهما فدعا الله قائلاً (اللهم انى اشكو اليك ضعف قوتى وهوانى على الناس يا ارحم الراحمين انت رب المستضعفين وانت ربى الى من تكلنى ان لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى) فلما رآه ابنا ربيعة رقّا له وارسلا اليه بقطف من العنب مع مولى لهما نصرانى اسمه عدّاس فلما ابتدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل قال (بسم الله الرحمن الرحيم) فقال عدّاس هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد فقال له عليه السلام من اى البلاد أنت وما دينك فقال نصرانى من نينوى (١) فقال عليه السلام قرية الرجل الصالح يونس بن متى قال وما علمك بيونس فقرأ له من القرآن ما فيه قصة يونس فلما سمع ذلك عدّاس اسلم

واتى جبريل برسالة من الله جل ذكره وقال ان الله امرنى ان اطيعك في قومك لما صنعوه معك فقال عليه السلام اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون فقال جبريل صدق من سماك الرؤف الرحيم ولما كان بنخلة وفد عليه نفر من الجن يستمعون القرآن فلما سمعوه أنصتوا له ورجعوا الى قومهم منذرين وابلغوهم خبر رسول الله وفيهم نزل في سورة الاحقاف (واذ صرفنا اليك نفراً من الجنّ يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضىَ ولوا الى قومهم منذرين. قالوا ياقومنا انا سمعنا كتاباً انزلَ من بعد موسى مصدّقاً لما بين يديه يهدى الى الحق والى طريق مستقيم يا قومنا اجيبوا داعىَ الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذابٍ أليم. ومن لا يجب داعىَ الله فليس بمعجزٍ في الارض وليس له من دونه اولياء اولئك في ضلال مبين) وقد قص الله قصة الجنّ بعبارة اطول في سورة سميت باسمهم اوّلها (قل أوحىَ الىَّ أنهُ استمع نفرٌ من الجنّ فقالوا انا

(١) بلد على شاطئ دجلة وهى آخر ماينتهى اليه العراق وامامها مدينة الموصل

سمعنا قرآناً عجباً يهدى الى الرُّشدِ فآمنابهِ ولنْ نشركَ بربنا احداً)

الاحتماء بالمطعم بن عدى

ولما رجع عليه السلام من الطائف هكذا لم يتمكن من دخوله مكة لما علمه كفار قريش من انهُ توجه الى الطائف يستنصر بأهليها عليهم فأرسل عليه السلام الى المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف يخبره انه سيدخل مكة فى جواره فأجاب الى ذلك وتسلّح هو وبنوه وتوجهوا مع رسول الله الى المطاف فقال له بعض المشركين امجير انت ام تابع فقال بل مجير قالوا اذاً لا تخفر ذمتك

وفد دوس

وقدم على رسول الله وهو بمكة الطفيل بن عمرو الدوسى من قبيلة دوس عشيرة ابى هريرة الصحابى الشهير وكان الطفيل شريفاً فى قومه شاعراً نبيلاً فلما قرأ عليه القرآن أسلم فقال لهُ رسول الله اذهب الى قومك فادعهم الى الاسلام ودعا لهم رسول الله فقال اللهم اهد دوسا فتوجه اليهم الطفيل ودعاهم فآمن بدعوته كثير منهم وستأتى وفادته على الرسول مرة ثانية بقومه فى المدينة

(الاسراء والمعراج)

وقبل الهجرة اكرمه الله بالاسراء والمعراج اما الاسراء فهو توجهه ليلاً الى بيت المقدس بايلياء ورجوعه من ليلته واما المعراج فهو صعوده الى العالم العلوى وقد قال جمهور اهل السنة ان ذلك كان بجسمه الشريف وكانت عائشة رضى الله عنها تمنع رؤية رسول الله ربه وتقول من قال ان محمداً رأى ربه فقد اعظم الفرية على الله والاسراء مذكور

فى القرآن الكريم قال تعالى فى اول سورة الا سراء (سبحان الذى اسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير) واما المعراج فقد ورد فى صحيح السنة واصح احاديثه ما رواه الشيخان ونقله القاضى عياض فى شفائه عن انس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اتيت بالبُراق وهو دابة فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه قال فركبته حتى اتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التى تربط بها الا نبياء ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فاتانى جبريل باناء من خمر واناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل اخترت الفطرة ثم عرج بنا الى السماء فاستفتح جبريل فقيل من انت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بآدم فرحب بى ودعالى بخير ثم عرج بنا الى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل من انت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا انا بابنى الخالة يحيى وعيسى ابن مريم فرحبابى ودعوا لى بخير ثم عرج بنا الى السماء الثالثة فذكر مثل الاول ففتح لنا واذا انا بيوسف واذا هو قداعطى شطر الحسن فرحب بى ودعالى بخير ثم عرج بنا الى السماء الرابعة وذكر مثله فاذا انا بادريس فرحب بى ودعالى بخير قال تعالى فى سورة مريم (ورفعناه مكاناً علياً) ثم عرج بنا الى السماء الخامسة فذكر مثله فاذا انا بهارون فرحب بى ودعالى بخير ثم عرج بنا الى السماء السادسة فذكر مثله فاذاً انا بموسى فرحب بى ودعالى بخير ثم عرج بنا السماء السابعة فذكر مثله فاذا انا بابراهيم مسنداً ظهره الى البيت المعمور واذا هو يدخله كل يوم سبعون الف ملك لا يعودون اليه ثم ذهب بى الى سدرة المنتهى فاذا اوراقها كآذان الفيلة واذا ثمرها كالقلال فلما غشيها

من امر ربى ما غشيها تغيرت فما احد من خلق الله يستطيع ان ينعتها من حسنها فاوحى الله الى ما اوحى ففرض على وعلى امتى خمسين صلاة فى كل يوم وليلة فنزلت الى موسى فقال ما فرض ربك على امتك قلت خمسين صلاة قال ارجع الى ربك فسله التخفيف فان امتك لايطيقون ذلك فانى قد بلوت بنى اسرائيل قبلك وخبرتهم قال فرجعت الى ربى قلت يارب خفف عن امتى فحط عنى خمساً فرجعت الى موسى فقلت حط عنى خمساً قال ان امتك لا يطيقون ذلك فارجع الى ربك فسله التخفيف قال فلم ازل ارجع بين ربى تعالى وبين موسى حتى قال سبحانه يا محمد انهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ومن هم بحسنة فعملها كتبت له عشراً ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب له شيئاً ومن همّ بسيئة فعملها كتبت له سيئة واحدة قال فنزلت حتى انتهيت الى موسى. فاخبرته فقال ارجع الى ربك فسله التخفيف فقلت قد رجعت الى ربى حتى استحييت منه ثم رجع عليه السلام من ليلته فلما اصبح غدا الى نادى قريش فجاء اليه ابو جهل بن هشام فحدثه رسول الله صلى الله عليه وسلم بما جرى له فقال ابو جهل يا بنى كعب بن لؤىّ هلموا فاقبل عليه كفار قريش فاخبرهم الرسول الخبر فصاروا بين مصفقٍ وواضع يده على رأسه تعجباً وانكاراً وارتد ناس ممن كان آمن به من ضعاف القلوب وسعى رجال الى ابى بكر فقال ان كان قال ذلك لقد صدق قالوا اتصدقوه على ذلك قال انى لاصدقه على أبعد من ذلك فسمى من ذلك اليوم صديقاً ثم قام الكفار يمتحنون رسول الله فسألوه نعت بيت المقدس وفيهم رجال رأوه اما رسول الله فلم يكن رآه قبل ذلك فجلاه الله له فصار يصفه لهم باباً باباً وموضعاً موضعاً فقالوا اما النعت فقد اصاب فاخبرنا عن عيرنا وكانت لهم عيرٌ قادمة من الشام فأخبرهم بعدد جمالها واحوالها وقال تقدم يوم كذا

مع طلوع الشمس يقدمها جمل اوْرَق فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية فقال قائل منهم هذه والله الشمس قد اشرقت فقال آخره وهذه والله لعير قد اقبلت يقدمها جمل اوْرَق كما قال محمد ثم لم يزدهم ذلك الاّ كفراً وعناداً حتى قالوا هذا سحرٌ مبين وفى صبيحة ليلة الاسراء جاء جبريل وعلم رسول الله كيفية الصلاة واوقاتها فيصلى ركعتين اذا ظهر الفجر واربع ركعات اذا زالت الشمس ومثلها اذا ضوعف ظل الشيء وثلاثاً وأربعاً اذا غاب الشفق الاحمر وكان عليه السلام قبل مشروعية الصلاة يصلى ركعتين صباحاً ومثلها مساء كما كان يفعل ابراهيم عليه السلام

العرض على القبائل

ولما رأى رسول الله صلى عليه وسلم انه يجد من قريش منعة من تأدية الرسالة وتسلط الكبر والعظمة على قلوبهم أراد الله ان يظهر امر هذا الدين على ايدى غيرهم من العرب فكان عليه السلام يخرج فى المواسم العربية (وهى اسواق كانت العرب تعقدها للتجارة والمفاخرة) ويعرض نفسه على القبائل ليحموه حتى يؤدى رسالة ربه فكان بعضهم يرد رداً جميلاً وآخرون رداً قبيحاً وكان من اقبح القبائل رداً بنو حنيفة رهط مسيلمة الكذاب وطلب منه بنو عامر انهم آمنوا به ان يجعل لهم امر الرياسة من بعده فقال لهم الامر لله يعضه حيث يشاء وكان من الذين يحجون البيت عرب يثرب وهى مدينة بين مكة والشام يقطنها قبيلتان احدهما من ولد الاوس والثانية من ولد الخزرج وهما اخوان وكان بين اولادهما من العداوة ما يجعل الحرب لا تضع اوزارها بين الفريقين فكانوا دائماً فى شقاق ونزاع وكان يجاورهم فى المدينة اقوام من اليهود وهم بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير وكان لهم الغلبة على يثرب اولًا فحاربهم العرب حتى صاروا ذوى النفوذ فيها والقوّة وكان اليهود اذا خذلوا يستفتحون على اعدائهم

باسم نبى يبعث قد قرب زمانه ولما اختلفت كلمة العرب فيما بينهم وشقت عصا الالفة حالفوا اليهود على انفسهم فحالف الاوس بنى قريظة وحالف الخزرج بنى النضير وبنى قينقاع وآخر الايام بينهم يوم بعاث قتل فيه غالب رؤسائهم ولم يبق الا عبد الله بن ابى ابن سلول من الخزرج وابو عامر الراهب من الاوس ولذلك كانت عائشة تقول كان يوم بعاث يوماً قدمه الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد خطر ببال رؤساء الاوس ان يحالفوا قريشا على الخزرج فأرسلوا اياس بن معاذ وابا الحيسر أنس بن رافع مع جماعة يلتمسون ذلك الحلف فى قريش فلما جاؤا مكة جاءهم رسول الله وقال هل لكم فى خير مما جئتم له ان تؤمنوا بالله وحده ولا تشركوا به شيئاً وقد ارسلنى الله الى الكافة ثم تلا عليهم القرآن فقال اياس بن معاذ يا قوم هذا والله خير مما جئنا له فحصبه ابو الحيسر وقال له دعنا منك لقد جئنا لغير هذا فسكت

بدء اسلام الانصار

ولما جاء الموسم تعرض رسول الله لنفر منهم يبلغون الستة وكلهم من الخزرج وهم اسعد بن زرارة وعوف بن الحارث من بنى النجار ورافع بن مالك من بنى زريق وقطبة بن عامر من بنى سلمة وعقبة بن عامر من بنى حرام وجابر بن عبد الله من بنى عبيد بن عدى ودعاهم الى الاسلام والى معاونته فى تبليغ رسالة ربه فقال بعضهم لبعض انه للنبى الذى كانت تعدكم به يهود فلا يسبقنكم اليه فآمنوا به وصدقوه وقالوا انا تركنا قومنا بينهم من العداوة ما بينهم فان يجمعهم الله عليك فلا رجل اعزّ منك ووعدوه المقابلة فى الموسم المقبل وهذا هو بدء الاسلام لعرب يثرب

(العقبة الاولى)

فلما كان العام المقبل قدم اثنا عشر رجلاً منهم عشرة من الخزرج واثنان من الاوس وهم اسعد بن زرارة وعوف ومعاذ ابنا الحارث ورافع بن مالك وذكوان بن قيس وعبادة بن الصامت ويزيد بن ثعلبة والعباس بن عبادة وعقبة بن عامر وقطبة بن عامر وهؤلاء من الخزرج وابو الهيثم بن التيهان وعويم بن ساعدة وهما من الاوس فاجتمعوا به عند العقبة واسلموا وبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء وذلك قبل ان يفترض الحرب على ألا يشركوا بالله شيئاً ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا اولادهم ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين ايديهم وارجلهم ولا يعصونه في معروف فان وفوا فلهم الجنة وان غشوا من ذلك شيئاً فأمرهم الى الله عز وجل ان شاء غفر وان شاء عذب وهذه هي العقبة الاولى فأرسل لهم عليه السلام مصعب بن عمير العبدري وعبد الله بن ام مكتوم وهو ابن خالة خديجة يقرآنهم القرآن ويفقهانهم في الدين ونزل مصعب على احد المبايعين أبي امامة اسعد بن زرارة وصار يدعو بقية الاوس والخزرج للاسلام وبينما هو في بستان مع اسعد بن زرارة اذ قال سعد بن معاذ رئيس قبيلة الاوس لأسيد بن حضير ابن عم سعد الا تقوم الى هذين الرجلين اللذين آتيا يسفهان ضعفائنا لتزجرهما فقام لهما أسيد بحربته فلما رآه أسعد قال لمصعب هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه فلما وقف عليهما قال ما جاء بكما تسفهان ضعفائنا اعتزلا ان كان لكما بانفسكما حاجة فقال مصعب أوتجلس فتسمع فان رضيت أمراً قبلته وان كرهته كففنا عنك ما تكره فقرأ عليه مصعب القرآن فاستحسن دين الاسلام وهداه الله له فتشهد ورجع الى سعد فسأله عما فعل فقال والله ما رأيت بالرجلين بأساً فغضب سعد وقام لهما متغيظاً ففعل معه مصعب كسابقه فهداه الله للاسلام ورجع لرجال بني عبد الاشهل وهم بطن من الاوس فقال لهم ما تعدونني فيكم قالوا سيدنا

وابن سيدنا قال كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تسلموا فلم يبق بيت من بيوت بنى عبد الا شهل الا أجابه وقد انتشر الاسلام فى دور يثرب حتى لم يكن بينهم حديث الا أمر الاسلام .

(العقبة الثانية)

ولما كان وقت الحج فى العام الذى يلى البيعة الاولى قدم مكة كثيرون منم يريدون الحج وبينهم كثير من مشركيهم ولما قابل وفدهم رسول الله واعدوه المقابلة ليلا عند العقبة فامرهم ان لا ينبهوا فى ذلك الوقت نائماً ولاينتظروا غائباً لان كل هذه الاعمال كانت خفية من قريش كيلا يطلعوا على الامر فيسعوا فى نقض ماأبرم شأنهم مع رسول الله فى اول أمره. ولما فرغ الانصار من حجهم توجهوا الى موعدهم كاتمين أمرهم عمن معهم من المشركين وكان ذلك بعد مضى ثلث الليل الاول فكانوا يتسللون الرجل والرجلين حتى تم عددهم ثلاثاً وسبعين رجلاً منهم اثنان وستون من الخزرج واحد عشر من الاوس ومعهم امرأتان وهما نسيبة بنت كعب من بنى النجار واسماء بنت عمرو من بنى سلمة ووافقهم رسول الله هناك وليس معه الا عمه العباس بن عبد المطلب وهو على دين قومه ولكن اراد ان يحضر امر ابن أخيه ليكون متوثقاً له فلما اجتمعوا عرفهم العباس بان ابن أخيه لم يزل فى منعة من قومه حيث لم يمكنوا منه احداً ممن اظهر له العداوة والبغضاء وتحملوا من ذلك أعظم الشدة ثم قال لهم ان كنتم ترون انكم وافون له بما دعوتموه اليه ومانعوه ممن خالفه فانتم وما تحملتم من ذلك والا فدعوه بين عشيرته فانهم لبمكان عظيم فقال كبيرهم والمتكلم عنهم البراء بن معرور والله لو كان لنا فى انفسنا غير ما ننطق به لقلناه ولكنا أريد الوفاء والصدق وبذل مهجنا دون رسول الله وعند ذلك قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم خذ لنفسك ولربك ما احببت فقال أشترط

لربى أن تعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئاً ولنفسى ان تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وابناءكم متى قدمتُ عليكم فقال له الهيثم بن التبهان يارسول الله ان بيننا وبين الرجال عهوداً وانا قاطعوها فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله ان ترجع الى قومك وتدعنا فتبسم عليه السلام وقال بل الدم الدم والهدم الهدم اى ان طالبتم بدم طالبت به وان اهدرتموه اهدرته

وحينذاك ابتدئت المبايعة وهى العقبة الثانية فبايعه الرجال على ما طلب واول من بايع اسعد بن زرارة وقيل البراء بن معرور ثم تخير منهم اثنى عشر نقيباً لكل عشيرة منهم واحد تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس وهم ابو الهيثم بن التيهان واسعد بن زرارة . واسيد بن حضير . والبراء بن معرور . ورافع بن مالك . وسعد ابن خيثمة . وسعد بن الربيع . وسعد بن عبادة . وعبدالله بن رواحة . وعبدالله ابن عمرو . وعبادة بن الصامت . والمنذر بن عمرو . ثم قال لهم انتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وانا كفيل على قومى . ولا مر ما اراده الله بلغ خبر هذه البيعة مشركى قريش فجاؤا ودخلوا شعب الانصار وقالوا يا معشر الخزرج بلغنا انكم جئتم لصاحبنا تخرجونُه من ارضنا وتبايعونُه على حربنا فأنكروا ذلك وصار بعض المشركين الذين لم يحضروا المبايعة يحلفون لهم انهم لم يحصل منهم شئ فى ليلتهم وعبدالله بن ابىّ كبير الخزرج يقول ما كان قومى ليفتاتوا على بشىء من ذلك

هجرة المسلمين الى المدينة

ولما رجع الانصار الى المدينة ظهر بينهم الاسلام اكثر من المرة الاولى اما رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه فازداد عليهم اذى المشركين لما سمعوا انهُ حالف قوماً عليهم فأمر عليه السلام جميع

المسلمين بالهجرة الى المدينة فصاروا يتسللون خيفة قريش ان تمنعهم واول من خرج ابو سلمة المخزومي زوج ام سلمة ومعه زوجه وكان قومها منعوها منه ولكنهم اطلقوها بعد فلحقت به وتتابع المهاجرون فراراً بدينهم ليتمكنوا من عبادة الله الذى امتزج حبه بلحمهم ودمهم حتى صاروا لا يعبئون بمفارقة اوطانهم والابتعاد عن آبائهم وابنائهم مادام فى ذلك رضى الله ورسوله ولم يبق بمكة منهم الا ابو بكر وعلى وصهيب وزيد بن حارثة وقليلون من المستضعفين الذين لم تمكنهم حالهم من الهجرة وقد اراد ابو بكر الهجرة فقال له عليه السلام على رِسلك فانى ارجوا ان يؤذن لى فقال ابو بكر وهل ترجو ذلك بأبى انت قال نعم فحبس ابو بكر نفسه على رسول الله ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر استعداداً لذلك

دار الندوة

اما قريش فكانوا كأنهم اصيبوا بمس الشيطان حينما طرق مسامعهم مبايعة الانصار له على الذود عنه حتى الموت فاجتمع رؤساؤهم وقادتهم فى دار الندوة وهى دار قصى بن كلاب التى كانت قريش لاتقضى امراً الا فيها يتشاورون فيها مايصنعون فى امر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خافوه فقال قائل منهم نخرجه من ارضنا كى نستريح منه فرُفض هذا الرأى لانهم قالوا اذا خرج اجتمعت حوله الجموع لما يرونه من حلاوة منطقه وعذوبة لفظه وقال آخر نوثقه ونحبسه حتى يدركه ما ادرك الشعراء قبله من الموت فرفض هذا الرأى كسابقه لانهم قالوا ان الخبر لايلبث أن يبلغ انصاره ونحن ادرى الناس بمن دخل فى دينه حيث يفضلونه على الآباء والابناء فاذا سمعوا ذلك جاؤا لتخليصه وربما جرّ هذا من الحرب علينا مانحن فى غنى عنه وقال لهم طاغيتهم بل نقتله ولنمنع بنى ابيه من الاخذ بثاره نأخذ من كل قبيلة شاباً جلداً يجتمعون امام داره فاذا خرج ضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه فى القبائل فلا يقدر بنو عبد مناف

على حرب قريش كلهم بل يرضون بالدية فأقروا على هذا الرأى هذا مكرهم ولكن ارادة الله فوق كل ارادة (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) فاعلم نبيه بما دبره الاعداء في سرهم وامره باللحاق بدار هجرته بدار فيها ينشر الاسلام ويكون فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم العزة والمنعة وهذا من الحكمة بمكان عظيم فانه لو انتشر الاسلام بمكة لقال المبغضون ان قريشاً ارادوا ملك العرب فعمدوا الى شخص منهم واوعزوا اليه ان يدعي هذه الدعوى حتى تكون وسيلة لنيل مآربهم ولكنهم كانوا له اعداء ألداء آذوه شديد الاذى حتى اختار الله له مفارقة بلادهم والبعد عنهم

(هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم)

فتوجه من ساعته الى صديقه ابى بكر واعلمه ان الله قد اذن له في الهجرة فسأله ابو بكر الصحبة فقال نعم ثم عرض عليه احدى راحلتيه اللتين كانتا معدتين لذلك فجهزاهما احث الجهاز وصنعت لهما سُفرةً في جراب فقطعت اسماء بنت ابى بكر نطاقها وربطت به على فم الجراب استأجرا عبد الله بن ارقط من بني الديل بن بكر وكان هادياً ماهراً وهو على دين كفار قريش فأمناه ودفعاه اليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال ثم فارق الرسول عليه السلام ابابكر وواعده المقابلة ليلاً خارج مكة وكانت هذه الليلة هي ليلة استعداد قريش لتنفيذ ما اقروا عليه فاجتمعوا حول باب الدار ورسول الله داخله فلما جاء ميعاد الخروج امر ابن عمه علياً بالمبيت مكانه كي لايقع الشك في وجوده اثناء الليل فانهم كانوا يرددون النظر من شقوق الباب ليعلموا وجوده ثم سجى علياً ببردته وخرج على القوم وهو يقرأ (وجعلنا من بين ايديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لايبصرون) فألقى الله النوم عليهم حتى لم يره احد ولم يزل عليه السلام سائراً حتى تقابل مع الصديق وسارا حتى بلغا غار ثور فاختفيا فيه. أما المشركون فلما علموا بفساد مكرهم وانهم

انما باتوا يحرسون عليّ بن ابى طالب لامحمد بن عبدالله هاجت عواطفهم فأرسلوا الطلب من كل جهة وجعلوا الجوائز لمن يأتى بمحمد أو يدل عليه وقد وصلوا فى طلبهم الى ذلك الغار الذى فيه طَلِبتهم بحيث لو نظر أحدهم تحت قدميه لنظرهما حتى أبكى ذلك أبا بكر فقال له عليه السلام (لاتحزن ان الله معنا) فأعمى الله ابصار المشركين حتى لم يَحن لاحدمنهم التفاتة الى ذلك الغار بل صار أعدى الاعداء امية بن خلف يبعد لهم اختفاء المطلوبين فى مثل هذا الغار. فأقاما فيه ثلاث ليال حتى ينقطع الطلب وكان يبيت عندهما عبدالله ابن ابى بكر وهو شاب ثَقِف لقن فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت بها فلا يسمع أمراً يكتادان به الاوعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام وكان عامر بن فهيرة يروح عليهما بقطعة من غنم يرعاها حين تذهب ساعة من العشاء ويغدو بها عليهما فاذا خرج من عندهما عبدالله تبع أثره عامر بالغنم كيلا يظهر لقدميه أثره. ولما انقطع الطلب خرجا بعد أن جاءهما الدليل بالراحلتين صبح ثلاث وسارا متبعين طريق الساحل. وفى الطريق لحقهم طالباً سراقة بن مالك بن جشعم وكان قد رأى رسل مشركى قريش يجعلون فى رسول الله وابى بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره فبينما هو فى مجلس من مجالس قومه بنى مدلج اذ أقبل رجل منهم حتى قام عليهم وهم جلوس فقال ياسراقة انى رأيت آنفاً أسودة بالساحل أراها محمداً واصحابه فعرف سراقة أنهم هم ولكنه أراد أن يثنى عزم مخبره عن طلبهم فقال انك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا يبتغون ضالة لهم ثم لبث فى المجلس ساعة وقام وركب فرسه ثم سار حتى دنا من الرسول ومن معه فعثرت به فرسه فخر عنها ثم ركبها ثانياً وسار حتى صار يسمع قراءة المصطفى وهو لا يلتفت وابوبكر يكثر الالتفات فساخت قوائم فرس سراقة فى الارض حتى بلغتا الركبتين فخرّ عنها ثم زجرها حتى نهضت فلم تكد تخرج يديها حتى سطع لاثرهما غبار ساطع فى السماء

مثل الدخان فعلم سراقة أن عمله ضائع سدى وداخله رعب عظيم فناداهما بالامان فوقف عليه السلام ومن معه حتى جاءهم (ويقول سراقة وقع فى نفسى حين لقيت ما لقيت ان سيظهر امر رسول الله) فقلت ان قومك قدجعلوا فيك الدية واخبرهم بما يريد بهم الناس وعرض عليهم الزاد والمتاع فلم يأخذا منه شيئاً بل قالا له اخف عنا فسأله سراقة ان يكتب له كتاب امن فأمر ابا بكر فكتب وبذلك انقضت هذه المشكلة التى اظهر الله فيها مزيد عنايته برسوله وكان اهل المدينة حينما سمعوا بخروج رسول الله وقدومه عليهم يخرجون الى الحَرَّة (١) حتى يردهم حر الظهيرة فانقلبوا يوماً بعد ان اطالوا انتظارهم فلما أووا الى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم (٢) من آطامهم لامر ينظر اليه فبصر برسول الله واصحابه يزول بهم السراب يظهرهم تارة ويخفيهم اخرى فقال اليهودى بأعلى صوته يا معشر العرب هذا جدكم أى حظكم الذى تنتظرون فثاروا الى السلاح فتلقوا رسول الله بظهر الحرة

النزول بقباء

فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو بن عوف بقباء والذى حققه المرحوم محمود باشا الفلكى ان ذلك كان فى اليوم الثامن من ربيع الاول الذى يوافق ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ وهذا أوّل تاريخ جديد (٣) لظهور الاسلام بعد أن مضى عليه ثلاث عشرة سنة وهو مضيق

(١) هى الارض ذات الحجارة السود وكانت المدينة محاطة بجملة حرات

(٢) تل (٣) لما أراد المسلمون فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وضع التاريخ جعلوا مبدأه من هذه الهجرة الشريفة ولعدم المخالفة بين بدء الهجر وبدء السنة الهلالية قدموا ميعاد الهجرة شهرين وأياما وجعلوا بدء الهجرة من محرم سنتها

عليه من مشركي قريش ورسول الله ممنوع من الجهر بعبادة ربه أما الآن فقد آواه الله هو وصحابته رضوان الله عليهم بعد أن كانوا قليلاً يتخطفهم الناس

هجرة الانبياء

وبهذه الهجرة تمت لرسولنا صلى الله عليه وسلم سنة اخوانه من الانبياء قبله فما من نبى منهم الا نبت به بلاد نشأته فهاجر عنها من ابراهيم أبي الانبياء وخليل الله الى عيسى كلمة الله وروحه كلهم على عظيم درجاتهم ورفعة مقامهم أهينوا من عشائرهم فصبروا ليكونوا مثالا لمن يأتي بعدهم من متبعيهم فى الثبات والصبر على المكاره مادام ذلك فى طاعة الله فسل مصر وتاريخها تنبئك عن اسرائيل (يعقوب) وبنيه انهم هاجروا اليها حينما رأوا من بنيها ترحيباً بهم وتركهم وما يعبدون اكراماً ليوسف وحكمته. ولما مضت سنون نسى فيها المصريون تدبير يوسف وفضله عليهم فاضطهدوا بنى اسرائيل وآذوهم خرج بهم موسى وهارون ليتمكنوا من اعطاء الله حقه فى عبادته. وهرب المسيح عليه السلام من اليهود حينما كذبوه فأرادوا الفتك به حتى كان من ضمن تعاليمه لتلامذته (طوبى للمطرودين من أجل البر لان لهم ملكوت السموات) ثم قال بعد (افرحوا وتهللوا لان أجركم عظيم فى السموات فانهم هكذا طردوا الانبياء الذين قبلكم) وسل القرى التى حلت بها نقمة الله لكفر اهلها كديار لوط وعاد وثمود تنبئك عن مهاجرة الانبياء منها قبل حلول النقمة فلا غرابة ان هاجر عليه السلام من بلاد منعه أهلها من تتميم ما أراده الله (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً)

أعمال مكة

هذا ولنبين لك مجمل ما دعا اليه الرسول عليه السلام بمكة من اصول الدين وذلك أمران (الاول) الاعتقاد بوحدانية الله وان لا يشرك معه فى العبادة غيره سواء كان ذلك الغير صنما كما يفعل مشركو مكة

أو ابناً أو زوجة أو بنتاً كما عليه بعض الطوائف الاخرى كالنصارى ولولا الاعتقاد بوحدانية الاله ما كلف أحد نفسه تكاليف الحياة من آداب الاخلاق بل كان يسير فيما تأمره به نفسه من شهواتها وملذاتها ما دام ذلك خافياً عن الناس (الثانى) الاعتقاد بالبعث والنشور وان هناك يوماً ثانياً للانسان يجازى فيه على ماصنعه فى الدنيا ان خيراً فخير وان شراً فشر وعلى هذين الامرين جاء غالب الآى المكية فقلما ترى سورة من سور مكة الا مشحونة بالاستدلال عليهما وتوبيخ من تركهما وكل ذلك بأساليب تأخذ بالعقل وبراهين لاتحتاج لفلسفة الذين يشغلون أنفسهم بما لا طائل تحته مما يضيع الوقت سدى ونزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة من القرآن معظمه وهو ما عدا اثنين وعشرين سورة منه وهى البقرة . آل عمران . النساء . المائدة . الانفال . التوبة . الحج . المؤمنون . الاحزاب . القتال . الفتح . الحجرات . الحديد . المجادلة . الحشر . الممتحنة . الصف . الجمعة . المنافقون . التغابن . الطلاق . التحريم . هذه كلها مدنية وباقى القرآن مكى .

ولما نزل عليه السلام بقباء نزل على شيخ بنى عمرو كلثوم بن الهدم وكان يجلس للناس ويتحدث لهم فى بيت سعد بن خيثمة لانه كان عزباً ونزل أبوبكر بالسنح (محلة بالمدينة) على خارجة بن زيد من بنى الحارث بن الخزرج .

مسجد قباء

واقام رسول الله بقباء ليالى أسس فيها مسجد قباء الذى وصفه الله بأنه مسجد أسس على التقوى من أوّل يوم وصلى فيه عليه السلام بمن معه من الانصار والمهاجرين وهم آمنون مطمئنون وكانت المساجد على عهد رسول الله فى غاية من البساطة ليس فيها شىء مما اعتاده بناة المساجد

في القرون الاخيرة لان الرسول واصحابه لم يكن جل همهم الا منصرفاً لتزيين القلوب وتنظيفها من حظ الشيطان فكان سور المسجد لا يتجاوز القامة وفوقه مظلة يتقي بها حر الشمس.

الوصول الى المدينة

(ثم) تحول عليه السلام الى المدينة والانصار محيطون به متقلدي سيوفهم وهنا حدّث ولاحرج عن سرور أهل المدينة فكان يوم تحوله عليهم يوماً سعيداً لم يروا فرحين بشئ فرحهم برسول الله وخرج النساء والصبيان والولائد يقلن

طلع البدر علينا   من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا   ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا   جئت بالامر المطاع

وكان الناس يسيرون وراء رسول الله مابين ماش وراكب يتنازعون زمام ناقته كل يريد أن يكون نزيله

اوّل جمعة

وأدركته عليه السلام صلاة الجمعة في بنى سالم بن عَوْف فنزل وصلاها وهذه أول جمعة له عليه السلام وأول خطبة خطبها عليه السلام حمد الله واثنى عليه ثم قال أما بعد ايها الناس فقدموا لانفسكم تعلمن والله ليصعقن احدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راَع ثم ليقولن له ربه ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه ألم يأتك رسولى فبلغك وآتيتك مالا وافضلت عليك فما قدمت لنفسك فلينظرن يميناً وشمالا فلا يرى شيئاً ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم فمن استطاع ان يقى وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ومن لم يجد فبكلمة طيبة فانها تجزى الحسنة عشر امثالها الى سبعمائة ضعف والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

النزول على ابى ايوب

ثم سار وكلما مر على دور من دور الانصار يتضرع اليه اهلها بأن ينزل عندهم ويأخذون بزمام الناقة فيقول دعوها فانها مأمورة ولم تزل سائرة حتى اتت بفناء بنى عدى بن النجار وهم اخواله الذين تزوج منهم هاشم جده فبركت بمحلة من محلاتهم امام دار ابى ايوب الانصارى واسمه خالد بن زيد (١) وذلك محل مسجده الشريف فقال عليه السلام ههنا المنزل ان شاء الله (رب انزلنى منزلا مباركاً وانت خير المنزلين). فاحتمل ابو ايوب رحله ووضعه فى منزله وجاء اسعد بن زرارة فأخذ بزمام ناقته فكانت عنده وخرجت ولائد بنى النجار يقلن

نحن جوار من بنى النجار   يا حبذا محمد من جار

فقال عليه السلام لهن اتحببننى فقلن نعم فقال الله يعلم ان قلبى يحبكن واختار عليه السلام النزول فى الدور الاسفل من دار ابى ايوب ليكون اربح لزائريه ولكن لم يرض رضى الله عنه ذلك كرامة لرسول الله لما يمكن ان يصيبه من التراب الذى يحدثه وطىء الاقدام او الماء الذى يهراق فقد اتفق ان كسرت من زوجته جرّة ماء بالليل فقام هو وهى بقطيفتهما التى ليس لهما غيرها يمسحان الماء خوفاً على رسول الله ولذلك لم يزل ابو ايوب يستعطفه حتى كان فى العلو وكانت تأتيه الجفان كل ليلة من سَراة الانصار كسعد بن عبادة واسعد بن زرارة وام زيد ابن ثابت فما من ليلة الا وعلى بابه الثلاث او الاربع من جفان الثريد

نزول المهاجرين

ولما تحوّل مع رسول الله اغلب المهاجرين تنافس فيهم الانصار فحكموا القرعة بينهم فما نزل مهاجرى على انصارى الا بقرعة

---

١) توفى زمن معاوية فى حصار القسطنطينية ودفن هناك خارج المدينة

أخوة الاسلام

ومن يتأمل الى هذه المحبة التى يستحيل ان تكون بتأثير بشر بل بفضل من الله ورحمته يفهم كيف انتصر هؤلاء الاقوام على معانديهم من المشركين وأهل الكتاب مع قلة العدد والعدة

وكان الانصار يؤثرون اخوانهم المهاجرين على انفسهم قال تعالى فى سورة الحشر (والذين تبوّؤا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) وهذا أعلى درجات الاخوة وكل ذلك كانوا يرونه قليلاً بالنسبة لما وجب عليهم لاخوانهم فان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليمكن بينهم الاخاء آخى بين المهاجرين والانصار فكان كل أنصارى ونزيله أخوين فى الله ومن العبث ان نكلف القلم أن يوضح للقارىء أن هذه الاخوة كانت أرقى بكثير من الاخوة العصبية بل نكل ذلك للاحساس الاسلامى فانه أفصح منطقاً من القلم وعلى الاجمال فتلك قلوب الف الله بينها حتى صارت شيئا واحداً فى اجسام متفرقة وعسى الله ان يوفق مسلمى عصرنا الى هذا الاخاء حتى يسودوا كما ساد المتحدون. وكان هذا الاخاء على المواساة والحق وان يتوارثوا بعد الموت دون ذوى الارحام وكان عليه السلام يقول لكل اثنين (تآخيا فى الله اخوين اخوين) ودام هذا الميراث الى ان نسخه الله بقوله فى سورة الاحزاب (واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض فى كتاب الله)

هجرة أهل البيت

ولما استقر عليه السلام بالمدينة ارسل زيد بن حارثة وابا رافع الى مكة ليأتيا بمن تخلف من اهله وارسل معهما عبدالله بن اريقط يدلهما على الطريق فقدما بفاطمة وأم كلثوم بنتيه عليه السلام وسودة

زوجه وام ايمن زوج زيد وابنها اسامة . اما زينب فمنعها زوجها ابو العاص بن الربيع وخرج مع الجميع عبدالله بن ابى بكر بأم رومان زوج ابيه وعائشة اخته واسماء زوج الزبير بن العوام وكانت حاملا بابنها عبد الله وهو اول مولود للمهاجرين بالمدينة

حمى المدينة

ولم يكن هواء المدينة فى البدء موافقاً للمهاجرين من اهل مكة فأصاب كثيراً منهم الحمى وكان رسول الله يعودهم فلما شكوا اليه الامر قال اللهم حبب الينا المدينة كما حببت الينا مكة واشد وبارك لنا فى مدها وفى صاعها وانقل وباءها الى الجحفة (١) فاستجاب الله جل وعلا دعوته وعاش المهاجرون فى المدينة بسلام

منع المستضعفين من الهجرة

ومنع مشركو مكة بعضاً من المسلمين عن الهجرة وحبسوهم وعذبوهم منهم الوليدبن الوليد وعياش بن ربيعة وهشام بن العاص فكان عليه السلام يدعو لهم فى صلاته وهذا اصل القنوت وقد حصل فى اوقات مختلفة ومحالّ فى الصلات مختلفة فكان فى وتر العشاء وصلاة الصبح بعد الركوع وقبله فروى كل صحابى ما رآه وهذا سبب اختلاف الائمة فى مكان القنوت

السنة الاولى . بناء المسجد

ثم شرع عليه السلام فى بناء مسجده فى مبرك ناقته امام محلة بنى النجار وكان محله مربداً للتمر يملكه غلامان يتيمان فى حجر اسعد ابن زرارة فدعا الغلامين وساومهما المربد ليتخذه مسجداً فقالا بل نهبه لك يارسول الله فأبى عليه السلام ان يقبله منهما هبة بل ابتاعه منهما وكان فيه قبور للمشركين وبعض حفر ونخل فامر بالقبور فنبشت وبالحفر

١) قرية على اثنين وثمانين ميلا من مكة وهى ميقات اهل الشام

فسويت وبالنخل فقطع ثم امر باتخاذ اللبن فاتخذ وشرعوا فى البناء به وجعلوا عضادتى الباب من الحجارة وسقفوه بالجريد وجعلت عمده من جذوع النخل ولايزيد ارتفاعه عن القامة الا قليلا وقد عمل فيه رسول الله بنفسه ليرغب المسلمين فى العمل وصاروا يرتجزون وهو يقول معهم* اللهم لا خير الا خير الآخرة * فارحم الانصار والمهاجرة * وجعلت قبلة المسجد فى شماله الى بيت المقدس وجعل له ثلاثة ابواب ثم حصبت ارضه لان المطر كان قد اثر فيه فأمر عليه السلام بحصبه ولم يزين المسجد بفرش حتى ولا بالحصر وبنى بجانبه حجرتان احداهما لسودة بنت زمعة والاخرى لعائشة ولم يكن عليه السلام متزوجاً غيرهما اذ ذاك وكانت الحجرتان مجاورتين وملاصقتين للمسجد على شكل بنائه وصارت الحجرات تبنى كلما جاءت زوج

بدء الاذان

اوجب الله الصلاة على المسلمين ليكونوا دائماً متذكرين عظمة العلى الاعلى فيتبعون اوامره ويجتنبون نواهيه ولذلك قال فى محكم كتابه فى سورة العنكبوت (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وجعل أفضل الصلاة ما كان جماعة ليذاكر المسلمون بعضهم بعضاً فى شؤونهم واحتياجاتهم ويقووا روابط الالفة والاتحاد بينهم ومتى حان وقت الصلاة لابد من عمل ينبه الغافل ويذكر الساهى حتى يكون الاجتماع عاماً فأتمر النبى عليه الصلاة والسلام مع الصحابة فيما يفعل لذلك فقال بعضهم نرفع راية اذا حان وقت الصلاة ليراها الناس فلم يرتضوا ذلك لانها لاتفيد النائم ولا الغافل وقال آخرون نشعل ناراً على مرتفع من الهضاب فلم يقبل أيضاً وأشار آخرون ببوق وهو ما كانت اليهود تستعمله لصلواتهم فكرهه رسول الله لانه لم يكن يحب تقليد اليهود فى عمل ما واشار بعضهم بالناقوس وهو ما يستعمله النصارى فكرهه الرسول

أيضا واشار بعضهم بالنداء فيقوم بعض الناس اذا حانت الصلاة وينادى بها فقبل هذا الرأى وكان احد المنادين عبدالله بن زيد الانصارى فبيناهو بين النائم واليقظان اذعرض له شخص وقال الااعلمك كلمات تقولها عندالنداء بالصلاة قال بلى فقال له قل الله اكبر الله اكبر مرتين وتشهد مرتين ثم قل حى على الصلاة مرتين ثم حى على الفلاح مرتين ثم كبر ربك مرتين ثم قل لااله الاالله فلما استيقظ توجه الى النبى صلى الله عليه وسلم واخبره خبر رؤياه فقال انها لرؤيا حق ثم قال له لقن ذلك بلالا فانه اندى صوتاً منك وبينما بلال يؤذن اذ جاء عمر يجر رداءه فقال والله لقد رايت مثله يارسول الله. وكان بلال احد مؤذنيه بالمدينة والآخر عبدالله بن ام مكتوم وكان بلال يقول فى اذان الصبح بعد حى على الفلاح الصلاة خير من النوم مرتين واقره الرسول على ذلك وكان عليه السلام يأمر فى فجر رمضان بأذانين اولهما يوقظ به الغافلون حتى ينتبهوا للسحور والثانى للصلاة. اما الاذان للجمعة فكان اوّله اذا جلس الامام على المنبر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر فلما كان عثمان وكثر الناس زاد نداء آخر على الزوراء رواه البخارى ولما تولى هشام بن عبدالملك اخذ الاذان الذى زاده عثمان بالزوراء وجعله على المنار ثم نقل الاذان الذى كان على المنار حين صعود الامام على المنبر فى العهد الاوّل بين يديه

فعلم بذلك أن الاذان فى المسجد بين يدى الخطيب بدعة أحدثها هشام بن عبدالملك ولامعنى لهذا الاذان لانه انما هونداء الى الصلاة ومن هو فى المسجد لامعنى لندائه ومن هو خارج المسجد لايسمع النداء اذا كان النداء فى المسجد ذكر ذلك الشيخ محمد بن الحاج فى المدخل

قال الحافظ فى فتح البارى . وأما ما أحدث الناس قبل الجمعة من الدعاء اليها بالذكر والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فهو فى بعض البلاد دون بعض واتباع السلف الصالح أولى اه.

فعلم من ذلك كله ان سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أذان الجمعة انه كان اذا جلس على المنبر أذن مؤذنه على المنار فاذا انتهت الخطبة أقيمت الصلاة وما عدا ذلك فكله ابتداع.

أما الاقامة وهى الدعوة للصلاة فى المسجد فقد اختلفت الروايات فى نصها فرواها محمد بن ادريس الشافعى مفردة الا لفظ قد قامت الصلاة فمثنى ورواها مالك بن أنس مفردة كلها ورواها ابو حنيفة النعمان مثنى كلها.

يهود المدينة

(هذا) وكما ابتلى الله المسلمين فى مكة بمشركى قريش ابتلاهم فى المدينة بيهودها وهم بنوقينقاع وقريظة والنضير فانهم أظهروا العداوة والبغضاء حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم أنه الحق وكانوا قبل مجيء الرسول يستفتحون على المشركين من العرب اذا شبت الحرب بين الفريقين بنبى يبعث قد قرب زمانه فلما جاءهم ما عرفوا استعظم رؤساؤهم أن تكون النبوّة فى ولد اسماعيل فكفروا بما أنزل الله بغياً مع انهم يرون أن رسول الله محمداً لم يأت الا مصدقاً لما بين يديه من كتب الله التى أُنزلها على من سبقه من المرسلين مبيناً ما افسده التأويل منها ولكنهم نبذوه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون. ومما عابوه على الاسلام نسخ الاحكام وما دروا ان القادر العليم يعلم ما يحتاجه الانسان اكثر منهم فانه ميال بطبعه للترقى والرسول عليه السلام وجد بادئ بدء بين جماعة من العرب أُمّيين ليسوا على شئ من الاعتقادات الالهية فكانت الحكمة داعية لان يكون التشريع لهم على التدريج لانه لو حرم الله عليهم شرب الخمر واكل الربا وأمرهم بالصلاة والزكاة وهكذا الى آخر الاوامر والمناهى التى جاء بها الشرع الاسلامى لما اجابه أحد من هؤلاء النافرة قلوبهم المختلفة أهواؤهم الذين كانوا منغمسين فى كثير من الاضاليل فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالامر شيئاً فشيئاً حتى

روّضت عقولهم وهذبت نفوسهم وكانت الاحكام لاينزلها الله عليه الا عقب الحوادث التى تقتضيها ليكون التأثير فى النفوس أشد ولكن اليهود أرادوا غل يد القدرة عن أن تفعل الا ما يشتهون وقد حجهم القرآن الشريف بما يدل على انهم يعلمون من نفوسهم البعد عن الحق فقال فى سورة البقرة (قل ان كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين) ثم ختم جل ذكره عدم اجابتهم بقوله (ولن يتمنوه ابداً بما قدمت ايديهم والله عليم بالظالمين) فلو كانوا يعلمون من انفسهم انهم على الحق لما تأخروا عما طلب منهم مع سهولته وحرصهم على تكذيب الصادق الامين ولم ينقل لنا عن احد منهم انه تمنى ذلك ولو نطقا باللسان وقد تبين الهدى لاحد رؤساء بنى قينقاع وهو عبدالله بن سلام فترك هواه واسلم بعد أن سمع القرآن وبعد أن كان اليهود يعدونه من رؤسائهم عدّوه من سفهائهم حينما بلغهم اسلامه فيابئس ما اشتروا لانفسهم ولما استحكمت فى قلوبهم عداوة الاسلام صاروا يجهدون انفسهم فى اطفاء نوره (ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون)

المنافقون

(وكان) يساعدهم على مقاصدهم جماعة من عرب المدينة اعمى الله بصائرهم فأخفوا كفرهم خوفاً على حياتهم وكان يرأس هذه الجماعة عبدالله بن أبى ابن سلول الخزرجى الذى كان مرشحاً لرياسة أهل المدينة قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا شك ان ضرر المنافقين أشد على المسلمين من ضرر الكفار لان اولئك يدخلون بين المسلمين فيعلمون أسرارهم ويشيعونها بين الاعداء من اليهود وغيرهم كما حصل ذلك مراراً والاساس الذى كان عليه رسول الله أن يقبل ما ظهر و يترك لله ما بطن ولكنه عليه السلام مع ذلك كان لا يأمنهم فى عمل ما فكثيراً ما

كان يتغيب عن المدينة ويولى عليها بعض الانصار ولكن لم يعهد أنه ولى رجلاً ممن عهد عليه النفاق لانه عليه السلام يعلم ما يكون منهم لو ولوا عملاً فانهم بلا شك يتخذون ذلك فرصة لاضرار المسلمين وهذا درس مهم لرؤساء الاسلام يعلمهم انهم لا يثقون فى الاعمال المهمة الا بمن لم تظهر عليهم شبهة النفاق أو اظهار ما يخالف ما فى الفؤاد

معاهدة اليهود

هذا وقد علمت انه كان يضاد المسلمين فى المدينة فئتان اليهود والمنافقون ولكن الرسول قبل من هؤلاء ظواهرهم وعقد مع اولئك عهداً مقتضاه ترك الحرب والاذى فلا يحاربهم ولا يؤذيهم ولا يعينون عليه احداً وان دَهمه بالمدينة عدو ينصرونه وأقرهم على دينهم

مشروعية القتال

قد علم مما تقدم ان رسول الله عليه السلام لم يقاتل أحداً على الدخول فى الدين بل كان الامر قاصراً على التبشير والانذار وكان الله سبحانه ينزل عليه من الآى مايقويه على الصبر امام ما كان يلاقيه من اذى قريش ومن ذلك قوله فى سورة الاحقاف (فاصبر كما صبر اولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم) وكان كثيراً ما يقص الله عليه انباء اخوانه من المرسلين قبله ليثبت به فؤاده ولما ازداد طغيان اهل مكة الجؤوه الى الخروج من داره بعد ان ائتمروا على قتله فكانوا هم البادئين بالعداء على المسلمين حيث اخرجوهم من ديارهم بغير حق فبعد الهجرة اذن الله للمهاجرين بقتال مشركى قريش بقوله فى سورة الحج (١) (اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله) ثم امرهم بذلك فى قوله فى سورة البقرة (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا

---

١) آية مدنية فى ضمن سورة معظمها مكى

ان الله لا يحب المعتدين واقتلوهم حيث ثقفتموهم واخرجوهم من حيث اخرجوكم والفتنة اشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فان انتهوا فان الله غفور رحيم وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين) وبذلك لم يكن الرسول يتعرض الا لقريش دون سائر العرب فلما تمالأ على المسلمين غير اهل مكة من مشركى العرب واتحدوا عليهم مع الاعداء امر الله بقتال المشركين كافة بقوله فى سورة التوبة (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) وبذلك صار الجهاد عاماً لكل من ليس له كتاب من الوثنيين وهذا مصداق قوله عليه السلام (امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فاذا قالوها عصموا منى دماءهم واموالهم الا بحقها وحسابهم على الله) ولما وجد المسلمون من اليهود خيانة للعهود حيث انهم ساعدوا المشركين فى حروبهم امر الله بقتالهم بقوله فى سورة الانفال (واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين) وقتالهم واجب حتى يدينوا او يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون (مطيعون) ليأمن المسلمون جانبهم وصار قتال رسول الله للاعداء على هذه المبادىء الآتية

١) اعتبار مشركى قريش محاربين لانهم بدؤا بالعدوان فصار للمسلمين قتالهم ومصادرة تجارتهم حتى يأذن الله بفتح مكة او تعقد هدنة وقتية بين الطرفين

٢) متى رؤى من اليهود خيانة وتحيز للمشركين قوتلوا حتى يؤمن جانبهم بالنفى أو القتل

٣) متى تعدت قبيلة من العرب على المسلمين أو ساعدت قريشاً قوتلت حتى تدين بالاسلام

٤) كل من بادأ بعداوة من أهل الكتاب كالنصارى قوتل حتى يذعن بالاسلام او يعطى الجزية عن يد وهو صاغر

٥) كل من اسلم فقد عصم دمه وماله الا بحقه والاسلام يقطع ماقبله

وقد انزل الله فى القرآن الكريم كثيراً من الآى تحريضا على الاقدام فى قتال الاعداء وتبعيداً عن الفرار من الزحف فقال فى الموضوع الاول فى سورة النساء (فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل او يغلب فسوف نؤتيه اجراً عظيماً) وقال فى الموضوع الثانى فى سورة الانفال (يا ايها الذين آمنو اذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الادبار ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفاً لقتال او متحيزاً الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير)

بدء القتال

كانت عادة قريش ان تذهب بتجارتها الى الشام لتبيع وتبتاع ويسمى الركب السائر بهذه التجارة عيراً [٢] وكان يسير معها لحراستها كثير من اشراف القوم وسراتهم ولا بد لوصولهم الى الشام من المرور على دار الهجرة فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يصادر تجارتهم ذاهبة وآيبة ليكون فى ذلك عقاب لمشركى مكة حتى تضعف قوتهم المالية فيكون ذلك ادعى [٣] لخذلانهم [٤] فى ميدان القتال الذى لابد ان يكون لان قريشا لم تكن لتسكت عمن سفه احلامهم وعاب عبادتهم خصوصاً وهم قدوة العرب فى الدين

سرية (١)

ففى شهر رمضان ارسل عمه حمزة بن عبدالمطلب فى ثلاثين رجلاً من المهاجرين وعقد له لواء ابيض حمله ابومرثد حليف حمزة ليعترض عيراً لقريش آيبة من الشام فيها ابوجهل وثلاثمائة من اصحابه المشركين

(١) السرية قطعة من الجيش ونريد بها كل غزاة لم يكن فيها رسول الله والتى كان فيها تسمى غزوة

فسار حمزة حتى وصل ساحل البحر من ناحية العيص (١) فصادف العير هناك فلما تصافوا للقتال حجز بين الفريقين مجدى بن عمرو الجهنى فأطاعوه وانصرفوا وشكر عليه السلام مجدياً على عمله لما كان من قلة عدد المسلمين وكثرة عدوّهم

وفى شوّال ارسل عبيدة بن الحارث ابن عم حمزة فى ثمانين راكباً من المهاجرين وعقد له لواء ابيض حمله مسطح بن اثاثة ليعترض عيراً لقريش فيها مائتا رجل فوافوا العير ببطن رابغ (٢) فكان بينهم الرمى بالنبل ثم خاف المشركون ان يكون للمسلمين كميناً فانهزموا ولم يتبعهم المسلمون وفر من المشركين الى المسلمين المقداد بن الاسود وعتبة بن غزوان وكانا قد اسلما وخرجا ليلحقا بالمسلمين

وفيّات

وفى هذه السنة توفى من المهاجرين عثمان بن مظعون اخو رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاع اسلم قديماً وهاجر الهجرتين ولما دفن أمر عليه السلام بأن يرش قبره بالماء ووضع على قبره حجراً وقال أتعلم به قبر أخى وأدفن اليه من مات من أهلى وهذا كان القصد من وضع الاحجار على المقابر لاما يقصده أهل العصور الاخيرة من تشييد الهياكل على القبور وتصويرها بصور ترى فى عين الناظر كالاصنام ليأتى أقارب الميت ويصنعوا عندها احتفالات كثيراً ما تشبه ما كان يفعله مشركو مكة عند معابدهم ومن العبث فعل شئ لم يفعله رسول الله مما يتعلق بأمور الآخرة.

ومات من الانصار أسعد بن زرارة احد النقباء الاثنى عشر كان رضى الله عنه نقيب بنى النجار ولما مات اختار رسول الله نفسه للنقابة عليهم لان

(١) عرض من اعراض المدينة اى ناحية منها

(٢) واد بين الحرمين قرب البحر

ابن اخت القوم منهم ومات أيضاً البراء بن معرور أحد النقباء وهو الذى كان يتكلم عن القوم فى العقبة الثانية ومات من مشركى مكة فى هذه السنة الوليد بن المغيرة ولما احتضر جزع فقال له أبو جهل ما جزعك ياعم فقال والله ما بى من جزع من الموت ولكن أخاف أن يظهر دين ابن أبى كبشة بمكة فقال أبو سفيان لاتخف انى ضامن أن لا يظهر وفيها ايضاً مات العاصي بن وائل السهمي وقد كفى الله المسلمين شرهذين الشقيين .

السنة الثانية. غزوة ودّان

ولا ثنتى عشرة ليلة خلت من السنة الثانية خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة بعد أن استخلف عليها سعد بن عبادة ليعترض عيراً لقريش فسار حتى بلغ ودان (١) وكان يحمل لواءه عمه حمزة ولم يلق هناك حرباً لان العير كانت قد سبقته وفى هذه الغزوة صالح بنى ضمرة على انهم آمنون على انفسهم ولهم النصر على من رامهم وان عليهم نصرة المسلمين اذا دعوا ثم رجع الى المدينة بعد مضى خمس عشرة ليلة .

غزوة بُواط

ولم يمض على رجوعه غير قليل حتى بلغه ان عيراً لقريش ايبة من الشام فيها أمية بن خلف ومائة من قريش وألفان وخمسمائة بعير فسار اليها فى مائتين من المهاجرين وذلك فى ربيع الاول وكان يحمل لواءه سعد بن ابى وقاص فسار حتى بلغ بواط (٢) فوجد العير قدفاتته فرجع ولم يلق كيداً وذلك كله لما كان يأخذه المشركون من الحذر على أنفسهم والاجتهاد فى تعمية أخبارهم عن أهل المدينة .

(١) قرية بين مكة والمدينة بينها وبين الابواء ستة اميال

(٢) جبال جهينة على ابراد من المدينة جهة ينبع

غزوة العشيرة

وأعقب رجوعه عليه السلام خروج قريش بأعظم عير لها فقد جمعوا فيها اموالهم حتى لم يبق بمكة قرشي أو قرشية لها مثقال فصاعدا الا بعث به في تلك العير وكان يرأسها أبو سفيان بن حرب ومعه بضعة وعشرون رجلاً فخرج لها الرسول في جمادى الاولى ومعه مائة وخمسون من المهاجرين واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الاسد وحمل لواءه عمه حمزة ولم يزل سائراً حتى بلغ العشيرة فوجد العير قد مضت. وحالف عليه السلام في هذه الغزوة بني مدلج وحلفاءهم ثم رجع عليه السلام الى المدينة ينتظر هذه العير حينما ترجع

غزوة بدر الاولى

وبعد رجوعه عليه السلام بقليل جاء كرز بن جابر الفهرى واغار على سرح المدينة وهرب فخرج الرسول في طلبه واستخلف على المدينة زيد بن حارثة الانصارى وحمل لواءه على بن ابى طالب فسار حتى بلغ سفوان (١) وفاته كرز فلم يلق حرباً وتسمى هذه الغزوة بدر الاولى

سرية

وفي رجب من هذه السنة أرسل سرية عدتها ثمانية رجال يرأسها عبد الله بن جحش واعطاه كتاباً مختوماً لايفضه الا بعد أن يسير يومين ثم ينظر فيه فسار عبد الله يومين ثم فتح الكتاب فاذا فيه (اذا نظرت كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم) وانما لم يخبرهم عليه السلام بمقصدهم وهم بالمدينة حذراً من شيوع الخبر فيدل عليهم أحد الاعداء من المنافقين أو اليهود فتترصد لهم قريش

---

١) واد من ناحية بدر

ولا يخفى أن عدد السرية قليل لاتمكنه المقاومة ثم سار عبد الله رضى الله عنه وفى اثناء السير تخلف سعد بن ابى وقاص وعتبة بن غزوان لانهما اضلا بعيرهما الذى كانا يعتقبانه وسار الباقون حتى وصلوا نخلة فمرت بهم عير قرشية تريد مكة فيها عمرو بن الحضرمى وعثمان بن عبد الله بن المغيرة واخوه نوفل والحكم بن كيسان فأجمع المسلمون امرهم على ان يحملوا عليهم ويأخذوا مامعهم فحملوا عليهم فى آخر يوم من رجب فقتلوا عمرو بن الحضرمى واسروا عثمان والحكم وهرب نوفل واستاقوا العير وهى اول غنيمة غنمها المسلمون من اعدائهم قريش ثم رجعوا ولم يتمكن المشركون من اللحاق بهم فلما قدموا المدينة وشاع انهم قاتلوا فى الاشهر الحرم وعابتهم قريش واليهود بذلك عنفهم المسلمون وقال لهم عليه السلام ماامرتكم بقتال فى الاشهر الحرم فندموا فأنزل الله فى سورة البقرة (يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير. وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه اكبر عند الله والفتنة اكبر من القتل) فسرى عنهم وقد طلب المشركون فداء اسيريهما فقال عليه السلام حتى يرجع سعد وعتبة فلما رجعا قبل عليه السلام الفدية فى الاسيرين فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن اسلامه وبقى مع المسليمن وأما عثمان فلحق بمكة كافراً

تحويل القبلة

مكث عليه السلام بالمدينة ستة عشر شهراً يستقبل بيت المقدس فى صلاته وكان يحب أن تكون قبلته الكعبة ويقلب وجهه فى السماء داعياً الله بذلك فبينما هو فى صلاته اذ اوحى الله اليه بتحويل القبلة الى الكعبة فتحوّل وتحوّل من وراءه وكانت هذه الحادثة سبباً لافتنان بعض المسلمين الذين ضعفت قلوبهم فارتدوا على اعقابهم وقد اكثر اليهود من التنديد على الاسلام بهذا التحويل وما دروا أن لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

صوم رمضان

وفى شعبان من هذه السنة اوجب الله صوم شهر رمضان على الامة الاسلامية وكان عليه السلام قبل ذلك يصوم ثلاثة ايام من كل شهر والصيام من دعائم هذا الدين والفرائض التى بها يتم النظام فان الانسان مجبول على حب نفسه والسعى فيما يعود عليها بالنفع الخاص تاركاً ما وراء ذلك من حاجات الضعفاء والمساكين فلا بد من وازع يزعه لحاجات قوم اقعدتهم قواهم عن ادراك حاجاتهم ولا اقوى من ذوق قوارص الجوع والعطش اذبهما تلين نفسه ويتهذب خلقه فيسهل عليه بذل الصدقات

صدقة الفطر

ولذلك أوجب الشارع الحكيم عقب الصوم زكاة الفطر فترى الانسان يبذلها بسخاء نفس ومحبة خالصة

زكاة المال

وفى هذا العام فرضت زكاة الاموال وهذه هى النظام الوحيد الذى به يأكل الفقراء والمساكين من اخوانهم الاغنياء بلا ضرر على هؤلاء فاذا بلغت الدنانير عشرين أوالدراهم مائتين وحال عليها الحول وجب عليك أن تؤدى ربع عشرها اى اثنين ونصفاً فى كل مائة ومازاد فبحسابه واذابلغت الشياه اربعين والبقر ثلاثين والابل خمساً وحال عليها الحول وجب عليك كذلك ان تؤدى منها جزءاً مخصوصاً حدده الشارع ومثلها عروض التجارة ومحصولات الزراعة كل هذا يقبضه الامام ويوزّعه على مستحقيه من الفقراء والمساكين وبقية المذكورين فى آية الصدقة (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) واللبيب العاقل البعيد عن التعصب

يحكم لاول نظرة ان هذا النظام مع عدم اضراره بالاغنياء مقلل لمصايب الفقر التى الجأت كثيراً من فقراء الامم ان يخالفوا نظام دولهم و يؤسسوا مبادئ تقويض العمران وتداعى الأمن كما يفعله الاشتراكيون وغيرهم

غزوة بدر الكبرى

لم يطل العهد بتلك العير العظيمة التى خرج لها عليه السلام وهى متوجهة الى الشام فلم يدركها ولم يزل مترقباً رجوعها فلما سمع برجوعها ندب اليها اصحابه وقال هذه عير قريش فاخرجوا اليها لعل الله ان ينفلكموها فاجاب قوم وثقل آخرون لظنهم ان الرسول عليه السلام لم يرد حرباً فانه لم يحتفل بها بل قال من كان ظهره حاضراً فليركب معنا ولم ينتظر من كان ظهره غائباً فخرج لثلاث ليال خلون من رمضان بعد ان ولى على المدينة عبدالله ابن ام مكتوم وكان معه ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا مائتان ونيف واربعون من الانصار والباقون من المهاجرين ومعهم فرسان وسبعون بعيراً يعتقبونها والحامل للواء مصعب بن عمير العبدرى * ولما علم ابو سفيان بخروج الرسول صلى الله عليه وسلم استأجر راكباً ليأتى قريشاً ويخبرهم الخبر فلما علموا بذلك ادركتهم حميتهم وخافوا على تجارتهم فنفروا سراعاً ولم يتخلف من أشرافهم الا أبو لهب بن عبد المطلب فانه أرسل بدله العاص بن هشام بن المغيرة واراد أمية بن خلف ان يتخلف لحديث حدثه اياه سعد بن معاذ حينما كان معتمراً بعد الهجرة بقليل حيث قال كما رواه البخارى سمعت من رسول الله يقول انهم قاتلوك قال بمكة قال لا أدرى ففزع لذلك وحلف ان لا يخرج فعابه ابو جهل ولم يزل به حتى خرج قاصداً الرجوع بعد قليل ولكن ارادة الله فوق كل ارادة فان منيته ساقته الى حتفه رغم انفه وكذلك عزم جماعة من الاشراف على القعود فعيب عليهم ذلك وبهذا اجمعت رجال قريش على الخروج فخرجوا على الصعب والذلول امامهم القينات

يغنين بهجاء المسلمين و (زين لهم الشيطان اعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس واني جار لكم) وقد ضرب الله عمل الشيطان هذا مثلا يعتبر به ذوو الرأى من بعدهم فقال فى سورة الحشر (كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال انى برىء منك انى اخاف الله رب العالمين) وهكذا كان عمله فى هذه الواقعة (فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال انى برىء منكم انى ارى ما لا ترون انى اخاف الله والله شديد العقاب) وكان عدة من خرج من المشركين تسعمائة وخمسين رجلا معهم مائة فرس وسبعمائة بعير (اما) رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكن يعرف شيئاً مما فعله المشركون ولم يكن خروجه الا للعير فعسكر ببيوت السقيا خارج المدينة واستعرض الجيش فرد من ليس له قدرة على الحرب ثم ارسل اثنين يتجسسان الاخبار عن العير ولما بلغ الروحاء (١) جاءه الخبر بمسير قريش لمنع عيرهم وجاءه مخبراه بأن العير ستصل بدرا غدا او بعد غد فجمع عليه السلام كبراء الجيش وقال لهم (ايها الناس ان الله قد وعدنى احدى الطائفتين انها لكم العير او النفير) فتبين له عليه السلام ان بعضهم يريدون غير ذات الشوكة وهى العير ليستعينوا بما فيها من الاموال فقد قالوا هلا ذكرت لنا القتال فنستعد وجاء مصداق ذلك قوله تعالى فى سورة الانفال (واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم وتودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم) ثم قام المقداد بن الاسود رضى الله عنه فقال يا رسول الله امض لما امرك الله فوالله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى (اذهب انت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون) ولكن اذهب انت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون والله لو سرت بنا الى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه فدعا له بخير ثم قال عليه السلام اشيروا على ايها الناس وهو يريد الانصار لان بيعة العقبة ربما يفهم منها انه لا

(١) موضع على ثلاثين او اربعين ميلا جنوب المدينة الغربى

تجب عليهم نصرته الا ما دام بين اظهرهم فان فيها يارسول الله انا براء من ذمتك حتى تصل الى دارنا فاذا وصلت اليها فانت فى ذمتنا نمنعك مما نمنع منه ابناءنا ونساءنا فقال سعد بن معاذ سيد الاوس كأنك تريدنا يارسول الله فقال اجل فقال سعد قد آمنابك وصدقناك واعطيناك عهودنا فامض لما امرك الله فوالذى بعثك بالحق لواستعرضت بنا هذا البحر فخضته لنخوضنه معك وما نكره ان تكون تلقى العدو بنا غداً انا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر على بركة الله فأشرق وجهه عليه السلام وسر بذلك وقال كما فى رواية البخارى (أبشروا والله لكأنى انظر الى مصارع القوم) فعلم القوم من هذه الجملة ان الحرب لابد حاصلة وحقيقة حصلت فان ابا سفيان لما علم بخروج المسلمين له ترك الطريق المسلوكة وسار متبعاً ساحل البحر فنجا وارسل الى قريش يعلمهم بذلك ويشير عليهم بالرجوع فقال أبو جهل لانرجع حتى نحضر بدراً (١) فنقيم فيه ثلاثاً ننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتسمع بنا العرب فلايزالون يهابوننا أبداً فقال الاخنس بن شريق الثقفى لبنى زهرة وكان حليفاً لهم ارجعوا ياقوم فقد نجى الله أموالكم فرجعوا ولم يشهد بدراً زهرى ولا عدوى ثم سار الجيش حتى وصلوا وادى بدر فنزلوا عدوته القصوى (٢) عن المدينة فى ارض سهلة لينة اما جيش المسلمين فانه لما قارب بدراً أرسل عليه السلام على ابن أبى طالب والزبير بن العوّام ليعرفا الاخبار فصادفا سقاة لقريش فيهم غلام لبنى الحجاج وغلام لبنى العاص السهميين فأتيا بهما والرسول عليه السلام قائم يصلى ثم سألاهما عن انفسهما فقالا نحن سقاة لقريش بعثونا نسقيهم الماء فضرباهما لانهما ظنا ان الغلامين لابى سفيان فقال الغلامان

---

(١) محل بين مكة والمدينة وهو الى المدينة اقرب فى الجنوب الغربى منها على الطريق السلطانى وكان به سوق يعقد كل سنة ثمانية ايام

(٢) عدوة الوادى شاطئه

نحن لابى سفيان فتركاهما ولما اتم الرسول عليه السلام صلاته قال اذا صدقا كم ضربتموهما واذا كذبا كم تركتموهما صدقا والله انهما لقريش ثم قال لهما اخبرانى عن قريش قالا هم وراء هذا الكثيب فقال لهما كم هم فقالا لا ندرى قال كم ينحرون كل يوم قالا يوماً تسعاً ويوماً عشراً قال القوم ما بين التسعمائة والالف ثم سألهما عمن فى النفير من أشراف قريش فذكرا له عددا عظيما فقال عليه السلام لاصحابه هذه مكة قد ألقت اليكم أفلاذ كبدها (١) ثم ساروا حتى نزلوا بعدوة الوادى الدنيا من المدينة بعيدا عن الماء فى ارض سبخة فاصبح المسلمون عطاشاً بعضهم جنب وبعضهم محدث فحدثهم الشيطان بوسوسته ولولا فضل الله عليهم ورحمته لثنيت عزائمهم فانه قال لهم ما ينتظر المشركون منكم الا أن يقطع العطش رقابكم ويذهب قواكم فيتحكموا فيكم كيف شاؤا فأرسل الله لهم الغيث حتى سال الوادى فشربوا واتخذوا الحياض على عدوة الوادى واغتسلوا وتوضؤا وملؤا الاسقية ولبدت الارض حتى ثبتت عليها الاقدام على حين ان كان هذا المطر مصيبة على المشركين فانه وحل الارض حتى لم يعودوا يقدرون على الارتحال ومصداق هذا قوله تعالى فى سورة الانفال (وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الاقدام) وقد أرى الله رسوله فى منامه الاعداء كما أراهموه وقت اللقاء قليلى العدة كيلا يفشل المسلمون وليقضى الله امراً كان مفعولا . قال تعالى فى سورة الانفال (اذ يريكهم الله فى منامك قليلاً ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم فى الامر ولكن الله سلم ان الله عليم بذات الصدور واذ يريكموهم اذ التقيتم فى أعينكم قليلاً ويقللكم فى اعينهم ليقضى الله امرا كان مفعولا والى الله ترجع الامور) ثم سار جيش المسلمين حتى نزل ادنى ماء من بدر فقال له الحباب بن المنذر الانصارى وكان

(١) قطع كبدها

مشهوراً بجودة الرأى يا رسول الله أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا ان نتقدم عنه او نتأخر ام هو الرأى والحرب والمكيدة فقال بل هو الرأى والحرب والمكيدة فقال يا رسول الله ليس لك هذا بمنزل فانهض بالناس حتي تأتى أدنى ماء من القوم فانى اعرف غزارة مائه وكثرته فننزله ونغوّر ما عداه من الآبار ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء فنشرب ولا يشربون فقال الرسول عليه السلام لقد أشرت بالرأى ونهض حتى أتى أدنى ماء من القوم ثم امر بالآبار التى خلفهم فغوّرت لينقطع أمل المشركين فى الشرب من وراء المسلمين وبنى حوضاً على القليب الذى نزل عليه ثم قال له سعد بن معاذ سيد الاوس يا نبى الله ألا نبنى لك عريشاً تكون فيه ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فان أعزنا الله تعالى وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا وان كانت الاخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن ورائنا فقد تخلف عنك أقوام يانبى الله ما نحن باشد لك حباً منهم ولا أطوع لك منهم لهم رغبة فى الجهاد ونية ولو ظنوا انك تلقى حربا ما تخلفوا عنك انما ظنوا انها العير يمنعك الله بهم ويناصحونك ويجاهدون معك فقال عليه السلام أو يقضى الله خيراً من ذلك ثم بنى للرسول عريش فوق تل مشرف على ميدان الحرب ولما اجتمعوا عدل عليه السلام صفوفهم مناكبهم متلاصقة فصاروا كأنهم بنيان مرصوص ثم نظر لقريش فقال (اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذى وعدتنى به) وفى هذا الوقت وقع خلف بين رؤساء عسكر المشركين فان عتبة بن ربيعة أراد أن يمنع الناس من الحرب ويحمل دم حليفه عمرو بن الحضرمى الذى قتل فى سرية عبدالله بن جحش ويحمل ما اصيب من عيره ودعا الناس الى ذلك فلما بلغ أبا جهل الخبر وسمه بالجبن وقال والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد وقبل ان تقوم الحرب على ساقها خرج من صفوف المشركين الاسود بن عبدالاسد المخزومى وقال أعاهد الله لاشربن من

حوضهم أو لا هدمنه أو لا موتن دونه فخرج اليه حمزة بن عبدالمطلب وضربه ضربة قطع بها قدمه بنصف ساقه فوقع على ظهره فزحف على الحوض حتى اقتحم فيه ليبر قسمه فاتبعه حمزة فقتله ثم وقف عليه السلام يحرض الناس على الثبات والصبر وكان فيما قال (وان الصبر فى مواطن البأس مما يفرج الله به الهم وينجي به من الغم) ثم ابتدأ القتال بالمبارزة فخرج من صفوف المشركين ثلاثة نفر عتبة بن ربيعة بين اخيه شيبة وابنه الوليد فطلبوا أكفاءهم فخرج اليهم ثلاثة من الانصار فقالوا لا حاجة لنا بكم انما نريد أكفائنا من بنى عمنا فاخرج لهم عليه السلام عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب للاول وحمزة بن عبد المطلب للثانى وعلى بن أبى طالب للثالث فاما حمزة وعلى فقتلا صاحبيهما وأما عبيدة وعتبة فاختلفا بضربتين كلاهما جرح صاحبه فحمل رفيقا عبيدة على عتبة فأجهزا عليه وحمل عبيدة من بين الصفوف جريحاً يسيل مخ ساقه واضجعوه الى جانب موقفه صلى الله عليه وسلم فأفرشه رسول الله قدمه الشريفة فوضع خده عليها وبشر عليه السلام بالشهادة فقال وددت والله ان أبا طالب كان حياً ليعلم اننا أحق منه بقوله

ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وبعد انقضاء هذه المبارزة وقف عليه السلام بين الصفوف يعدلها بقضيب فى يده فمر بسواد بن غزية حليف بنى النجار وهو خارج من الصف فضربه بالقضيب فى بطنه وقال استقم يا سواد فقال أوجعتنى يارسول الله وقد بعثت بالحق والعدل فأقدنى من نفسك فكشف الرسول عليه السلام عن بطنه وقال استقد يا سواد فاعتنقه سواد وقبل بطنه فقال عليه السلام ما حملك على ذلك فقال يارسول الله قد حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد أن يمس جلدى جلدك فدعا له بخير ثم ابتدأ عليه السلام يوصى الجيش فقال (لا تحملوا حتى آمركم وان اكتنفكم

القوم فانضحوهم بالنبل ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم) ثم حضهم على الصبر والثبات ثم رجع الى عريشه ومعه رفيقه أبو بكر وحارسه سعدبن معاذ واقف على باب العريش متوشح سيفه وكان من دعاء الرسول عليه السلام ذاك الوقت كما جاء فى صحيح البخارى (اللهم انشدك عهدك ووعدك اللهم ان شئت لم تعبد) فقال أبو بكر حسبك فان الله سينجز لك وعدك فخرج عليه السلام من العريش وهو يقول (سيهزم الجمع ويولون الدبر) ثم قال عليه السلام يحرض الجيش (والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر الا ادخله الله الجنة ومن قتل قتيلا فله سلبه) فقال عمير بن الحمام وبيده تمرات يأكلها بخ بخ ما بينى وبين أن ادخل الجنة الا ان يقتلنى هؤلاء ثم قذف التمرات من يده واخذ سيفه وقاتل حتى قتل واشتد القتال وحمى الوطيس وايد الله المسلمين بالملائكة بشرى لهم ولتطمئن به قلوبهم فلم تكن الاساعة حتى هزم الجمع وولوا الدبر وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون فقتل من المشركين نحو السبعين منهم من قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة قتلوا مبارزة أوّل القتال وأبو البخترى بن هشام والجراح والد ابى عبيدة قتله ابنه بعد ان ابتعد عنه فلم يزدجر وقتل امية بن خلف وابنه على اشترك فى قتلهما جماعة من الانصار مع بلال بن رباح وعمار ابن ياسر وقد سعيا فى ذلك لما كان يفعله بهما امية فى مكة ومن القتلى حنظلة بن ابى سفيان وابو جهل بن هشام اثخنه فتيان صغيران من الانصار لما كانا يسمعانه من انه كان شديد الايذاء لرسول الله واجهز عليه عبدالله بن مسعود وقتل نوفل بن خويلد قتله على بن ابى طالب وقتل عبيدة والعاصى ولدا ابى احيحة سعيد بن العاص بن امية وقتل كثيرون غيرهم اما الاسرى فكانو سبعين ايضاً قتل منهم عليه السلام وهو راجع عُقْبَة بن ابى مُعَيْط والنضر بن الحارث اللذين كانا بمكة من اشد المستهزئين

وقد امر عليه السلام بالقتلى فنقلوا من مصارعهم التى كان الرسول عليه السلام اخبر بها قبل حصول الموقعة الى قليب بدر لانه عليه السلام كان من سننه فى مغازيه اذا مر بجيفة انسان امر بهـا فدفنت لا يسأل عنه مؤمناً او كافراً ولما القى عتبة والد أبى حذيفة احد السابقين الى الاسلام تغير وجه ابنه ففطن الرسول عليه السلام لذلك فقال لعلك دخلك من شأن ابيك شيء فقال لا والله ولكنى كنت اعرف من ابى رأياً وحلماً وفضلاً فكنت ارجو ان يهديه الله للاسلام فلما رأيت ما مات عليه حزننى ذلك فدعا له الرسول عليه السلام بخير ثم امر عليه السلام براحلته فشد عليها حتى قام على شفة القليب الذى رمى فيه المشركون فجعل يناديهم بأسمائهم واسماء آبائهم يا فلان ابن فلان ويا فلان ابن فلان ايسركم انكم كنتم اطعتم الله ورسوله فانا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعدربكم حقاً فقال عمر يارسول الله ما تكلم من اجساد لا ارواح فيها فقال والذى نفس محمد بيده ما انتم بأسمع لما اقول منهم وتقول عائشة رضى الله عنها انما قال انهم الآن ليعلمون ان ما كنت اقول لهم حق ثم قرأت انك لا تسمع الموتى وما انت بمسمع من فى القبور تقول يعلمون ذلك حينما تبوؤا مقاعدهم من النار (رواه البخارى) ثم ارسل عليه السلام المبشرين فأرسل عبدالله بن رواحة لاهل العالية (١) وارسل زيد بن حارثة لاهل السافلة راكباً على ناقة رسول الله وكان المنافقون والكفار من اليهود قد ارجفوا بالرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين عادة الاعداء فى اذاعة الضراء يقصدون بذلك فتنة المسلمين فجاء أولئك المبشرون بماسر أهل المدينة وكان ذلك وقت انصرافهم من دفن رقية بنت رسول الله وزوج عثمان ثم قفل رسول الله راجعاً وهنا وقع خلف بين بعض المسلمين فى قسمة الغنائم فالشبان يقولون

(١) قرى بظاهر المدينة وهى العوالى

باشرنا القتال فهى لنا خالصة والشيوخ يقولون كنا ردءا لكم فشاركم ولما كان هذا الاختلاف مما يدعو الى الضعف ويزرع فى القلوب العداوة والبغضاء المؤديين الى تشتت الشمل انزل الله حسماً لهذا الخلاف أول سورة الانفال (يسئلونك عن الانفال قل الانفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم واطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين) فسطع على افئدتهم نور القرآن فتألفت بعد ان كادت تفترق وتركوا أمر الغنائم لرسول الله يضعها كيف شاء كما حكم القرآن فقسمها عليه السلام على السواء الراجل مع الراجل والفارس مع الفارس وادخل فى الاسهام بعض من لم يحضر لامر كلف به وهم أبو لبابة الانصارى لانه كان مخلفاً على أهل المدينة والحارث بن حاطب لان الرسول عليه السلام خلفه على بنى عمرو بن عوف ليحقق أمراً بلغه والحارث بن الصمة وخوّات بن جبير لانهما كسرا بالروحاء فلم يتمكنا من السير وطلحة ابن عبيدالله وسعيد بن زيد لانهما ارسلا يتجسسان الاخبار فلم يرجعا الابعد انتهاء الحرب وعثمان بن عفان لان الرسول عليه السلام خلفه على ابنته رقية يمرضها وعاصم بن عدى لانه خلفه على اهل قباء والعالية وكذلك أسهم لمن قتل ببدر وهم أربعة عشر منهم عبيدة بن الحارث ابن عبدالمطلب بن هاشم الذى جرح فى المبارزة الاولى فانه رضى الله عنه مات عند رجوع المسلمين من بدر ودفن بالصفراء ولما قارب عليه السلام المدينة تلقته الولائد بالدفوف يقلن

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالامر المطاع

أسرى بدر

ولما دخلوا المدينة استشار عليه السلام اصحابه فيما يفعل بالاسرى فقال

عمر بن الخطاب يارسول الله قد كذبوك وقاتلوك وأخرجوك فأرى ان تمكنني من فلان لقريب له فأضرب عنقه وتمكن حمزة من اخيه العباس وعلياً من اخيه عقيل وهكذا حتى يعلم انه ليس في قلوبنا مودة للمشركين ما ارى ان تكون لك اسرى فاضرب اعناقهم هؤلاء صناديدهم وائمتهم وقادتهم ووافقه على ذلك سعد بن معاذ وعبدالله بن رواحة وقال ابو بكر يارسول الله هؤلاء اهلك وقومك قد اعطاك الله الظفر والنصر عليهم ارى أن تستبقيهم وتأخذ الفداء منهم فيكون ما اخذنا منهم قوّة لنا على الكفار وعسى ان الله يهديهم بك فيكونوا لك عضداً فقال عليه السلام ان الله ليلين قلوب اقوام حتى تكون ألين من اللبن وان الله ليشدد قلوب اقوام حتى تكون اشد من الحجارة وان مثلك يا ابابكر مثل ابراهيم قال (فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم) وان مثلك ياعمر مثل نوح قال (رب لاتذر على الارض من الكافرين دياراً) ورأى عليه السلام رأى أبي بكر بعد ان مدح كلا من الصاحبين لان الوجهة واحدة وهي أعزاز الدين وخذلان المشركين ثم قال لاصحابه انتم اليوم عالة فلا يفلتن احد من اسراكم الا بفداء وقد بلغ قريشاً ماعزم عليه الرسول في امر الاسرى فناحت على القتلى شهراً ثم اشير عليهم من كبارهم ان لايفعلوا كيلا يبلغ محمداً واصحابه جزعهم فيشمتوا بهم فسكتوا وصمموا ان لايبكوا قتلاهم حتى يأخذوا بثارهم وتواصوا فيما بينهم ان لا يعجلوا في طلب الفداء لئلا يتغالى المسلمون فيه

الفداء

فلم يلتفت الى ذلك المطلب بن أبي وداعة السهمي وكان أبوه من الاسرى فخرج خفية حتى أتى المدينة وفدى أباه بأربعة آلاف درهم وعند ذلك بعثت قريش في فداء أسراها وكان من أربعة آلاف الى الف درهم ومن لم يكن معه فداء وهو يحسن القراءة والكتابة أعطوه عشرة من غلمان المدينة يعلمهم وكان ذلك فداءه (ومن) الاسرى عمرو بن أبي سفيان

ولما طلب من ابيه فداؤه ابى وقال والله لا يجمع محمد بين ابنى ومالى دعوه يمسكوه فى أيديهم ما بدا لهم فبينما أبوسفيان بمكة اذ وجد سعد ابن النعمان الانصارى معتمراً فعدا عليه فحبسه بابنه عمرو فمضى قوم سعد الى رسول الله وأخبروه الخبر فأعطاهم غمراً ففكوا به سعداً (ومن) الاسرى أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت الرسول وكان عليه السلام قد أثنى عليه خيراً فى مصاهرته فانه لما استحكمت العداوة بين قريش ورسول الله بمكة طلبوا من ابى العاص أن يطلق زينب كما فعل ابنا أبى لهب بابنتى الرسول فامتنع وقال والله لا أفارق صاحبتى وما أحب ان لى بها امرأة من قريش ولما اسر أرسلت زينب فى فدائه قلادة لها كانت حلتها بها أمها خديجة ليلة عرسها فلما رأى عليه السلام تلك القلادة رق لها رقة شديدة وقال لاصحابه ان رأيتم ان تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها قلادتها فأفعلوا فرضى الاصحاب بذلك فاطلقه عليه السلام بشرط ان يترك زينب تهاجر الى المدينة فلما وصل الى مكة امرها باللحاق بأبيها وكان الرسول ارسل لها من يأتى بها فاحتملوها (هذا) ولما اسلم ابو العاص ابن الربيع قبيل الفتح رد عليه امراته بالنكاح الاول (ومن) الاسرى سهيل ابن عمرو وكان من خطباء قريش وفصحائها وطالما آذى المسلمين بلسانه فقال عمر بن الخطاب دعنى يارسول الله انزع ثنيتى سهيل يدلع (١) لسانه فلا يقوم عليك خطيباً فى موطن أبداً فقال عليه السلام لا امثل فيمثل الله بى وان كنت نبياً وعسى أن يقوم مقاماً لا تذمه وقدم بفدائه مكرز بن حفص ولما ارتضى معهم على مقدار حبس نفسه بدله حتى جاء بالفداء . هذا وقد حقق الله خبر الرسول فى سهيل فانه لما مات عليه السلام أراد اهل مكة الارتداد كما فعل غيرهم من الاعراب فقام سهيل هذا خطيباً وقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله أيها الناس من كان

---

(١) يخرج

يعبد محمداً فان محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت ألم تعلموا أن الله قال (انك ميت وانهم ميتون) وقال (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفائن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) ثم قال والله انى اعلم ان هذا الدين سيمتد امتداد الشمس فى طلوعها فلايغرنكم هذا (يريد أبا سفيان) من انفسكم فانه ليعلم من هذا الامر ما اعلم لكنه قد ختم على صدره حسد بنى هاشم وتوكلوا على ربكم فان دين الله قائم وكلمته تامة وان الله ناصر من نصره ومقوّ دينه وقد جمعكم الله على خيركم (يريد أبا بكر) وان ذلك لم يزد الاسلام الا قوّة فمن رأيناه ارتد ضربنا عنقه فتراجع الناس عما كانوا عزموا عليه وكان هذا الخبر من معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم (ومن) الاسرى الوليد بن الوليد افتكه اخواه خالد وهشام فلما افتدى ورجع الى مكة اسلم فقيل له هلا اسلمت قبل الفداء فقال خفت ان يعدوا اسلامى خوفاً ولما اراد الهجرة منعه اخواه ففر الى النبى فى عمرة القضاء (ومن) الاسرى السائب بن يزيد وكان صاحب الراية فى تلك الحرب فدى نفسه وهو الجد الخامس للامام محمد بن ادريس الشافعى (ومنهم) وهب بن عمير الجمحى كان ابوه عمير شيطاناً من شياطين قريش كثيرالايذاء لرسول الله جلس يوماً بعد انتهاء هذه الحرب مع صفوان بن امية يتذكران مصاب بدر فقال عمير والله لولا دين على ليس عندى قضاؤ وعيال اخشى عليهم الفقر بعدى كنت آتى محمداً فأقتله فان ابنى اسير فى ايديهم فقال له صفوان دينك على وعيالك مع عيالى فأخذ عمير سيفه وشحذه وسمه وانطلق حتى قدم المدينة فبينا عمر مع نفر من المسلمين اذ نظر الى عمير متوشحاً سيفه فقال هذا الكلب عدو الله ما جاء الا بشر ثم قال للنبى عليه السلام هذا عدو الله عمير قد جاء متوشحاً سيفه فقال أدخله على فأخذه عمر بحمائل سيفه وادخله فلما رآه عليه السلام قال أطلقه ياعمر ادن يا عمير فدنا وقال

إِنعَموا صباحاً فقال عليه السلام قد ابدلنا الله تحية خيراً من تحيتك وهى السلام ثم قال ما جاء بك يا عمير قال جئت لهذا الاسير الذى فى ايديكم فاحسنوا فيه قال فما بال السيف قال قبحها الله من سيوف وهل اغنت عنا شيئا فقال عليه السلام اصدقنى ما الذى جئت له قال ما جئت الا لذلك قال عليه السلام كلا بل قعدت انت وصفوان فى الحجر وقلتما كيت وكيت فأسلم عمير وقال كنا نكذبك بما تأتى به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحى وهذا امر لم يحضره الا انا وصفوان فقال عليه السلام فقهوا اخاكم فى دينه واقرؤه القرآن واطلقوا اسيره فعاد عمير الى مكة واظهر اسلامه (ومن) الاسرى ابو عزيز بن عمير اخو مصعب بن عمير مر به اخوه فقال للذى اسره شدّيدك به فان أمه ذات متاع لعلها تفديه منك فقال له يا اخى هذه وصايتك بى . بعثت امه بفدائه اربعة آلاف درهم (ومن) الاسرى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد خرج لهذه الحرب مكرهاً ولما وقع فى الاسرى طلب منه فداء نفسه وابن أخيه عقيل بن ابى طالب فقال علام ندفع وقد استكرهنا على الخروج فقال عليه السلام لقد كنت فى الظاهر علينا فاخذت منه فدية نفسه وابن اخيه ثم قال للرسول لقد تركتنى فقير قريش ما بقيت قال كيف وقد تركت لام الفضل اموالا وقلت لها ان مت فقد تركتك غنية فقال العباس والله ما اطلع على ذلك احد. وهذا العمل غاية ما يفعل من العدل والمساواة فانه عليه السلام لم يعاف عمه مع علمه بأنه انما خرج مكرها وقد عافى غيره جماعة تحقق له فقرهم فهكذا العدل ولا غرابة فذلك أدب قوله تعالى (يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم او الوالدين والاقربين) (ومن) الأسرى ابو عزة الجمحى الشاعر كان شديد الايذاء لرسول الله بمكة فلما اسر قال يا محمد انى فقير وذو عيال وذو حاجة قد عرفتها فامنن على فمن عليه فضلاً منه

العتاب في الفداء

ولما تم الفداء أنزل الله في شأنه (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الارض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) نهى سبحانه عن اتخاذ الاسرى قبل الاثخان في قتل الذين يصدون عن سبيل الله ويمنعون دين الله من الانتشار وعاب بعض المسلمين على ارادة عرض الدنيا وهو الفدية ولولا حكم سابق من الله أن لا يعاقب مجتهداً على اجتهاده ما دام المقصد خيراً لكان العذاب ثم أباح لهم الاكل من تلك الفدية المبنى أخذها على النظر الصحيح وهذا من اقوى الادلة على صدق نبينا عليه السلام فيما جاء به لانه لو كان من عنده ما كان يعاتب نفسه على عمل عمله بناء على رأى كثير من الصحابة وقد وعد الله الاسرى الذين يعلم في قلوبهم خيراً بأن يؤتيهم خيراً مما أخذ منهم ويغفر لهم فقال (يا أيها النبي قل لمن في ايديكم من الاسرى ان يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم) وهذه الغزوة هي التي أعز الله بها الاسلام وقوّى أهله ودمغ فيه الشرك وخرب محله مع قلة المسلمين وكثرة عدوهم فهي آية ظاهرة على عناية الله تعالى بالاسلام واهله معما كان عليه العدو من القوة بسوابغ الحديد والعدة الكاملة والخيل المسوّمة والخيلاء الزائدة ولذلك قال الله ممتنا على عباده بهذا النصر (ولقد نصركم الله ببدر وانتم أذلة) اى قليل عددكم لتعلموا ان النصر انما هو من عند الله فهي اعظم غزوات الاسلام اذ بها كان ظهوره وبعد وقوعها أشرق على الآفاق نوره فقد قتل فيها من صناديد قريش من كانوا الاعداء الألداء للاسلام ودخل الرعب في قلوب العرب الآخرين فكانت للمسلمين هيبة بها يكسرون الجيوش ويهزمون

الرجال فلا جرم ان شكرنا العلى الاعلى على هذه العناية واتخذنا يوم النصر فى بدر وهو السابع عشر من رمضان عيداً نتذكر فيه نعمة الله على رسوله وعلى المسلمين .

غزوة قينقاع

هذا واذا كان للشخص عدوان فانتصر على احدهما حرك ذلك شجو الآخر وهاج فؤاده فتبدو بغضاؤه غير مكترث بعاقبة عدائه وهذا ما حصل من يهود بنى قينقاع عند تمام الظفر فى بدر فانهم نبذوا ما عاهدوا المسليمن عليه واظهروا مكنون ضمائرهم فبدت البغضاء من افواههم وانتهكوا حرمة سيدة من نساء الانصار وهذا مما يدعو المسلمين للتحرز منهم وعدم ائتمانهم فى المستقبل اذا شبت الحرب فى المدينة بين المسلمين وغيرهم فانزل الله فى سورة الانفال (واما تخافن من قوم خيانة فانبذ(١) اليهم على سواء ان الله لايحب الخائنين) فدعا عليه السلام رؤساءهم وحذرهم عاقبة البغى ونكث العهد فقالوا يا محمد لايغرنك ما لقيت من قومك فانهم لاعلم لهم بالحرب ولو لقيتنا لتعلمن انا نحن الناس وكانوا اشجع يهود فانزل الله فى سورة آل عمران (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء ان فى ذلك لعبرة لاولى الابصار) وعنده ذلك تبرأ من حلفهم عُبادة بن الصامت أحد رؤساء الخزرج وتشبث بالحلف عبدالله بن ابى وقال انى رجل اخشى الدوائر فانزل الله تعليما للمسلمين فى سورة المائدة (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء

(١) اى فاطرح اليهم العهد على طريق مستو قصد بأن تظهر لهم نبذ العهود ولا تناجزهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد لان ذلك خيانة ولذا قال (ان الله لايحب الخائنين)

بعضهم اولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ان الله لايهدى القوم الظالمبن فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى ان تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى انفسهم نادمين) وعندما تظاهر يهود قينقاع بالعداوة وتحصنوا بحصونهم سار اليهم عليه السلام فى نصف شوال من هذه السنة يحمل لواءه عمه حمزة وخلف على المدينة أبا لُبابة الانصارى فحاصرهم خمس عشرة ليلة

جلاء قينقاع

ولما رأوا من انفسهم العجز عن مقاومة المسلمين وادركهم الرعب سألوا رسول الله ان يخلى سبيلهم فيخرجوا من المدينة ولهم النساء والذرية وللمسلمين الاموال فقبل ذلك عليه السلام ووكل بجلاءهم عبادة ابن الصامت وأمهلهم ثلاث ليال فذهبوا الى اذرعات (١) ولم يحل عليهم الحول حتى هلكوا كلهم وخمس عليه السلام أموالهم واعطى سهم ذوى القربى لبنى هاشم ولبنى المطلب دون بنى اخويهما عبدشمس ونوفل ولما سئل عن ذلك قال انما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد فى الجاهلية والاسلام هكذا وشبك بين اصابعه

غزوة السويق

كان أبوسفيان متهيجاً لانه لم يشاهد بدرا التى قتل فيها ابنه وذوو قرباه فحلف ان لايمس رأسه الماء حتى يغزو محمداً وليبر بقسمه خرج بمائتين من أصحابه يريد المدينة ولما قاربها أراد أن يقابل اليهود من بنى النضير ليهيجهم ويستعين بهم على حرب المسلمين فأتى سيدهم حيى بن أخطب فلم يرض مقابلته فأتى سلام بن مشكم فأذن له واجتمع به

١) بلدة بالشام

ثم خرج من عنده وأرسل رجالا من قريش الى المدينة فحرقوا بعض نخلها ووجدوا انصاريا فقتلوه ولما علم بذلك رسول الله خرج اثرهم فى مائتين من أصحابه لخمس خلون من ذى الحجة بعد ان ولى على المدينة بشير بن عبد المنذر ولكن لم يلحقهم لانهم هربوا وجعلوا يخففون مايحملونه ليكونوا أقدر على الاسراع فألقوا ما معهم من جرب السّويق فاخذه المسلمون ولذلك سميت هذه الغزوة بغزوة السويق

صلاة العيد

وفى هذا العام سنّ الله للعالم الاسلامى سنة عظيمة بها يتمكن أبناء البلد الواحد من المسلمين ان يجددوا عهود الاخاء ويقووا عروة الدين الوثقى وهى الاجتماع فى يومى عيد الفطر وعيد الاضحى وكان عليه السلام يجمع المسلمين فى صعيد واحد ويصلى بهم ركعتين تضرعاً الى الله ان لا يفصم عروتهم وان ينصرهم على عدوهم ثم يخطبهم حاضاً لهم على الائتلاف ومذكراً لهم ما يجب عليهم لانفسهم ثم يصافح المسلمون بعضهم بعضاً وبعد ذلك يخرجون لاداء الصدقات للفقراء والمساكين حتى يكون السرور عاماً لجميع المسلمين فبعد الفطر زكاته وبعد الاضحى تضحيته نسأله تعالى ان يؤلف قلوبنا ويوفقنا لاعمال سلفنا .

زواج على بفاطمة عليهما السلام

وفى هذه السنة تزوج على بن أبى طالب وعمره احدى وعشرون سنة بفاطمة بنت رسول الله وسنها خمس عشرة سنة وكان منها عقب رسول الله بنو الحسن والحسين وزينب (وفيها) دخل عليه السلام بعائشة بنت أبى بكر وسنها اذ ذاك تسع سنوات .

السنة الثالثة

يالله يقضى على الشقى بالشقاوة حتى لا يسمع ولا يبصر فيتخذ الغدر

رداء والخيانة شعاراً فلا ينجح معه الا اراحة العالم من شره هذا كعب ابن الاشرف اليهودى عظيم بنى النضير أعمته عداوة المسلمين حتى خلع برقع الحياء وصار يحرض قريشاً على حرب رسول الله ويهجوه بالشعر ويجتهد فى اثارة الشحناء بين المسلمين فكلما جبر عليه السلام كسراً هاضه هذا الشقى بما ينفثه من سموم لسانه .

قتل كعب بن الاشرف

ولما انتصر المسلمون ببدر ورأى الاسرى مقرنين فى الحبال خرج الى قريش يبكى قتلاهم ويحرضهم على حرب المسلمين فقال عليه السلام من لكعب بن الاشرف فانه قد آذى الله ورسوله فقال محمد بن مسلمة الانصارى الاوسى أتحب ان أقتله قال نعم قال أنالك به وأذن لى أن اقول شيئاً أتمكن به فاذن له ثم خرج ومعه أربعة من قومه حتى أتى كعباً فقال له ان هذا الرجل (يريد رسول الله) قد سألنا صدقة وانه قد عنانا وانى قد أتيتك استسلفك قال وأيضاً والله لتملنه قال انا قد اتبعناه فلا نحب ان ندعه حتى ننظر الى أى شئ يصير شأنه وقد اردنا ان تسلفنا وسقا أووسقين قال نعم ولكن ارهنونى قالوا أى شئ تريد قال ارهنونى نساءكم قالوا كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب قال فارهنونى ابناءكم قالوا كيف نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم فيقال رهن بوسق اووسقين هذا عار علينا ولكن نرهنك اللامة يعنى السلاح فرضى فواعده ليلاً ان يأتيه فجاءه ليلاً ومعه أبو نائلة أخو كعب من الرضاع وعباد ابن بشر والحارث بن أوس وابو عبس بن جبر وكلهم اوسيون فناداه محمد بن مسلمة فاراد ان ينزل فقالت له امرأته اين تخرج الساعة وانك امرؤ تحارب فقال انما هو ابن اخى محمد بن مسلمة ورضيعى ابو نائلة ان الكريم لو دعى الى طعنة بليل لاجاب ثم قال محمد لمن معه اذا جاءنى فانى آخذ بشعره فاشمه فاذا رأيتمونى استمكنت من رأسه

فاضربوه فنزل اليهم كعب متوشحاً سيفه وهو ينفح منه ريح المسك فقال محمد ما رأيت كاليوم ريحاً اطيب اتأذن لى ان اشم رأسك قال نعم فشمه فلما استمكن منه قال دونكم فاقتلوه ففعلوا واراح الله المسلمين من شر اعماله التى كان يقصدها بهم ثم اتوا النبى فأخبروه وكان قتل هذا الشقى فى ربيع الاول من هذا العام وكان عليه السلام اذ رأى من رئيس غدراً ومقاصد سوء ومحبة لا ثارة الحرب ارسل له من يريحه من شره وقد فعل كذلك مع ابى عفك اليهودى وكان مثل كعب فى الشر

غزوة غطفان

بلغ رسول الله ان بنى ثعلبة ومحارب من غطفان تجمعوا برياسة رئيس منهم اسمه دُعثور يريدون الغارة على المدينة فاراد عليه السلام ان يغل ايديهم كيلا يتمكنوا من هذا الاعتداء فخرج اليهم من المدينة فى اربعمائة وخمسين رجلا لثنتى عشرة ليلة مضت من ربيع الاول وخلف على المدينة عثمان بن عفان ولما سمعوا بسير رسول الله هربوا الى رؤس الجبال ولم يزل المسلمون سائرين حتى وصلوا ماء يسمى ذا أمر فعسكروا به وحدث انه عليه السلام نزع ثوبه يجففه من مطر بلله وارتاح تحت شجرة والمسلمون متفرقون فابصره دعثور فاقبل اليه بسيفه حتى وقف على رأسه وقال من يمنعك منى يا محمد فقال الله فادركت الرجل هيبة ورعب أسقطا السيف من يده فتناوله عليه السلام وقال لدعثور من يمنعك منى قال لا أحد فعفا عنه فاسلم الرجل ودعا قومه للاسلام وحول الله قلبه من عداوة رسول الله وجمع الناس لحربه الى محبته وجمع الناس له ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وهذا ما ينتجه حسن المعاملة والبعد عن الفظاظة وغلظ القلب (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الامر)

غزوة بحران

بلغه عليه السلام أن جمعاً من بنى سليم يريدون الغارة على المدينة فسار اليهم فى ثلاثمائة من أصحابه لست خلون من جمادى الاولى وخلف على المدينة ابن أم مكتوم ولما وصل الى بحران(١) تفرقوا ولم يلق كيدا فرجع

سرية

لما تيقنت قريش أن طريق الشام من جهة المدينة أغلق فى وجه تجارتهم ولا يمكنهم الصبر عنها لان بها حياتهم أرسلوا عيرا الى الشام من طريق العراق وكان فيها جمع من قريش منهم أبو سفيان بن حرب وصفوان ابن أمية وحويطب بن عبد العزى فجاءت أخبارهم لرسول الله فارسل لهم زيد بن حارثة فى مائة راكب يترقبونهم وكان ذلك فى جمادى الآخرة فسارت السرية حتى لقيت العير على ماء اسمه (القَرْدة) بناحية نجد فاخذت العير وما فيها وهرب الرجال وقد خمس الرسول عليه السلام هذه العير حينما وصلت له

غزوة أحد

لما أصاب قريشاً ما أصابها ببدر وأغلقت فى وجوههم طرق التجاره اجتمع من بقى من أشرافهم الى أبى سفيان رئيس تلك العير التى جلبت عليهم المصائب وكانت موقوفة بدار الندوة ولم تكن سلمت لاصحابها بعد فقالوا ان محمداً قد وترنا وقتل خيارنا وانا رضينا ان نترك ربح أموالنا فيها استعدادا لحرب محمد وأصحابه وقد رضى بذلك من له فيها نصيب وكان ربحها نحوا من خمسين الف دينار فجمعوا لذلك الرجال فاجتمع من قريش ثلاثة آلاف رجل ومعهم الاحابيش وهم حلفاؤهم من بنى المصطلق وبنى الهون بن خزيمة ومعهم أبو عامر الراهب الاوسى وكان

١) موضع بناحية الفرع وهذا موضع من اضخم اعراض المدينة

قدفارق المدينة كراهية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه عدد ممن هم على شاكلته وخرج معهم جماعات من أعراب كنانة وتهامة وقال صفوان ابن أمية لابى عزة الشاعر الذى لاينسى القارىء ان الرسول من عليه ببدر واطلقه من غير فداء انك رجل شاعر فأعنا بلسانك فقال انى عاهدت محمدا أن لاأعين عليه وأخاف ان وقعت فى يده مرة ثانية أن لاأنجو فلم يزل به صفوان حتى أطاعه وذهب يستنفر الناس لحرب المسلمين ودعا جبير بن مطعم غلاماً حبشياًله اسمه وحشى وكان راميا قلما يخطئ فقال له اخرج مع الناس فان أنت قتلت حمزة بعمى طعيمة فانت حر ثم خرج الجيش ومعهم القيان والدفوف والمعازف والخمور واصطحب الاشراف منهم نساءهم كيلا ينهزموا ولم يزالوا سائرين حتى نزلوا مقابل المدينة بذى الخليفة. اما رسول الله عليه الصلاة والسلام فكان قدبلغه الخبر من كتاب بعث به اليه عمه العباس بن عبد المطلب الذى لم يخرج مع المشركين فى هذه الحرب محتجاً بما أصابه يوم بدر ولما وصلت الاخبار باقتراب المشركين جمع عليه السلام أصحابه وأخبرهم الخبر وقال ان رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا فان هم أقاموا أقاموا بشر مقام وان هم دخلوا علينا قاتلناهم فكان فى رأيه شيوخ المهاجرين والانصار ورأى ذلك أيضاً عبدالله بن أبى أما الاحداث وخصوصاً من لم يشهد بدراً منهم فأشاروا عليه بالخروج وكان فى رأيهم حمزة بن عبد المطلب وما زال هؤلاء بالرسول حتى تبع رأيهم لانهم الاكثرون عدداً والاقوون جلداً فصلى الجمعة بالناس فى يومها لعشر خلون من شوال وحضهم فى خطبتها على الثبات والصبر وقال لهم (لكم النصر ماصبرتم) ثم دخل حجرته ولبس عدته فظاهر بين درعين (١) وتقلد السيف وألقى الترس وراء ظهره ولما رأى ذوو الرأى من الانصار أن الاحداث استكرهوا الرسول على الخروج لاموهم وقالوا ردوا الامر لرسول الله

١) اى لبس درعا فوق درع وهما ذات الفضول وفضة التى اصابها من بنى قينقاع

فما أمر ائتمرنا فلما خرج عليه السلام قالوا يا رسول نتبع رأيك فقال ما كان لنبى لبس سلاحه أن يضعه حتى يحكم الله بينه وبين اعدائه ثم عقد الالوية فاعطى لواء المهاجرين لمصعب بن عمير ولواء الخزرج للحباب بن المنذر ولواء الاوس لاسيد بن الحضير وخرج من المدينة بألف رجل فلما وصلوا رأس الثنية نظر عليه السلام كتيبة كبيرة فسأل عنها فقيل هؤلاء حلفاء عبدالله بن ابى من اليهود فقال انا لانستعين بكافر على مشرك وأمر بردهم لانه لا يأمن جانبهم من حيث لهم اليد الطولى فى الخيانة ثم استعرض الجيش فرد من استصغر وكان فيمن رد رافع بن خديج وسمرة بن جندب ثم أجاز رافعاً لما قيل له انه رام فبكى سمرة وقال لزوج أمه أجاز رسول الله رافعاً وردنى مع انى أصرعه فبلغ رسول الله الخبر فامرهما بالمصارعة فكان الغالب سمرة فاجاز ثم بات عليه السلام محله ليلة السبت واستعمل على حرس الجيش محمد بن مسلمة وعلى حرسه الخاص ذكوان بن قيس وفى السحر سار الجيش حتى اذا كان بالشوط وهو بستان بين أحد والمدينة رجع عبد الله بن أبى بثلاثمائة من أصحابه وقال عصانى واطاع الولدان فعلام نقتل أنفسنا فتبعهم عبد الله بن عمرو والد جابر وقال ياقوم اذكركم الله ان تخذلوا قومكم ونبيكم قالوا (لونعلم قتالا لاتبعناكم) فقال لهم أبعدكم الله فسيغنى الله عنكم نبيه . ولما فعل ذلك عبد الله بن أبى همت طائفتان من المؤمنين ان تفشلا بنو حارثة من الخزرج وبنو سلمة من الاوس فعصمهما الله وقد افترق المسلمون فرقتين فيما يفعلون بالمتخذلين فقوم يقولون نقاتلهم وقوم يقولون نتركهم فأنزل الله فى سورة النساء (فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من اضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً) ثم سار الجيش حتى نزل الشعب من أحد (١) وجعل ظهره للجبل ووجهه للمدينة أما

١) جبل شمال المدينة الشرقى .

المشركون فنزلوا ببطن الوادى من قبل أحد وكان على ميمنتهم خالد ابن الوليد وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل وعلى المشاة صفوان بن أمية فجعل عليه السلام الزبير بن العوام بازاء خالد وجعل آخرين أمام الباقين واستحضر الرماة وكانوا خمسين رجلاً يرأسهم عبد الله بن جبير الانصارى فوقفهم خلف الجيش على ظهر الجبل وقال لا تبرحوا ان رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا وان رأيتموهم ظهروا علينا فلا تبرحوا ثم عدل عليه السلام الصفوف وخطب المسلمين وكان فيما قال (ألقى فى قلبى الروح الامين أنه لن تموت نفس حتى تستوفى أقصى رزقها لا ينقص منه شىء وان أبطأ عنها فاتقوا ربكم وأجملوا فى طلب الرزق لا يحملنكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية الله والمؤمن من المؤمن كالرأس من الجسد اذا اشتكى تداعى له سائر جسده) ثم ابتدأ القتال بالمبارزة فخرج رجل من صفوف المشركين فبرزله الزبير فقتله ثم حمل اللواء طلحة بن ابى طلحة فقتله على فحمل اللواء اخوه عثمان فقتله حمزة فحمله أخ لهما اسمه ابو سعيد فرماه سعد بن ابى وقاص بسهم قضى عليه فتناوب اللواء بعده اربعة من اولاد طلحة بن ابى طلحة وكلهم يقتلون وخرج من صفوف المشركين عبد الرحمن بن أبى بكر يطلب البراز فاراد ابوه ان يبرزله فقال له عليه السلام متعنا بنفسك يا ابا بكر ثم حملت خيّالة المشركين على المسلمين ثلاث مرات وفى كلها ينضحهم المسلمون بالنبل فيتقهقرون ولما التقت الصفوف وحميت الحرب ابتدأ نساء المشركين يضربن بالدفوف وينشدن الاشعار تهييجاً لعواطف الرجال وكان عليه السلام كلما سمع نشيد النساء يقول (اللهم بك احول وبك اصول وفيك اقاتل حسبى الله ونعم الوكيل) وفى هذه المعمعة قتل حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله سيد الشهداء غافله وحشى وهو يجول فى الصفوف وضربه بحربة لم تخطئ ثنايا بطنه .

(هذا) ولما قتل حملة اللواء من المشركين ولم يقدر احد على الدنو منه ولوا الادبار ونساوهم يبكين ويولولن وتبعهم المسلمون يجمعون الغنائم والاسلاب فلما رأى ذلك الرماة الذين يحمون ظهور المسلمين فوق الجبل قالوا مالنا فى الوقوف من حاجة ونسوا امر السيد الحكيم صلى الله عليه وسلم فذكرهم رئيسهم به فلم يلتفتوا وانطلقوا ينتهبون اما رئيسهم فثبت ومعه قليل منهم فلما رأى خالد بن الوليد أحد رؤساء المشركين خلو الجبل من الرماة انطلق ببعض الجيش فقتل من ثبت من الرماة وأتى المسلمين من ورائهم وهم مشتغلون بدنياهم فلما رأوا ذلك البلاء دهشوا وتركوا ما بأيديهم وانتقضت صفوفهم واختلطوا من غير شعور حتى صار يضرب بعضهم بعضاً ورفعت احدى نساء المشركين اللواء فاجتمعوا حوله وكان من المشركين رجل يقال له ابن قمئة قتل مصعب بن عمير صاحب اللواء وأشاع ان محمداً قد قتل فدخل الفشل فى المسلمين حتى قال بعضهم علام نقاتل اذا كان محمد قد قتل فارجعوا الى قومكم يؤمنوكم وقال جماعة اذا كان محمد قد قتل فقاتلوا عن دينكم وكان من نتيجة هذا الفشل ان انهزم جماعة من المسلمين من بينهم الوليد ابن عقبة وخارجة بن زيد ورفاعة بن المعلى وعثمان بن عفان وتوجهوا الى المدينة ولكنهم استحيوا أن يدخلوها فرجعوا بعد ثلاث وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه جماعة منهم أبو طلحة الانصارى استمر بين يديه يمنع عنه بجحفته وكان رامياً شديد الرمى فنثر كنانته بين يدى رسول الله وصار يقول وجهى لوجهك فداء وكل من كان يمر ومعه كنانة يقول له عليه السلام انثرها لابى طلحة وكان ينظر الى القوم ليرى ما ذا يفعلون فيقول له أبو طلحة يا نبى الله بأبى انت وامى لا تنظر يصيبك سهم من سهام القوم نحرى دون نحرك (وممن) ثبت سعد بن ابى وقاص فكان عليه السلام يقول له ارم ياسعد فداك ابى وامى

(ومنهم) سهل بن حنيف وكان من مشاهير الرماة نضح عن رسول الله بالنبل حتى انفرج عنه الناس (ومنهم) ابو دجانة سماك بن خرشة الانصارى تترس على رسول الله فصار النبل يقع فى ظهره وهو منحن حتى كثر فيه (وكان) يقاتل عن الرسول زيادة بن الحارث حتى اصابت الجراح مقاتله فأمر به فأدنى منه ووسده قدمه حتى مات (وقد) اصابه عليه السلام شدائد عظيمة تحملها بما اعطاه الله من الثبات فقد اقبل ابى بن خلف يريد قتله فأخذ عليه السلام الحربة ممن كانوا معه وقال خلوا طريقه فلما قرب منه ضربه ضربة كانت سبب هلاكه وهو راجع ولم يقتل رسول الله غيره لافى هذه الغزوة ولا فى غيرها (وكان) ابو عامر الراهب قد حفر حفراً وغطاها ليقع فيها المسلمون فوقع الرسول فى حفرة منها فأغمى عليه وخدشت ركبتاه فأخذ على بيده ورفعه طلحة بن عبيدالله وهما ممن ثبت حتى استوى قائماً فرماه عتبة بن ابى وقاص بحجر كسر رباعيته فتبعه حاطب بن ابى بلتعة فقتله وشج وجهه عليه السلام عبد الله بن شهاب الزهرى وجرحت وجنتاه بسبب دخول حلقتى المغفر فيهما من ضربة ضربه بها ابن قمئة غضب الله عليه فجاء ابو عبيدة وعالج الحلقتين حتى نزعهما فكسرت فى ذلك ثنيتاه وقال حينئذ عليه السلام كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم فانزل الله فى سورة آل عمران (ليس لك من الامر شئ او يتوب عليهم او يعذبهم فانهم ظالمون) وكان اول من عرف رسول الله بعد هذه الدهشة كعب بن مالك الانصارى فنادى يامعشر المسلمين ابشروا فأشار اليه الرسول ان اصمت ثم سار بين سعد بن ابى وقاص وسعد بن عبادة يريد الشعب ومعه جمع منهم ابوبكر وعمر وعلى وطلحة والزبير والحارث بن الصمة واقبل عليه اذ ذاك عثمان بن عبدالله بن المغيرة يقول اين محمد لانجوت ان نجا فعثر به فرسه ووقع فى حفرة فمشى اليه الحارث بن الصمة وقتله ولما وصل الشعب جاءت فاطمة فغسلت عنه الدم وكان على يسكب الماء

ثم إخذت قطعة من حصير فاحرقتها ووضعتها على الجرح فاستمسك الدم ثم اراد عليه السلام ان يعلو الصخرة التي في الشعب فلم يمكنه القيام لكثرة مانزل من دمه فحمله طلحة بن عبيد الله حتى اصعده فنظر الى جماعة من المشركين على ظهر الجبل فقال لاينبغي لهم ان يعلونا اللهم لاقوة لنا الا بك ثم ارسل اليهم عمر بن الخطاب في جماعة فانزلوهم (وقد) اصاب المسلمين الذين كانوا يحوطون رسول الله كثير من الجراحات لان الشخص منهم كان يتلقى السهم خوفاً ان يصل للرسول فوجد بطلحة نيف وسبعون جراحة وشلت يده واصاب كعب بن مالك سبع عشرة جراحة اما القتلى فكانوا نيفاً وسبعين منهم ستة من المهاجرين والباقون من الانصار (ومن) المهاجرين حمزة بن عبد المطلب ومصعب ابن عمير ومن الانصار حنظلة بن ابي عامر وعمرو بن الجموح وابنه خلاد بن عمرو واخو زوجته والد جابر بن عبدالله فاتت زوجة عمرو هند بنت حرام وحملتهم زوجها وابنها واخاها على بعير لتدفنهم بالمدينة فنهى عليه السلام عن الدفن خارج احد فرجعوا (وقتل) سعد بن الربيع وارسل عليه السلام من يأتيه بخبره فوجده بين القتلى وبه رمق فقيل له ان رسول الله يسأل عنك فقال لمبلغه قل لقومي يقول لكم سعد ابن الربيع الله الله وما عاهدتم عليه رسوله ليلة العقبة فوالله مالكم عندى عذر (وقتل) انس بن النضر عم انس بن مالك فانه لما سمع بقتل رسول الله قال ياقوم ماتصنعون بالبقاء بعده موتوا على ما مات عليه اخوانكم فلم يزل يقاتل حتى قتل رضى الله عنه ومثلت قريش بقتلى احد حتى ان هنداً زوج ابى سفيان بقرت بطن حمزة واخذت كبده لتأكلها فلاكتها ثم ارسلتها وفعلوا قريباً من ذلك باخوانه الشهداء (ثم) ان ابا سفيان صعد الجبل ونادى باعلى صوته أنعمت فعال ان الحرب سجال يوم بيوم بدر وموعدكم بدر العام المقبل ثم قال انكم ستجدون في قتلاكم مثلة لم آمر بها ولم تسؤنى. ثم ان المشركين رجعوا الى مكة ولم يعرجوا على

المدينة وهذا مما يدل على ان المسلمين لم ينهزموا فى ذلك اليوم والا لم يكن بد من تعقب المشركين لهم حتى يغيروا على مدينتهم. ثم تفقد عليه السلام القتلى وحزن على عمه حمزة حزناً شديداً ودفن الشهداء كلهم بأحد كل شهيد بثوبه الذى قتل فيه وكان يدفن الرجلين والثلاثة فى لحد واحد لما كان عليه المسلمون من التعب فكان يشق عليهم ان يحفروا لكل شهيد حفرة (ولما) رجع المسلمون الى المدينة سخر بهم اليهود والمنافقون وأظهروا مافى قلوبهم من البغضاء وقالوا لاخوانهم (لو كانوا عندنا ماماتوا وما قتلوا)

وهذا الذى ابتلى به المسلمون درس مهم لهم يذكرهم بأمرين عظيمين تركهما المسلمون فأصيبوا (أولهما) طاعة الرسول فى امره فقد قال للرماة لاتبرحوا من مكانكم ان نحن نصرنا اوقهرنا فعصوا امره ونزلوا (الثانى) ان تكون الاعمال كلها لله غير منظور فيها لهذه الدنيا التى كثيرا ماتكون سببا فى مصائب عظيمة وهوءلاء ارادوا عرض الدنيا والتهوا بالغنائم حتى عوقبوا وفى ذلك انزل الله فى سورة آل عمران التى فصلت غزوة احد (ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الامر وعصيتم من بعد ما اراكم ماتحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين) فسبب هذا الابتلاء التنازع فينبغى الاتفاق. والفشل فينبغى الثبات. والعصيان فينبغى طاعة الرئيس. نسأل الله التوفيق

غزوة حمراء الاسد

لما رجع عليه السلام الى المدينة اصبح حذرا من رجوع المشركين الى المدينة ليتمموا انتصارهم فنادى فى أصحابه بالخروج خلف العدو وان لايخرج الا من كان معه بالامس فاستجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابهم القرح فضمدوا اجراحاتهم وخرجوا واللواء معقود لم يحل فأعطاه على بن أبى طالب

وولى على المدينه ابن أم مكتوم ثم سار الجيش حتى وصلوا حمراء الاسد(١) وقد كان ماظنه الرسول حقا فان المشركين تلاوموا على ترك المسلمين من غير شن الغارة على المدينه حتى يتم لهم النصر فاصروا على الرجوع ولكن لما بلغهم خروج الرسول فى اثرهم ظنوا انه قد حضر معه من لم يحضر بالامس والقى الله الرعب فى قلوبهم فتمادوا فى سيرهم الى مكه وظفر عليه السلام وهم فى حمراء الاسد بأبى عزة الشاعر الذى منّ عليه ببدر بعدان تعهدان لايكون على المسلمين فأمر بقتله فقال يامحمد اقلنى وامنن على ودعنى لبناتى واعطيك عهدا انلااعود لمثل مافعلت فقال عليه السلام لا والله لاتمسح عارضيك بمكة تقول خدعت محمداً مرتين (لايلدغ المؤمن جحر مرتين) اضرب عنقه يازيد فضرب عنقه وفى هذا تأديب عظيم من صاحب الشرع الشريف فان الرجل الذى لايحترز مما اصيب منه ليس بعاقل فلا بد من الحزم لاقامة دعائم الملك

حوادث

فى هذه السنة زوج عليه السلام بنته أم كلثوم لعثمان بن عفان بعد ان ماتت رقية عنده ولذلك كان يسمى ذا النورين (وفيها) تزوج عليه السلام حفصة بنت عمر بن الخطاب وامها اخت عثمان بن مظعون وكانت قبله تحت خنيس بن حذافة السهمى رضى الله عنه فتوفى عنها بجراحة اصابته ببدر (وفيها) تزوج عليه السلام زينب بنت خزيمة الهلالية من بنى هلال بن عامر كانت تدعى فى الجاهلية ام المساكين لرأفتها واحسانها اليهم وكانت قبله تحت عبدالله بن جحش فقتل عنها باحد وهى اخت ميمونة بنت الحارث لامها (وفيها) ولد الحسن بن على رضى الله عنهما (وفيها) حرمت الخمر وكان تحريمها بالتدريج لما كان عليه العرب من المحبة الشديدة لها فيصعب اذاً تحريمها دفعة واحدة وكان

---

(١) موضع على ثمانية اميال من المدينة فى طريق مكة

ذلك التحريم تابعاً لحوادث تنفر عنها لان المنكر اذا اسند تحريمه لحادثة اقر الجميع على تقبيحها كان ذلك اشد تأثيراً في النفس فأول مابين فيها قوله تعالى في سورة البقرة (يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس) فمنفعة الميسر التصدق بربحه على الفقراء كما كانت عادة العرب ومنفعة الخمر تقوية الجسم ولما شربها بعض المسلمين وخلط في القراءة حرمت الصلاة على السكران فقال تعالى في سورة النساء (يا ايها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) ولما حدث من شربها اعتداء بعض المسلمين على أخوانهم حرمت قطعياً بقوله تعالى في سورة المائدة (يا ايها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب (١) والأزلام (٢) رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) وقد اجاب المسلمون على ذلك بقولهم انتهينا فليجب السلمون الآن

السنة الرابعة

في بدء السنة الرابعة بلغ رسول الله ان طليحة وسلمة ابنى خويلد الاسديين يدعوان قومهما بنى اسد لحربه عليه السلام فدعا ابا سلمة بن عبدالاسد المخزومى وعقد له لواء وقال له سر حتى تنزل ارض بنى اسد ابن خزيمة فأغر عليهم وارسل معه رجالا فسار في هلال المحرم حتى بلغ قطناً (٣) فاغار عليهم فهربوا عن منازلهم ووجد ابو سلمة ابلا وشاء فاخذها ولم يلق حرباً ورجع بعد عشرة ايام من خروجه (وفى) بدئها ايضاً بلغه عليه السلام ان سفيان بن خالد بن نبيح الهذلى المقيم

١) هى حجارة تصب عليها دماء الذبح وتعبد

٢) هى القداح التى كانوا يستقسمون بها وفى قرن الخمر والميسر بالانصاب والازلام نهاية التنفير ولذلك قال عليه السلام شارب الخمر كعابد الوثن اه

٣) جبل لبنى اسد بناحية فيد شرقى المدينة

بعرنة (١) يجمع الجموع لحربه فأرسل له عبد الله بن أنيس الجهنى وحده ليقتله فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يتقول حتى يتمكن فأذن له وقال انتسب لخزاعة فخرج لخمس خلون من المحرم ولما وصل اليه قال له سفيان ممن الرجل قال من خزاعة سمعت بجمعك لمحمد فجئت لاكون معك فقال له اجل انى لفى الجمع له فمشى عبد الله معه وحدثه وسفيان يستحلى حديثه فلما انتهى الى خبائه تفرق الناس عنه فجلس معه عبد الله حتى نام فقام وقتله ثم ارتحل حتى أتى المدينة ولم يلحقه الطلب وكفى الله المؤمنين القتال

سرية

وفى صفر أرسل عليه الصلاة والسلام عشرة رجـــال عيوناً على قريش مع رهط عضل والقارة الذين جاؤا رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلبون من يفقههم فى الدين وأمر عليهم عاصم بن ثابت الانصارى فخرجوا يسيرون اليل ويكمنون النهار حتى اذا كانوا بالرجيع (٢) غدر بهم أولئك الرهط ودلوا عليهم هذيلاً قوم سفيان بن خالد الهذلى الذى قتله عبد الله بن انيس فنفروا اليهم فيما يقرب من مائتى رام واقتفوا آثارهم حتى قربوا منهم فلما أحس بهم رجال السرية لجؤا الى جبل هناك فقال لهم الاعداء انزلوا ولكم العهد ان لا نقتلكم فنزل اليهم ثلاثة اغتروا بعهدهم وقاتلهم الباقون ومعهم عاصم غير راضين بالنزول فى ذمة مشرك ولمـــا رأى الثلاثة الذين سلموا عين الغدر امتنع احدهم فقتلوه واما الاثنان فباعوهما بمكة ممن كان له ثار عند المسلمين وهناك قتلا وقد قال أحدهما وهو خبيب بن عدى حين أرادوا قتله

١) موضع قريب من عرفات

٢) ماء لبنى هذيل بين مكة وعسفان

ولست أبالي حين أقتل مسلماً　　على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الاله وان يشأ　　يبارك على أوصـــال شلو ممزع

سرية

في صفر وفد على رسول الله أبو عامر بن مالك ملاعب الاسنة وهو من رؤس بني عامر فدعاه عليه السلام الى الاسلام فلم يسلم ولم يبعد بل قال اني ارى امرك هذا حسناً شريفاً ولو بعثت معي رجـــالا من اصحابك الى أهل نجد فدعوهم الى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك فقال عليه السلام اني أخشى عليهم أهل نجد قـــال أبو عـــامر أنا لهم جار فأرسل معه المنذر بن عمرو في سبعين من اصحابه كانوا يسمون القرآء لكثرة ما كانوا يحفظون من القرآن فساروا حتى نزلوا بئر معونة (١) فبعثوا حرام بن ملحان بكتاب الى عامر بن الطفيل سيد بني عامر فلما وصل اليه لم يلتفت الى الكتاب بل عدا على حرام فقتله ثم استصرخ على بقية البعثة أصحابه من بني عامر فلم يرضوا ان يخفروا جوار ملاعب الاسنة فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم وهم رعل وذكوان وعصية فأجابوه وذهبوا معه حتى اذا التقوا بالقراء أحاطوا بهم وقاتلوهم حتى قتلوهم عن آخرهم بعد دفاع شديد لم يجدهم نفعاً لقلة عددهم وكثرة عدوهم ولم ينج الا كعب بن زيد وقع بين القتلى حتى ظن انه منهم وعمرو بن أمية كان في سرح القوم وأبلغ عليه السلام خبر القراء فخطب في اصحابه وكان فيما قال (ان اخوانكم قد لقوا المشركين وقتلوهم وانهم قالوا ربنا بلغ قومنا انا قد لقينا ربنا فرضينا عنه ورضي عنا) وكان وصول خبر هذه السرية وسرية الرجيع في يوم واحد فحزن عليهم صلى الله عليه وسلم حزناً شديداً وأقام يدعو على الغادرين بهم شهراً في الصلاة

١) شرقي المدينة بين ارض بني عامر وحرة بني سليم

غزوة بنى النضير

يا لله ما أسوأ عاقبة الطيش فقد تكون الامة مرتاحة البال هادئة الخواطر حتى تقوم جماعة من رؤسائها بعمل غدر يظنون من ورائه النجاح فيجلب عليهم الشرور ويشتتهم من ديارهم وهذا ماحصل ليهود بنى النضير حلفاء الخزرج الذين كانوا يجاورون المدينة فقد كان بينهم وبين المسلمين عهود يأمن بها كل منهم الآخر ولكن بنو النضير لم يوفوا بهذه العهود حسداً منهم وبغياً فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعض من اصحابه فى ديار بنى النضير اذ ائتمرّ جماعة منهم على قتله بأن يأخذ أحد منهم صخرة ويلقيها عليه من علو فاطلع عليه السلام على قصدهم فرجع وتبعه أصحابه ثم ارسل لهم محمد بن مسلمة يقول لهم اخرجوا من بلادى فقد هممتم بما هممتم من الغدر (اذ الحزم كل الحزم أن لايتهاون الانسان مع من عرف منه الغدر) فتهيأ القوم للرحيل فأرسل لهم اخوانهم المنافقون يقولون لاتخرجوا من دياركم ونحن معكم (لئن اخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبدا وان قوتلتم لننصرنكم والله يشهد انهم لكاذبون لئن اخرجوا لايخرجون معهم ولئن قوتلوا لاينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الادبار ثم لاينصرون) ولكن اليهود طمعوا بهذا الوعد وتأخروا عن الجلاء فأمر عليه السلام بالتهيوء لقتالهم فلما اجتمع الناس خرج بهم واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وأعطى رايته عليا أما بنو النضير فتحصنوا فى حصونهم وظنوا أنها مانعتهم من الله فحاصرهم عليه السلام ست ليال ثم امر بقطع نخيلهم ليكون إدعى الى تسليمهم فقذف الله فى قلوبهم الرعب ولم يروا من عبد الله بن ابى مساعدة بل خذلهم كما خذل بنى قينقاع من قبلهم فسألوا رسول الله ان يجليهم ويكف عن دمائهم وأن لهم ماحملت الابل من أموالهم الا آلة الحرب ففعل وصار اليهود يخربون بيوتهم

بأيديهم كيلا يسكنها المسلمون . ولما سار اليهود نزل بعضهم بخيبر ومنهم اكابرهم حُيَى بن أخطب وسَلَّام بن أبى الحُقَيق ومنهم من سار الى اذرعات بالشام وأسلم منهم اثنان يامين بن عمرو وابو سعد بن وهب ولم يخمس رسول الله ما أخذ من بنى النضير فانه فيء لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب ومثل هذا يكون لمعدات الحرب وللرسول يطعم منه أهله ولذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كما قال تعالى فى سورة الحشر (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الاغنياء منكم) فاعطى عليه السلام من هذا الفيء فقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم وأموالهم وردوا لاخوانهم من الانصار ما كانوا قد أخذوه منهم أيام هجرتهم واخذ عليه السلام أرضا يزرعها ويدخر منها قوت أهله عاماً .

غزوة ذات الرقاع

وفى ربيع الآخر بلغه عليه السلام أن قبائل من نجد يتهيئون لحربه وهم بنو محارب وبنو ثعلبة فتجهز لهم وخرج فى سبعمائة مقاتل وولى على المدينة عثمان بن عفان ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا ديار القوم فلم يجدوا بها أحداً غير نسوة فأخذهن فبلغ الخبر رجالهم فخافوا وتفرقوا فى رؤس الجبال ثم اجتمع جمع منهم وجاؤا للحرب فتقارب الناس وأخاف بعضهم بعضاً ولما حانت صلاة العصر وخاف عليه السلام أن يغدر بهم الاعداء وهم يصلون صلى بالمسلمين صلاة الخوف فألقى الله الرعب فى قلوب الاعداء وتفرقت جموعهم خائفين منه صلى الله عليه وسلم .

ومال الامام البخارى الى أن هذه الغزوة كانت فى السنة السابعة وأجمع أهل السير على خلافه .

غزوة بدر الآخرة

لما أهلّ شعبان هذا العام كان موعد أبى سفيان فانه بعد انقضاء غزوة احد قال للمسلمين موعدنا بدر العام المقبل فأجابه الرسول الى ذلك وكان بدر محل سوق يعقد كل عام للتجارة فى شعبان يقيم التجار فيه ثمانياً فلما حل الاجل وقريش مجدبون لم يتمكن أبو سفيان من الايفاء بوعده فأراد أن يخذل المسلمين عن الخروج كيلا يوسم بخلف الوعد فاستأجر نعيم بن مسعود الاشجعى ليأتى المدينة ويرجف بما جمعه أبو سفيان من الجموع العظيمة فقدم نعيم المدينة وقال للمسلمين (ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) ولم يلتفت عليه السلام لهذا الارجاف اتكالا على ربه بل خرج بألف وخمسمائة من أصحابه وأستخلف على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبى ولم يزالوا سائرين حتى أتوا بدراً فلم يجدوا بها أحداً لان ابا سفيان أشار على قريش بالخروج على نية الرجوع بعد مسير ليلة أو ليلتين ظاناً أن ارجاف نعيم يفيد فيكون المخلف هم المسلمون فسار حتى أتى مجنة (وهى سوق معروف من ناحية مرّ الظهران) فقال لقومه ان هذا عام جدب ولا يصلحنا الاعام عشب فارجعوا أما المسلمون فأقاموا ببدر لا يشاركهم فى تجارته أحد (فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم) ولما سمع بذلك صفوان بن أمية قال لابى سفيان قد والله نهيتك ان تعد القوم وقد اجترؤا علينا ورأوا انا اخلفناهم.

حوادث

وفى هذا العام ولد الحسين بن على (وفيه) توفيت زينب بنت خزيمة ام المؤمنين (وفيه) توفى ابوسلمة رضى الله عنه بن عمة رسول

الله واخوه من الرضاعة واول من هاجر الى الحبشة (وفيه) تزوّج عليه السلام ام سلمة هنداً زوج ابو سلمة بعد وفاته

السنة الخامسة غزوة دومة الجندل

فى ربيع الاول من هذا العام بلغ النبى صلى الله عليه وسلم ان جمعاً من الاعراب بدومة الجندل (١) يظلمون من مربهم وانهم يريدون الدنو من المدينة فتجهز لغزوهم وخرج فى ألف من أصحابه بعد ان ولى على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى ولم يزل يسير الليل ويكمن النهار حتى قرب منهم فلما بلغهم الخبر تفرقوا فهجم المسلمون على ماشيتهم ورعائهم فاصيب من أصيب وهرب من هرب ثم نزل بساحتهم فلم يلق أحداً وبث السرايا فلم تجد منهم أحداً فرجع عليه السلام غانماً وصالح وهو عائد عيينة بن حصن الفزارى وهو الذى كان يسميه عليه السلام الاحمق المطاع لانه كان يتبعه الف قناة وأقطعه عليه السلام أرضاً يرعى فيها بهمه على بعد ستة وثلاثين ميلا من المدينة لان أرضه كانت قد أجدبت

غزوة بنى المصطلق

فى شعبان بلغه عليه السلام أن الحارث بن ضرار سيد بنى المصطلق الذين ساعدوا قريشاً على حرب المسلمين فى أحد يجمع الجموع لحربه فخرج له عليه السلام فى جمع كثير وولى على المدينة زيد ابن حارثة وخرج معه من نسائه عائشة وأم سلمة وخرج معه ناس من المنافقين لم يخرجوا قط فى غزوة قبلها يرجون أن يصيبوا من عرض الدنيا وفى اثناء مسيره عليه السلام التقى بعين بنى المصطلق فسأله عن أحوال العدو فلم يجب فأمر بقتله . ولما بلغ الحارث رئيس الجيش مجئ المسلمين لحربه وأنهم قتلوا جاسوسه خاف هو وجيشه خوفاً شديداً

(١) مدينة بينها وبين دمشق خمس ليال وبينها وبين طيبة خمس عشرة ليلة

حتى تفرق عنه بعضهم ولما وصل المسلمون الى المريسيع (١) تصاف الفريقان للقتال بعد أن عرض عليهم الاسلام فلم يقبلوا فتراموا بالنبل ساعة ثم حمل المسلمون عليهم حملة رجل واحد فلم يتركوا لرجل من عدوهم مجالا للهرب بل قتلوا عشرة منهم وأسروا باقيهم مع النساء والذرية واستاقوا الابل والشياه وكانت الابل الفى بعير والشياه خمسة آلاف استعمل الرسول على ضبطها مولاه شقران وعلى الاسرى بريدة وكان فى نساء المشركين برة بنت الحارث سيد القوم وقد أخذ من قومها مائتا بيت اسرى وزعت على المسلمين وهنا يظهر حسن السياسة ومنتهى الكرم فان بنى المصطلق من أعز العرب داراً فاسر نسائهم بهذه الحال صعب جدا فأراد عليه السلام أن يجعل المسلمين يمنون على النساء بالحرية من تلقاء أنفسهم فتزوّج برة بنت الحارث التى سماها جويرية فقال المسلمون أصهار رسول الله لا ينبغى أسرهم فى أيدينا فمنوا عليهم بالعتق فكانت جويرية أيمن امرأة على قومها كما قالت عائشة رضى الله عنها وتسبب عن هذا الكرم العظيم وهذه المعاملة الجليلة أن أسلم بنو المصطلق على بكرة أبيهم وكانوا للمسلمين بعد أن كانوا عليهم (وقد) حصل فى هذه الغزوة نادرتان لولا أن صاحبتهما حكمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لعادتا بالتفريق على المسلمين (فأولاهما) أن أجيراً لعمر بن الخطاب اختصم مع حليف للخزرج فضرب الاجير الحليف حتى سال دمه فاستصرخ بقومه الخزرج واستصرخ الاجير بالمهاجرين فأقبل الذعر من الفريقين وكادوا يقتتلون لولا أن خرج عليهم رسول الله فقال ما بال دعوى الجاهلية (وهى مايقال فى الاستغاثة يا لفلان) فأخبر بالخبر فقال دعوا هذه الكلمة فانها منتنة ثم كلم المضروب حتى أسقط حقه وبذلك سكنت الفتنة فلما بلغ عبدالله ابن أبى هذا الخصام غضب وكان عنده رهط من الخزرج فقال ما

(١) ماء لخزاعة على يوم من الفرع

رأيت كاليوم مذلة او قد فعلوها نافرونا فى ديارنا والله مانحن والمهاجرون الا كما قال الاوّل سمن كلبك يأكلك أما والله (لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل) ثم التفت الى من معه وقال هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم اموالكم اما والله لو أمسكتم عنهم بأيديكم لتحولوا الى غير داركم ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم انفسكم غرضاً للمنايا دون محمد فأيتمتم أولادكم وقللتم وكثروا فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عنده وكان فى مجلسه شاب حديث السن قوى الاسلام اسمه زيد بن أرقم فأخبر رسول الله الخبر فتغير وجهه وقال يا غلام لعلك غضبت عليه فقلت ما قلت فقال والله يارسول الله لقد سمعته قال لعله أخطأ سمعك فاستأذن عمر الرسول فى قتل ابن أبى أو أن يأمر احداً غيره بقتله فنهاه عن ذلك وقال كيف ياعمر اذا تحدث الناس أن محمداً يقتل اصحابه ثم اذن بالرحيل فى وقت لم يكن يرتحل فيه حين اشتد الحر يقصد بذلك عليه السلام شغل الناس عن التكلم فى هذا الموضوع فجاءه أسيد بن حضير وسأله عن سبب الارتحال فى هذا الوقت فقال اوما بلغك ما قال صاحبكم زعم انه ان رجع الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل قال أنت والله يارسول الله تخرجه ان شئت هو والله الذليل وأنت العزيز ثم سار عليه السلام بالناس سيراً حثيثاً حتى آذتهم الشمس فنزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الارض حتى وقعوا نياماً وكلم رجال من الانصار عبد الله بن أبى فى ان يطلب من الرسول الاستغفار فلوى رأسه واستكبر وهنا نزل على الرسول سورة المنافقين التى فضحت عبد الله بن ابى واخوانه وصدقت زيد بن أرقم ولما بلغ ذلك عبد الله بن عبد الله بن ابى استأذن رسول الله فى قتل ابيه حذراً من أن يكلف بذلك غيره فيكون عنده من ذلك أضغان واحقاد فأمره عليه السلام بالاحسان الى ابيه

حديث الافك

(النادرة الثانية) وهى أفظع من الاولى وأجلب منها للمصائب وهى رمى عائشة الصديقية زوج رسول الله بالافك فاتهموها بصفوان بن المعطل السلمى وذلك انهم لما دنوا من المدينة آذن عليه السلام ليلة بالرحيل وكانت السيدة قد مضت لقضاء حاجتها حتى جاوزت الجيش فلما قضت شأنها أقبلت الى رحلها فلمست صدرها فاذا عقد لها من جزع ظفار قد انقطع فرجعت تلتمس عقدها فحبسها ابتغاؤه فاقبل الرهط الذين كانوا يرحلونها فاحتملوا هودجها ظانين أنها فيه لان النساء كن اذ ذاك خفافاً لم يغشهن اللحم فلم يستنكر القوم خفة الهودج وكانت عائشة جارية حديثة السن فجاءت منزل الجيش بعد ان وجدت عقدها وليس بالمنزل داع ولا مجيب فغلبتها عيناها فنامت وكان الذى يسير وراء الجيش يفتقد ضائعه صفوان بن المعطل فاصبح عند منزلها فعرفها لانه كان رآها قبل الحجاب فاسترجع فاستيقظت باسترجاعه وسترت وجهها بجلبابها فأناخ راحلته وأركبها من غير أن يتكلما بكلمة ثم انطلق يقودبها الراحلة حتى وصل الجيش وهو نازل للراحة فقامت قيامة أهل الافك وقالوا ما قالوا فى عائشة وصفوان والذى تولى كبر الافك عبدالله بن أبى ولما قدموا المدينة مرضت عائشة شهراً والناس يفيضون فى قول أهل الافك وهى لاتشعر بشىء وكانت تعرف فى رسول الله رقة اذا مرضت فلم يعطها نصيباً منها فى هذا المرض بل كان يمر على باب الحجرة لايزيد على قوله كيف حالكم مما جعلها فى ريب عظيم فلما نقهت خرجت هى وأم مسطح بن أثاثة أحد أهل الافك للتبرز خارج البيوت فعثرت ام مسطح فى مرطها فقالت تعس مسطح فقالت عائشة بئس ما قلت أتسبين رجلاً شهد بدرا فقالت يا هنتاه أولم تسمعى ما قالوا فسألتها عائشة عن ذلك فاخبرتها الخبر فازدادت مرضاً على مرضها ولما جاءها عليه السلام كعادته استأذنته أن تمرض فى بيت

أبيها فاذن لها فسألت امها عما يقول الناس فقالت يا بنية هونى عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر الا اكثرن عليها فقالت عائشة سبحان الله أو لقد تحدث الناس بهذا وبكت تلك الليلة حتى اصبحت لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم وفى خلال ذلك كان عليه السلام يستشير كبار أهل بيته فيما يفعل فقال له أسامة بن زيد لما يعلمه من براءة عائشة أهلك أهلك ولا نعلم عليهم الا خيراً وقال على بن ابى طالب لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وسل الجارية تصدقك فدعا عليه السلام بريرة جارية عائشة وقال لها هل رأيت من شئ يريبك فقالت والذى بعثك بالحق ما رأيت عليها امراً قط اغمصه غير انها جارية حديثة السن تنام عن عجينها فتأتى الداجن فتأكله فقام عليه السلام من يومه وصعد المنبر والمسلمون مجتمعون وقال من يعذرنى من رجل قد بلغنى اذاه فى اهلى والله ما علمت على اهلى الاخيراً ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه الاخيرا وما يدخل على اهلى الامعى فقال سعد بن معاذ انا يارسول الله اعذرك منه فان كان من الاوس ضربت عنقه وان كان من اخواننا من الخزرج امرتنا ففعلنا امرك فقام سعد بن عبادة الخزرجى وقال كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ولو كان من رهطك ما احببت انه يقتل فقام اسيد بن حضير وقال لسعد بن عبادة كذبت لعمر الله لنقتلنه فانك منافق تجادل عن المنافقين وكادت تكون فتنة بين الاوس والخزرج لولا ان رسول الله نزل من فوق المنبر وخفضهم حتى سكتوا اما عائشة فبقيت ليلتين لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم . وبينما هى مع ابويها اذ دخل النبى عليه السلام فسلم ثم جلس فقال اما بعد يا عائشة انه بلغنى عنك كذا وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله وان كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى اليه فان العبد اذا اعترف وتاب تاب الله عليه فتقلص دمع عائشة وقالت لابويها اجيبا رسول الله فقالا والله ما ندرى ما نقول فقالت انى والله لقد علمت انكم سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى انفسكم وصدقتم

به فلئن قلت لكم انى بريئة لا تصدقونى ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم انى منه بريئة لتصدقنى فوالله لا اجد لى ولكم مثلا الا ابا يوسف قال (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) ثم تحولت واضطجعت على فراشها ولم يزاول رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه حتى نزلت عليه الآيات من سورة النور ببراءة السيدة المطهرة عائشة الصديقية (ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم. لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا افك مبين. لولا جاؤا عليه بأربعة شهداء فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون. ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما افضتم فيه عذاب عظيم. اذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم. ولولا اذ سمعتموه قلتم مايكون لنا ان نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم. يعظكم الله ان تعودوا لمثله ابداً ان كنتم مؤمنين . و يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم . ان الذين يحبون ان تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤف رحيم . يا ايها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم) فسرى عن رسول الله وهو يضحك و بشر عائشة بالبراءة فقالت لها أمها قومى فاشكرى رسول الله فقالت لا و الله لا اشكر الا الله الذى برأنى و بعد ذلك امر عليه السلام بان يجلد من صرح بالافك ثمانين جلدة وهى حد القاذف وكانوا ثلاثة حمنة بنت جحش ومسطح بن اثاثة وحسان بن ثابت وكان ابو بكر ينفق على مسطح بن اثاثة لقرابته منه فلما تكلم بالافك قطع عنه النفقة فانزل الله (ولا يأتل أولو الفضل

منكم والسعة ان يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا الا تحبون ان يغفر الله لكم والله غفور رحيم) فقال ابو بكر بل نحب ذلك يا رسول الله واعاد النفقة على مسطح . فهذه مضار المنافقين الذين يدخلون بين الامم مظهرين لهم المحبة وقلوبهم مملوءة حقداً يتربصون الفتن فمتى رأوا باباً لها ولجوه فنعوذ بالله منهم .

غزوة الخندق

لم يقر لعظماء بنى النضير قرار بعد جلائهم عن ديارهم وارث المسلمين لها بل كان فى نفوسهم دائماً ان يأخذوا ثارهم ويستردوا بلادهم فذهب جمع منهم الى مكة وقابلوا رؤساء قريش وحرضوهم على حرب رسول الله ومنوهم المساعدة فوجدوا منهم قبولا لما طلبوه ثم جاؤا الى قبيلة غطفان وحرضوا رجالها كذلك واخبروهم بمبايعة قريش لهم على الحرب فوجدوا منهم ارتياحاً فتجهزت قريش واتباعها يرأسهم ابو سفيان ويحمل لواءهم عثمان بن طلحة العبدرى وعددهم اربعة آلاف معهم ثلاثمائة فرس والف بعير وتجهز غطفان يرأسهم عيينة بن حصن الذى جازى احسان رسول الله كفرا فانه كما قدمنا اقطعه ارضاً يرعى فيها سوائمه حتى اذا سمن خفه وحافره قام يقود الجيوش لحرب من أنعم عليه وكان معه الف فارس وتجهزت بنو مرة يرأسهم الحارث ابن عوف المرى وهم أربعمائة وتجهزت بنو أشجع يرأسهم ابو مسعود ابن رخيلة وتجهزت بنو سليم يرأسهم سفيان بن عبد شمس وهم سبعمائة وتجهزت بنو اسد يرأسهم طليحة بن خويلد الاسدى وعدة الجميع عشرة آلاف محارب قائدهم العام أبو سفيان ولما بلغه عليه السلام أخبار هاته التجهيزات استشار أصحابه فيما يصنع أيمكث بالمدينة أم يخرج للقاء هذا الجيش الجرار فأشار عليه سلمان الفارسى بعمل الخندق وهو عمل لم تكن العرب تعرفه فأمر عليه السلام المسلمين بعمله وشرعوا فى حفره

شمالى المدينة من الحرة الشرقية الى الحرة الغربية وهذه هى الجهة التى كانت عورة تؤتى المدينة من قبلها أما بقية حدودها فمشتبكة بالبيوت والنخيل لا يتمكن العدوّ من الحرب جهتها وقد قاسى المسلمون صعوبات جسيمة فى حفر الخندق لانهم لم يكونوا فى سعة من العيش حتى يتيسر لهم العمل وعمل معهم عليه الصلاة والسلام فكان ينقل التراب متمثلاً بشعر ابن رواحة

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الاقدام ان لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا وان أرادوا فتنة أبينا

واقام الجيش فى الجهة الشرقية مسنداً ظهره الى سلع وهو جبل مطل على المدينة وعدتهم ثلاثة آلاف وكان لواء المهاجرين مع زيد بن حارثة ولواء الانصار مع سعد بن عبادة أما قريش فنزلت بمجمع الاسيال واما غطفان فنزلت جهة احد وكان المشركون معجبين بمكيدة الخندق التى لم تكن العرب تعرفها فصاروا يترامون مع المسلمين بالنبل ولما طال المطال عليهم أكره جماعة منهم أفراسهم على اقتحام الخندق منهم عكرمة ابن ابى جهل وعمرو بن ود وآخرون وقد برز على بن ابى طالب لعمرو ابن ود فقتله وهرب اخوانه وهوى فى الخندق نوفل بن عبد الله فاندقت عنقه (ورمى) سعد بن معاذ رضى الله عنه بسهم قطع اكهله (وهو شريان الذراع) واستمرت المناوشة والمراماة بالنبل يوماً كاملاً حتى فاتت المسلمين صلاة ذاك اليوم وقضوها بعد وجعل عليه السلام على الخندق حراساً حتى لايقتحمه المشركون بالليل وكان يحرس بنفسه ثلمة فيه مع شدة البرد وكان عليه السلام يبشر اصحابه بالنصر والظفر ويعدهم الخير أما المنافقون فقد اظهروا فى هذه الشدة ما تكنه ضمائرهم حتى قالوا (ما وعدنا الله ورسوله الا غروراً) وانسحبوا قائلين ان بيوتنا عورة نخاف ان يغير عليها العدوّ (وما هى بعورة ان يريدون الافراراً) واشتد الحال بالمسلمين

فان هذا الحصار صاحبه ضيق على فقراء المدينة والذى زاد الشدة عليهم ما بلغهم من ان يهود بنى قريظة الذين يساكنونهم فى المدينة قد انتهزوا هذه الفرصة لنقض العهود وسبب ذلك ان حيى بن اخطب سيد بنى النضير المجلين توجه الى كعب بن اسد القرظى سيد بنى قريظة وكان له كالشيطان اذ قال للانسان اكفر فحسن له نقض العهد ولم يزل به حتى اجابه لقتال المسلمين . ولما بلغت هذه الاخبار رسول الله أرسل مسلمة بن أسلم فى مائيتن وزيد بن حارثة فى ثلاثمائة لحراسة المدينة خوفاً على النساء والذرارى وأرسل الزبير بن العوّام يستجلى له الخبر فلما وصلهم وجدهم حانقين يظهر على وجوههم الشر ونالوا من رسول الله والمسلمين امامه فرجع واخبر الرسول بذلك وهنالك اشتد وجل المسلمين وزلزلوا زلزالا شديداً لان العدوّ جاءهم من فوقهم ومن أسفل منهم وزاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وظنوا بالله الظنون وتكلم المنافقون بمابدا لهم فأراد عليه السلام ان يرسل لعيينة بن حصن ويصالحه على ثلث ثمار المدينة لينسحب بغطفان فأبى الانصار ذلك قائلين انهم لم يكونوا ينالون منا قليلاً من ثمرنا ونحن كفار افبعد الاسلام يشاركوننا فيها . واذ اراد الله العناية بقوم هيأ لهم اسباب الظفر من حيث لا يعلمون فانظر الى هذه العناية من الله بالمتمسكين بدينه القويم . جاء نعيم بن مسعود الاشجعى وهو صديق قريش واليهود ومن غطفان فقال يا رسول الله انى قد اسلمت وقومى لايعلمون باسلامى فمرنى بأمرك حتى اساعدك فقال انت رجل واحد وماذا عسى ان تفعل ولكن خذل عنا ما استطعت فان الحرب خدعة

الخدعة فى الحرب

فخرج من عنده وتوجه الى بنى قريظة الذين نقضوا عهود المسلمين فلما رأوه اكرموه لصداقته معهم فقال يابنى قريظة تعرفون ودى لكم وخوفى

عليكم وانى محدثكم حديثاً فاكتموه عنى قالوا نعم فقال لقد رأيتم ماوقع لبنى قينقاع والنضير من اجلائهم واخذ اموالهم وديارهم وان قريشا وغطفان ليسوا مثلكم فهم اذا رأوا فرصة انتهزوها والا انصرفوا لبلادهم واما انتم فتساكنون الرجل (يريد الرسول) ولا طاقة لكم بحربه وحدكم فأرى ان لاتدخلوا فى هذه الحرب حتى تستيقنوا من قريش وغطفان انهم لن يتركوكم ويذهبوا الى بلادهم بأن تأخذوا منهم رهائن سبعين شريفاً منهم فاستحسنوا رأيه واجابوه الى ذلك ثم قام من عندهم وتوجه الى قريش فاجتمع برؤسائهم وقال انتم تعرفون ودى لكم ومحبتى اياكم وانى محدثكم حديثاً فاكتموه عنى قالوا نفعل فقال لهم ان بنى قريظة قد ندموا على مافعلوه مع محمد وخافوا منكم ان ترجعوا وتتركوهم معه فقالوا له أيرضيك ان نأخذ جمعاً من اشرافهم ونعطيهم لك وترد جناحنا الذى كسرت (يريد بنى النضير) فرضى بذلك منهم وهاهم مرسلون اليكم فاحذروهم ولا تذكروا مما قلت لكم حرفا ثم اتى غطفان فأخبرهم بمثل ماأخبر به قريشا فأرسل ابوسفيان وفدا لقريظة يدعوهم للقتال غدا فاجابوا انا لايمكننا ان نقاتل فى السبت (وكان ارساله لهم ليلة سبت) ولم يصبنا ما اصابنا الا من التعدى فيه ومع ذلك فلا نقاتل حتى تعطونا رهائن منكم حتى لاتتركونا وتذهبوا الى بلادكم فتحققت قريش وغطفان كلام نعيم بن مسعود وتفرقت القلوب فخاف بعضهم بعضا وكان عليه السلام قد ابتهل الى الله الذى لا ملجأ الا اليه ودعاه بقوله (اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الاحزاب اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم) وقد اجاب الله دعاءه عليه السلام فأرسل على الاعداء ريحاً باردة فى ليلة مظلمة فخاف العرب ان تتفق اليهود مع المسلمين ويهجموا عليهم فى الليلة المدلهمة فاجمعوا امرهم على الرحيل قبل ان يصبح الصباح . ولما سمع عليه السلام الغوغاء فى جيش العدو قال لا صحابه لابد من حادث فمن منكم ينظر لنا خبر القوم فسكتوا حتى كرر ذلك ثلاثاً وكان فيهم حذيفة بن اليمان

فقال له عليه السلام تسمع صوتى منذ الليلة ولا تجيب فقال يا رسول الله البرد شديد فقال اذهب فى حاجة رسول الله واكشف لنا خبر القوم فخاطر رضى الله عنه بنفسه فى خدمة نبيه حتى اطلع على جلية الخبر وان الاعداء عازمون على الرحلة

هزيمة الاحزاب

وقد بلغ من خوفهم أن كان رئيسهم أبو سفيان يقول لهم ليتعرف كل منكم أخاه وليمسك بيده حذراً من ان يدخل بينكم عدوٌ وقد حل عقال بعيره يريد ان يبدأ الرحيل فقال له صفوان بن أمية انك رئيس القوم فلا تتركهم وتمضى فنزل أبو سفيان وأذن بالرحيل وترك خالد بن الوليد فى جماعة ليحموا ظهور المرتحلين حتى لا يدهموا من ورائهم وأزاح الله عن المسلمين هذه الغمة التى تحزب فيها الاحزاب من عرب ويهود على المسلمين ولولا لطف الله وعنايته بهذا الدين منة منه وفضلا لساءت الحال . وكان جلاء الاحزاب فى ذى القعدة وكان حقاً على الله ان يسميه نعمة بقوله فى سورة الاحزاب (يا ايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فارسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً . اذ جاؤكم من فوقكم ومن اسفل منكم واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً . واذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غروراً. واد قالت طائفه منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون ان بيوتنا عورة وما هى بعورة ان يريدون الا فرارا)

غزوة بني قريظة

ولما رجع عليه السلام بأصحابه واراد أن يخلع لباس الحرب أمره الله باللحوق ببني قريظة حتى يطهر ارضه من قوم لم تعد تنفع معهم العهود ولا تربطهم المواثيق ولا يأمن المسلمون جانبهم في شدة فقال لاصحابه لا يصلين أحد منكم العصر الا في بني قريظة فساروا مسرعين وتبعهم عليه السلام راكباً على حماره ولواؤه بيد على بن أبي طالب وخليفته على المدينة عبد الله ابن ام مكتوم وكان عدد المسلمين ثلاثة آلاف وقد ادرك جماعة من الاصحاب صلاة العصر في الطريق فصلاها بعضهم حاملين أمر الرسول بعدم صلاتها على قصد السرعة ولم يصلها الآخرون الا في بني قريظة بعد مضي وقتها حاملين الامر على حقيقته فلم يعنف فريقاً منهم (ولما) رأى بنو قريظة جيش المسلمين القى الله الرعب في قلوبهم وأرادوا التنصل من فعلتهم القبيحة وهي الغدر بمن عاهدوهم وقت الشغل بعدو آخر ولكن انى لهم ذلك وقد ثبت للمسلمين غدرهم فلما رأوا ذلك تحصنوا بحصونهم وحاصرهم المسلمون خمساً وعشرين ليلة فلما رأوا ان لا مناص من الحرب وانهم ان استمروا على ذلك ماتوا جوعاً طلبوا من المسلمين ان ينزلوا على ما نزل عليه بنو النضير من الجلاء بالاموال وترك السلاح فلم يقبل الرسول صلى الله عليه وسلم فطلبوا ان يجلوا بأنفسهم من غير سلاح فلم يرض ايضاً بل قال لا بد من النزول والرضا بما يحكم عليهم خيراً كان أو شراً فقالوا له أرسل لنا أبا لبابة نستشيره وكان اوسياً من حلفاء قريظة له بينهم اولاد واموال فلما توجه اليهم استشاروه في النزول على حكم الرسول فقال لهم انزلوا واوما بيده الى حلقه يريد ان الحكم الذبح . ويقول ابو لبابة لم ابارح موقفي حتى علمت اني خنت الله ورسوله فنزل من عندهم قاصداً المدينة خجلاً

من مقابلة رسول الله وربط نفسه في سارية من سواري المسجد حتى يقضي الله فيه امره . ولما سأل عنه عليه السلام اخبر بما فعل فقال اما انه لو جاءني لاستغفرت له اما وقد فعل ما فعل فنتركه حتى يقضي الله فيه .

ثم ان بني قريظة لما لم يروا بدا من النزول على حكم رسول الله فعلوا فأمر برجالهم فكتفوا فجاءه رجال من الاوس وسألوه ان يعاملهم كما عامل بني قينقاع حلفاء اخوانهم الخزرج فقال لهم ألا يرضيكم ان يحكم عليهم رجل منكم فقالوا نعم واختاروا سيدهم سعد بن معاذ الذي كان جريحاً من السهم الذي اصيب به في الخندق وكان مقيماً بخيمة في المسجد معدة لمعالجة الجرحى فأرسل عليه السلام من يأتي به فحملوه على حماره والتف عليه جماعة من الاوس يقولون له احسن في مواليك ألاترى ما فعل ابن أبي في مواليه فقال رضي الله عنه لقد آن لسعد ان لا تأخذه في الله لومة لائم . ولما اقبل على الرسول واصحابه وهم جلوس قال عليه السلام قوموا الى سيدكم فانزلوه ففعلوا وقالوا له ان رسول الله قد ولاك امر مواليك لتحكم فيهم وقال له الرسول احكم فيهم يا سعد فالتفت سعد للناحية التي ليس فيها رسول الله وقال عليكم عهد الله وميثاقه ان الحكم كما حكمت فقالوا نعم فالتفت الى الجهة التي فيها الرسول وقال وعلى من هنا كذلك وهو غاض طرفه اجلالا فقالوا نعم قال فاني احكم ان تقتل الرجال وتسبى النساء والذرية فقال عليه السلام (لقد حكمت فيهم بحكم الله يا سعد) لان هذا جزاء الخائن الغادر ثم امر بتنفيذ الحكم فنفذ عليهم وجمعت غنائمهم فكانت الفاً وخمسمائة سيف وثلثمائة درع والفي رمح وخمسمائة ترس وجحفة ووجد اثاثاً كثيراً وآنية واجمالا نواضح وشياهاً فخمس ذلك كله مع النخل والسبي للراجل ثلث الفارس واعطى النساء اللاتي كن يمرضن الجرحى ووجد في الغنيمة جرار خمر فأريقت. وبعد تمام هذا الامر انفجر جرح سعد بن معاذ فمات منه رضي الله عنه وأرضاه كان في الانصار

كأبى بكر فى المهاجرين وقد كان له العزم الثابت فى جميع المشاهد التى تقدمت الخندق وكان عليه السلام يحبه كثيراً وبشره بالجنة على عظيم أعماله (وعقب) رجوع المسلمين الى المدينة تاب الله على أبى لبابة بقوله (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم ان الله غفور رحيم) وقد عاهد الله أن يجهر ديار قريظة التى حصلت له فيها هذه الزلة. وبتمام هذه الغزوة أراح الله المسلمين من شر مجاورة اليهود الذين تعودوا الغدر والخيانة ولم تبق الا بقية من كبارهم بخيبر مع أهلها وهم الذين كانوا السبب فى اثارة الاحزاب وسيأتى للقارىء قريباً اليوم الذى يعاقبون فيه

زواج زينب بنت جحش

وفى هذا العام تزوج عليه السلام زينب بنت جحش وأمها أميمة عمته بعد أن طلقها مولاه زيد بن حارثة وكان من أمر زواجها لزيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم خطبها له فتأفف أهلها من ذلك لمكانها فى الشرف العظيم فان العرب كانوا يكرهون تزويج بناتهم من الموالى ويعتقدون أن لا كفء من سواهم لبناتهم وزيد وان كان الرسول تبناه ولكن هذا لا يلحقه بالاشراف فلما نزل قوله تعالى فى سورة الاحزاب (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً) لم يروا بدا من القبول فلما دخل عليها زيد أرته من كبريائها وعظمتها ما لم يتحمله. فاشتكاها لرسول الله فأمره باحتمالها والصبر عليها الى أن ضاقت نفسه فاخبره بالعزم على طلاقها وكرر ذلك. ولما كانت العشرة بين مثل هذين الزوجين ضرباً من العبث أمر الله نبيه أن يتزوج زينب بعد طلاقها حسماً لهذا الشقاق من جهة وحفظاً لشرفها أن يضيع بعد زواجها

بمولى من جهة أخرى ولكن رسول الله خشى من لوم اليهود والعرب عليه فى زواجه بزوج ابنه فقال لزيد أمسك عليك زوجك واتق الله وأخفى فى نفسه ما أبداه الله فبت الله حكمه بابطال هذه القاعدة وهى تحريم زوج المتبنى بقوله فى سورة الاحزاب (فلما قضى زيد منها وطراً زوجنا كها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى ازواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولا) ثم ان الله حرم التبنى على المسلمين لما فيه من الا ضرار وانزل فيه فى سورة الاحزاب (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شئ عليما) ومن هذا الحين صار اسم زيد (زيد بن حارثة) بدل (زيد بن محمد) وأبدل بذلك أن ذكر اسمه فى قرآن يتلى على مر الدهور والاعوام.

ويقول جهال المؤرخين وذو والمقاصد السافلة منهم فى هذه القصة أقوالا لا تجوز الا على من ضاع رشده ولم يفقه حقيقة ما يقول فانهم يذكرون أن الرسول توجه يوماً لزيارة زيد فرأى زوجه بالصدفة لان الريح رفعت الستر عنها فوقعت فى قلبه فقال سبحان الله فلما جاء زوجها ذكرت له ذلك فرأى من الواجب عليه فراقها فتوجه وأخبر الرسول بعزمه فنهاه عن ذلك الخ وهذا مما يكذبه أن نساء العرب لم تكن قبل ذلك تعرف ستر الوجوه وزينب هى بنت عمته وأسلمت قديماً ورسول الله بمكة فكيف لم يرها وقد مضى على اسلامها نحو عشر سنوات وهى بنت عمته الا حينما رفعت الريح الستر بالصدفة ورسول الله هو الذى زوجها زيداً فلو كان له فيها رغبة حب أو عشق لتزوجها هو ولا مانع يمنعه من ذلك. ومن منا يتصور ان السيد الاكرم يقول لقومه انه مرسل من ربه ويتلو عليهم صباح مساء امر الله له بقوله فى سورة الحجر المكية (لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجاً منهم) وفى سورة طه المكية أيضاً (ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا) ثم هو بعد ذلك يدخل بت رجل من متبعيه وينظر الى زوجه مصادفة ثم

يشتهي زواجها ان هذا لامر عظيم تشعر بذلك صدورنا ولو حدث أمر مثله من أقل الناس لعيب عليه فكيف بمن أجمعت كلمة المؤرخين على أنه احسن الناس خلقاً وابعدهم عن الدنايا واشدهم ذكاء وفراسة حتى مدحه الله بقوله فى سورة ن (وانك لعلى خلق عظيم) لا شك ان هذه الخرافة مما يلتحق بخرافة الغرانيق وضعها اعداء الدين ليصلوا بها الى اغراضهم والحمد لله قد ناقضت النقل والعقل فلم تبق شبهة فى ان الحقيقة ما نقلناه لك اوّلا وهو الذى يستفاد من القرآن الشريف قال تعالى فى سورة الاحزاب (واذ تقول للذى انعم الله عليه وانعمت عليه امسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله احق ان تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى ازواج ادعيائهم اذا قضوا منهن وطراً وكان امر الله مفعولا) والذى ابداه الله هو زواجه بها ولم يبد غير ذلك وهذا القرآن اعظم شاهد

الحجاب

(وفيه) نزلت آية الحجاب وهو خاص بنساء رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان عمر بن الخطاب قبل نزول آيته يحبه ويذكره كثيرا ويود ان ينزل فيه قرآن وكان يقول لو أطاع فيكن ما رأتكن عين فنزل فى سورة الاحزاب (واذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم اطهر لقلوبكم وقلوبهن) فقال بعضهم انهى ان نكلم بنات عمنا الا من وراء حجاب لئن مات محمد لا تزوجن عائشة فنزل بعد الاية المتقدمة (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً ان ذلكم كان عند الله عظيما) أما غير أزواجه عليه السلام من المؤمنات فأمرن بغض الابصار وحفظ الفروج كما أمر بذلك الرجال وأمرن ان لايبدين زينتهن للاجانب الا ما ظهر منها كالخاتم فى الاصبع والخضاب فى اليد والكحل فى العين . اما ما خفى

منها فلا يحل ابداؤه كالسوار للذراع والدملج للعضد والخلخال للرجل والقلادة للعنق والاكليل للرأس والوشاح للصدر والقرط للاذن والمراد بالزينة الظاهرة والخفية مواضعها . وأمرن أيضاً بأن يضربن بخمرهن على الجيوب كيلا تبقى صدورهن مكشوفة فان النسآء اذ ذاك كانت جيوبهن واسعة تبدو منها نحورهن وصدورهن وما حواليها وكن يسدلن الخمر من ورائهن ونهين عن أن يضربن بأرجلهن ليعلم أنهن ذوات خلخال واذا كان النهى عن اظهار صوت الحلى بعد ما نهين عن اظهار الحلى علم بذلك ان النهى عن اظهار مواضع الحلى ابلغ وأبلغ قال تعالى في سورة النور (وقل للمؤمنات يغضضن من ابصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ماظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن او آباء بعولتهن أو ابنائهن أو ابناء بعولتهن او اخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى اخواتهن أو نسائهن أوما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بارجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا الى الله جميعاً أيه المؤمنون لعلكم تفلحون) (وكان) النساء في اول الاسلام كما كن في الجاهلية متبذلات تبرز المرأة في درع وخمار لا فرق بين الحرة والامة وكان الفتيان واهل الشطارة يتعرضون للاماء اذا خرجن بالليل الى مقاضى حوائجهن في النخيل والغيطان وربما تعرضوا للحرة بعلة الامة يقولون حسبناها أمة فأمرن أن يخالفن بزيهن عن زى الاماء بأن يدنين عليهن من جلابيبهن ليغطى الوجه والاعطاف ليحتشمن ويهبن فلا يطمع فيهن طامع قال تعالى في سورة الاحزاب (يا ايها النبى قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى ان يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما) (أما) حجب المرأة عمن يريد خطبتها فهو امر لم يكن يفعل في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ولا في عهد السلف الصالح

فان الشارع الحكيم سن ذلك ليكون الرجل على علم مما يقدم عليه حتى يتم الوفاق والوئام بين الزوجين وهذا امر اجمع عليه ائمة الدين قال حجة الاسلام الغزالي في الاحياء (وقد ندب الشرع الى مرعاة اسباب الالفة ولذلك استحب النظر فقال اذا اوقع الله في نفس أحدكم من امرأة فلينظر اليها فانه احرى ان يؤدم بينهما اى يؤلف بينهما من وقوع الادمة على الادمة وهى الجلدة الباطنة والبشرة الجلدة الظاهرة وانما ذكر ذلك للمبالغة في الائتلاف وقال عليه السلام ان في اعين الانصار شيئاً فاذا اراد احدكم ان يتزوج منهن فلينظر اليهن قيل كان في اعينهن عمش وقيل صغر وكان بعض الصالحين لاينكحون كرائمهم الا بعد النظر احترازا من الغرور وقال الاعمش كل تزويج يقع على غير نظر فآخره هم وغم) ولايبعد ان يكون فساد الزمن والابتعاد عن التربية الدينية التي تسوق الى مكارم الاخلاق قدحسنا عند عامة المسلمين في العصور الاولى حجب المرأة مطلقا حسما للمفاسد وذرءا للفتنة .

فرض الحج

(وفى هذا العام) على ماعليه الاكثرون فرض الله على الامة الاسلامية حج البيت من استطاع اليه سبيلاً ليجتمع المسلمون من جميع الاقطار فيتوجهوا الى الله ويبتهلوا اليه أن يؤيدهم بنصره ويعينهم على اتباع دينه القويم وفى ذلك من تقوية الرابطة واتحاد القلوب مافيه للمسلمين الفائدة العظمى

السنة السادسة

(سرية)

ولعشر خلون من محرم السنة السادسة أرسل عليه السلام محمد بن مسلمة في ثلاثين راكبا لشن الغارة على بنى بكر بن كلاب الذين كانوا

نازلين بناحية ضرية (١) فسار اليهم يكمن النهار ويسير الليل حتى دهمهم فقتل منهم عشرة وهرب باقيهم فاستاقت السرية النعم والشياه وعادوا راجعين الى المدينة وقد التقوا وهم عائدون بثمامة ابن أثال الحنفي من عظماء بني حنيفـــة فأسروه وهم لايعرفونه فلما اتوا به رسول الله عرفه وعامله بمنتهى مكارم الاخلاق فانه اطلق اساره بعد ثلاث ابى فيها الانقيــاد للاسلام بعد ان عرض عليه ولما رأى ثمامة هذه المعاملة وهذه المكارم رأى من العبث ان يتبع هواه ويترك ديناً عماده المحامد فرجع الى رسول الله واسلم غير مكره وخاطب الرسول بقوله (يامحمد والله مـا كان على الارض من وجه ابغض الى من وجهك فقد اصبح وجهك احب الوجوه كلها الى والله ما كان على الارض من دين ابغض الى من دينك فقد اصبح احب الدين كله الى والله ما كان من بلد ابغض الى من بلدك فقد اصبح احب البـلاد الى) فسر عليه السلام كثيرا باسلامه لان من ورائه قوما يطيعونه ولما رجع ثمامة الى بلاده مر بمكة معتمرا وأظهر فيها اسلامه فأرادت قريش ايذاءه فذكروا احتياجهم لحبوب اليمامة التى منها ثمامة فتركوه ومع ذلك فقد حلف هو أن لايرسل اليهم من اليمامة حبوبا حتى يؤمنوا فجهدوا جـــدا ولم يروا بدا من الاستغاثة برسول الله فعاملهم عليه السلام بما جبل عليه من الشفقة والمرحمة وأرسل لثمامة ان يعيد عليهم ما كان يأتيهم من اقوات اليمامة ففعل وقد كان لهذا الرجل الكريم الاصل قدم راسخ فى الاسلام عقب وفاة الرسول حينما ارتد اكثر اهل بلاده فكان ينهى قومه عن اتباع مسيلمة ويقول لهم اياكم وامراً مظلماً لا نور فيه وانه لشقاء كتبه الله على من اتبعه فثبت معه كثير من قومه رضى الله عنه

---

١) موضع على سبع ليال من المدينة فى طريق البصرة

غزوة بنى لحيان

بنو لحيان هم الذين قتلوا عاصم بن ثابت واخوانه ولم يزل رسول الله حزيناً عليهم متشوفا للقصاص من عدوهم حتى ربيع الاول من هذه السنة فأمر أصحابه بالتجهز ولم يظهر لهم مقصده كما هى عادته عليه السلام فى غالب الغزوات لتعمى الاخبار عن الاعداء وولى على المدينة ابن أم مكتوم وسار فى مائتى راكب معهم عشرون فرسا ولم يزل سائراً حتى مقتل أصحاب الرجيع فترحم عليهم ودعا لهم ولما سمع به بنو لحيان تفرقوا فى الجبال فأقام عليه السلام بديارهم يومين يبعث السرايا فلا يجدون أحداً ثم أرسل بعضاً من أصحابه ليأتوا عسفان (١) حتى يعلم بهم اهل مكة فيداخلهم الرعب فذهبوا الى كراع الغميم (٢) ثم رجع عليه السلام الى المدينة وهو يقول (آيبون تائبون لربنا حامدون أعوذ بالله من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر فى الاهل والمال)

غزوة الغابة

كان للنبى عليه السلام عشرون لقحة ترعى بالغابة (٣) فأغار عليها عيينة بن حصن فى أربعين راكباً واستلبها من راعيها فجاءت الاخبار رسول الله عليه الصلاة والسلام والذى بلغه هو سلمة بن الاكوع أحد رماة الانصار وكان عداء فأمره الرسول بأن يخرج فى أثر القوم ليشغلهم بالنبل حتى يدركهم المسلمون فخرج يشتد فى أثرهم حتى لحقهم وجعل يرميهم بالنبل فاذا وجهت الخيل نحوه رجع هارباً فلا يلحق فاذا دخلت الخيل بعض المضايق علا الجبل فرمى عليها الحجارة حتى ألقوا كثيراً مما بأيديهم

١) موضع قرب مكة
٢) جبل جنوب عسفان بثمانية اميال
٣) موضع على بريد من المدينة جهة غطفان

من الرماح و الابراد ليخففوا عن انفسهم حتى لا يلحقهم الجيش ولم يزل سلمة على ذلك حتى تلاحق به الجيش فان الرسول دعا أصحابه فأجابوه وأوّل من انتهى اليه المقداد بن الاسود فقال له اخرج فى طلب القوم حتى الحقك و اعطاه اللواء فخرج و تبعته الفرسان حتى أدركوا أواخر العدو فحصلت بينهم مناوشات قتل فيها مسلم ومشركان واستنقذ المسلمون غالب اللقاح وهرب أوائل القوم بالبقية وطلب سلمة بن الاكوع من رسول الله ان يرسله مع جماعة فى اثر القوم ليأخذهم على غرة وهم نازلون على أحد مياههم فقال له عليه السلام (ملكت فأسجح) ثم رجع بعد خمس ليال

سرية

كان بنو أسد الذين مر ذكرهم كثيراً ما يؤذون من يمر بهم من المسلمين فأرسل لهم عليه السلام عكاشة بن محصن فى اربعين راكباً ليغير عليهم ولما قارب بلادهم علموا به فهربوا وهناك وجدوا رجلا نائما فأمنوه ليدلهم على نعم القوم فدلهم عليها فاستاقوها وكانت مائة بعير ثم قدموا المدينة ولم يلقوا كيداً .

سرية

وفى ربيع الاوّل بلغه عليه السلام ان من بذى القصة (١) يريدون الاغارة على نعم المسلمين التى ترعى بالهيفاء (٢) فأرسل لهم محمد بن مسلمة فى عشرة من المسلمين فبلغ ديارهم ليلاً وقد كمن لهم المشركون حينما علموا بهم فنام المسلمون ولم يشعروا الا والنبل قد خالطهم فتواثبوا على اسلحتهم ولكن تغلب عليهم الاعداء فقتلوهم غير محمد بن مسلمة تركوه لظنهم انه قتل فعاد الى المدينة واخبر الرسول عليه السلام فأرسل

١) موضع على اربعة وعشرين ميلا من المدينة فى طريق الربذة
٢) موضع قرب المدينة

ابا عبيدة عامر بن الجراح فى ربيع الآخر ليقتص من الاعداء فلما وصل ديارهم وجدهم تشتتوا هاربين فاستاق نعمهم ورجع .

سرية

عاكس بنو سليم الذين كانوا من المتحزبين فى غزوة الخندق المسلمين فى سيرهم فأرسل عليه السلام زيد بن حارثة فى ربيع الآخر ليغير عليهم فى الجموم (١) فلما بلغوا ديارهم وجدوهم تفرقوا ووجدوا هناك امرأة من مزينة دلتهم على منازل بنى سليم فاصابوا بها نعما وشاء ووجدوا رجالا أسروهم وفيهم زوج تلك المرأة فرجعوا بذلك الى المدينة فوهب الرسول لهذه المرأة نفسها وزوجها

سرية

بلغ الرسول أن عيراً لقريش أقبلت من الشام تريد مكة فأرسل لها زيد بن حارثة فى مائةوسبعين راكبا ليعترضها فأخذها وما فيها واسر من معها من الرجال وفيهم أبوالعاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله وكان من رجال مكة المعدودين تجارة ومالا وامانة فاستجار بزوجه زينب فأجارته ونادت بذلك فى مجمع قريش فقال عليه السلام (المسلمون يد واحدة يجير عليهم أدناهم وقد أجرنا من أجرت) وهذا أبلغ ماقيل فى المساواة بين افراد المسلمين ورد عليه الرسول ماله بأسره لا يفقد منه شيئاً فذهب الى مكة فأدى لكل ذى حق حقه ورجع الى المدينة مسلما فرد عليه رسول الله زوجه

سرية

وفى جمادى الآخرة أرسل عليه السلام زيد بن حارثة فى خمسة عشر رجلاً للاغارة على بنى ثعلبة الذين قتلوا أصحاب محمد بن مسلمة

١) ناحية من بطن نخل.

وهم مقيمون بالطرف (١) فتوجهت السرية لذلك ولما رآهم الاعداء ظنوهم طليعة لجيش رسول الله فهربوا وتركوا نعمهم وشاءهم فاستاقها المسلمون ورجعوا الى المدينة بعد أربع ليال

سرية

وفى رجب أرسل عليه السلام زيد بن حارثة ليغير على بنى فزارة لانهم تعرضوا لزيد وهو راجع بتجارة من الشام فسلبوا ما معه وكادوا يقتلونه فلما جاء المدينة وأخبر الرسول الخبر أرسله مع رجاله للقصاص من فزارة المقيمين فى وادى القرى (٢) فساروا حتى دهموا العدو واحاطوا بهم وقتلوا منهم جمعاً كثيراً وأخذوا امرأة من كبارهم أسيرة فاستوهبها عليه السلام ممن أسرها وفدى بها أسيراً كان بمكة

سرية

وفى شعبان أرسل عليه السلام عبدالرحمن بن عوف مع سبعمائة من الصحابة لغزو بنى كلب فى دومة الجندل (٣) وقد وصاهم عليه السلام قبل السفر بقوله (اغزوا جميعاً فى سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم) ثم اعطاه اللواء فساروا على بركة الله حتى حلوا بديار العدو فدعوهم الى الاسلام ثلاثة ايام وفى اليوم الرابع اسلم رئيس القوم الاصبغ بن عمرو النصرانى وأسلم معه جمع من قومه وبقى آخرون راضين باعطاء الجزية فتزوج عبدالرحمن بنت رئيسهم كما امره بذلك عليه السلام وهذه اقرب طريق لتمكين صلات الود بين الامراء بحيث يهم كلا ما يهم الآخر فنعما هى سياسة السلم والمحبة

١) ماء على ستة وثلاثين ميلا من المدينة فى طريق العراق

٢) موضع شمالى المدينة

٣) حصن وقرى بينها وبين دمشق خمس ليال وبين المدينة خمس عشرة ليلة

سرية

وفى شعبان أرسل عليه السلام على بن أبى طالب فى مائة رجل لغزو بنى سعد بن بكر بفدك (١) لانه بلغه انهم يجمعون الجيوش لمساعدة يهود خيبر على حرب المسلمين مقابل تمر يعطونه من تمر خيبر فسارت السرية وبينما هم سائرون التقوا بجاسوس العدو ارسلوه الى خيبر ليعقد المعاهدة مع يهودها فطلبوا منه ان يدلهم على القوم وهو آمن فدلهم على موضعهم فاستاق منه المسلمون نعم القوم وهرب الرعاة فحذروا قومهم فداخلهم الرعب وتفرقوا فرجع المسلمون ومعهم خمسمائة بعير والفاشاة ورد الله كيد المشركين فلم يمدوا اليهود بشىء

قتل أبى رافع

وكان المحرك لاهل خيبر على حرب المسلمين هو سيدهم ابو رافع سلام بن ابى الحقيق الملقب بتاجر أهل الحجاز لما كان له من المهارة فى التجارة وكان ذا ثروة طائلة يقلب بها قلوب اليهود كما يريد فانتدب له عليه السلام من يقتله فأجاب لذلك خمسة رجال من الخزرج رئيسهم عبد الله بن عتيك ليكون لهم مثل اجر اخوانهم من الاوس الذين قتلوا كعب بن الاشرف فان من نعم الله على رسوله ان كان الاوس والخزرج يتفاخرون بما يفعلونه من تنفيذ رغبات رسول الله فلا تعمل الاوس عملاً الا اجتهد الخزرج فى مثله فأمرهم الرسول بذلك بعد أن وصاهم ان لا يقتلوا وليداً ولاامرأة فساروا حتى اتوا خيبر فقال عبد الله لاصحابه مكانكم فانى منطلق للبوّاب ومتلطّف له لعلى ادخل فأقبل حتى دنا من الباب ثم تقنّع بثوب كانه يقضى حاجته وقد دخل الناس فهتف به البوّات ادخل يا عبد الله ان كنت تريد الدخول فانى اريد ان اغلق الباب فدخل وكمن حتى نام البوّاب فأخذ المفاتيح وفتح ليسهل

---

١) قرية بينها وبين المدينة ست ليال من جهة خيبر

له الهرب ثم توجه الى بيت ابى رافع وصار يفتح الابواب التى توصل اليها وكلما فتح باباً اغلقه من داخل حتى انتهى اليه فاذا هو فى بيت مظلم وسط عياله فلم يمكنه تمييزه فنادى يا ابا رافع قال من فأهوى بالسيف نحو الصوت فلم يغن شيئاً وعند ذلك قالت امرأته هذا صوت ابن ابى عتيك فقال لها ثكلتك امك واين ابن ابى عتيك الآن فعاد عبد الله للنداء مغيراً صوته قائلا ما هذا الصوت الذى نسمعه يا ابا رافع قال لامك الويل ان رجلاً فى البيت ضربنى بالسيف فعمد اليه فضربه أخرى لم تغن شيئاً فتوارى ثم جاءه كالمغيث وغير صوته فوجده مستلقياً على ظهره فوضع السيف فى بطنه وتحامل عليه حتى سمع صوت العظم ثم خرج من البيت وكان نظره ضعيفاً فوقع من فوق السلم فانكسرت رجله فعصبها بعمامته ثم انطلق الى اصحابه وقال النجاة قتل والله ابو رافع فانتهوا الى الرسول فحدثوه ثم قال لعبد الله ابسط رجلك فمسحها عليه السلام فكأنها لم يشتكها قط وعادت احسن ما كانت فانظر رعاك الله الى ما كان عليه المسلمون من استسهال المصاعب مادامت فى ارضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فرضى الله عنهم وارضاهم

سرية

(ولما) قتل كعب ولى اليهود مكانه اسير بن رزام فارسل عليه السلام من يستعلم له خبره فجاءته الاخبار بأنه قال لقومه سأصنع بمحمد مالم يصنعه احد قبلى أسير الى غطفان فاجمعهم لحربه وسعى فى ذلك فارسل عليه السلام عبد الله بن رواحة الخزرجى فى ثلاثين من الانصار لاستمالته فخرجوا حتى قدموا خيبر وقالوا لاسير نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئناله قال نعم ولى مثل ذلك فأجابوه ثم عرضوا عليه ان يقدم على رسول الله ويترك ما عزم عليه من الحرب فيوليه الرسول على خيبر فيعيش أهلها بسلام فأجاب الى ذلك وخرج فى ثلاثين يهودياً كل يهودى

رديف لمسلم و بينماهم فى الطريق ندم اسير على مجيئه واراد التخلص مما فعل بالغدر بمن أمنوه فاهوى بيده الى سيف عبد الله بن رواحة فقال له أغدراً يا عدو الله ثم نزل وضربه بالسيف فاطاح عامة فخذه ولم يلبث ان هلك فقام المسلمون على من معه من اليهود فقتلوهم عن آخرهم وهذا عاقبة الغدر

قصة عكل وعرينة

قدم على رسول الله فى شوال جماعة من عُكَل وعُرَيْنة فأظهروا الاسلام وبايعوا رسول الله وكانوا سقاماً مصفرة الوانهم عظيمة بطونهم فلم يوافقهم هواء المدينة فأمر لهم عليه السلام بذود من الابل معها راع وامرهم باللحوق بها فى مرعاها ليشربوا من البانها وأبوالها ففعلوا ولما تم شفاؤهم جازوا الاحسان كفراً فقتلوا الراعى ومثّلوا به واستاقوا الابل فلما بلغ ذلك رسول الله ارسل وراءهم كرز بن جابر الفهرى فى عشرين فارساً فلحقوا بهم وقبضوا على جميعهم ولما جئ بهم الى المدينة أمر عليه السلام بأن يمثل بهم كما مثلوا بالراعى فقطعت ايديهم وأرجلهم وسُمِرت اعينهم وألقوا بالحرة حتى ماتوا فهكذا يكون جزاء الخائن الذى لا ينتظر منه صلاح وعمل هؤلاء الشريرين مما يدل على فساد الاصل ولؤم العشيرة وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك عن المثلة

سرية

جلس ابو سفيان بن حرب يوماً فى نادى قومه فقال ألا رجل يذهب لمحمد فيقتله غدراً فانه يمشى بالاسواق لنستريح منه فتقدم له رجل وتعهد له بما أراد فاعطاه راحلة ونفقة وجهزه لذلك فخرج الرجل حتى وصل الى المدينة صبح سادسة من خروجه فسأل عن رسول الله فدل عليه وهو بمسجد بنى عبد الاشهل فلما رآه عليه السلام قال ان هذا الرجل ليريد

غدراً وان الله مانعنى منه فذهب لينحنى على الرسول فجذبه اسيد بن حضير من ازاره وهناك سقط الخنجر فندم الرجل على فعلته ثم سأله عليه السلام عن سبب عمله فصدقه بعد ان توثق من حفظ دمه فخلى عليه السلام سبيله فقال الرجل والله يامحمد ما كنت اخاف الرجال فماهو الا أن رأيتك فذهب عقلى وضعفت نفسى ثم انك اطلعت على ماهممت به ممالم يعلمه احد فعرفت انك ممنوع وأنك على حق وان حزب أبى سفيان حزب الشيطان ثم أسلم وعند ذلك ارسل عليه السلام عمرو بن أمية الضمرى وكان رجلاً جريئاً فاتكاً فى الجاهلية وأصحبه برفيق ليقتلا أبا سفيان غيلة جزاء اعتدائه فلما قدما مكة توجها ليطوفا بالبيت قبل ان يؤديا ما ارسلاله فعرف عمراً احد رجال مكة فقال هذا عمرو بن أمية ما جاء الا بشر فلما رآهم علموا به لم يجد مناصاً من الهرب فاصطحب معه رفيقه ورجعا الى المدينة وكأن الله سبحانه أراد أن يعيش أبو سفيان حتى يسلم بيده مفاتيح مكة للمسلمين ويعتنق الدين الحنيفى القويم

غزوة الحديبية

رأى عليه السلام فى نومه أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين محلقين رؤسهم ومقصرين فأخبر المسلمين أنه يريد العمرة واستنفر الاعراب الذين حول المدينه ليكونوا معه حذراً من أن تردهم قريش عن عمرتهم ولكن هؤلاء الاعراب أبطؤا عليه لانهم ظنوا أن لا ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبداً وتخلصوا بأن قالوا شغلتنا اموالنا وأهلونا فاستغفر لنا فخرج عليه السلام بمن معه من المهاجرين والانصار تبلغ عدتهم الفا وخمسمائة وولى على المدينة ابن أم مكتوم وأخرج معه زوجه أم سلمة وأخرج الهدى ليعلم الناس انه لم يأت محارباً ولم يكن مع أصحابه شىء من السلاح الا السيوف فى القرب لان الرسول لم يرض ان يحملوا السيوف مجردة وهم معتمرون ثم سار الجيش حتى

وصل عسفان (١) فجاءه عينه يخبره أن قريشاً أجمعت رأيها أن يصدوا المسلمين عن مكة وأن لا يدخلوها عليهم عَنوة أبداً وتجهزوا للحرب وأعدوا خالد بن الوليد في مائتي فارس طليعة لهم ليصدوا المسلمين عن التقدم فقال عليه السلام هل من رجل يأخذ بنا على غير طريقهم فقال رجل من أسلم أنا يا رسول الله فسار بهم في طريق وعرة ثم خرج بهم الى مستوسهل يملك مكة من اسفلها فلما رأى خالد ما فعل المسلمون رجع الى قريش وأخبرهم الخبر ولما كان عليه السلام بثنية المرار (٢) بركت ناقته فزجروها فلم تقم فقالوا خلأت القصواء فقال عليه السلام ما خلأت وما ذلك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل والذى نفس محمد بيده لا تدعونى قريش لخصلة فيها تعظيم حرمات الله الا أجبتهم اليها مع أن المسلمين لو قاتلوا أعداءهم فى مثل هذا الوقت لظفروا بهم ولكن كف الله أيدى المسلمين عن قريش وكف أيدى قريش عن المسلمين كيلا تنتهك حرمات البيت الذى أراد الله ان يكون حرماً آمناً يوطد فيه المسلمون من جميع الاقطار دعائم اخوتهم فيه ثم أمرهم عليه السلام بالنزول فى أقصى الحديبية (٣) وهناك جاء بديل بن ورقاء الخزاعى رسولا من قريش يسأل عن سبب مجيء المسلمين فأخبره عليه السلام بمقصده فلما رجع بديل الى قريش وأخبرهم ذلك لم يثقوا به لانه من خزاعة الموالية لرسول الله كما كانت كذلك لاجداده وقالوا أيريد محمد أن يدخل علينا فى جنوده معتمراً تسمع العرب أنه قد دخل علينا عنوة وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا والله لا كان هذا ابداً ومنا عين تطرف ثم أرسلوا حليس بن علقمة سيد الاحابيش

(١) موضع على مرحلتين من مكة

(٢) مهبط الحديبية

(٣) بئر قرب مكة سميت الارض باسمها

وهم حلفاء قريش فلما رآه عليه السلام قال هذا من قوم يعظمون الهدى ابعثوه في وجهه حتى يراه ففعلوا واستقبله الناس يلبون فلما رأى ذلك حليس رجع وقال سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء ان يصدوا أتحج لخم وجذام وحمير ويمنع عن البيت ابن عبد المطلب هلكت قريش ورب البيت ان القوم أتوا معتمرين فلما سمعت قريش منه ذلك قالوا له اجلس انما أنت أعرابى لاعلم لك بالمكايد ثم أرسلوا عروة بن مسعود الثقفى سيد أهل الطائف فتوجه الى رسول الله وقال يا محمد قد جمعت أوباش الناس ثم جئت الى أصلك وعشيرتك لتفضها بهم انها قريش قد خرجت تعاهد الله أن لا تدخلها عليهم عنوة أبداً وايم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك فنال منه ابوبكر وقال أنحن ننكشف عنه ويحك وكان عروة يتكلم وهو يمس لحية رسول الله فكان المغيرة بن شعبة يقرع يده اذا أراد ذلك ثم رجع عروة وقد رأى ما يصنع بالرسول اصحابه لا يتوضأ وضوءا الا كادوا يقتتلون عليه يتمسحون به واذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده ولا يحدون النظر اليه فقال والله يا مشعر قريش جئت كسرى فى ملكه وقيصر فى عظمته فما رأيت ملكاً فى قومه مثل محمد فى أصحابه ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً فانظروا رأيكم فانه عرض عليكم رشداً فاقبلوا ما عرض عليكم فانى لكم ناصح مع انى أخاف أن لا تنصروا عليه فقالت قريش لا تتكلم بهذا ولكن نرده عامنا ويرجع الى قابل ثم ان الرسول اختار عثمان بن عفان رسولا من عنده الى قريش حتى يعلمهم مقصده فتوجه وتوجه معه عشرة استأذنوا الرسول فى زيارة اقاربهم وامر عليه السلام عثمان أن يأتى المستضعفين من المؤمنين بمكة فيبشرهم بقرب الفتح وان الله مظهر دينه فدخل عثمان مكة فى جوار أبان بن سعيد الاموى فبلغ ما حمل فقالوا ان محمداً لا يدخلها علينا عنوة أبداً ثم طلبوا منه ان يطوف بالبيت فقال لا أطوف ورسول الله ممنوع ثم انهم حبسوه فشاع عند المسلمين أن عثمان

قتل فقال عليه السلام حينما سمع ذلك لا نبرح حتى نناجزهم الحرب

بيعة الرضوان

ودعا الناس للبيعة على القتال فبايعوه تحت شجرة هناك (١) (سميت بعد بشجرة الرضوان) على الموت فشاع أمر هذه البيعة فى قريش فداخلهم منها رعب عظيم وكانوا قد ارسلوا خمسين رجلا عليهم مكرز بن حفص ليطوفوا بعسكر المسلمين علهم يصيبون منهم غرة فأسرهم حارس الجيش محمد بن مسلمة وهرب رئيسهم ولما علمت بذلك قريش جاء جمع منهم وابتدؤا يناوشون المسلمين حتى أسر منهم اثنا عشر رجلا وقتل من المسلمين واحد

صلح الحديبية

وعند ذلك خافت قريش وأرسلت سهيل بن عمرو للمكالمة فى الصلح فلما جاء قال يا محمد ان الذى حصل ليس من رأى عقلائنا بل شيء قام به السفهاء منا فابعث الينا بمن أسرت فقال حتى ترسلوا من عندكم وعندئذ أرسلوا عثمان والعشرة الذين معه ثم عرض سهيل الشروط التى تريدها قريش وهى ١) وضع الحرب بين المسلمين وقريش عشر سنوات ٢) من جاء المسلمين من قريش يردونه ومن جاء قريشا من المسلمين لا يلزمون برده ٣) أن يرجع النبى من غير عمرة هذا العام ثم يأتى العام المقبل فيدخلها باصحابه بعد ان تخرج منها قريش فيقيم بها ثلاثة ايام ليس مع اصحابه من السلاح الا السيف فى القراب والقوس ٤) من اراد ان يدخل فى عهد محمد من غير قريش دخل فيه ومن اراد ان يدخل فى عهد قريش دخل فيه فقبل عليه السلام كل هذه الشروط اما المسلمون فداخلهم منها امر

١) امر عمر بقطعها زمن خلافته لما راى تبرك الناس بها فليتأمل

عظيم وقالوا سبحان الله كيف نرد اليهم من جاءنا مسلماً ولا يردون من جاءهم مرتدا فقال عليه السلام انه من ذهب منا اليهم فأبعده الله ومن جاءنا منهم فرددناه اليهم فسيجعل الله له فرجاً ومخرجا اما الامر الثالث وهو صد المسلمين عن الطواف بالبيت فكان اشد تأثيراً على قلوبهم لان الرسول اخبرهم انه رأى فى منامه أنهم دخلوا البيت آمنين وقد سأل عمر أبابكر فى ذلك فقال رضى الله عنه وهل ذكر انه فى هذا العام ثم كتبت شروط الصلح بين الطرفين وكان الكاتب على بن أبى طالب فأملاه عليه السلام بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل اكتب باسمك اللهم فأمره الرسول بذلك ثم قال هذا ماصالح عليه محمد رسول الله فقال سهيل لو نعلم انك رسول الله ما خالفناك اكتب محمد بن عبد الله فأمر عليه السلام عليا بمحو ذلك وكتابة محمد بن عبد الله فامتنع فمحاها النبى بيده وكتبت نسختان نسخة لقريش ونسخة للمسلمين وبعد كتابة الشروط جاءهم أبو جندل بن سهيل يحجل فى قيوده وكان من المسلمين الممنوعين من الهجرة فهرب للمسلمين هذه المرة ليحموه فقال عليه السلام اصبر واحتسب فان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً انا قد عقدنا بين القوم صلحا وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهدا فلا نغدر بهم. هذا وقد دخلت قبيلة خزاعة فى عهد رسول الله ودخل بنو بكر فى عهد قريش

ولما انتهى الامر أمر عليه السلام أصحابه أن يحلقوا رؤسهم وينحروا الهدى ليتحللوا من عمرتهم فاحتمل المسلمون من ذلك همـاً عظيما حتى انهم لم يبادروا بالامتثال فدخل عليه السلام على أم المؤمنين أم سلمة وقال لها هلك المسلمون أمرتهم فلم يمتثلوا فقالت يا رسول الله اعذرهم فقد حملت نفسك امراً عظيماً فى الصلح ورجع المسلمون من غير فتح فهم لذلك مكروبون ولكن أخرج يا رسول الله وابدأهم بما تريد فاذا رأوك فعلت تبعوك فقام عليه السلام الى هديه فنحرها ودعا

بالحلاق فحلق رأسه فلما رآه المسلمون تواثبوا الى الهدى فنحروه وحلقوا ثم رجع المسلمون الى المدينة وقد أمن كل فريق الآخر ولما قرّ قرارهم جاءتهم مهاجرة أم كُلْثوم بنت عُقْبة بن أبى مُعَيْط أخت عثمان لامه فطلبها المشركون فقالت يا رسول الله انى أمرأة وان أرجعت اليهم فتنونى فى دينى فانزل الله فى سورة الممتحنة (يا أيها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بايمانهن فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار لاهن حل لهم ولاهم يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم ان تنكحوهن اذا آتيتموهن أجورهن ولاتمسكوا بعصم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم) فكانت المرأة المهاجرة تستحلف انها ماخرجت رغبة بارض عن ارض ولا من بغض زوج ولا لالتماس دنيا ولا لرجل من المسلمين وماخرجت الا حباً لله ولرسوله ومتى حلفت لاترد بل يعطى لزوجها المشرك ماأنفقه عليها ويجوز للمسلم تزوجها وفى الاية تحريم امساك الزوجة الكافرة بل ترد الى اهليها بعد ان يعطوا ما أنفقوا عليها (وقد تمكن) ابو بصير عتبة بن اسيد الثقفى رضى الله عنه من الفرار الى رسول الله فأرسلت قريش فى اثره رجلين يطلبان تسليمه فأمره عليه السلام بالرجوع معهما فقال يارسول الله اتردنى الى الكفار يفتنونى فى دينى بعد ان خلصنى الله منهم فقال ان الله جاعل لك ولاخوانك فرجاً فلم يجد بدا من اتباعه فرجع مع صاحبيه ولما قارب ذا الحليفة عدا على احدهما فقتله وهرب منه الآخر فرجع الى المدينة وقال يارسول الله وفت ذمتك أما انا فنجوت فقال له اذهب حيث شئت ولاتقم بالمدينة فذهب الى محل بطريق الشام تمر به تجارة قريش فاقام به واجتمع معه جمع ممن كانوا مسلمين بمكة ونجوا وسار اليه ابو جندل بن سهيل واجتمع اليه جمع من الاعراب وقطعوا الطريق على تجارة قريش حتى قطعوا عنهم الامداد فارسل رجال قريش لرسول الله يستغيثون به فى ابطال هذا الشرط ويعطونه الحق

فى امساك من جاءه مسلماً فقبل منهم ذلك وازاح الله عن المسلمين هذه الغمة التى لم يتمكنوا من تحملها فى الحديبية حينما امرهم عليه السلام برد ابى جندل وعلموا ان رأى رسول الله افضل واحسن من رأيهم حيث كان فيه أمن تسبب عنه اختلاط الكفار بالمسلمين فخالطت بشاشة الاسلام قلوبهم حتى قال ابوبكر رضى الله عنه ما كان فتح فى الاسلام اعظم من فتح الحديبية ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه والعباد يعجلون والله لايعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الامور ما اراد وفى رجوعه عليه السلام من الحديبية نزلت عليه سورة الفتح وقال الله سبحانه فى اولها (انا فتحنالك فتحاً مبيناً) وفى تسمية هذه الغزوة بالفتح المبين تصديق لما قدمناه لك عن الصديق

مكاتبة الملوك

بعدرجوع المسلمين منالحديبية فى أواخرسنة ست وأمن الطرق من قريش كاتب عليه السلام ملوك الارض يدعوهم الى الاسلام واتخذ اذ ذاك خاتما من فضة يختمبه خطاباته وكان نقشه (محمد رسول الله) فوجه دحية الكلبى بكتاب الى قصير ملك الروم وامره أن يدفعه الى عظيم بصرى ليوصله الى الملك

كتاب قيصر

وكان فى الكتاب (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله الى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى اما بعد فانى ادعوك بدعاية الاسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فانما عليك أثم الاريسيين (١) ويا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لانعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)

١) الفلاحين

حديث أبى سفيان

ولما وصل هذا الكتاب قيصر قال انظروا لنا من قومه أحداً نسأله عنه وكان أبو سفيان بن حرب بالشام مع رجال من قريش فى تجارة فجاءت رسل قيصر لابى سفيان ودعوه لمقابلة الملك فأجاب ولما قدموا عليه فى القدس قال لترجمانه سلهم أيهم اقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى فقال أبو سفيان أنا لانه لم يكن فى الركب من بنى عبدمناف غيره فقال قيصر ادن منى ثم أمر بأصحابه فجعلوا خلف ظهره ثم قال لترجمانه قل لاصحابه انما قدمت هذا امامكم لأسأله عن هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى وقد جعلتكم خلفه كيلا تخجلوا من رد كذبه عليه اذا كذب ثم سأله كيف نسب هذا الرجل فيكم قال هو فينا ذونسب قال هل تكلم بهذا القول أحد منكم قبله قال لا قال هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال قال لا قال فهل كان من آبائه من ملك قال لا قال فاشراف الناس يتبعونه ام ضعفاؤهم قال بل ضعفاؤهم قال فهل يزيدون ام ينقصون قال بل يزيدون قال هل يرتد احد منهم سخطة لدينه قال لا قال هل يغدر اذا عاهد قال لا ونحن الآن منه فى ذمة لاندرى ما هو فاعل فيها قال فهل قاتلتموه قال نعم قال فكيف حربكم وحربه قال الحرب بيننا وبينه سجال مرة لنا ومرة علينا قال فبم يأمركم قال يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً وينهى عما كان يعبد آباؤنا ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد واداء الامانة فقال الملك انى سألتك عن نسبه فزعمت انه فيكم ذو نسب وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله فزعمت ان لا فلو كان احد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتم بقول قيل قبله وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل

ان يقول ما قال فزعمت ان لا فقلت ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله وسألتك هل كان من آبائه من ملك فقلت لا فلو كان من آبائه ملك لقلت رجل يطلب ملك ابيه وسألتك اشراف الناس يتبعونه ام ضعفاؤهم فقلت ضعفاؤهم وهم اتباع الرسل وسألتك هل يزيدون أم ينقصون فقلت بل يزيدون وكذلك الايمان حتى يتم وسألتك هل يرتد احد منهم سخطة لدينه فقلت لا وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب وسألتك هل قاتلتموه فقلت نعم وان الحرب بينكم وبينه سجال وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة وسألتك بماذا يأمر فزعمت انه يأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد واداء الامانة وسألتك هل يغدر فذكرت ان لا وكذلك الرسل لا تغدر فعلمت انه نبى وقد علمت انه مبعوث ولم اظن انه فيكم وان كان ما كلمتنى به حقاً فسيملك موضع قدمى هاتين ولو اعلم انى اخلص اليه لتكلفت ذلك قال ابوسفيان فعلت اصوات الذين عنده وكثر لغطهم فلا ادرى ما قالوا وامر بنا فاخرجنا فلما خرج ابوسفيان مع اصحابه قال لقد بلغ امر ابن ابى كبشة ان يخافه ملك بنى الاصفر.

ولما سار قيصر الى حمص اذن لعظماء الروم فى دسكرة له ثم امر بابوابها فاغلقت ثم قال يا معشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد وان يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبى فحاصوا حيصة حمر الوحش الى الابواب فوجدوها مغلقة فلما رآى قيصر نفرتهم قال ردوهم على فقال لهم انى قلت مقالتى اختبر بها شدتكم على دينكم فسجدوا له ورضوا عنه فغلبه حب ملكه على الاسلام فذهب باثمه واثم رعيته كما قال عليه الصلاة والسلام ولكنه رد دحية رداً جميلاً

كتاب أمير بصرى

وارسل عليه السلام الحارث بن عمير الازدى بكتاب الى امير

بصرى فلما بلغ موٴتة (وهى قرية من عمل البلقاء بالشام) تعرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى فقال له اين تريد قال الشام قال لعلك من رسل محمد قال نعم فأمر به فضربت عنقه ولم يقتل لرسول الله عليه الصلاة والسلام رسول غيره وقد وَجِد لذلك وجداً شديداً

كتاب الحارث بن أبى شمر

ووجه عليه السلام شجاع بن وهب الى امير دمشق من قبل هرقل الحارث بن ابى شمر وكان يقيم بغوطتها وفيه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى الحارث بن ابى شمر سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق وانى ادعوك ان توٴمن بالله وحده لاشريك له يبق ملكك) فلما قرأ الكتاب رمى به وقال من ينزع ملكى منى واستعد ليرسل جيشاً لحرب المسلمين وقال لشجاع اخبر صاحبك بما ترى ثم ارسل الى قيصر يستأذنه فى ذلك وصادف ان كان عنده دحية فكتب قيصر اليه يثنيه عن هذا العزم ويأمره بأن يهيئ بايليا ما يلزم لزيارته فانه بعد ان قهر الفرس نذر زيارتها فلما رأى الحارث كتاب قيصر صرف شجاع بن وهب بالحسنى ووصله بنفقة وكسوة

كتاب المقوقس

ووجه عليه السلام حاطب بن ابى بلتعة بكتاب الى المقوقس امير مصر من جهة قيصر وكان فيه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى اما بعد فأنى ادعوك بدعاية الاسلام اسلم تسلم يؤتك الله اجرك مرتين وان توليت فانما عليك اثم القبط ويا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة الآية) فأوصله له حاطب باسكندرية فلما قرأه قال ما منعه ان كان نبياً ان يدعو على من خالفه واخرجه من بلده فقال حاطب الست تشهد ان عيسى ابن مريم رسول

الله فما له حيث اخذه قومه فأرادوا ان يقتلوه ان لا يكون دعا عليهم ان يهلكهم الله حتى رفعه الله اليه قال احسنت انت حكيم جاء من عند حكيم ثم قال انى قد نظرت فى امر هذا النبى فوجدت انه لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب فيه ولم اجده بالساحر الضال ولا الكاهن الكذاب ووجدت معه آلة النبوة اخراج الغائب المستور والاخبار بالنجوى وسأنظر ثم كتب رد الجواب يقول فيه (بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبدالله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك اما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو اليه وقد علمت ان نبياً قد بقي وكنت اظن انه يخرج بالشام وقد اكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مكان عظيم فى القبط وبثياب واهديت اليك بغلة تركبها والسلام) واحدى الجاريتين مارية التى تسرى بها عليه الصلاة والسلام وجاء منها بولده ابراهيم والاخرى اعطاها لحسان ابن ثابت ولم يسلم المقوقس

كتاب النجاشي

ووجه عليه السلام عمرو بن امية الضمرى بكتاب الى النجاشى ملك الحبشة وفيه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى النجاشى عظيم الحبشة سلم اما بعد فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الاهو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته القاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده وانى ادعوك الى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وان تتبعنى وتوقن بالذى جاءنى فأنى رسول الله وانى ادعوك وجنودك الى الله عز وجل وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتى والسلام على من اتبع الهدى) ولما وصله الكتاب احترمه غاية الاحترام وقال لعمرو انى اعلم والله ان عيسى بشر به ولكن اعوانى

بالحبشة قليل فانظرني حتى اكثر الاعوان والين القلوب . وقد عرض عمرو على من بقي من مهاجري الحبشة الرجوع الى رسول الله بالمدينة وكان من المهاجرين ام حبيبة بنت ابي سفيان زوج عبدالله بن جحش الذي كان اسلم وهاجر بها ولكن غلبت عليه الشقاوة فتنصر فتزوج عليه السلام ام حبيبة وهي بالحبشة والذي زوجها لــــه النجاشي بتوكيل منه عليه السلام

كتاب كسرى

ووجه عليه السلام عبدالله بن حذافة السهمي بكتاب الى كسرى ملك الفرس وفيه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمـد رسول الله الى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى و آمن بالله و رسوله وشهد ان لا اله الا الله وحده لاشريك له وان محمداً عبده ورسوله ادعوك بدعاية الله فاني انا رسول الله الى الناس كافة لانذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين أسلم تسلم فان ابيت فانما عليك اثم المجوس) فلما وصله الكتاب مزقه استكباراً ولما بلغه عليه السلام ذلك قال (مزق الله ملكه كل ممزق) وقد فعل فكانت مملكته اقرب الممالك سقوطا وقد بدأ هذا الشقي بالعدوان فارسل لعامله باليمن ان يوجه الى الرسول من يأتي به اليه فعاجله الله بقيام ابنه شيرويه عليه وقتله له ثم ارسل لعامل اليمن ينهاه عما امره به ابوه

كتاب المنذر بن ساوى

ووجه عليه السلام العلاء بن الحضرمي بكتاب الى المنذر بن ساوى ملك البحرين يدعوه فيه الى الاسلام وفيه (بسم الله الرحمن الرحيم سلم انت فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو اما بعد فان من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا واكل ذبيحتنا فذلك المسلم له ذمة الله وذمة الرسول

من احب ذلك من المجوس فانه آمن ومن أبى فان عليه الجزية) فاسلم وكتب فى رد الجواب (اما بعد يارسول الله فانى قرأت كتابك على اهل البحرين فمنهم من احب الاسلام واعجبه ودخل فيه ومنهم من كرهه وبارضى مجوس ويهود فأحدث الى فى ذلك امرك) فكتب اليه عليه السلام (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى المنذر بن ساوى سلام عليك فأنى احمد الله اليك الذى لااله الاهو واشهد ان لا اله الا الله وان محمداً عبده ورسوله اما بعد فانى اذكرك الله عز وجل فانه من ينصح فانما ينصح لنفسه وانه من يطع رسلى ويتبع امرهم فقد اطاعنى ومن نصح لهم فقد نصح لى وان رسلى قد اثنوا عليك خيراً وانى شفعتك فى قومك فاترك للمسلمين ما اسلموا عليه وعفوت عن اهل الذنوب فاقبل منهم وانك مهما تصلح فلن نغيرك عن عملك ومن اقام على يهوديته اومجوسيته فعليه الجزية)

كتاب ملكى عمان

ووجه عليه السلام عمرو بن العاص بكتاب الى جيفر وعبد ابنى الجُلَنْدَى ملكى عمان وفيه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى جيفر وعبد ابنى الجلندى سلام على من اتبع الهدى اما بعد فانى ادعوكما بدعاية الاسلام أسلما تسلما فانى رسول الله الى الناس كافة لانذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين وانكما ان أقررتما بالاسلام وليتكما وان ابيتما فان ملككما زائل وخيلى تحل بساحتكما وتظهر نبوتى على ملككما والسلام)

فلما حل باديهما عمرو سأله عبد بن الجلندى عما يأمر به الرسول وينهى عنه فقال يأمر بطاعة الله عز وجل وينهى عن معصيته ويأمر بالبر وصلة الرحم وينهى عن الظلم والعدوان والزنا وشرب الخمر وعن عبادة الحجر والوثن والصليب فقال ما احسن هذا الذى يدعو اليه ولو كان اخى يتابعنى لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به ولكن اخى

أضن بملكه من ان يدعه ويصير تابعاً قال عمرو ان أسلم اخوك ملكه رسول الله على قومه فأخذ الصدقة من غنيهم فردها على فقيرهم فقال عبد ان هذا لخلق حسن وما الصدقة فأخبره بما فرض الله من الصدقات فى الاموال ولما ذكر المواشى قال ياعمرو يؤخذ من سوائم مواشينا التى ترعى فى الشجر وترد المياه قال نعم فقال عبد والله ما أرى قومى على بعد دارهم وكثرة عددهم يرضون بهذا ثم ان عبداً اوصل عمراً لاخيه جيفر فتكلم معه عمرو بما الان قلبه حتى اسلم هو واخوه ومكناه من الصدقات.

كتاب هوذة بن على

ووجه عليه السلام سليط بن عمرو العامرى بكتاب الى هوذة ابن على ملك اليمامة وفيه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى هوذة بن على سلام على من اتبع الهدى واعلم ان دينى سيظهر الى منتهى الخف والحافر فأسلم تسلم وأجعل لك ما تحت يديك) فلما جاءه الكتاب كتب فى رده (ما احسن ما تدعو اليه واجمله وانا شاعر قومى وخطيبهم والعرب تهاب مكانى فاجعل لى بعض الامر اتبعك) ولما بلغ ذلك رسول الله قال لو سألنى قطعة من الارض ما فعلت باد وباد ما فى يديه فلم يلبث ان مات منصرف الرسول صلى الله عليه وسلم من فتح مكة وكان عليه السلام يولى على كل قوم قبلوا الاسلام كبيرهم.

السنة السابعة . غزوة خيبر

وفى محرم السنة السابعة امر عليه السلام بالتجهز لغزو يهود خيبر الذين كانوا اعظم مهيج للاحزاب ضد رسول الله فى غزوة الخندق والذين لا يزالون مجتهدين فى محالفة الاعراب ضد رسول الله كما قدمنا ذلك فى قصة كعب بن الاشرف وقد استنفر رسول الله لذلك من

حوله من الاعراب الذين كانوا معه بالحديبية وجاء المخلفون عنها ليؤذن لهم فقال عليه السلام لا تخرجوا معي الا رغبة في الجهاد اما الغنيمة فلا اعطيكم منها شيئاً وامر منادياً ينادي بذلك ثم خرج عليه السلام بعد ان ولى على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري وكان معه من ازواجه ام سلمة ولما وصل جيش المسلمين الى خيبر التي تبعد عن المدينة نحو مائة ميل من الشمال الغربي رفعوا اصواتهم بالتكبير والدعاء فقال عليه السلام (ارفقوا بأنفسكم فانكم لا تدعون اصم ولا غائبا انكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم) وكانت حصون خيبر ثلاثاً منفصلة عن بعضها وهي حصون النطاة وحصون الكتيبة وحصون الشق والاولى ثلاث حصن ناعم وحصن الصعب وحصن قلة والثانية حصنان حصن ابي وحصن البرئ والثالثة ثلاث حصون حصن القموص وحصن الوطيح وحصن السلالم فبدأ عليه السلام بحصون النطاة وعسكر المسلمون شرقيه بعيداً عن مدى النبل وامر عليه السلام ان يقطع نخلهم ليرهبهم حتى يسلموا فقطع المسلمون نحو اربعمائة نخلة ولما رأى عليه السلام تصميم اليهود على الحرب نهى عن القطع ثم ابتدأ القتال مع حصن ناعم بالمراماة وكان لواء المسلمين بيد احد المهاجرين فلم يصنع في ذلك اليوم شيئاً وفيه مات محمود بن مسلمة اخو محمد بن مسلمة وصار عليه السلام يغدو كل يوم مع بعض الجيش للمناوشة ويخلف على العسكر احد المسلمين حتى اذا كانوا في الليلة السابعة ظفر حارس الجيش وهو عمر بن الخطاب بيهودي خارج في جوف الليل فاتى به رسول الله عليه السلام ولما ادرك الرجل الرعب قال ان امنتموني ادلكم على امر فيه نجاحكم فقالوا دلنا فقد أمناك فقال ان أهل هذا الحصن ادركهم الملال والتعب وقد تركتهم يبعثون بأولادهم الى حصن الشق وسيخرجون لقتالكم غداً فاذا فتح عليكم هذا الحصن غدا فاني ادلكم على بيت فيه

منجنيق ودبابات (١) ودروع وسيوف يسهل عليكم بها فتح بقية الحصون فانكم تنصبون المنجنيق ويدخل الرجال تحت الدبابات فينقبون الحصن فتفتحه من يومك فقال عليه السلام لمحمد بن مسلمة سأعطى الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبانه فبات المهاجرون والانصار كلهم يتمنونها حتى قال عمر بن الخطاب ما تمنيت الامارة الا ليلتئذ فلما كان الغد سأل عليه السلام عن على بن ابى طالب فقيل له انه ارمد فأرسل من يأتيه به ولما جاء تفل فى عينيه فشفاهما الله كأن لم يكن بهما شىء ثم اعطاه الراية فتوجه مع المسلمين للقتال وهناك وجدوا اليهود متجهزين فخرج يهودى يطلب البراز فقتله على ثم خرج مرحب وهو اشجع القوم فالحقه برفيقه فخرج اخوه ياسر فقتله الزبير بن العوام ثم حمل المسلمون على اليهود حتى كشفوهم عن مواقفهم وتبعوهم حتى دخلوا الحصن بالقوة وانهزم الاعداء الى الحصن الذى يليه وهو حصن الصعب وغنم المسلمون من حصن ناعم كثيراً من الخبز والتمر ثم تبعوا اليهود الى حصن الصعب فقاتل عنه اليهود قتالا شديداً حتى رُدَ عنه المسلمون ولكن ثبت الحباب ابن المنذر ومن معه وقاتلوا قتالا شديداً حتى هزموا اليهود فتبعوهم حتى اقتحموا عليهم الحصن فوجدوا فيه غنائم كثيرة من الطعام فأمر عليه السلام منادياً يقول كلوا واعلفوا دوابكم ولاتأخذوا شيئاً ثم ان الذين انهزموا من هذا الحصن ساروا الى حصن قلة فتبعهم المسلمون وحاصروهم ثلاثة ايام حتى استصعب عليهم فتحه وفى اليوم الرابع دلهم يهودى على جداول الماء التى يستقى منها اليهود فمنعوها عنهم فخرجوا وقاتلوا قتالا شديداً انتهى بهزيمتهم الى حصون الشق فتبعهم المسلمون وبدؤا بحصن ابى فخرج اهله وقاتلوا قتالا شديداً ابلى فيه ابو دجانة الانصارى بلاء حسناً حتى تمكن من دخول الحصن عنوة ووجد المسلمون فيه اثاثاً كثيراً ومتاعاً وغنما وطعاماً وهرب المنهزمون منه الى حصن البرىء فتمنعوا به اشد التمنع وكان

١) الدبابة آلة تتخذ للحروب فتدفع فى اصل الحصن فينقبونه وهم فى جوفها

اهله اشد اليهود رمياً بالنبل والحجارة حتى اصاب رسول الله بعض منه فنصب المسلمون عليه المنجنيق فوقع فى قلب اهله الرعب وهربوا منه من غير عناء شديد فوجد فيه المسلمون اوانى لليهود من نحاس وفخار فقال عليه السلام اغسلوها واطبخوا فيها ثم تتبع المسلمون بقايا العدو الى حصون الكتيبة وبدؤا بحصن القموص فحاصروه عشرين ليلة ثم فتحه الله على يد على بن ابى طالب ومنه سبيت صفية بنت حيى بن اخطب ثم سار المسلمون لحصار حصنى الوطيح والسلالم فلم يقاوم اهلهما بل سلموا طالبين حقن دمائهم وان يخرجوا من ارض خيبر بذراريهم لا يصطحب الواحد منهم الا ثوباً واحداً على ظهره فاجابهم رسول الله الى ذلك وغنم المسلمون من هذين الحصنين مائة درع واربعمائة سيف والف رمح وخمسمائة قوس عربية ووجدوا صحفاً من التوراة فسلموها لطالبيها وقد امر عليه السلام بقتل كنانة بن ابى الحقيق لانه انكر حلى حيى بن اخطب وقد عثر عليها المسلمون فوجدوا فيها اساور ودمالج وخلاخيل واقرطة وخواتيم الذهب وعقود الجواهر والزمرد وغير ذلك

(هذا) والذين استشهدوا من المسلمون بخيبر خمسة عشر رجلاً وقتل من اليهود ثلاثة وتسعون رجلا وفى هذه الغزوة أهدت احدى نساء اليهود كراع شاة مسمومة لرسول الله فأخذ منها مضغة ثم لفظها حيث علم انها مسمومة وأكل منها بشر بن البراء فمات لوقته واحتجم رسول الله صلى الله عليه وسلم وجىء له بالمرأة التى فعلت هذه الفعلة فسألها عن سبب ذلك فأجابت قلت ان كان نبياً لن يضره وان كان كاذباً أراحنا الله منه فعفا عنها عليه السلام

زواج صفية

وبعد تمام الظفر والنصر تزوج عليه السلام صفية بنت حيى سيد بنى النضير وأصدقها عتقها وقد أسلمت رضي الله عنها فشرفت بأمومة المؤمنين

النهى عن نكاح المتعة

(ونهى) عليه السلام وهو بخيبر عن نكاح المتعة وهى النكاح لاجل وقد كان حلا فى الجاهلية واستعمل فى بدء الاسلام حتى حرمه الشرع فى هذه السنة (ونهى) كذلك عن اكل لحوم الحمر الاهلية فاكفأ المسلمون قدورها بعد ان نضجت ولم يطعموها

رجوع مهاجرى الحبشة

(وحين) رجوع المسلمين من خيبر قدم من الحبشة جعفر بن أبى طالب ومعه الاشعريون أبو موسى وقومه بعد أن أقاموا فيها نحواً من عشر سنين آمنين مطمئنين وفرح عليه السلام بمقدمهم فرحاً عظيماً وأعطى للاشعريين من مغانم الحصون المفتوحة صلحاً وكان مع جعفر أم حبيبة بنت أبى سفيان أم المؤمنين (وقدم) فى هذا الوقت على النبى عليه السلام الدوسيون اخوان أبى هريرة رضى الله عنه وهو معهم فأعطاهم ايضاً رسول الله عليه الصلاة والسلام

فتح فدك

وبعد تمام الفتح أرسل عليه السلام من يطلب من يهود فدك (١) الانقياد والطاعة فصالحوا رسول الله على أن يحقن دماءهم ويتركوا الاموال وكانت أرض فدك هذه لرسول الله خاصة ينفق منها على نفسه ويعول منها صغير بنى هاشم ويزوج منها أيمهم

صلح تيماء

ولما بلغ يهود تيماء (٢) مافعله المسلمون بيهود خيبر صالحوا على دفع الجزية ومكثوا فى بلادهم آمنين مطمئنين

(١) حصن قريب من خيبر على ست ليال من المدينة

(٢) قرية على ثمان مراحل من المدينة

فتح وادى القرى

ثم دعا عليه السلام يهود وادى القرى الى الاستسلام فأبوا وقاتلوا فقاتلهم المسلمون وأصابوا منهم أحد عشر رجلا وغنموا منهم مغانم كثيرة خمسها عليه السلام وترك الارض فى أيدى أهلها يزرعونها بشطر ما يخرج منها وكذلك صنع بأرض خيبر وكان يرسل اليهم عبدالله بن رواحة لتقدير الثمر وكان تقديره شديداً عليهم فأرادوا أن يرشوه فقال لهم يا أعداء الله تعطونى السحْت والله لقد جئتكم من عند أحب الناس الى ولانتم أبغض الى من القردة والخنازير ولا يحملنى بغضى اياكم وحبى اياه على أن لا أعدل (هذا) وبانقياد جميع اليهود المجاورين للمدينة ارتاح المسلمون من شر عدو كان يتربص بهم الدوائر مهما كان بين الفريقين من العهود والمواثيق ورجع المسلمون مؤيدين ظافرين

اسلام خالد ورفيقيه

وأعقب هذه الغزوة وهذا الفتح المبين اسلام ثلاثة طالما كانت لهم اليد الطولى فى قيادة الجيوش لحرب المسلمين وهم خالد بن الوليد المخزومى وعمرو بن العاص السهمى وعثمان بن أبى طلحة العبدرى فسر بهم عليه السلام سروراً عظيماً وقال لخالد (الحمد لله الذى هداك قد كنت أرى لك عقلاً رجوت أن لا يسلمك الا الى خير) فقال يا رسول الله ادع الله لى أن يغفر تلك المواطن التى كنت أشهدها عليك فقال له عليه السلام (الاسلام يقطع ما قبله)

سرية

وفى شعبان بلغه عليه السلام أن جمعا من هوازن بتربة (١) يظهرون العداوة للمسلمين فأرسل لهم عمر بن الخطاب فى ثلاثين رجلا فسار اليهم ولما بلغهم الخبر تفرقوا فلم يجد بها عمر أحداً فرجع

(١) موضع بين صنعاء ومكة

سرية

(ثم) ارسل بشير بن سعد الانصارى لقتال بنى مرة بناحية فدك فلما ورد بلادهم لم ير منهم أحداً فأخذ نعمهم أما القوم فكانوا فى الوادى فجاءهم الصريخ فأدركوا بشيرا ليلاً وهو راجع فتراموا بالنبل ولما اصبح الصبح اقتتل الفريقان قتالا شديداً حتى قتل غالب المسلمين وجرح بشير جرحاً شديداً حتى ظن انه مات ولما انصرف عنه العدو تحامل حتى جاء الى رسول الله وأخبره الخبر

(وفى رمضان) ارسل عليه السلام غالب بن عبد الله الليثى الى اهل الميفعة (١) فى مائة وثلاثين رجلاً فساروا حتى هجموا على القوم فقتلوا بعضاً وأسروا آخرين وفى اثناء الحرب طارد اسامة ابن زيد رجلاً من المشركين ولما رأى المشرك الموت فى يد اسامة تشهد فظن أسامة ان عدوه انما قال ذلك تخلصا فقتله ولما رجع المسلمون الى المدينة وأخبر عليه السلام بفعلة اسامة قال أقتلته بعد ان قال لا اله الا الله فكيف تصنع بلا اله الا الله قال يارسول الله انما قالها متعوذاً من القتل قال عليه السلام فهلا شققت عن قلبه فتعلم أصادق هو ام كاذب فقال يارسول الله أستغفر لى قال عليه السلام فكيف بلا اله الا الله فمازال يكررها حتى تمنى اسامة انه لم يسلم قبل ذلك اليوم وانزل الله فى سورة النساء (ولا تقولوا لمن القى اليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة) ثم امر عليه السلام اسامة ان يعتق رقبة كفارة لانه قتل خطأ

سرية

(وفى) شوال بلغه عليه السلام ان عيينة بن حصن واعد جماعة من غطفان كانوا مقيمين قريباً من خيبر بارض اسمها يمن وجبار للاغارة

(١) على ثمانية برد من المدينة بناحية نجد

على المدينة فأرسل لهم بشير بن سعد فى ثلاثمائة رجل فساروا اليهم يكمنون النهار ويسيرون الليل حتى اتوا محلتهم فاصابوا نعما كثيراً وتفرق الرعاء فاخبروا قومهم فرعبوا ولحقوا بعليا بلادهم ولم يظفر المسلمون الا برجلين أسلما ثم رجعوا بالغنائم الى المدينة

عمرة القضاء

لما حال الحول على عمرة الحديبية خرج عليه السلام بمن صد معه فيها ليقضي عمرته واستخلف على المدينة اباذر الغفاري وساق معه الهدى ستين بدنة واخرج معه السلاح حذراً من غدر قريش وكان معه مائة فرس عليها بشير بن سعد واحرم عليه السلام من باب المسجد المدنى ولما انتهى الى ذى الحليفة قدم الخيل امامه فقيل يا رسول الله حملت السلاح وقد شرطوا ان لا تحمله فقال عليه السلام لاندخل الحرم به ولكن يكون قريبا منه فان هاجنا هائج فزعنا له فلما كان بمر الظهران قابله نفر من قريش ففزعوا من هذه العدة وأسرعوا الى قومهم فاخبروهم فجاءه فتيان منهم وقالوا والله يا محمد ما عرفت بالغدر صغيراً ولا كبيراً وانا لم نحدث حدثا فقال انا لا ندخل الحرم بالسلاح ولما حان و[illegible]ل مكة خرج اهلوها كارهين رؤية المسلمين يطوفون بالب[illegible]خل عليه السلام واصحابه متوشحين سيوفهم من ثنية كداء وامام[illegible] بن رواحة يقول لا الا اله الا الله وحده صدق وعده ونصر عبده و[illegible] جنده وهزم الاحزاب وحده وطاف عليه السلام بالبيت وهو على راحلته واستلم الحجر بمحجنه وامر اصحابه ان يسرعوا ثلاثة اشواط اظهاراً للقوة لان المشركين قالوا سيطوف اليوم بالكعبة قوم نهكتهم حمى يثرب فقال عليه السلام رحم الله أمرأ أراهم من نفسه قوة واضطبع عليه السلام بردائه وكشف عضده اليمنى شأن الفتوّة وفعل مثله المسلمون وقد اتم المسلمون طوافهم بالبيت آمنين محلقين رؤسهم ومقصرين كما رأى عليه السلام فى منامه

زواج ميمونة

وتزوج صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ميمونة بنت الحارث الهلالية زوج عمه حمزة بن عبد المطلب شهيد احد وخالة عبد الله بن عباس وهى آخر نسائه زواجاً ولم يدخل بها الابعد الخروج من مكة حيث كان بسرف (١) ولما خرج عليه السلام أمر الذين كان تركهم لحراسة الخيل بالذهاب ليطوفوا ففعلوا ثم رجع عليه السلام الى المدينة فرحاً مسروراً بما حباه الله به من تصديق رؤياه

السنة الثامنة

سرية

وفى صفر أرسل عليه السلام غالب بن عبد الله الليثى الى بنى الملوّح وهم قوم من العرب يسكنون بالكديد (٢) فسار القوم حتى اذا كانوا بقديد التقوا بالحارث بن مالك الليثى المعروف بابن البرصاء وكان خصماً لدوداً للمسلمين فاسروه فقال لهم ماجئت الا للاسلام فقالوا له ان تكن مسلماً لن يضرك رباط ليلة والا استوثقنا منك ثم ساروا حتى وصلوا محلة بنى الملوح فاستاقوا النعم والشاء وخرج الصريخ الى [illegible] فجاءهم ما لا قبل لهم به ولكن منّ الله على المسلمين فارسل سيلاً [illegible] يداً حال بينهم وبين عدوهم حتى صار المشركون يرون نعمهم تساق وهم لا يقدرون على ردها

سرية

(ولما) رجع غالب الى المدينة ظافراً ارسله عليه السلام فى مائتى رجل ليقتص من بنى مرة بفدك وهم الذين اصابوا سرية بشير بن سعد فساروا حتى اذا كانو قريباً من القوم خطب غالب فيمن معه فقال بعد

(١) موضع [illegible] التنعيم

(٢) موضع بين عسفان وقديد

ان حمدالله واثنى عليه (اما بعد فانى اوصيكم بتقوى الله وحده لاشريك له وان تطيعونى ولا تخالفوا لى امراً فانه لا رأى لمن لا يطاع) ثم آخى بين الجند فقال يافلان أنت وفلان ويا فلان أنت وفلان لا يفارق احد منكم زميله وأياكم ان يرجع الرجل منكم فأقول له اين صاحبك فيقول لا ادرى فاذا كبرت فكبروا فلما احاطوا بالعدو وكبر كبروا وجردوا السيوف فلم يفلت من عدوهم احد واستاقوا نعمهم فكان لكل واحد من الغزاة عشرة أبعرة

سرية

(وفى) ربيع الاول ارسل عليه السلام كعب بن عمير الغفارى الى ذات اطلاح من ارض الشام فى خمسة عشر رجلاً فوجدوا جمعاً كثيراً فدعوهم الى الاسلام فلم يجيبوا وقاتلوا وكانوا اكثر عدداً فاستشهد المسلمون عن آخرهم الا رئيسهم كعب بن عمير فانه نجا وأتى بالخبر الى رسول الله فشق عليه واراد أن يبعث اليهم من يقتص منهم فبلغه انهم تحولوا من منزلهم فعدل عن ذلك

غزوة مؤتة

جهز عليه السلام فى جمادى الاولى جيشاً للقصاص ممن قتلوا الحارث بن عمير الازدى رسوله الى امير بصرى وامر عليهم زيد ابن حارثة وقال لهم ان اصيب فالامير جعفر بن ابى طالب فان اصيب فعبدالله بن رواحة وكان عدة الجيش ثلاثة آلاف فساروا وشيعهم عليه السلام وكان فيما وصاهم به (اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام وستجدون فيها رجالا فى الصوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ولا بصيراً فانياً ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناء) ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا مؤتة (١)

(١) قرية قريبة من الكرك وهى مشارف الشام

مقتل الحارث بن عمير وهناك وجدوا الروم مجمعين لهم جمعاً عظيماً منهم ومن العرب المتنصرة فتفاوض رجال الجيش فيما يفعلونه أيرسلون لرسول الله يطلبون منه مدداً ام يقدمون على الحرب فقال عبد الله ابن رواحة يا قوم والله ان الذى تكرهون هو ما خرجتم له خرجتم تطلبون الشهادة ونحن ما نقاتل بقوة ولا بكثرة ما نقاتل الا بهذا الدين الذى اكرمنا الله به فانما هي احدى الحسنيين اما الظهور واما الشهادة فقال الناس صدق والله ابن رواحة ومضوا للقتال فلقوا هذه الجموع المتكاثرة فقاتل زيد بن حارثة رضى الله عنه حتى استشهد فأخذ الراية جعفر بن ابى طالب وهو يقول

يا حبذا الجنة واقترابها * طيبة وباردا شرابها
والروم روم قددنا عذابها * كافرة بعيدة انسابها
على اذ لاقيتها ضرابها

ولم يزل يقاتل حتى استشهد رضى الله عنه فأخذ الراية عبد الله بن رواحة فتقدم ثم تردد بعض التردد فقال يخاطب نفسه

أقسمت يا نفس لتنزلنه طائعة أولا لتكرهنه
ان اجلب الناس وشدوا الرنه مالى أراك تكرهين الجنة
قد طالما قدكنت مطمئنة هل أنت الا نطفة فى شنة

ثم اقتحم بفرسه المعمعة ولم يزل يقاتل رضى الله عنه حتى استشهد فهمّ بعض المسلمين بالرجوع الى الوراء فقال لهم عقبة بن عامر يا قوم انيقتل الانسان مقبلاً خير من أن يقتل مدبراً فتراجعوا واتفقوا على تأمير الشهم الباسل خالد بن الوليد وبهمته ومهارته الحربية حمى هذا الجيش من الضياع اذ ما تفعل ثلاثة آلاف بمائة وخمسين ألفاً فانه لما أخذ الراية قاتل يومه قتالا شديداً وفى غده خالف ترتيب العسكر فجعل الساقة مقدمة والمقدمة ساقة والميمنة ميسرة والميسرة ميمنة فظن الروم ان المدد جاء للمسلمين فرعبوا ثم أخذ خالد الجيش وصار يرجع

به الى الوراء حتى انحاز الى مؤتة ثم مكث يناوش الاعداء سبعة أيام ثم تحاجز الفريقان لان الكفار ظنوا أن الامداد تتوالى للمسلمين وخافوا ان يجروهم الى وسط الصحارى حيث لا يمكنهم التخلص وبذلك انقطع القتال وقد نعى النبى صلى الله عليه وسلم زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذها جعفر فأصيب ثم أخذها ابن رواحة فأصيب وكانت عينا رسول الله تذرفان ثم قال حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم وجاءه رجل فقال يا رسول الله ان نساء جعفر يبكين فامره ان ينهاهن فذهب الرجل ثم أتى فقال قد نهيتهن فلم يطعن فأمره فذهب ثانياً ثم جاء فقال والله لقد غلبننا فقال له عليه السلام احث فى افواههن التراب ولما أقبل الجيش الى المدينة قابلهم المسلمون يقولون لهم يا فرار فقال عليه السلام بل هم الكرار ظن المقيمون بالمدينة ان انحياز خالد بالجيش هزيمة ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراهم ان ذلك من مكايد الحرب وأثنى على خالد فى مهارته.

سرية

وفى جمادى الآخرة بلغه عليه السلام ان جمعا من قضاعة يتجمعون فى ديارهم وراء وادى القرى ليغيروا على المدينة فأرسل لهم عمرو بن العاص فى ثلاثمائة رجل من سراة المهاجرين ثم أمده بأبى عبيدة بن الجراح فى مائتين من المهاجرين فيهم أبو بكر وعمر فلحقوا عمراً قبل أن يصل الى القوم وقد أراد رجال من الجيش ايقاد نار فمنعهم عمرو فانكر عليه عمر بن الخطاب. فقال أبو بكر انما بعثه رسول الله علينا رئيساً لمعرفته بالحرب اكثر منا فلا تعصه فامتثل ولما حلوا بساحة القوم حملوا عليهم فلم يكن اكثر من ساعة حتى تفرق الاعداء منهزمين فجمعوا غنائمهم وأرادوا اتباع أثرهم فمنعهم قائدهم ثم رجعوا الى المدينة ظافرين

وبينما هم فى الطريق ادركت عمرو بن العاص جنابة فى ليلة باردة فلما أصبح قال ان انا اغتسلت هلكت والله يقول (ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة) ثم تيمم وصلى ثم أمر بالسير حتى اذا وصلوا المدينة قام رسول الله عليه السلام يسأل عن أنباء سفرهم كما هى عادته فأخبروه بما نقموه على عمرو بن العاص من نهيهم عن ايقاد النار ونهيهم عن اتباع العدو وصلاته جنباً فسأله عليه السلام عن ذلك فقال منعتهم من ايقاد النار لئلا يرى العدو قلتهم فيطمع فيهم ونهيتهم عن اتباع العدو لئلا يكون له كمين وصليت جنباً لان الله يقول (ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة) وان أنا اغتسلت هلكت فتبسم عليه السلام وأثنى على عمرو خيراً

سرية

وفى رجب ارسل عليه السلام أبا عبيدة عامر بن الجراح فى ثلاثمائة فارس لغزو قبيلة جهينة التى تسكن ساحل البحر وزود عليه السلام هذا الجيش جراباً من التمر فساروا حتى اذا وصلوا الساحل أقاموا فيه نحو نصف شهر ينتظرون العدو وفد فنى زادهم حتى اكلوا الخبط (وهو ورق السمر) يبلونه بالماء ويأكلونه الى أن تقرحت أشداقهم وكان فى القوم الكريم ابن الكريم قيس بن سعد بن عبادة فنحر لهم ثلاث جزور فى كل يوم جزور وفى اليوم الرابع أراد أن ينحر فنهاه رئيسه أبو عبيدة لان قيساً كان اخذ تلك الجزر بدين على أبيه فخاف أبوعبيدة أن لايفى له أبوه بما استدان فقال قيس أترى سعداً يقضى ديون الناس ويطعم فى المجاعة ولا يقضى ديناً استدنته لقوم مجاهدين فى سبيل الله ولما يئسوا من لقاء عدوهم رجعوا الى المدينة فقال قيس بن سعد لابيه كنت فى الجيش فجاعوا قال انحر قال نحرت قال ثم جاعوا قال انحر قال نحرت قال ثم جاعوا قال انحر قال نحرت قال ثم جاعوا قال انحر قال نهيت

غزوة الفتح الاعظم

اذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه وأزال موانعه فقد كان عليه السلام يعلم أنه لاتذل العرب حتى تذل قريش ولا تنقاد البلاد حتى تنقاد مكة فكان يتشوف لفتحها ولكن كان يمنعه من ذلك العهود التى أعطاها قريشا فى الحديبية وهو سيد من وفى ولكن اذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه فقد علمت أن قبيلة خزاعة دخلت فى عهد رسول الله وقبيلة بكر دخلت فى عهد قريش وكان بين خزاعة وبكر دماء فى الجاهلية كمنت نارها بظهور الاسلام فلما حصلت الهُدْنَة وقف رجل من بكر يتغنى بهجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم على مسمع من رجل خزاعى فقام هذا وضربه فحرك ذلك كامن الاحقاد وتذكر بنوبكر ثارهم فشدوا العزيمة لحرب خصومهم واستعانوا بأوليائهم من قريش فأعانوهم سراً بالعدة والرجال ثم توجهوا الى خزاعة وهم آمنون فقتلوا منهم مايربو على العشرين ولما رأى ذلك حلفاء السيد الامين ارسلوا منهم وفداً برياسة عمرو بن سالم الخزاعى ليخبروا رسول الله بما فعل بهم بنوبكر وقريش فلما حلوا بين يديه واخبروه الخبر قال والله لامنعنكم مما امنع منه نفسى اما قريش فانهم لما رأوا ان ما عملهم نقض للعهود التى اخذت عليهم ندموا على مافعلوا وارادوا مداواة هذا الجرح فارسلوا قائدهم اباسفيان بن حرب الى المدينة ليشد العقد ويزيد فى المدة فركب راحلته وهو يظن انه لم يسبقه احد حتى اذا جاء المدينة نزل على ام المؤمنين ام حبيبة بنته وقد اراد ان يجلس على فراش رسول الله فطوته عنه فقال يابنية أرغبت به عنى ام رغبت بى عنه فقالت ما كان لك ان تجلس على فراش رسول الله وانت مشرك نجس فقال لها لقد اصابك بعدى شر ثم خرج من عندها واتى النبى فى المسجد وعرض عليه ماجاء له فقال عليه السلام هل كان من حدث قال لا فقال عليه السلام فنحن على مدتنا وصلحنا ولم يزد عن ذلك فقام ابو سفيان ومشى الى

اكابر المهاجرين من قريش علهم يساعدونه على مقصده، فلم يجد منهم معينا وكلهم قالوا جوارنا فى جوار رسول الله فرجع الى قومه ولم يصنع شيئا فاتهموه بانه خانهم واتبع الاسلام فتنسك عند الاوثان لينفى عن نفسه هذه التهمة (اما) رسول الله صلى الله عليه وسلم فتجهز للسفر وامر اصحابه بذلك واخبر الصديق بالوجهة فقال له يارسول الله اوليس بينك وبين قريش عهد قال نعم ولكن غدروا ونقضوا ثم استنفر عليه السلام الاعراب الذين حول المدينة وقال من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة فقدم جمع من قبائل اسلم وغفار ومزينة واشجع وجهينة وطوى عليه السلام الاخبار عن الجيش كيلا يشيع الامر فتعلم قريش فتستعد للحرب والرسول عليه السلام لايريد ان يقيم حربا بمكة بل يريد انقياد اهلها مع عدم المساس بحرمتها فدعا مولاه جل ذكره وقال (اللهم خذ العيون والاخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها) فقام حاطب بن ابى بلتعة احد الذين شهدوا بدرا وكتب كتاباً لقريش يخبرهم ببعض امر رسول الله صلى الله عليه وسلم وارسله مع جارية لتوصله الى قريش على جعل فاعلم الله رسوله ذلك فارسل فى اثرها عليا والزبير والمقداد وقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فان بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها فانطلقوا حتى اتوا الروضة فوجدوا بها المرأة فقالوا لها أخرجي الكتاب قالت مامعي كتاب فقالوا لتخرجن الكتاب أولنلقين الثياب فأخرجته من عقاصها فاتوا به رسول الله فقال عليه السلام ياحاطب ماهذا قال يارسول الله لاتعجل على انى كنت حليفاً لقريش ولم اكن من أنفسها وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون اهليهم واموالهم فأحببت اذفاتنى ذلك من النسب فيهم ان اتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتى ولم افعله ارتداداً عن دينى ولا رضا بالكفر بعد الاسلام فقال عليه السلام اما انه قد صدقكم فقال عمر دعنى يارسول الله اضرب عنق هذا المنافق فقال انه قد شهد بدراً ومايدريك لعل الله اطلع على

من شهد بدرا فقال اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم وفى ذلك انزل الله في سورة الممتحنة (ياايها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم اولياء تلقون اليهم بالمودة وقدكفروا بماجاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم ان تؤمنوا بالله ربكم ان كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون اليهم بالمودة وانا اعلم بما اخفيتم وما اعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضلّ سواء السبيل) ثم سار عليه السلام بهذا الجيش العظيم فى منتصف رمضان بعد ان ولى على المدينة ابن ام مكتوم وكانت عدة الجيش عشرة آلاف مجاهد ولما وصل الابواء لقيه اثنان كانا من اشد إعدائه وهما ابن عمه ابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب شقيق عبيدة بن الحارث شهيد بدر وصهره عبد الله بن ابى امية بن المغيرة شقيق زوجه ام سلمة وكانا يريدان الاسلام فقبلهما عليه السلام وفرح بهما شديد الفرح وقال (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين) ولما وصل عليه السلام الكديد رأى ان الصوم شق على المسلمين فأمرهم بالفطر وافطرهو ايضاً وقد قابل عليه السلام فى الطريق عمه العباس بن عبدالمطلب مهاجراً بأهله وعياله فامره بان يعود معه الى مكة ويرسل عياله الى المدينة ولماوصل عليه السلام مر الظهران امر بايقاد عشرة آلاف نار وكان قريش قد بلغهم ان محمداً زاحف بجيش عظيم لا تدرى وجهته فارسلوا ابا سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يلتمسون الخبر عن رسول الله فأقبلوا يسيرون حتى اتوا مر الظهران فاذا هم بنيران كانها نيران عرفة فقال ابو سفيان ما هذه لكأنها نيران عرفة فقال بديل بن ورقاء نيران بنى عمرو فقال ابو سفيان عمرو اقل من ذلك فرآهم ناس من حرس رسول الله فأدركوهم فأخذوهم فأتوا بهم رسول الله فأسلم ابو سفيان فلما سار قال للعباس احبس ابا سفيان عند حطم الجبل حتى ينظر الى المسلمين فحبسه العباس فجعلت القبائل تمر كتيبة كتيبة على أبى سفيان وهو يسأل عنها

ويقول ما لى ولها حتى اذا مرت به قبيلة الانصار وحامل رايتها سعد ابن عبادة فقال سعد يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الكعبة فقال أبو سفيان يا عباس حبذا يوم الذمار ثم جاءت كتيبة وهى اقل الكتائب فيها رسول الله واصحابه وحامل الراية الزبير بن العوام فأخبر ابو سفيان رسول الله بمقالة سعد فقال عليه السلام كذب سعد ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ويوم تكسى فيه الكعبة ثم امر عليه السلام ان تركز رايته بالحجون (١) وامر خالد بن الوليد ان يدخل من اسفل مكة من كدى (٢) ودخل هو من اعلاها من كداء ونادى مناديه من دخل داره واغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن وهذه اعظم منقبة له واستثنى من ذلك جماعة عظمت ذنوبهم و آذوا الاسلام واهله عظيم الاذى فاهدر دمهم وان تعلقوا باستار الكعبة منهم عبد الله بن سعد بن ابى سرح الذى اسلم وكتب لرسول الله الوحى ثم ارتد وافترى الكذب على الامين المأمون فكان يقول ان محمداً كان يأمرنى ان اكتب عليم حكيم فاكتب غفور رحيم فيقول كل جيد ومنهم عكرمة بن ابى جهل وصفوان بن امية وهبار بن الاسود والحارث بن هشام وزهير ابن امية وكعب بن زهير ووحشى قاتل حمزة وهند بنت عتبة زوج ابى سفيان وقليل غيرهم ونهى عن قتل احد سوى هؤلاء الامن قاتل (فأما) جيش خالد بن الوليد فقابله الذعر من قريش يريدون صده فقاتلهم وقتل منهم اربعة وعشرين وقتل من جيشه اثنان ودخلها عنوة من هذه الجهة (واما) جيش رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يصادف مانعاً وهو عليه السلام راكب راحلته منحن على الرحل تواضعاً لله وشكراً له على هذه النعمة حتى تكاد جبهته تمس الرحل واسامة بن زيد رديفه

(١) جبل بمعلاه مكة (٢) كدى كفرى جبل مسفلة مكة على طريق اليمن وكداء كسحاب جبل بأعلى مكة

وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين خلت من رمضان حتى وصل الى الحجون موضع رايته وقد نصبت له هناك قبة فيها ام سلمة وميمونة فاستراح قليلا ثم سار وبجانبه ابوبكر يحادثه وهو يقرأ سورة الفتح حتى البيت وطاف سبعاً على راحلته واستلم الحجر بمحجنه وكان حول الكعبة اذ ذاك ثلاثمائة وستون صنماً فجعل عليه السلام يطعنها بعود فى يده ويقول جاء الحق وزهق الباطل وما يبدىء الباطل وما يعيد ثم امر بالآلهة فأخرجت من البيت وفيها صورة اسماعيل وابراهيم فى ايديهما الازلام فقال عليه السلام قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما بها قط وهذا اول يوم طهرت فيه الكعبة من هذه المعبودات الباطلة وبطهارة الكعبة المقدسة عند جميع العرب باديها وحاضرها من هذه الادناس سقطت عبادة الاوثان من جميع بلاد العرب الا قليلاً ويوشك أن نذكر للقارىء اختفاء آثارها ومحو عبادتها بالكلية

العفو عند المقدرة

ثم ان النبى صلى الله عليه وسلم دخل الكعبة وكبر فى نواحيها ثم خرج الى مقام ابراهيم وصلىفيه ثم شرب منزمزم وجلس فى المسجد والناس حوله والعيون شاخصة اليه ينتظرون ما هو فاعل بمشركى قريش الذين آذوه واخرجوه من بلاده وقاتلوه ولكن هنانظهرمكارم الاخلاق التى يلزم ان يتعلم منها المسلم ان يكون رضاه وغضبه لله لا لهوى النفس فقال عليه السلام يامعشر قريش ما تظنون انى فاعلبكم قالوا خير أخ كريم وابن أخ كريم فقال عليه السلام اذهبوا فانتم الطلقاء ويرحم الله الامام البوصيرى حيث قال

وإذا كان القطع والوصل لله تساوى التقريب والاقصاء
وسواء عليه فيما اتاه من سواه الملام والاطراء
ولو ان انتقامه لهوى النفس لدامت قطيعة وجفاء

قام لله في الامور فأرضى الله منه تباين ووفاء

فعله كله جميل وهل ينضح الا بما حواه الاناء

ثم خطب عليه السلام خطبة ابان فيها كثيراً من الاحكام الاسلامية منها ان لايقتل مسلم بكافر ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين ولا تنكح المرأة على عمتها أو خالتها والبينة على من ادعى واليمين على من انكر ولا تسافر المرأة مسيرة ثلاثة أيام الا مع ذى محرم ولا صلاة بعدالصبح والعصر ولا يصام يوم الاضحى ويوم الفطر ثم قال يا معشر قريش ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء والناس من آدم وآدم من تراب ثم تلا هذه الآية (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عندالله اتقاكم ان الله عليم خبير) ثم شرع الناس يبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاسلام وممن أسلم في هذا اليوم معاوية بن أبى سفيان وابو قحافة والد الصديق وقد فرح الرسول كثيراً باسلامه وجاءه رجل يرتعد خوفاً فقال له عليه السلام (هون عليك فانى لست بملك انما انا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد)

اما الذين أهدر رسول الله دمهم فقد ضاقت عليهم الارض بما رحبت فمنهم من حقت عليه كلمة العذاب فقتل ومنهم من ادركته عناية الله فأسلم فعبد الله بن سعد بن ابى سرح لجأ الى اخيه من الرضاع عثمان بن عفان وطلب منه ان يستأمن له رسول الله فغيبه عثمان حتى هدأ الناس ثم اتى به النبى وقال يا رسول الله قد امنته فبايعه فأعرض عنه عليه السلام مراراً. ثم بايعه فلما خرج عثمان وعبد الله قال عليه السلام اعرضت عنه ليقوم اليه احدكم فيضرب عنقه فقالوا هلا اشرت الينا فقال (لا ينبغى لنبى أن تكون له خائنة الاعين) (واما) عكرمة بن ابى جهل فهرب فخرجت وراءه زوجته وبنت عمه ام حكيم بنت الحارث بن هشام وكانت قد اسلمت قبل الفتح وقد اخذت له اماناً من رسول الله فلحقته

وقد اراد ان يركب البحر فقالت جئتك من عند ابر الناس وخيرهم لا تهلك نفسك وانى قد استأمنته لك فرجع ولما رآه عليه السلام وثب قائماً فرحاً به وقال مرحباً بمن جاءنا مهاجراً مسلماً ثم اسلم رضى اللهعنه وطلب من رسول الله ان يستغفر له كل عداوة عاداها اياه فاستغفرله وكان رضى الله عنه بعد ذلك من خيرة المسلمين واغيرهم على الاسلام (واما) هبار بن الاسود فهرب واختفى حتى اذا كان رسول الله بالجعرَّانَة (١) جاءه مسلماً وقال يا رسول الله هربت منك واردت اللحَاق بالاعاجم ثم ذكرت عائدتك وصلتك وصفحك عمن جهل عليك وكنا يارسول الله اهل شرك فهدانا الله بك وانقذنا من الهلكة فاصفح الصفح الجميل فقال عليه السلام قد عفوت عنك (واما) الحارث بن هشام وزهير ابن ابى امية المخزومى فاجارتهما ام هانىء بنت ابى طالب فأجاز عليه السلام جوارها ولما قابل رسول الله الحارث بن هشام مسلماً قال له الحمد لله الذى هداك ما كان مثلك يجهل الاسلام وقد كان بعد ذلك من فضلاء الصحابة (واما) صفوان بن امية فاختفى واراد ان يذهب ويلقى نفسه فى البحر فجاء ابن عمه عمير بن وهب الجمحى وقال يا نبى الله ان صفوان سيد قومه وقد هرب ليقذف نفسه فى البحر فأمنه فانك قد امنت الاحمر والاسود فقال عليه السلام ادرك ابن عمك فهو آمن فقال اعطنى علامة فاعطاه عمامته فاخذها عمير حتى اذا لقى صفوان قال له فداك ابى وامى جئتك من عند افضل الناس وابر الناس واحلم الناس وخير الناس وهو ابن عمك وعزه عزك وشرفه شرفك وملكه ملكك قال صفوان انى اخافه على نفسى قال هو احلم من ذلك واكرم وأراه العمامة علامة الامان فرجع الى رسول الله وقال ان هذا يزعم انك امنتنى قال صدق قال امهلنى بالخيار شهرين قال اربعة اشهر ثم اسلم رضى الله عنه وحسن اسلامه (واما) هند بنت عتبة فاختفت ثم اسلمت

---

(١) موضع بين مكة والطائف وبعضهم يضبطه بسكون العين وفتح الراء مخففة

وجاءت الى رسول الله فرحب بها فقالت له والله يا رسول الله ما كان على ظهر الارض اهل خباء احب الى ان يذلوا من اهل خبائك ثم ما اصبح اليوم اهل خباء احب الى ان يعزوا من اهل خبائك

وفود كعب بن زهير

(واما) كعب بن زهير فلما ضاقت به الارض ولم يجدله مجيراً جاء المدينة بعد ان قدمها رسول الله من مكة فأسلم وانشد قصيدته التى يقول فيها

وقال كل صديق كنت آمله لا الهينك انى عنك مشغـــول
فقلت خلوا سبيلى لاابــــا لكم فكل ما قدر الرحمن مفعول
كل ابن انثى وان طالت سلامته يومــاً على آلة حدباء محمول
انبئت ان رسول الله اوعدنى والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذى اعطاك نافلة الـ قرآن فيهــا مواعيظ وتفصيل

وقال فيها مادحاً

ان الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلـــول

ولما قال هذا البيت خلع عليه الرسول بردته (واما) وحشى قاتل حمزة فكذلك اسلم وحسن اسلامه وقبله عليه الصلاة والسلام وقد جاءه ابنا ابى لهب عتبة ومعتب فأسلما وفرح بهما عليه السلام

وكان من الذين اختفوا سهيل بن عمرو فاستأمن له ابنه عبد الله فأمنه عليه السلام وقال ان سهيلا له عقل وشرف وما مثل سهيل يجهل الاسلام فلمـــا بلغت هذه المقالة سهيلا قال كان والله براً صغيرا برا كبيرا ثم اسلم بعد ذلك

بيعة النساء

هذا ولما تمت بيعة الرجال بايعه النساء وكن يبايعن على الا

يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولايزنين ولايقتلن اولادهن ولايأتين ببهتان يفترينه بين ايديهن وارجلهن ولايعصين الرسول فى معروف (ثم) امر عليه السلام بلالا ان يؤذن على ظهر الكعبة وهذا بدء ظهور الاسلام على ظهر البيت الكريم فلا عجب ان اتخذ المسلمون هذا اليوم عيداً يحمدون فيه الله حق حمده على هذه النعمة الكبرى والنصر العظيم

واقام عليه السلام بمكة بعد فتحها تسعة عشر يوماً يقصر فيها الصلاة وولى عليها عتاب بن اسيد وجعل رزقه كل يوم درهماً فكان عتاب رضى الله عنه يقول لااشبع الله بطناً جاع على درهم كل يوم

هدم العزى

(وفى الخامس) من مقامه عليه السلام بمكة ارسل خالد بن الوليد فى ثلاثين فارساً لهدم هيكل العزى وهى اكبر صنم لقريش وكان هيكلها ببطن نخلة فتوجه اليها خالد وهدمها

هدم سواع

(وارسل عليه السلام) عمرو بن العاص لهدم سواع وهو اعظم صنم لهذيل وهيكله على ثلاثة اميال من مكة فذهب اليه وهدمه

هدم مناة

(وبعث) سعد بن زيد الاشهلى فى عشرين فارساً لهدم مناة وهى صنم لكلب وخزاعة وهيكلها بالمشلل وهو جبل على ساحل البحر يهبط منه الى قديد فتوجهوا اليها وهدموها

غزوة حنين

بهذا الفتح العظيم وسقوط دولة الاوثان دانت للاسلام جموع العرب ودخلوا فيه أفواجاً أما قبيلتا هوازن وثقيف فأدركتهما حمية الجاهلية

واجتمع الاشراف منهم للشورى وقالوا قد فرغ محمد من قتال قومه ولا ناهيةله عنا فلنغزه قبل ان يغزونا فأجمعوا امرهم على ذلك وولوا رياستهم مالك بن عوف النصرى فاجتمع لهمن القبائل جموع كثيرة فيهم بنو سعد ابن بكر الذين كان رسول الله مسترضعاً فيهم وكان فى القوم دريد ابن الصمة المشهور باصالة الرأى وشدة البأس فى الحرب ولتقدم سنه لم يكن له فى هذه الحرب الا الرأى ثم ان مالك بن عوف امر الناس ان يأخذوا معهم نساءهم وذراريهم واموالهم فلما علم بذلك دريد سأل مالكاً عن السبب فقال سقت مع الناس أموالهم وذراريهم ونساءهم لاجعل خلف كل رجل أهله وماله يقاتل عنه فقال دريد وهل يرد المنهزم شىء ان كانت لك لم ينفعك الا رجل بسيفه ورمحه وان كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك فلم يقبل مالك مشورته وجعل النساء صفوفاً وراء المقاتلة ووراءهم الابل ثم البقر ثم الغنم كيلا يفر أحد من المقاتلين (أما) رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه لما بلغه ان هوازن وثقيف يستعدون لحربه أجمع رأيه على المسير اليهم وخرج معه اثنا عشر ألف غاز منهم الفان من أهل مكة والباقون هم الذين أتوا معه من المدينة وخرج أهل مكة ركباناً ومشاة حتى النساء يمشين من غير ضعف يرجون الغنائم وخرج فى الجيش ثمانون من المشركين منهم صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو ولما قرب الجيش من معسكر العدو صف عليه السلام الغزاة وعقد الالوية فأعطى لواء المهاجرين لعلى بن أبى طالب ولواء الخزرج للحباب بن المنذر ولواء الاوس لاسيد بن حضير وكذلك أعطى ألوية لقبائل العرب الاخرى ثم ركب عليه السلام بغلته ولبس درعين والبيضة والمغفر. هذا وقد أعجب المسلمون بكثرتهم فلم تغن عنهم شيئاً فان مقدمة المسلمين توجهت جهة العدو فخرج لهم كمين كان مستترا فى شعاب الوادى ومضايقه وقابلهم بنبل كانه الجراد المنتشر فلووا أعنة خيلهم

متقهقرين ولما وصلوا الى من قبلهم تبعوهم فى الهزيمة لما لحقهم من الدهشة أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فثبت على بغلته فى ميدان القتال وثبت معه قليل من المهاجرين والانصار منهم أبوبكر وعمر وعلى والعباس وابنه الفضل وأبو سفيان بن الحارث وأخوه ربيعة بن الحارث ومعتب بن أبى لهب وكان العباس آخذاً بلجام البغلة وأبو سفيان آخذاً بالركاب وكان عليه السلام ينادى الىَّ أيها الناس ولا يلوى عليه احد وضاقت بالمنهزمين الارض بما رحبت أما رجال مكة الذين هم حديثو عهد بالاسلام والذين لم ينزعوا عنهم ربقة الشرك فمنهم من فرح ومنهم من ساءه هذا الادبار فقال أبو سفيان بن حرب لاتنتهى هزيمتهم دون البحر وقال أخ لصفوان بن أمية الآن بطل السحر فقال له صفوان وهو على شركه اسكت فض الله فاك والله لان يربنى رجل من قريش خير من ان يربنى رجل من هوازن ومر عليه رجل من قريش وهو يقول أبشر بهزيمة محمد وأصحابه فوالله لا يجبرونها ابداً فغضب صفوان وقال ويلك أتبشرنى بظهور الاعراب وقال عكرمة بن أبى جهل لذاك الرجل كونهم لايجبرونها أبداً ليس بيدك الامر بيد الله ليس الى محمد منه شىء أن أديل عليه اليوم فان العاقبة له غدا فقال سهيل بن عمرو الله ان عهدك بخلافه لحديث فقال له يا أبا يزيد انا كنا على غير شىء وعقولنا ذاهبة نعبد حجراً لايضر ولا ينفع (وبلغت) هزيمة بعض الفارين مكة كل هذا ورسول الله واقف مكانه يقول انا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب ثم قال للعباس وكان جهورى الصوت ناد بالانصار ياعباس فنادى يا معشر الانصار يا اصحاب بيعة الرضوان فأسمع من فى الوادى وصار الانصار يقولون لبيك لبيك ويريد كل واحد منهم ان يلوى عنان بعيره فيمنعه من ذلك كثرة الاعراب المنهزمين فيأخذ درعه فيقذفها فى عنقه ويأخذ سيفه وترسه وينزل عن بعيره ويخلى سبيله ويؤم الصوت حتى اجتمع حول رسول الله جمع عظيم منهم وأنزل الله سكينته على رسوله

وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم يروها فكرّ المسلمون على عدوهم يداً واحدة فانتكث فتل المشركين وتفرقوا فى كل وجه لايلوون على شيء من الاموال والنساء والذرارى وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون فأخذوا النساء والذرارى وأسروا كثيراً من المحاربين وهرب من هرب وجرح فى هذا اليوم خالد بن الوليد جراحات بالغة وأسلم ناس كثيرون من مشركى مكة لما رأوه من عناية الله بالمسلمين

(هذا) والذى حصل فى هذه الغزوة درس مهم من دروس الحرب فان هذا الجيش دخله اخلاط كثيرون من مشركين وأعراب وحديثى عهد باسلام وهؤلاء سيان عندهم نصر الاسلام وخذلانه ولذلك بادروا لاول صدمة الى الهزيمة وكادت تتم الكلمة على المسلمين لولا فضل الله فلا ينبغى أن يكون فى الجيش الا من يقاتل خالصاً مخلصاً من قلبه ليكون مدافعاً حقا عن دينه فلا تميل نفسه الى الفرار خشية ما أعده الله للفارين من أليم العقاب

ثم أمر عليه السلام بجمع السبى والغنائم وكانت نحو أربعة وعشرين ألف بعير واكثر من أربعين ألف شاة وأربعة آلاف أوقية من الفضة فجمع ذلك كله بالجعرانة (أما) المشركون فتفرقوا ثلاث فرق فرقة لحقت بالطائف وفرقة لحقت بنخلة وفرقة عسكرت بأوطاس (١)

سرية

فأرسل عليه السلام لهذه الفرقة أبا عامر الاشعرى فى جماعة منهم أبو موسى الاشعرى فسار اليهم وبددهم وظفر بما بقى معهم من الغنائم وقد استشهد أبو عامر فى هذه الغزوة وخلف على الغزاة ابن أخيه أبا موسى فرجع ظافراً منصورا

---

١) واد بديار هوازن

غزوة الطائف

(وسار) عليه السلام بمن معه الى الطائف ليجهز على بقية حياة ثقيف ومن تجمع معهم من هوازن وجعل على مقدمته خالد بن الوليد ومر عليه السلام بحصن لعوف بن مالك النصرى فأمر بهدمه ومر ببستان لرجل من ثقيف قد تمنع فيه فأرسل اليه أن اخرج والا حرقنا عليك بستانك فامتنع الرجل فأمر عليه السلام بحرقه ولما وصل المسلمون الى الطائف وجدوا الأعداء قد تحصنوا به وادخلوا معهم قوت سنتهم فعسكر المسلمون قريب الحصن فرماهم المشركون بالنبل رمياً شديداً حتى أصيب منهم كثيرون بجراحات منهم عبد الله بن أبى بكر وقد طاوله جرحه حتى أماته فى خلافة أبيه ومنهم أبو سفيان بن حرب فقئت عينه وقد مات بالجراحات اثنا عشر رجلا من المسلمين ولما رأى رسول الله ان العدو متمكن من رميهم ارتفع محل مسجد الطائف الآن وضرب لام سلمة وزينب قبتان هناك واستمر الحصار ثمانية عشر يوماً كان فيها ينادى خالد بن الوليد بالبراز فلم يجبه أحد وناداه عبدياليل عظيم ثقيف لاينزل اليك منا أحد ولكن نقيم فى حصننا فان فيه من الطعام ما يكفينا سنين فان أقمت حتى يفنى هذا الطعام خرجنا اليك بأسيافنا جميعاً حتى نموت عن آخرنا فأمر عليه السلام بأن ينصب عليهم المنجنيق فنصب ودخل جمع من الاصحاب تحت دبابتين (١) لينقبوا الحصن فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار حتى أرجعوهم فأمر عليه السلام ان تقطع أعنابهم ونخيلهم فقطع المسلمون فيها قطعاً ذريعاً فناداه أهل الحصن ان دعها لله وللرحم فقال ادعها لله وللرحم ثم امر من ينادى بأن كل من ترك الحصن ونزل فهو آمن فخرج اليه بضعة عشر رجلاً (ولما) رأى عليه السلام ان تمنع ثقيف شديد وان الفتح لم يؤذن فيه استشار نوفل

---

١) الدبابة آلة تتخذ للحروب فتدفع فى أصل الحصن فينقبون وهم فى جوفها

ابن معاوية الديلي في الذهاب او المقام فقال يا رسول الله ثعلب في جحر ان اقمت اخذته وان تركته لم يضرك فامر عليه السلام بالرحيل وطلب منه بعض الصحابة ان يدعو على ثقيف فقال (اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم مسلمين)

تقسيم السبى

ثم رجع عليه السلام الى الجعرانة حيث ترك السبى فأحصاه وخمسه واعطى منه شيئاً كثيراً لاناس ضعف اسلامهم يتألفهم بذلك واعطى اناساً لم يسلموا ليحببهم في الاسلام ومن الاولين ابو سفيان اعطاه اربعين اوقية من الذهب ومائة من الابل وكذلك ابناه معاوية ويزيد فقال له بابى انت وامى لانت كريم في السلم والحرب ومنهم حكيم بن حزام اعطاه كابى سفيان فاستزاده فاعطاه مثلها ثم استزاده فاعطاه مثلها وقال يا حكيم (ان هذا المال خضرة حلوة فمن اخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ومن اخذه باشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذى يأكل ولا يشبع واليد العليا خير من اليد السفلى) فاخذ حكيم المائة الاولى وترك ما عداها ثم قال والذى بعثك بالحق لا ارزأ احداً بعدك شيئاً حتى افارق الدنيا فكان الخلفاء بعد رسول الله يعرضون عليه العطاء الذى يستحقه من بيت المال فلا يأخذه واعطى عليه السلام عيينة بن حصن مائة من الابل وكذلك الاقرع بن حابس والعباس بن مرداس واعطى صفوان بن امية شعباً مملوءاً نعماً وشاء كان رآه يرمقه فقال له هل يعجبك هذا قال نعم قال هو لك فقال صفوان ما طابت بمثل هذا نفس احد وكان ذلك سبب اسلامه وكان عليه السلام يقصد من هذه العطايا تأليف القلوب وجمعها على الدين القويم وهذا ضرب من ضروب السياسة الدينية حتى جعل من الصدقات قسم للمؤلفة قلوبهم وقد عاد ذلك بفائدة عظمى فان كثيرين ممن اعطوا في هذا اليوم ولم يكونوا اشربوا في قلوبهم حب الاسلام صاروا بعد من اجلاء المسلمين واعظمهم نفعاً كصفوان بن

امية ومعاوية بن ابى سفيان والحارث بن هشام وغيرهم (ثم) امر عليه السلام زيد بن ثابت فأحصى ما بقى من الغنائم وقسمه على الغزاة بعد ان اجتمع اليه الاعراب وصاروا يقولون له اقسم علينا حتى الجؤه الى شجرة فخطفت رداءه فقال (ردوا ردائى ايها النـاس فوالله ان كان لى شجر تهامة نعماً لقسمته عليـكم ثم ما الفيتمونى بخيلاً ولا جباناً ولا كدوداً) ثم قام الى بعيره واخذ وبرة من سنامه وقال (ايها النـاس والله ما لى من غنيمتكم ولا هذه الوبرة الا الخمس والخمس مردود عليكم فأدوا الخياط والمخيط فان الغلول (١) يكون على اهله عاراً وشناراً وناراً يوم القيامة) فصار كل من اخذ شيئاً من الغنـائم خلسة يرده ولو كان زهيداً ثم شرع يقسم فاصاب الراجل اربعة من الابل واربعون شاة والفارس ثلاثة امثال ذلك فقـال رجل من المنافقين هذه قسمة ما اريد بها وجه الله فغضب عليه السلام حتى احمر وجهه وقال (ويحك من يعدل اذا لم اعدل) فلم يؤده غضبه ان ينتقم لنفسه حاشاه عليه السلام من ذلك بل لم يزد على ان نصح وحذر وقال له عمر وخالد بن الوليد دعنا يا رسول الله نضرب عنقه فقال لا لعله ان يكون يصلى فقال خالد وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس فى قلبه فقال عليه السلام انى لم أومر ان انقب عن قلوب الناس ولا اشق عن بطونهم (ولما) اعطى رسول الله ما اعطى من تلك العطايا لقريش وقبائل العرب وترك الانصار غضب بعضهم حتى قالوا ان هذا لهو العجب يعطى قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم فبلغه ذلك فأمر بجمعهم وليس معهم غيرهم فلما اجتمعوا قال يا معشر الانصار ما مقـالة بلغتنى عنكم الم اجدكم ضلالا فهداكم الله بى وعالة (٢) فاغنا كم الله بى وأعداء فألف الله بين قلوبكم بى ان قريشاً حديثو عهد بكفر ومصيبة

---

(١) الاختلاس من الغنيمة

(٢) جمع عائل وهو الفقير

وانى اردت ان اجبرهم واتألفهم اغضبتم يا معشر الانصار فى انفسكم لشىء قليل من الدنيا ألفت به قوماً ليسلموا ووكلتكم الى إسلامكم الثابت الذى لا يزلزل الا ترضون يا معشر الانصار ان يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رحلكم فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الانصار ولو سلك الناس شعباً وسلك لانصار شعباً لسلكت شعب الانصار اللهم ارحم الانصار وابناء الانصار) فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم وقالوا رضينا برسول الله قسماً وحظاً ثم انصرف عليه السلام وتفرقوا.

وفود هوازن

وبعد بضع عشرة ليلة جاءه عليه السلام وفد هوازن يرأسهم زهير ابن صرد وقالوا يا رسول الله ان فيمن أصبتهم الامهات والعمات والخالات وهن مخازى الاقوام ونرغب الى الله واليك يا رسول الله وقال زهير ان فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك ثم قال أبياتاً يستعطفه بها

امنن علينا رسول الله فى كرم   فانك المرء نرجوه وننتظر
امنن على نسوة قد كنت ترضعها   اذفوك مملوءة من مخضها الدرر
انا لنشكر للنعماء ان كفرت   وعندنا بعد هذا اليوم مدخر
انا نؤمل عفواً منك نلبسه   هدى البرية أن تعفو وتنتصر
فألبس العفو من قد كنت ترضعه   من امهاتك ان العفو مشتهر

فقال عليه السلام ان أحب الحديث الى أصدقه فاختاروا احدى الطائفتين اما السبى واما المال وقد كنت انتظرتكم حتى ظننت انكم لا تقدمون فقالوا ما كنا نعدل بالاحساب شيئاً اردد علينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب الينا ولا نتكلم فى شاة ولا بعير فقال عليه السلام أما مالى ولبنى عبد المطلب فهو لكم فاذا أنا صليت الظهر فقوموا وقولوا نحن

نستشفع برسول الله الى المسلمين وبالمسلمين الى رسول الله بعد ان تظهروا اسلامكم وتقولوا نحن اخوانكم فى الدين ففعلوا فقال عليه السلام لاصحابه (أما بعد فان اخوانكم هؤلاء جاؤا تائبين وانى قد رأيت ان أرد عليهم سبيهم فمن أحب أن يطيب بذلك فليفعل ومن أحب منكم ان يكون على حظه حتى نعطيه اياه من أول ما يفىء الله علينا فليفعل) فقال المهاجرون والانصار ما كان لنا فهو لرسول الله وامتنع من ذلك جماعة من الاعراب كالاقرع بن حابس وعيينة بن حصن والعباس بن مرداس فأخذه الرسول منهم قرضا وأمر عليه السلام بأن تحبس عائلة مالك بن عوف النصرى رئيس تلك الحرب بمكة عند عمتهم ام عبد الله بن ابى امية فقال له الوفد اولئك ساداتنا فقال عليه السلام انما اريد بهم الخير ثم سأل عن مالك فقالوا هرب مع ثقيف فقال اخبروه انه ان جاءنى مسلماً رددت عليه اهله وماله واعطيته مائة من الابل فلما بلغ ذلك مالكا نزل من الحصن خفية حتى اتى رسول الله بالجعرانة فأسلم واحرز ماله واهله واستعمله عليه السلام على من اسلم من هوازن .

عمرة الجعرانة

(ثم) ان الرسول صلى الله عليه وسلم اعتمر فأحرم من الجعرانة ودخل مكة بليل فطاف واستلم الحجر ثم رجع من ليلته وكانت اقامته بالجعرانة ثلاث عشرة ليلة ثم امر عليه السلام بالرحيل فسار الجيش آمناً مطمئناً حتى دخل المدينة لثلاث بقين من ذى القعدة .

وغزوة حنين هى التى فرق الله بهـا جموع الشرك وادال دولته وافقد اهله فان هوازن لم تترك وراءها رجلا تمكنه الحرب الاساقته ولم تترك لها بعيراً ولا شاة الا جاءت به معها فأراد الله اعزاز الاسلام بخذلان اعدائه واخذ اموالهم فانكسرت حدة المشركين ولم يبق فهم من يمانع اويدافع ولذلك يمكننا ان نقول ان انكسار هوازن

كان خاتمة لحروب العرب فلم يبق فيهم الافئات قليلة يسوقهم الطيش الى اشهار السلاح ثم لا يلبثون ان يغمدوا السيوف حينما تظهر لهم قوة الحق الساطعة.

سرية

ولما رجع عليه السلام الى المدينة أرسل قيس بن سعد فى أربعمائة ليدعو صداء (قبيلة تسكن اليمن) الى الاسلام فجاء الى رسول الله رجل منهم فقال يا رسول الله انى جئتك وافداً عمن ورائى فاردد الجيش وانا لك بقومى فأمر عليه السلام برد الجيش.

وفود صداء

وخرج الرجل الى قومه فقدم بخمسة عشر رجلاً منهم فنزلوا ضيوفاً على سعد بن عبادة ثم بايعوا رسول الله على الاسلام وقالوا نحن لك على من وراءنا من قومنا ولما رجعوا فشافيهم الاسلام وقدم على رسول الله منهم مائة فى حجة الوداع

سرية

ثم ارسل عليه السلام بشر بن سفيان العدوى الى بنى كعب من خزاعة لاخذ صدقات أموالهم فمنعهم بنو تميم المجاورون لهم من أداء ما فرض عليهم فلما علم بذلك رسول الله أرسل اليهم عيينة بن حصن فى خمسين فارساً من الاعراب فجاءهم وحاربهم وأخذ منهم أحد عشر رجلاً واحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبياً وتوجه بالكل الى المدينة فأمر عليه السلام بجعلهم فى دار رملة بنت الحارث

وفود تميم

فجاء فى أثرهم وفد تميم فيه عطارد بن حاجب والزبرقان بن بدر وعمرو بن الاهتم فجلسوا ينتظرون الرسول فلما أبطأ عليهم نادوا من

وراء الحجرات بصوت جاف يا محمد اخرج الينا نفاخرك فان مدحنا زين وان ذمنا شين فخرج اليهم عليه السلام وقد تأذى من صياحهم وفيهم نزل فى أوائل سورة الحجرات (ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون. ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم) وكان الوقت وقت الظهر فأذن بلال ودخل النبى للصلاة فتعلقوا به يقولون نحن ناس من تمـــيم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك فقال لهم عليه السلام (ما بالشعر بعثنا ولا بالفخار أمرنا) ثم صلى الظهر واجتمع حوله رجال الوفد يتفاخرون بمجدهم ومجد آبائهم وقد مدح عمرو بن الاهتم الزبرقان بن بدر فقال انه لمطاع فى انديته سيد فى عشيرته فقال الزبرقان حسدنى يارسول الله لشرفى وقد علم أفضل مما قال فقال عمرو انه لزمن المروءة ضيق العطن لئيم الخال فرؤى الغضب فى وجه رسول الله لاختلاف قولى عمرو فقال يارسول الله لقد صدقت فى الاولى وما كذبت فى الثانية رضيت فقلت أحسن ما علمت وغضبت فقلت أسوأ ما علمت فقال عليه السلام (ان من البيان لسحرا) ثم اسلم القوم فرد النبى عليه السلام عليهم اسراهم واحسن جائزتهم واقاموا مدة يتعلمون فيها القرآن ويتفقهون فى الدين

سرية

ثم بعث عليه السلام الوليد بن عقبة بن ابى معيط لاخذ صدقات بنى المصطلق فلما علموا بقدومه خرج منهم عشرون رجلاً متقلدين سلاحهم احتفالا بقدومه ومعهم ابل الصدقة فلما نظرهم ظنهم يريدون حربه لما كان بينه وبينهم من العداوة فى الجاهلية فرجع مسرعاً الى المدينة واخبر الرسول ان القوم ارتدوا ومنعوا الزكاة فأرسل اليهم خالد بن الوليد لاستكشاف الخبر فسار اليهم فى عسكره خفية حتى اذا كان بناديهم سمع مؤذنهم يؤذن بالصبح فأتاهم خالد فلم ير منهم الا طاعة

فرجع واخبر الرسول فأرسل عليه السلام لهم غير الوليد لاخذ الصدقات وفي الوليد نزل في اوائل الحجرات (يا ايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين)

سرية

ثم بلغ رسول الله ان جمعا من الحبشة رآهم اهل جدة في مراكبهم يريدون الاغارة عليها فارسل لهم علقمة بن مُجزز في ثلاثمائة فذهب حتى وصل جدة ونزل في المراكب ليدركهم وكان الاحباش متحصنين في جزيرة هناك فلما رأوا المسلمين يريدونهم هربوا ولم يلق المسلمون كيداً فرجع علقمة بمن معه ولما كان بالطريق أذن لسرعان القوم ان يتعجلوا وامَّر عليهم عبدالله بن حذافة السهمي وكان فيه دعابة فأوقد لهم في الطريق ناراً وقال لهم الستم مأمورين بطاعتي قالوا نعم قال عزمت عليكم الا ماتواثبتم في هذه النار فقال بعضهم ما اسلمنا الا فرارا من النار وهَمَّ بذلك بعضهم فمنعهم عبدالله وقال كنت مازحاً فلما ذكروا ذلك لرسول الله قال (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)

السنة التاسعة

سرية

في ربيع الاول ارسل عليه السلام علي بن ابي طالب في خمسين فارساً لهدم الفلس (صنم لطيئ) فسار اليه وهدمه واحرقه ولما حارب عباده هزمهم واستاق نعمهم وشاءهم وسبيهم وكان فيه سفانة بنت حاتم طيئ ولما رجع علي الى المدينة طلبت سفانة من رسول الله ان يمن عليها فاجابها لانه كان من سننه ان يكرم الكرام فدعت له وكان من دعائها (شكرتك يد افتقرت بعد غنى ولاملكتك يد استغنت بعد فقر واصاب الله بمعروفك مواضعه ولا جعل لك الى لئيم حاجة ولا سلب نعمة كريم الا وجعلك سبباً لردها عليه) وكانت هذه المعاملة من رسول الله سبباً في اسلام اخيها عدي بن حاتم الطائي الذي كان

فر الى الشام عند ما رأى الرأيات الاسلامية قاصدة بلاده . وكان من حديث مجيئه ان اخته توجهت اليه بالشام واخبرته بما عوملت به من الكرم فقال لها ما ترين فى امر هذا الرجل فقالت ارى ان تلحق به سريعاً فان يكن نبياً فللسابق اليه فضل وان يكن ملكاً فأنت انت فقال والله هذا هو الرأى

وفود عدى بن حاتم

فخرج حتى جاء المدينة ولقى رسول الله فقال عليه السلام من الرجل قال عدى بن حاتم فأخذه الى بيته وبينما هما يمشيان اذ لقيت رسول الله امرأة عجوز ضعيفة فاستوقفته فوقف لها طويلاً تكلمه فى حاجتها فقال عدى والله ما هو بملك ثم مضى رسول الله حتى اذا دخل بيته تناول وسادة من جلد محشوة ليفاً فقدمها الى عدى وقال اجلس على هذه فقال بل أنت تجلس عليها فامتنع عليه السلام وأعطاها له وجلس هو على الارض ثم قال يا عدى اسلم تسلم قالها ثلاثاً فقال عدى انى على دين (وكان نصرانياً) فقال له عليه السلام انا اعلم بدينك منك فقال عدى أأنت اعلم بدينى منى قال نعم ثم عدد له اشياء كان يفعلها اتباعاً لقواعد العرب وليست من دين المسيح فى شئ كأخذه المرباع وهو ربع الغنائم ثم قال يا عدى انما يمنعك من الدخول فى الدين ما ترى تقول انما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قدرة لهم وقد رمتهم العرب مع حاجتهم فوالله ليوشكن المال ان يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ولعلك انما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم اتعرف الحيرة قال لم ارها وقد سمعت بها قال فوالله ليتمن هذا الامر حتى تخرج المرأة من الحيرة تطوف بالبيت من غير جوار احد ولعلك انما يمنعك من الدخول فيه انك ترى الملك والسلطان فى غيرهم وايم الله ليوشكن ان تسمع بالقصور البيض من ارض بابل قد فتحت عليهم فأسلم عدى رضى الله عنه وعاش حتى رأى كل ذلك

غزوة تبوك

بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الروم جمعت الجموع تريد غزوة فى بلاده وكان ذلك فى زمن عسرة الناس وجدب البلاد وشدة الحر حين طابت الثمار والناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم فأمر عليه السلام بالتجهز وكان قلما يخرج فى غزوة الا ورى بغيرها ليعمى الاخبار على العدو الا فى هذه الغزوة فانه اخبر بمقصده لبعد الشقة وكثرة العدو ليأخذ الناس عدتهم لذلك وبعث الى مكة وقبائل الاعراب يستنفرهم لذلك وحث الموسرين على تجهيز المعسرين فأنفق عثمان بن عفان عشرة آلاف دينار واعطى ثلاثمائة بعير بأحلاسها واقتابها وخمسين فرساً فقال عليه السلام اللهم ارض عن عثمان فانى راض عنه وجاء ابوبكر بكل ماله وهو اربعة آلاف درهم فقال عليه السلام هل ابقيت لاهلك شيئاً فقال ابقيت لهم الله ورسوله وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله وجاء عبدالرحمن بن عوف بمائة اوقية وجاء العباس وطلحة بمال كثير وتصدق عاصم بن عدى بسبعين وسقاً من تمر وارسلت النساء بكل ما يقدرن عليه من حليهن وجاءه عليه السلام سبعة انفس من فقهاء الصحابة يطلبون اليه ان يحملهم فقال لا اجد ما احملكم عليه فتولوا واعينهم تفيض من الدمع حزناً ان لا يجدوا ما ينفقون فجهز عثمان ثلاثة منهم وجهز العباس اثنين وجهز يامين بن عمرو اثنين ولما اجتمع الرجال خرج بهم رسول الله وهم ثلاثون الفاً وولى على المدينة محمد بن مسلمة وعلى اهله على بن ابى طالب وتخلف كثير من المنافقين يرأسهم عبدالله بن ابى وقال يغزو محمد بنى الاصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد يحسب محمد ان قتال بنى الاصفر معه اللعب والله لكأنى انظر الى اصحابه مقرنين فى الحبال واجتمع جماعة منهم فقالوا فى حق رسول الله واصحابه ما يريدون من الارجاف فبلغه ذلك فارسل اليهم عمار بن

ياسر يسألهم عما قالوا فقالوا انما كنا نخوض ونلعب وجاء اليه جماعة منهم الجد بن قيس يعتذرون عن الخروج فقالوا يا رسول الله ائذن لنا ولا تفتنا لانا لا نأمن نساء بنى الاصفر وجاء اليه المعذرون من الاعراب وهم اصحاب الاعذار من ضعف اوقلة ليؤذن لهم فاذن لهم وكذلك استأذن كثير من المنافقين فاذن لهم وقد عتب الله عليه فى ذلك الاذن بقوله فى سورة براءة (عفا الله عنك لم اذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) ثم قال فى حقهم (انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون) ثم كذبهم الله فى عذرهم فقال (ولو ارادوا الخروج لاعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين) ثم لكيلا يأسى المسلمون على قعود المنافقين عنهم قال جل ذكره (لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ولاوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين) وتخلف جماعة من المسلمين لا يتهمون فى اسلامهم منهم كعب بن مالك وهلال بن امية ومرارة بن الربيع وابو خيثمة ولما خلف عليه السلام علياً قال المنافقون قد استثقله فتركه فاسرع على الى رسول الله وشكا اليه ما سمع فقال عليه السلام (اما ترضى ان تكون منى بمنزلة هارون من موسى) ثم سار عليه السلام بالجيش واعطى لواءه الاعظم ابابكر الصديق وفى اعطاء اللواء لابى بكر فى آخر غزوة للرسول وتخليف على على أهل البيت حكمة لطيفة يفهمها القارئ وفرق عليه السلام الرايات فأعطى الزبير راية المهاجرين وأسيد بن حضير راية الاوس والحباب بن المنذر راية الخزرج (ولما) مر الجيش بالحجر وهى ديار ثمود قال عليه السلام لاصحابه (لاتدخلوا بيوت الذين ظلموا الا وانتم باكون) ليشعر قلوبهم رهبة الله وكان مستعملاً على حرس الجيش عباد بن بشر وكان أبوبكر يصلى بالجيش ولما وصلوا الى تبوك وكانت أرضاً لا عمارية فيها قال الرسول لمعاذ ابن جبل (يوشك ان طالت بك حياة ان ترى ما هنا ملئ بساتين) وقد

كان ولما استراح الجيش لحقه أبو خيثمة وكان من خبر مجيئه ان دخل على أهله فى يوم حار فوجد امرأتين له فى عريشتين لهما فى بستان قد رشت كل منهما عريشتها وبردت فيها ماء وهيأت طعاماً وكان يوماً شديد الحر فلما نظر ذلك قال يكون رسول الله فى الحر وأبو خيثمة فى ظل بارد وماء مهيأ وامرأة حسناء ما هذا بالنصف ثم قال والله لا أدخل عريشة واحدة منكما حتى ألحق برسول الله فهيآ لى زاداً ففعلتا ثم ركب بعيره وأخذ سيفه ورمحه وخرج يريد رسول الله فصادفه حين نزل بتبوك

وفود صاحب أيلة

هذا ولم ير عليه السلام بتبوك جيشاً كما كان قد سمع فأقام هناك اياماً جاءه فى أثنائها يوحنا صاحب أيلة وصحبته أهل جرباء (١) وأهل أذرح(٢)وأهل ميناء فصالح يوحنا رسول الله على اعطاء الجزية ولم يسلم وكتب له الرسول كتاباً هذه صورته :

كتب صاحب أيلة

(بسم الله الرحمن الرحيم هذا أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليوحنا وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبى ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثاً فانه لايحوز ما له دون نفسه وانه لطيبة لمن أخذه من الناس وانه لايحل ان يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يريدونه من بر او بحر)

(١) قرية جنوب الشام (٢) مدينة تلقاء السراة

كتاب أهل أذْرُح وجَرْباء

وكتب لاهل أذرح وجرباء كتابا صورته (بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبى لاهل أذرح وجرباء انهم آمنون بأمان الله وأمان محمد وان عليهم مائة دينار فى كل رجب وافية طيبة والله كفيل بالنصح والاحسان للمسلمين) وصالح اهل ميناء على ربع ثمارهم

(ثم) ان الرسول استشار اصحابه فى مجاوزة تبوك الى ما هو ابعد منها من ديار الشام فقال له عمر ان كنت امرت بالسير فسر فقال عليه السلام لو كنت أمرت بالسير لم أستشر فقال عمر يارسول الله ان للروم جموعاً كثيرة وليس بالشام أحد من أهل الاسلام وقد دنونا وقد افزعهم دنوك فلو رجعنا فى هذه السنة حتى نرى أو يحدث الله أمراً فتبع عليه السلام مشورته وأمر بالقفول فرجع الجيش الى المدينة

مسجد الضرار

ولما كان على مقربة منها بلغه خبر مسجد الضرار وهو مسجد أسسه جماعة من المنافقين معارضة لمسجد قباء ليفرقوا جماعة المسلمين وجاء جماعة منهم الى الرسول طالبين منه أن يصلى لهم فيه فسألهم عن سبب بنائه فحلفوا بالله ان أردنا الا الحسنى والله يشهد انهم لكاذبون فأمر عليه السلام جماعة من أصحابه لينطلقوا اليه ويهدموه ففعلوا (هذا) ولما استقر عليه السلام بالمدينة جاءه جماعات من الذين تخلفوا يعتذرون كذبا فقبل منهم عليه السلام علانيتهم ووكل ضمائرهم الى الله واستغفر لهم

٧ حديث الثلاثة الذين خلفوا

وجاءه كعب بن مالك الخزرجى ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية الاوسيان مقرين بذنوبهم فلما دخل عليه كعب تبسم تبسم الغضب

وقال ما خلفك فقال يا رسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا رأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ولقد أوتيت جدلا ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخط علي فيه ولئن حدثتك حديث صدق تغضب علي فيه اني لارجو فيه عفو الله والله ما كان لي من عذر فقال عليه السلام أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك وقال صاحباه مثل قوله فقال لهما عليه السلام كما قال لكعب ونهى المسلمين عن كلامهم فاجتنبهم الناس وأمرهم ان يعتزلوا نساءهم واستأذنت زوج هلال بن أمية في خدمة زوجها لانه شيخ ضائع ليس له خادم فأذن لها ولم يزالوا كذلك حتى ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه ثم تاب عليهم فأرسل لهم عليه السلام من يبشرهم بهذه النعمة الكبرى فتلقاهم الناس أفواجاً أفواجاً يهنئونهم بتوبة الله فلما دخل كعب المسجد تلقاه رسول الله مسروراً فقال أبشر يا كعب بخير يوم يمر عليك منذ ولدتك أمك فقال من عندك يارسول الله أم من عند الله قال بل من عند الله فقال كعب يا رسول الله ان من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة لله ولرسوله فقال عليه السلام أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك ثم قرأ عليه السلام الآيات التي فيها توبته هو وصاحباه في سورة براءة (وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم وظنوا ان لا ملجأ من الله الا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم)

وفود ثقيف

وعقب مقدمه عليه السلام من تبوك وفد عليه وفد ثقيف وكان من خبرهم انه لما انصرف رسول الله من محاصرتهم تبع أثره عروة بن مسعود الثقفي حتى ادركه قبل ان يصل الى المدينة فأسلم وسأله ان

يرجع الى قومه ويدعوهم الى الاسلام فقال له انهم قاتلوك فقال يارسول الله انا احب اليهم من أبكارهم فخرج الى قومه يرجو منهم طاعته لمرتبته فيهم لانه كان فيهم محبباً مطاعاً فلما جاء الطائف وأظهر لهم ما جاء به رموه بالنبل فقتلوه وبعد شهر من مقتله ائتمروا فيما بينهم ورأوا انه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب فأجمعوا امرهم على أن يرسلوا لرسول الله رجلاً منهم يكلمه وطلبوا من عبد ياليل بن عمرو أن يكون ذلك الرجل فأبى وقال لست فاعلاً حتى ترسلوا معى رجالا فبعثوا معه خمسة من اشرافهم فخرجوا متوجهين الى المدينة ولما قابلوا رسول الله ضرب لهم قبة فى ناحية المسجد ليسمعوا القرآن ويروا الناس اذا صلوا وكانوا يغدون الى رسول الله كل يوم ويخلفون فى رحالهم اصغرهم سناً عثمان ابن ابى العاص فكان اذا رجعوا ذهب للنبى واستقرأه القرآن واذا رآه نائماً استقرأ أبا بكر حتى حفظ شيئاً كثيراً من القرآن وهو يكتم ذلك عن اصحابه ثم اسلم القوم وطلبوا أن يعين لهم من يؤمهم فأمر عليهم عثمان ابن ابى العاص لما رآه من حرصه على الاسلام وقراءة القرآن وتعلم الدين

كتاب اهل الطائف

ثم كتب لهم كتاباً من جملته (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد النبى رسول الله الى المؤمنين ان عضاه وج وصيده حرام لا يعضد شجره ومن وجد يفعل شيئاً من ذلك فانه يجلد وتنزع ثيابه) ثم سألوا رسول الله أن يؤجل هدم صنمهم شهراً حتى يدخل الاسلام قلوب القوم ولا يرتاع السفهاء من النساء من هدمه فرضى بذلك عليه السلام ولما خرجوا من عنده قال لهم رئيسهم أنا أعلمكم بثقيف اكتموا عنهم اسلامكم وخوفوهم الحرب والقتال وأخبروهم أن محمداً طلب اموراً عظيمة ابيناها عليه سألنا ان نهدم الطاغية وان نترك الزنا وشرب الخمر والربا فلما حلوا بلادهم جاءتهم ثقيف فقال الوفد جئنا رجلاً فظاً غليظاً قد ظهر بالسيف

ودان الناس له فعرض علينا اموراً شديدة وذكروا ما تقدم فقالوا والله لا نطيعه ابداً فقالوا لهم اصلحوا سلاحكم ورمّوا حصونكم واستعدوا للقتال فأجابوا واستمروا على ذلك يومين او ثلاثة ثم القى الله فيها الرعب فى قلوبهم فقالوا والله ما لنا بحربه من طاقة ارجعوا اليه وأعطوه ما سأل فقال الوفد قد قاضيناه وأسلمنا فقالوا لم كتمتم علينا ذلك قالوا حتى تذهب عنكم نخوة الشيطان فأسلموا

هدم اللات

ولما بلغ رسول الله اسلام ثقيف أرسل ابا سفيان والمغيرة بن شعبة الثقفى لهدم اللات صنم ثقيف بالطائف فتوجهوا وهدموه حتى سووه بالارض

حج ابى بكر

وفى أخريات ذى القعدة ارسل عليه السلام أبابكر ليحج بالناس فخرج فى ثلاثمائة رجل من المدينة ومعه الهدى عشرون بدنة أهداها رسول الله وساق أبو بكر خمس بدنات ولما سافر نزل على رسول الله أوائل سورة براءة فأرسل بها علياً ليبلغها الناس فى يوم الحج الاكبر وقال لا يبلغ عنى الارجل منى فلحق أبا بكر فى الطريق فقال الصديق هل استعملك رسول الله على الحج قال لا ولكن بعثنى أقرأ أو أتلو براءة على الناس فلما اجتمعوا بمنى يوم النحر قرأ عليهم على ثلاث عشرة آية من أول سورة براءة تتضمن نبذ العهود لجميع المشركين الذين لم يوفوا عهودهم وامهالهم أربعة أشهر يسيحون فيها فى الارض كيف شاؤوا واتمام عهد المشركين الذين لم يظاهروا على المسلمين ولم يغدروا بهم الى مدتهم ثم نادى لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وكان على يصلى فى هذا السفر وراء أبى بكر رضى الله عنهما

وفاة ابن أبى

وفى ذى القعدة مات عبد الله بن أبى وقد صلى عليه رسول الله صلاة لم يطل مثلها وشيع جنازته حتى وقف على قبره وانما فعل ذلك تطنيباً لقب ولده عبد الله بن عبد الله وتأليفاً لقلوب الخزرج لمكانة عبد الله ابن أبى فيهم وقد نزع ربقة النفاق كثير من المنافقين بعد هذا اليوم لما رأوه من أعمال السيد الكريم صلى الله عليه وسلم وقد نهى الله رسوله بعد ذلك عن الصلاة على المنافقين فقال جل شأنه فى سورة براءة (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره)

وفاة أم كلثوم

وفى هذه السنة توفيت أم كلثوم بنت رسول الله وزوج عثمان رضى الله عنهما

السنة العاشرة

سرية

فى ربيع الآخر أرسل عليه السلام خالد بن الوليد فى جمع لبنى عبد المدان بنجران من أرض اليمن وامره ان يدعوهم الى الاسلام ثلاث مرات فان أبوا قاتلهم فلما قدم اليهم بعث الركبان فى كل وجه يدعون الى الاسلام ويقولون اسلموا تسلموا فأسلموا ودخلوا فى دين الله أفواجاً فأقام خالد بينهم يعلمهم الاسلام والقرآن وكتب الى رسول الله بذلك فأرسل اليه ان يقدم بوفدهم ففعل وحين اجتمعوا به صلى الله عليه وسلم قال لهم بم كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية قالوا كنا نجتمع ولا نتفرق ولانبدأ أحداً بظلم قال صدقتم وأمّر عليهم زيدبن حصين

سرية

(وفى) رمضان ارسل عليه السلام علياً فى جمع الى بنى مَذْحج -

(قبيلة يمانية) وعممه بيده وقال (سر حتى تنزل بساحتهم فادعهم الى قول لا اله الا الله فان قالوا نعم فمرهم بالصلاة ولا تبغ منهم غير ذلك ولان يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس ولا تقاتلهم حتى يقاتلوك) فلما انتهى اليهم لقى جموعهم فدعاهم الى الاسلام فأبوا ورموا المسلمين بالنبل فصف على اصحابه وامرهم بالقتال فقاتلوا حتى هزموا عدوهم فكف عن طلبهم قليلاً ثم لحقهم ودعاهم الى الاسلام فأجابوا وبايعه رؤساؤهم وقالوا نحن على من وراءنا من قومنا وهذه صدقاتنا فخذ منها حق الله ففعل ثم رجع الى رسول الله فوافاه بمكة فى حجة الوداع

بعث العمال على اليمن

ثم بعث عليه السلام الى اليمن عمالا من قبله فبعث معاذ بن جبل على الكورة العليا من جهة عدن (١) وبعث ابا موسى الاشعرى على الكورة السفلى ووصاهما عليه السلام بقوله (يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا) وقال لمعاذ (انك ستأتى قوماً اهل كتاب فاذا جئتهم فادعهم الى ان يشهدوا ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله فان اطاعوا لك بذلك فأخبرهم ان الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى اليوم والليلة فان اطاعوا لك بذلك فأخبرهم ان الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من اغنيائهم فترد على فقرائهم فان هم اطاعوا لك بذلك فاياك وكرائم اموالهم واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب) وقد مكث معاذ باليمن حتى توفى رسول الله اما ابو موسى فقدم على الرسول عليه الصلاة والسلام فى حجة الوداع

حجة الوداع

وفى السنة العاشرة حج عليه السلام بالناس حجة ودع فيها المسلمين ولم يحج غيرها وخرج لها يوم السبت لخمس بقين من ذى الحجة وولى

---

١) ثغر فى جنوب اليمن

على المدينة ابا دجانة الانصارى وكان مع الرسول جمع عظيم يبلغ تسعين الفاً واحرم للحج حيث انبعثت به راحلته ثم لبى فقال (لبيك اللهم لبيك لاشريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك) ولم يزل عليه السلام سائراً حتى دخل مكة ضحى من الثنية العليا وهى ثنية كداء ولما رأى البيت قال اللهم زده تشريفاً وتعظيماً ومهابة وبراً ثم طاف بالبيت سبعاً واستلم الحجر الاسود وصلى ركعتين عند مقام ابراهيم ثم شرب من ماء زمزم ثم سعى بين الصفا والمروة سبعاً راكباً على راحلته وكان اذا صعد الصفا يقول لا اله الا الله الله اكبر لا اله الا الله وحده انجز وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده وفى الثامن من ذى الحجة توجه الى منى فبات بها

خطبة الوداع

وفى التاسع منه توجه الى عرفة وهناك خطب خطبته الشريفة التى بين فيها الدين كله أسه وفرعه وهاك نصها (الحمدلله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب اليه ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهدالله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له وأشهد أن لا اله الاالله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أوصيكم عبادالله بتقوى الله وأحثكم على طاعته واستفتح بالذى هو خير (أما بعد) ايها الناس اسمعوا منى أبين لكم فانى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا (ايها الناس) ان دماءكم وأموالكم حرام عليكم الى ان تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ألا هل بلغت اللهم فاشهد فمن كانت عنده امانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها وان ربا الجاهلية موضوع وان أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبدالمطلب وان دماء الجاهلية موضوعة وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث وان مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية (والعمد) قود وشبه

العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير فمن زادفهومن أهل الجاهلية (أيهاالناس) ان الشيطان قد يئس أن يعبد فى ارضكم هذه ولكنه قد رضى ان يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من اعمالكم (ايهاالناس) ان النسىء (١)زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماًو يحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله وان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق الله السموات والارض منها أربعة حرم ثلاث متواليات وواحد فرد ذو القعدة وذوالحجة والمحرم ورجب الذى بين جمادى وشعبان ألا هل بلغت اللهم اشهد (أيهاالناس) ان لنسائكم عليكم حقاً ولكم عليهن حق أن لايوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم الا بأذنكم ولا يأتين بفاحشة فان فعلن فان الله أذن لكم أن تعضلوهن (٢) وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح فان انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف وانما النساء عندكم عوان لايملكن لانفسهن شيئاً أخذتموهن بأمانة الله

---

١) كانت العرب تستعمل فى حسابها الاشهر الهلالية وكانت الاعمال التى كلفوا بها من عهد ابراهيم واسماعيل كالحج وتحريم الاشهر الحرم مرتبة بهذه الشهور ولما رأوا ان سيرهم على هذه القاعدة مما يضر بمصالحهم التجارية اذ قد يجئ الحج فى فصل لا يناسبه وقد تحل الاشهر الحرم فى فصل لاتناسب تجارتهم فيه عمدوا الى السنة الهلالية فاضافوا على آخرها اياما سموها ايام النسىء لتوافق السنة الشمسية حتى يكون كل عمل ثابتا فى الفصل الذى يناسبه وكانوا يجمعون هذه الايام حتى تستكمل شهراً فيضيفونها فنتج من ذلك ان بعض السنين تكون اثنى عشر شهراً وبعضها ثلاثة عشر فتارة يجئ الحج فى شهره ذى الحجة وتارة فى ذى القعدة وهكذا حتى يدور الدور فيأتى فى ذى الحجة ثانيا فلما كانت حجة الوداع امر عليه السلام بابطال هذه القاعدة كما امره الله والسير على الاشهر الهلالية وكان الدور قد دار وجاء الحج فى شهره ولذلك قال (ان الزمان قد استدار الخ)

٢) العضل هو الحبس والتضييق

واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيراً ألا هل بلغت اللهم اشهد (ايها الناس) انما المؤمنون اخوة ولا يحل لامرىء مال أخيه الا عن طيب نفس منه ألا هل بلغت اللهم اشهد فلا ترجعن بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض فانى قد تركت فيكم ما ان أخذتم به لم تضلوا بعده كتاب الله ألا هل بلغت اللهم اشهد (أيها الناس) ان ربكم واحد وان أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب اكرمكم عندالله اتقاكم ليس لعربى فضل على عجمى الابتقوى ألا هل بلغت اللهم اشهد فليبلغ الشاهد منكم الغائب (ايها الناس) ان الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا تجوز لوارث وصيته ولا تجوز وصية فى اكثر من الثلث والولد للفراش وللعاهر الحجر من ادعى الى غير ابيه او تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل والسلام عليكم ورحمة الله) وفى هذا اليوم إمتن الله على المؤمنين بقوله فى سورة المائدة (اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا) فلا غرابة ان اتخذه المسلمون عيداً ويوماً سعيداً يظهرون فيه شكر الله على هذه النعمة الكبرى (ثم) انه عليه السلام ادى مناسك الحج من رمى الجمار والنحر والحلق والطواف وبعد ان اقام بمكة عشرة ايام قفل الى المدينة ولما رآها كبر ثلاثاً وقال (لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده)

الوفود

فى هذه السنة والتى قبلها كان وفود العرب الى رسول الله ليبايعوه على الاسلام وكانوا يقدمون افواجاً ولما فى اخبار هذه الوفود من التعاليم الحميدة التي يحتاج ذو الادب ان يعرفها رأينا ان نذكر لك منها ما يزيدك يقيناً وينير بصيرتك فنقول

وفود نجران

(من) الوفود وفد نصارى نجران وكانوا ستين راكباً دخلوا وعليهم ثياب الحبرة واردية الحرير مختمين بالذهب ومعهم بسط فيها تماثيل ومسوح جاؤا بها هدية للنبى صلى الله عليه وسلم فلم يقبل البسط وقبل المسوح ولما جاء وقت صلاتهم صلوا فى المسجد مستقبلين بيت المقدس ولما اتموا صلاتهم دعاهم عليه السلام للاسلام فأبوا وقالوا كنا مسلمين قبلكم فقال عليه السلام يمنعكم من الاسلام ثلاث عبادتكم الصليب وأكلكم لحم الخنزير وزعمكم ان لله ولداً قالوا فمن مثل عيسى خلق من غير أب فأنزل الله فى ذلك فى سورة آل عمران وكذلك الآية بعدها (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) وليظهر الله لهم انهم فى شك من امرهم انزل (فمن حاجك فيه من بعدما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) فدعاهم عليه السلام لذلك فامتنعوا ورضوا باعطاء الجزية وهى الف حلة فى صفر والف حلة فى رجب مع كل حلة اوقية من ذهب ثم قالوا ارسل معنا اميناً فارسل لهم ابا عبيدة عامر بن الجراح وكان لذلك يسمى امين هذه الامة

وفود ضمام بن ثعلبة

(ومن الوفود) ضمام بن ثعلبة بينا رسول الله بين اصحابه متكئاً جاءه رجل من اهل البادية ثائر الرأس يسمع دوى صوته ولايفقه ما يقول فاناخ جمله فى المسجد ثم قال ايكم ابن عبدالمطلب فدلوه عليه فدنا منه وقال انى سائلك فمشدد عليك المسألة فلا تجد (١) على فى نفسك فقال سل ما بدا لك فقال انشدك بالله آلله ارسلك الى الناس كلهم فقال نعم فقال انشدك بالله آلله امرك ان نصلى خمس صلوات فى اليوم والليلة

(١) اى لا تغضب

قال اللهم نعم فقال انشدك بالله آلله امرك ان تأخذ من اموال اغنيائنا فترده على فقرائنا قال اللهم نعم قال انشدك بالله آلله امرك ان نصوم هذا الشهر من اثنى عشر شهراً قال اللهم نعم قال انشدك بالله آلله امرك ان يحج هذا البيت من استطاع اليه سبيلاً قال اللهم نعم قال فانى قد آمنت وصدقت واناضمام بن ثعلبة ولما ولى قال عليه السلام فقه الرجل ثم ذهب ضمام الى قومه ودعاهم الى الاسلام وترك عبادة الاوثان فأسلموا كلهم

وفود عبد القَيْس

(ومن) الوفود عبدالقيس وكان من خبرهم ان الرسول كان جالساً بين اصحابه يوماً فقال لهم سيطلع عليكم من هنا ركب هم خير اهل المشرق لم يكرهوا على الاسلام قد انضوا الركائب وافنوا الزاد اللهم اغفر لعبدالقيس فلما اتوا ورأوا النبى صلى الله عليه وسلم رموا بأنفسهم عن الركائب بباب المسجد وتبادروا الى رسول الله يسلمون عليه وكان فيهم عبد الله بن عوف الاشج وكان اصغرهم سناً فتخلف عند الركائب حتى اناخها وجمع المتاع واخرج ثوبين ابيضين فلبسهما ثم جاء يمشى هوناً حتى سلم على رسول الله وكان رجلاً دميماً ففطن لنظر الرسول الى دمامته فقال يا رسول الله انه لا يستقى فى مسوك (جلود) الرجال وانما الرجل بأصغريه قلبه ولسانه فقال عليه السلام ان فيك خلتين يحبهما الله ورسوله الحلم والاءناة وقد قال عليه السلام لهذا الوفد (مرحباً بالقوم غير خزايا ولا ندامى) فقالوا يا رسول الله انا نأتيك من شقة بعيدة (١) وانه يحول بيننا وبينك هذا الحى من كفار مضر وانا لا نصل اليك الا فى شهر حرام فمرنا بأمر فصل فقال آمركم بالايمان بالله اتدرون ماالايمان باللهشهادةان لااله الا اللهوان محمداً رسول الله واقام الصلاةو ايتاء الزكاةوصوم

(١) لان ديارهم كانت بساحل الخليج الفارسى وهى ديار ربيعة وبينهم وبين الحجاز ارض نجد

رمضان وان تعطوا من المغنم الخمس وانها كم عن الدباء(١) والحنتم (٢) والنقير(٣)والمزفت (٤) والمراد بذلك ماينبذ فى هذه الاوانى فقال الاشج يا رسول الله ان ارضنا ثقيلة وخمة وانا اذا لم نشرب هذه الاشربة عظمت بطوننا فرخص لنا فى مثل هذه واشار الى يده فاوما عليه السلام بكفيه وقال يا اشج ان رخصت لك فى مثل هذه شربته فى مثل هذه وفرج بين يديه وبسطها حتى اذا ثمل احدكم شرابه قام الى ابن عمه فضرب ساقه بالسيف وانما خص عليه السلام نهيهم بما ذكر لكثرة الاشربة بينهم

وفود بنى حنيفة

(ومن) الوفود بنو حنيفة وكان معهم مسيلمة الكذاب وكان مسيلمة يقول ان جعل لى الامر من بعده اتبعته فأقبل عليه السلام ومعه قَيْس بن شَمَّاس وفى يد رسول الله قطعة من جريد حتى وقف على مسيلمة فى اصحابه فقال ان سألتنى هذه القطعة ما اعطيتكها وانى لاراك الذى منه رأيت وكان عليه السلام قد رأى فى منامه ان فى يده سوارين من ذهب فأهمه شأنهما فأوحى الله اليه ان انفخهما فنفخهما فطارا فأولهما عليه السلام كذابين يخرجان من بعده فكان مسيلمة احدهما والثانى طليحة العَنْسى صاحب صنعاء وقد اسلم بنو حنيفة

وفود طيىء

(ومن) الوفود وفد طيىء وفيهم زيد الخيل رئيسهم وقد قال عليه السلام فى حقه ما ذكرلى رجل من العرب الا رأيته دون ماقيل فيه الا زيد الخيل وسماه عليه السلام زيد الخير

وفود كندة

(ومنهم) وفد كندة وفيهم الاشعث بَن قيس وكان وجيهاً مطاعاً فى قومه

(١) القرع (٢) هو جرار مدهونة بدهان اخضر (٣) هو اصل النخلة ينقر (٤) ما طلى بالزفت

ولما دخلوا على رسول الله خبؤا له شيئاً وقالوا اخبرنا عما خبأناه لك فقال سبحان الله انما يفعل ذلك بالكاهن وان الكاهن والمتكهن فى النار ثم قال ان الله بعثنى بالحق وانزل على كتاباً لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فقالوا اسمعنا منه فتلا عليه السلام (والصافات صفاً فالزاجرات زجراً فالتاليات ذكراً ان الهكم لواحد رب السموات والارض وما بينهما ورب المشارق) ثم سكت وسكن ودموعه تجرى على لحيته فقالوا انا نراك تبكى افمن مخافة من ارسلك تبكى قال ان خشيتى منه ابكتنى بعثنى على صراط مستقيم فى مثل حد السيف ان زغت عنه هلكت ثم تلا (ولئن شئنا لنذهبن بالذى اوحينا اليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً الا رحمة من ربك ان فضله كان عليك كبيراً) ثم قال لهم عليه السلام الم تسلموا قالوا بلى قال ما بال هذا الحرير فى اعناقكم فعند ذلك شقوه وألقوه

وفود أَزْدشَنُوءة

(ومنهم) وفد ازدشنوءة ورئيسهم صرد بن عبد الله الازدى فأسلموا وامره عليهم وامره ان يجاهد بمن اسلم من كان يليه من اهل الشرك

وفود رسول ملوك حِمْيَر

(ومنهم) وفد رسول ملوك حمير وهم الحارث بن عبد كُلال والنعمان ومعافر وهمدان وكانوا قد أسلموا وارسلوا رسولهم بذلك فكتب اليهم النبى صلى الله عليه وسلم

كتاب ملوك حمير

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى الحارث بن عبد كلال والى النعمان ومعافر وهمدان أما بعد فانى أحمد الله اليكم الذى لا اله الا هو اما بعد فانه قد وقع بنا رسولكم مقفلنا من ارض

الروم فلقيناه بالمدينة فبلغ ما ارسلتم به وخبر ما قبلكم وانبأنا باسلامكم وقتلكم المشركين وان الله قد هداكم بهداه ان اصلحتم واطعتم الله ورسوله واقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأعطيتم من الغنائم خمس الله وسهم النبى وصفيه وما كتب على المؤمنين من الصدقة أما بعد فان محمداً النبى ارسل الى زرعة بن سيف ذى يزن اذا اتاكم رسلى فأوصيكم بهم خيراً معاذ بن جبل وعبدالله بن زيد ومالك بن عبادة وعقبة بن نمر ومالك ابن مرارة واصحابهم وان اجمعوا ماعندكم من الصدقة والجزية من مخالفكم وأبلغوها رسلى وان اميرهم معاذ بن جبل فلا ينقلبن الا راضياً اما بعد فان محمداً يشهد أن لااله الا الله وأنه عبده ورسوله ثم ان مالك بن كعب بن مرارة قد حدثنى انك قد اسلمت من اول حمير وقتلت المشركين فأبشر بخير وآمرك بحمير خيراً ولاتخونوا ولا تخاذلوا فان رسول الله هو مولى غنيكم وفقيركم وان الصدقة لاتحل لمحمد ولا لاهل بيته انما هى زكاة يزكى بها على فقراء المسلمين وابن السبيل وان مالكاً قد بلغ الخبر وحفظ الغيب وآمركم به خيراً والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته)

وفود همدان

(ومنها) وفد همدان وفيهم مالك بن نمط وكان شاعراً مجيداً فلقوا رسول الله مرجعه من تبوك عليهم مقطعات من الحبرات اليمنية والعمائم العدنية وقد انشد مالك لرسول الله عليه السلام

حلفت برب الراقصات الى منى صوادر بالركبان من هضب قردد
بأن رسول الله فينا مصدق رسول اتى من عند ذى العرش مهتد
فما حملت من ناقة فوق رحلها أشد على اعدائه من محمد

وقد أمره عليه السلام على من اسلم من قومه وقد قال الرسول فى حق همدان نعم الحى همدان ما اسرعها الى النصر واصبرها على الجهد وفيهم أبدال وفيهم اوتاد

وفود تجيب

(ومنها) وفد تجيب قبيلة من كندة وفد على رسول الله ثلاثة عشر رجلا منهم معهم صدقات أموالهم التى فرض الله عليهم فسربهم عليه السلام وأكرم مثواهم وقالوا يارسول الله انا سقنا اليك حق الله فى أموالنا فقال عليه السلام (ردوها فاقسموها على فقرائكم) فقالوايارسول الله ما قدمنا عليك الا بما فضل عن فقرائنا قال أبوبكر يارسول الله ما قدم علينا وفد من العرب مثل هذا فقال عليه السلام ان الهدى بيد الله فمن أرادبه خيراً شرح صدره للايمان وجعلوا يسألونه عن القرآن فازداد عليه السلام رغبة فيهم ثم أرادوا الرجوع الى أهليهم فقيل لهم ما يعجلكم قالوا نرجع الى من وراءنا فنخبرهم برؤية رسول الله ولقائنا اياه وما رد علينا ثم جاؤا الى رسول الله فودّعوه فاجازهم بافضل ما كان يجيز به الوفود ثم قال لهم هل بقى منكم احد قالوا غلام خلفناه فى رحالنا وهو احدثنا سناً قال فارسلوه الينا فارسلوه فاقبل الغلام وقال يا رسول الله أنا من الرهط الذين أتوك آنفاً فقضيت حاجتهم فاقض حاجتى قال وما حاجتك قال تسأل الله أن يغفرلى ويرحمنى ويجعل غناى فى قلبى فقال عليه السلام اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه فى قلبه ثم أمرله بمثل ما أمر به لرجل من اصحابه .

وفود ثَعْلَبَة

(ومنها) وفد ثعلبة وفد على رسول الله أربعة منهم مقرين بالاسلام فسلموا عليه وقالوا يا رسول الله انا رسل من خلفنا من قومنا ونحن مقرون بالاسلام وقد قيل لنا انك تقول لا اسلام لمن لا هجرة له فقال عليه السلام (حيثما كنتم واتقيتم الله فلا يضركم) ثم قال لهم كيف بلادكم فقالوا مخصبون فقال الحمد لله ثم أقاموا فى ضيافته أياماً وحين أرادتهم الانصراف أجاز كل واحد منهم بخمس اواق من فضة .

وفود بني سعد بن هذيم

(ومنها) وفد بني سعد بن هذيم من قضاعة قال النعمان منهم قدمت على رسول الله وافداً فى نفر من قومى وقد أوطأ رسول الله البلاد وأزاح العرب والناس صنفان اما داخل فى الاسلام راغب فيه واما خائف السيف فنزلنا ناحية من المدينة ثم خرجنا نؤم المسجد حتى انتهينا الى بابه فوجدنا رسول الله يصلى على جنازة فى المسجد فقمنا خلفه ناحية ولم ندخل مع الناس فى صلاتهم وقلنا حتى يصلى رسول الله ونبايعه ثم انصرف رسول الله فنظر الينا فدعا بنا فقال ممن انتم فقلنا من بني سعد ابن هذيم فقال أمسلمون انتم قلنا نعم فقال هلا صليتم على اخيكم قلنا يا رسول الله ظننا ان ذلك لا يجوز حتى نبايعك فقال عليه السلام (اينما أسلمتم فأنتم مسلمون) قال فاسلمنا وبايعنا رسول الله بايدينا ثم انصرفنا الى رحالنا وقد كنا خلفنا عليها أصغرنا فبعث عليه السلام فى طلبنا فأتى بنا اليه فتقدم صاحبنا فبايعه صلى الله عليه وسلم على الاسلام فقلنا يا رسول الله انه أصغرنا وانه خادمنا فقال سيد القوم خادمهم بارك الله عليه قال النعمان فكان خيرنا وأقرأنا للقرآن لدعاء النبى صلى الله عليه وسلم له ثم أجازهم وانصرفوا.

وفود بنى فزارة

ومنها وفد بني فزارة وفد على رسول الله جماعة منهم مقرين بالاسلام وهم مسنتون فسألهم عليه السلام عن بلادهم فقال رجل منهم يا رسول الله أسنتت بلادنا وهلكت مواشينا وأجدب جنابنا وجاعت عيالنا فادع لنا ربك يغثنا واشفع لنا الى ربك وليشفع لنا ربك اليك فقال عليه السلام سبحان الله ويلك هذا أنا اشفع الى ربى فمن ذا الذى

يشفع ربنا اليه لا اله إلا هو العلى العظيم وسع كرسيه السموات والارض فهى تئط (١) من عظمته وجلاله كما يئط الرحل الحديث (أى من ثقل الحمل) ثم صعد عليه السلام المنبر ودعا الله عزوجل حتى اغاث بلاد هذا الوفد بالمطر الغزير والرحمة التامة.

وفود بنى أسد

(ومنها) وفد بنى أسد وفيهم ضرار بن الازور وطليحة بن عبد الله الذى ادعى النبوة بعد ذلك فأسلموا وقالوا يا رسول الله أتيناك نتدرع الليل البهيم فى سنة شهباء ولم تبعث الينا فانزل الله فى ذلك (يمنون عليك ان أسلموا قل لا تمنوا على اسلامكم بل الله يمن عليكم ان هدا كم للايمان ان كنتم صادقين) وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كانوا يفعلون فى الجاهلية من العيافة (٢) والكهانة (٣) وضرب الحصباء فنهاهم عن ذلك كله ثم سألوه عن ضرب الرمل فقال علمه نبى فمن صادف مثل علمه فذاك والا فلا ثم اقاموا اياماً يتعلمون الفرائض وبعد ذلك ودعوا وانصرفوا بعد ان اجيزوا

وفود بنى عذرة

(ومنها) وفد بنى عذرة ووفد بنى بلى ووفد بنى مرة ووفد خولان وهى قبيلة باليمن وقد امرهم عليه السلام بالوفاء بالعهد واداء الامانة وحسن الجوار لمن جار وان لايظلموا أحداً فان الظلم ظلمات يوم القيامة

وفود بنى محارب

(ومنها) وفد بنى محارب وكانوا من الذين ردوا الرد القبيح حينما كان رسول الله بعكاظ يدعو القبائل الى الله فما اعظم منة الله الذى اتى بهوءلاء وكانوا الد الا عداء مسلمين منقادين

(١) اى تصوت (٢) هى زجر الطير والتخرص على الغيب
(٣) هى الاخبار عن الكائنات فى المستقبل

وفود غسان

(ومنها) وفد غَسّان ووفد سَلامان ووفدَ بني عَبْس ووفد النَّخَع وكان عليه السلام يقابل هذه الوفود بما جبله الله عليه من البشاشة وكرم الاخلاق ويجيزهم بما يرضيهم ويعلمهم الايمان والشرائع ليعلموا من ورائهم وكانت هذه الوفود اعظم وصلة لاظهار الدين بين الاعراب في البوادي

وفاة ابراهيم ابن النبي عليه السلام

(وفي) هذه السنة توفي ابراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد حقق المرحوم محمود باشا الفلكي ان ذلك كان في التاسع والعشرين من شهر شوال سنة ١٠ من الهجرة ٢٧ يناير سنة ٦٣٢ من الميلاد

السنة الحادية عشر

سرية

لاربع بقين من صفر جهز عليه السلام جيشاً برياسة اسامة بن زيد الى أُبنى (١) حيث قتل زيد بن حارثة والد اسامة وقال له (سر الى موضع قتل ابيك فأوطئهم الخيل فقد وليتك هذا الجيش فأغر صباحاً على اهل أُبنى وحرق عليهم واسرع السير لتسبق الاخبار فان اظفرك الله عليهم فأقل اللبث فيهم وخذ الادلاء وقدم العيون والطلائع معك) وكان مع أسامة في هذا الجيش كبار المهاجرين والانصار منهم أبو بكر وعمر وابو عبيدة وسعد ثم عقد عليه السلام لاسامة اللواء وقال له (اغز باسم الله في سبيل الله وقاتل من كفر بالله) وقد انتقد جماعة على تأمير اسامة وهو شاب لم يتجاوز السابعة عشر من عمره على جيش فيه كبار المهاجرين فأبلغ الرسول هذه المقالة فغضب غضباً شديداً وخرج فقال (اما بعد ايها الناس فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري اسامة

(١) محل قريب من مؤتة

ولئن طعنتم فی تأمیری اسامة لقد طعنتم فی تأمیری اباه من قبله وایم الله ان كان لخليقاً بالامارة وان ابنه من بعده لخليق بها وان كان لمن احب الناس الى وانهما لمظنة لكل خير فاستوصوا به خيرا فانه من خياركم) ولم يتم لهذا الجيش الخروج فی عهد المصطفى صلى الله عليه وسلم لان المرض بدأه فاختاره الله للرفيق الاعلى وسيرى القارئ ان شاء الله خروج هذا الجيش متمماً فی كتابنا (اتمام الوفاء فی سيرة الخلفاء)

مرض الرسول صلى الله عليه وسلم

لما تمم عليه الصلاة والسلام ما كلف به وادى ما اؤتمن عليه وهدى الله به امته اختاره الله للرفيق الا على فجلس على المنبر مرة وكان فيما قال(ان عبداً خيره الله بين ان يؤتيه زهرة الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده)فبكى ابو بكر وقال يارسول الله فديناك بآ بائنا وامهاتنا فقال عليه السلام (ان أمن الناس على فی صحبته وماله ابو بكر فلو كنت متخذاً خليلا لاتخذت ابا بكر ولكن اخوة الاسلام لا يبقى فی المسجد خوخة الاسدت الاخوخة ابی بكر) وقد بدأه عليه السلام مرضه فی اوائل صفر من السنة الحادية عشر من الهجرة فی بيت ميمونة واستمر مريضاً ثلاثة عشر يوما كان فی خلالها ينتقل الى بيوت ازواجه ولما اشتد عليه المرض استأذن منهن ان يمرض فی بيت عائشة الصديقية فأذنَّ له ولما دخل بيتها واشتد عليه وجعه قال هريقوا على من سبع قرب لم تحلل اوكيتهن لعلى اعهد الى الناس فأجلس فی مخضب وصب عليه الماء حتى اشار بيده ان قد فعلتن وكان هذا الماء لتخفيف حرارة الحمى التى كانت تصيب من يضع يده فوق ثوبه

صلاة أبی بكر بالناس

ولما تعذر عليه الخروج الى الصلاة قال مروا أبا بكر فليصل بالناس فرضيه عليه السلام خليفة له فی حياته ولما رأت الانصار اشتداد وجع الرسول أطافوا

بالمسجدفدخل العباس واعلمه بمكانهم واشفاقهم فخرج عليه السلام متوكئا على علي و الفضل وتقدم العباس أمامهم والنبى معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس فى اسفل مرقاة المنبر وثار الناس اليه فحمدالله و اثنى عليه ثم قال (ايها الناس بلغني انكم تخافون من موت نبيكم هل خلد نبى قبلى فيمن بعث الله فاخلد فيكم الاانى لاحق بربى وانكم لاحقون بى فأوصيكم بالمهاجرين الاولين خيراً واوصى المهاجرين فيما بينهم فان الله تعالى يقول (والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) و ان الامور تجرى بأذن الله ولايحملنكم استبطاء أمر على استعجاله فان الله عز وجل لايعجل بعجلة أحد ومن غالب الله غلبه ومن خادع الله خدعه (فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا فى الارض وتقطعوا ارحامكم) و أوصيكم بالانصار خيراً فانهم الذين تبوءوا الدار والايمان من قبلكم ان تحسنوا اليهم ألم يشاطروكم فى الثمار ألم يوسعوا لكم فى الديار الم يؤثروكم على انفسهم وبهم الخصاصة الا فمن ولى ان يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم الا ولاتستأثروا عليهم الا وانى فرط لكم وانتم لاحقون بى الا فان موعدكم الحوض الافمن احب ان يرده على غدا فليكفف يده ولسانه الافيما ينبغى) وبينما المسلمون فى صلاة الفجر من يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الاول وابوبكر يصلى لهم اذا برسول الله صلى الله عليه وسلم قد كشف سجف حجرة عائشة فنظر اليهم وهم فى صفوف الصلاة ثم تبسم يضحك فنكص ابوبكر رضى الله عنه على عقبه ليصل الصف وظن ان رسول الله يريد ان يخرج الى الصلاة وهمّ المسلمون ان يفتتنوا فى صلاتهم فرحا برسول الله فأشار اليهم بيده ان اتموا صلاتكم ثم دخل الحجرة وارخى الستر

وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولم تأت ضحوة هذا اليوم حتى فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم دنياه

ولحق بمولاه وكان ذلك فى يوم الاثنين ١٣ ربيع الاول سنة ١١ (٨ يونيو سنة٦٣٢) فيكون عمره عليه السلام ٦٣ سنة قمرية كاملة وثلاثة ايام واحدى وستين شمسية واربعة وثمانين يوما وكان ابو بكر غائبا بالسنح وهي منازل بنى الحارث بن الخزرج عند زوجه حبيبة بنت خارجة بن زيد فسل عمر سيفه وتوعد من يقول مات رسول الله وقال انما ارسل اليه كما ارسل الى موسى فلبث عن قومه اربعين ليلة والله انى لارجو ان يقطع ايدى رجال وارجلهم فلما اقبل ابو بكر واخبر الخبر دخل بيت عائشة وكشف عن وجه رسول الله فجثا يقبله ويبكى ويقول توفى والذى نفسى بيده صلوات الله عليك يارسول الله ما اطيبك حياً وميتاً بابى انت وامى لا يجمع الله عليك موتين ثم خرج فحمد الله واثنى عليه ثم قال (الا من كان يعبد محمداً فان محمداً قدمات ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت) وتلا قوله تعالى (انك ميت وانهم ميتون) وقوله (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل افائن مات اوقتل انقلبتم على اعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين) قال عمر فكانى لم اتل هذه الآية قط ثم مكث عليه الصلاة والسلام فى بيته بقية يوم الاثنين وليلة الثلاثاء ويومه وليلة الاربعاء حتى انتهى المسلمون من اقامة خليفة عليهم فغسل ودفن وكان الذى يغسله على بن ابى طالب ويساعده العباس وابناه الفضل وقثم واسامة بن زيد وشقران مولى رسول الله وكفن فى ثلاثة اثواب ليس فيها قميص ولا عمامة ولما فرغوا من تجهيزه وضع على سريره فى بيته ودخل الناس عليه ارسالا متتابعين يصلون عليه ولم يؤمهم احد ثم حفر له لحد فى حجرة عائشة حيث توفى وانزله القبر على والعباس وولداه الفضل وقثم ورش قبره بلال بالماء ورفع قبره عن الارض قدر شبر

توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وترك للمسلمين ما ان اتبعوه لم يضرهم شيء كتاب الله الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من

خلفه تنزيل من حكيم حميد وترك اصحابه البررة الكرام يوضحون الدين ويتممون فتح البلاد ويظهرون فى الدنيا شمس الدين الاسلامى القويم حتى يتم الله كلمته ويحق وعده وقد فعل فنسأل الله ان يقدرنا على اداء شكره على هذه المنة العظمى والنعمة الكبرى

شمائله عليه السلام

منح الله سبحانه نبينا صلى الله عليه وسلم من كمالات الدنيا والآخرة مالم يمنحه غيره ممن قبله اوبعده ولا بد ان نأتى لك فى هذا الباب (١) بنبذة يسيرة من محاسن صفاته واحاسن آدابه لتكون لك نموذجاً تسير عليه حتى تكون على قدم نبيك عليه الصلاة والسلام فتستحق الحمد فى الدنيا والذخر فى الاخرى. فاعلم ارشدنى الله واياك وهدانا للصراط السوى ان خصال الجلال والكمال فى البشر نوعان ضرورى دنيوى اقتضته الجبلة وضرورة الحياة ومكتسب دينى وهو ما يحمد فاعله ويقرب الى الله زلفى (فأما) الضرورى فما ليس للمرء فيه اختيار ولا اكتساب مثل ما كان فى جبلته عليه السلام من كمال الخلقة وجمال الصورة وقوة العقل وصحة الفهم وفصاحة اللسان وقوة الحواس والاعضاء واعتدال الحركات وشرف النسب وعزة القوم وكرم الارض ويلحق به ماتدعو ضرورة الحياة اليه من الغذاء والنوم والملبس والمسكن والمال والجاه (وأما) المكتسبة الاخروية فسائر الاخلاق العلية والآداب من الدين والعلم والحلم والصبر والشكر والعدل والزهد والتواضع والعفو والعفة والجود والشجاعة والحياء والمروءة والصمت والتؤدة والوقار والرحمة وحسن الادب والمعاشرة واخواتها وهى التى يجمعها حسن الخلق فاذا نظرت رعاك الله الى خصال الكمال التى هى غير مكتسبة وفى جبلة الخلقة وجدته عليه السلام حائزاً

(١) جل ماذكر فى هذا الباب مختصر من كتاب الشفاء للقاضى عياض رحمه الله

لجميعها محيطاً بشتات محاسنها (فأما) الصورة وجمالها وتناسب أعضائه في حسنها فقدجاءت الآثار الصحيحة والمشهورة الكثيرة بذلك من أنه صلى الله عليه وسلم كان أزهر اللون (١) ادعج (٢) انجل (٣) اشكل (٤) اهدب الاشفار (٥) ابلج (٦) ازج (٧) اقنى (٨) افلج (٩) مدور الوجه واسع الجبين كث اللحية تملأ صدره سوآء البطن عظيم الصدر عظيم المنكبين (١٠) ضخم العظام عبل (١١) العضدين والذراعين والاسافل رحب الكفين والقدمين سائل الاطراف انور المتجرد دقيق المسربة(١٢) ربعة القد ليس بالطويل البائن (١٣) ولا القصير المتردد (١٤) ومع ذلك فلم يكن يماشيه احد ينسب الى الطول الا طاله صلى الله عليه وسلم رجل الشعر اذا افتر ضاحكاً افتر عن مثل سنا البرق وعن مثل حب الغمام اذا تكلم رؤى كالنور يخرج من بين ثناياه احسن الناس عنقاً ليس بمطهم (١٥) ولامكلثم (١٦) متماسك البدن ضرب اللحم قال البراء بن عازب مارأيت من ذى لمة سوداء فى حلة حمراء أحسن من رسول الله صلى عليه وسلم وقال أبو هريرة ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله كأن الشمس تجرى فى وجهه واذا ضحك يتلألأ فى الجدر وفى حديث ابن ابى هالة يتلألأ وجهه تلألأ القمر ليلة البدر وقال على فى آخر وصفه له من راه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه يقول ناعته لم أر قبله ولابعده مثله صلى الله عليه وسلم

١) نير اللون اوحسنه (٢) شديد سواد الحدقة مع سعة فيها (٣) واسع العين مع حسن (٤) فى بياض عينيه حمرة (٥) كثير شعر حروف الاجفان (٦) مضىء الوجه مشرقه (٧) دقيق الحاجبين فى طول (٨) مرتفع قصبة الانف مع احديداب يسير فيها (٩) مفرج بين الثنايا والرباعيات (١٠) المنكب مجمع راس العضد والكتف (١١) ضخم (١٢) المسربة شعر دقيق من الصدر الى البطن (٣١) مفرط الطول (١٤) المتناهى فى القصر (١٥) المطهم البائن الكثير اللحم (١٦) المكلثم صغير الذقن.

(وأما) نظافة جسمه وطيب ريحه وعرفه ونزاهته عن الاقذار وعورات الجسد فكان قد خصه الله تعالى فى ذلك بخصائص لم توجد فى غيره ثم تممها بنظافة الشرع قال عليه السلام بنى الدين على النظافة وقال أنس ما شممت عنبراً قط ولا مسكاً ولا شيئاً اطيب من ريح رسول الله وعن جابر أنه عليه السلام مسح خده قال فوجدت ليده برداً وريحاً كانما اخرجها من جؤنة عطار قال غيره مسها بطيب أولم يمسها يصافح المصافح فيظل يومه يجد ريحها. ويضع يده على رأس الصبى فيعرف من بين الصبيان بريحها وروى البخارى فى تاريخه الكبير عن جابر لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم يمر فى طريق فيتبعه أحد الا عرف انه سلكه من طيبه.

(وأما) وفور عقلـه صلى الله عليه وسلم وذكاء لبه وقوة حواسه وفصاحة لسانه واعتدال حركاته وحسن شمائله فلا مرية أنه كان اعقل الناس وأذكاهم ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم وسياسته للعامة مع عجيب شمائله وبديع سيره فضلا عما افاده من العلم وقرره من الشرع دون تعلم سابق ولا ممارسة تقدمت ولا مطالعة للكتب لم يمتر فى رجحان عقله وثقوب فهمه لاول بديهـة وكان عليه السلام اذا قام فى الصلاة يرى من خلفه كما يرى من أمامه وبذلك فسر قوله تعالى (وتقلبك فى الساجدين) وقالت عائشة كان عليه السلام يرى فى الظلمة كما يرى فى الضوء وكان يعد فى الثريا أحد عشر نجماً وجاءت الاخبار أنه صرع ركانة أشد أهل وقته وكان دعاه الى الاسلام وقال ابو هريرة ما رأيت أحداً أسرع من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مشيه كانما الارض تطوى له انا لنجهد أنفسنا وهو غير مكترث وفى صفته عليه السلام أن ضحكه كان تبسماً اذا التفت التفت معاً واذا مشى مشى تقلعاً كانمـا ينحط من صبب.

(وأما) فصاحة اللسان وبلاغة القول فقد كان عليه السلام من ذلك بالمحل الافضل والموضع الذى لا يجهل سلاسة طبع وبراعة منزع وايجاز مقطع وفصاحة لفظ وجزالة قول وصحة معان وقلة تكلف اوتى جوامع الكلم وخص ببدائع الحكم وعلم ألسنة العرب فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها ويحاورها بلغتها ويباريها فى منزع بلاغتها حتى كان كثير من أصحابه يسألونه فى غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله من تأمل حديثه وسيره علم ذلك وتحققه وليس كلامه مع قريش ككلامه مع أقيال حضرموت وملوك اليمن وعظماء نجد بل يستعمل لكل قبيلة ما استحسنته من الالفاظ وما انتهجته من طرق البلاغة ليبين للناس ما نزل اليهم وليحدث الناس بما يعلمون .

(وأما) كلامه المعتاد وفصاحته المعلومة وجوامع كلمه فقد ألف الناس فيها الدواوين وجمعت فى الفاظها ومعانيها الكتب ومنها مالا يوازى فصاحة وبلاغة كقوله المسلمون تتكافأ دماهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يدعلى من سواهم وقوله الناس كأسنان المشط والمرء مع من احب ولا خير فى صحبة من لا يرى لك ماترى له والناس معادن وما هلك امرؤ عرف قدره والمستشار مؤتمن ورحم الله عبداً قال خيراً فغنم أوسكت فسلم وقوله اسلم تسلم وأسلم يؤتك الله اجرك مرتين وان احبكم الى وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم اخلاقاً الموطئون اكنافاً الذين يألفون ويؤلفون وقوله لعله كان يتكلم بما لا يعنيه او يبخل بمالا يغنيه وقوله ذوالوجهين لايكون وجيهاً عندالله ونهيه عن قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال ومنع وهات وعقوق الامهات ووأد البنات وقوله اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن وخير الامور أوسطها وقوله أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما وقوله الظلم ظلمات يوم القيامة وقوله فى

بعض دعائه اللهم انى اسألك رحمة تهدى بها قلبى وتجمع بها امرى وتلم بها شعثى وتصلح بها رغائبى وتزكى بها عملى وتلهمنى بها رشدى وترد بها ألفتى وتعصمنى بها من كل سوء اللهم انى اسألك الفوز فى القضاء ونزل الشهداء وعيش السعدآء والنصر على الاعداء الى غير ذلك مما روته الكافة عن مقاماته ومحاضراته وخطبه وأدعيته ومخاطباته وعهوده ممالا خلاف انه نزل من ذلك مرتبة لا يقاس بها غيره وحاز سبقاً لايقدر قدره وقد قال له اصحابه ما رأينا الذى هو أفصح منك فقال وما يمنعنى وانما نزل القرآن بلسانى لسان عربى مبين وقال مرة أخرى بيد أنى من قريش ونشأت فى بنى سعد جمع بذلك قوة عارضة البادية وجزالتها ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها الى التأييد الالهى الذى مدده الوحى الذى لايحيط بعلمه بشر (وأما) سرو نسبه وكرم بلده ومنشئه فمما لا يحتاج الى اقامة دليل عليه ولا بيان مشكل ولا خفى منه فانه نخبة بنى هاشم ونخبة قريش وصميمها وأشرف العرب وأعزهم نفراً من قبل أبيه وأمه ومن أهل مكة اكرم بلاد الله على الله وعلى عباده وقد قدمنا لك فى اول الكتاب ما فيه الكفاية فى هذا المقام

(وأما) ما تدعو اليه ضرورة الحياة فمنه ما الفضل فى قلته ومنه ما الفضل فى كثرته ومنه ماتختلف الاحول فيه فالاول كالغذاء والنوم ولم تزل العرب والحكماء قديماً تتمادح بقلتهما وتذم بكثرتهما لان كثرة الاكل والشرب دليل على النهم والحرص والشره وغلبة الشهوة مسبب لمضار الدنيا والآخرة جالب لادواء الجسد وخثارة النفس وامتلاء الدماغ وقلته دليل على القناعة وملك النفس وقمع الشهوة مسبب للصحة وصفاء الخاطر وحدة الذهن كما ان النوم دليل على الفسولة والضعف وعدم الذكاء والفطنة مسبب الكسل وعادة العجز وتضييع العمر فى غير نفع وقساوة القلب وغفلته وموته وكان عليه السلام قد اخذ من الاكل والنوم بالاقل وحض عليه قال عليه السلام

(ما ملأ ابن ادم وعاء شرا من بطنه حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فان كان لامحالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه) ولان كثرة النوم من كثرة الاكل والشرب وقالت عائشة رضى الله عنها لم يمتلىء جوف النبى صلى الله عليه وسلم شبعاً قط وانه كان فى اهله لا يسألهم طعاماً ولا يتشهاه ان اطعموه اكل وما اطعموه قبل وما سقوه شرب وفى صحيح الحديث (اما انا فلا آكل متكئاً) والاتكاء هو التمكن للاكل والتقعدد فى الجلوس له كالمتربع وشبهه من تمكن الجلسات التى يعتمد فيها الجالس على ما تحته والجالس على هذه الهيئة يستدعى الاكل ويستكثر منه والنبى عليه السلام انما كان جلوسه للاكل جلوس المستوفز مقعياً ويقول انما انا عبد آكل كما يأكل العبد وكذلك نومه كان قليلاً ومع ذلك فقد قال ان عينى تنامان ولا ينام قلبى .

(وأما) ما الفضل فى كثرته فكالجاه وهو محمود عند العقلاء عادة وبقدر جاهه عظمه فى القلوب وقد قال تعالى فى صفة عيسى عليه السلام (وجيهاً فى الدنيا والآخرة) وكان النبى عليه السلام قد رزق الحشمة والمكانة فى القلوب والعظمة قبل النبوة عند الجاهلية وبعدها وهم يكذبونه ويؤذون اصحابه ويقصدون اذاه فى نفسهم خفية حتى اذا واجههم اعظموا امره وقضوا حاجته كما ذكرنا لك ذلك مراراً وقد كان يبهت ويفرق لرؤيته من لم يره كما روى عن قيلة انها لما رأته ارعدت من الفرق فقال (يا مسكينة عليك السكينة) وفى حديث ابى مسعود ان رجلاً قام بين يديه فأرعد فقال له عليه السلام (هون عليك فانى لست بملك)

(وأما) عظيم قدره بالنبوة وشريف منزلته بالرسالة وانافة رتبته بالاصطفاء والكرامة فى الدنيا فامر هو مبلغ النهاية ثم هو فى الآخرة سيد ولد آدم .

(وأما) ما تختلف فيه الحالات فى التمدح به والتفاخر بسببه والتفضيل لاجله ككثرة المال فصاحبه على الجملة معظم عند العامة لاعتقادها توصله

به الى حاجاته وتمكنه فى اغراضه والا فليس فضيلة فى نفسه فمتى كان المال بهذه الصورة وصاحبه منفقاً له فى مهماته ومهمات من قصده وامله مصرفه فى مواضعه مشترياً به المعالى والثناء الحسن والمنزلة فى القلوب كان فضيلة فى صاحبه عند اهل الدنيا واذا صرفه فى وجوه البر وانفقه فى سبيل الخير وقصد بذلك الله تعالى والدار الآخرة كان فضيلة عند الكل بكل حال ومتى كان صاحبه ممسكاً له غير موجهه وجوهه حريصاً على جمعه عاد كثره كالعدم وكان منقصة فى صاحبه ولم يقف به على جدد السلامة بل اوقعه فى وهدة رذيلة البخل ومذمة النذالة فالتمدح بالمال ليس لذاته بل للتوصل به الى غيره وتصريفه فى متصرفاته ونبينا صلى الله عليه وسلم أوتى خزائن الارض ومفاتيح البلاد واحلت له الغنائم وفتح عليه فى حياته بلاد الحجاز واليمن وجميع جزيرة العرب وما دانى ذلك من الشام والعراق وجلب اليه كثير من اخماسها وجزيتها وصدقاتها وهاداه جماعة من ملوك الاقاليم فما استأثر بشئ منه ولا امسك منه درهماً بل صرفه مصارفه واغنى به غيره وقوى به المسلمين وقال (ما يسرنى ان لى احداً ذهباً يبيت عندى منه دينار الا ديناراً ارصده لدينى) واتته دنانير مرة فقسمها وبقيت منها بقية فدفعها لبعض نسائه فلم يأخذه نوم حتى قام وقسمها وقال الآن استرحت ومات ودرعه مرهونة فى نفقة عياله واقتصر فى نفقته وملبسه ومسكنه على ما تدعو ضرورته اليه وزهد فيما سواه فكان يلبس ما وجده فيلبس فى الغالب الشملة والكساء الخشن والبرد الغليظ ويقسم على من حضره اقبية الديباج المخوصة بالذهب ويرفع لمن لم يحضر فانت ترى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حاز فضيلة المال بالزهد فيه وانفاقه على مستحقيه .

(واما) الخصال المكتسبة من الاخلاق الحميدة والآداب الشريفة وهى المسماة بحسن الخلق فجميعها قد كانت خلق نبينا صلى الله عليه وسلم على الانتهاء فى كمالها والاعتدال فى غايتها حتى اثنى الله تعالى عليه

بذلك فقال (وانك لعلى خلق عظيم) قالت عائشة كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه وقال عليه السلام (بعثت لاتمم مكارم الاخلاق) وقال أنس كان عليه السلام احسن الناس خلقاً وكانت له هذه الآداب الكريمة كما كانت لاخوانه من الانبياء جبلة خلقوا عليها ثم يتمكن الامر لهم وتترادف نفحات الله عليهم وتشرق انوار المعارف فى قلوبهم حتى يصلوا الغاية ويبلغوا باصطفاء الله لهم بالنبوة فى تحصيل هذه الخصال الشريفة دون نهاية ولا ممارسة وهذه الاخلاق المحمودة والخصال الجميلة كثيرة ولكنا نذكر اصولها ونشير الى جميعها ونحقق وصفه عليه السلام بها ان شاء الله

(فأصل) فروعها وعنصر ينابيعها ونقطة دائرتها العقل الذى منه ينبعث العلم والمعرفة ويتفرع عن هذا ثقوب الرأى وجودة الفطنة والاصابة وصدق الظن والنظر للعواقب ومصالح النفس ومجاهدة الشهوة وحسن السياسة والتدبير واقتناء الفضائل وتجنب الرذائل وقد بلغ عليه السلام منه ومن العلم الغاية التى لم يبلغها بشر سواه يعلم ذلك من تتبع مجارى احواله واطراد سيره وطالع جوامع كلمه وحسن شمائله وبدائع سيره وحكم حديثه وعلمه بما فى التوراة والانجيل والكتب المنزلة وحكم الحكماء وسير الامم الخالية وأيامها وضرب الامثال وسياسات الانام وتقرير الشرائع وتأصيل الاداب النفيسة والشيم الحميدة الى فنون العلوم التى اتخذ اهلها كلامه فيها قدوة واشاراته حجة كالطب والحساب والفرائض والنسب وغير ذلك دون تعليم ولا مدارسة ولا مطالعة كتب من تقدم ولا الجلوس الى علمائهم بل نبى أمى لا يعرف شيئاً من ذلك حتى شرح الله صدره وابان امره وعلمه وبحسب عقله كانت معارفه عليه السلام الى سائر ما علمه الله واطلعه عليه من علم ما يكون وما كان وعجائب قدرته وعظيم ملكوته قال تعالى (وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً)

(واما) الحلم والاحتمال والعفو والقدرة و الصبر على ما يكرهه فمما أدب الله به نبيه فقال (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وقد سأل عليه السلام جبريل عن تأويلها فقال يا محمد ان الله يأمرك ان تصل من قطعك وتعطى من حرمك و تعفو عمن ظلمك و قال له (واصبر على ما اصابك ان ذلك من عزم الامور) وقال(وليعفوا وليصفحوا ألاتحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) وقال (ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور) وقد تضافرت الاخبار على اتصافه عليه السلام بنهاية هذه الاوصاف فما من حليم الا عرفت منه زلة وحفظت عنه هفوة و نبينا لا يزيد مع كثرة الايذاء الا صبراً وعلى اسراف الجاهل الا حلماً قالت عائشة رضى الله عنها ما خير عليه السلام فى امرين قط الا اختار أيسرهما مالم يكن اثماً فان كان اثماً كان ابعد الناس منه وما انتقم لنفسه الا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله ولما فعل به المشركون مافعلوا فى أحد وطلب منه أن يدعو عليهم قال اللهم اغفر لقومى فانهم لايعلمون وحسبك فى هذا الباب مافعله مع مشركى قريش الذين آذوه واستهزؤا به وأخرجوه من دياره هو وأصحابه ثم قاتلوه وحرضوا عليه غيرهم من مشركى العرب حتى تمالأ عليه جمعهم ثم لما فتح الله عليه مكة ما زاد على أن عفا وصفح و قال ما تقولون انى فاعل بكم قالوا خير اخ كريم وابن اخ كريم فقال (اذهبوا فأنتم الطلقاء) وعن انس كنت مع النبى عليه السلام وعليه برد غليظ الحاشية فجذبه أعرابى برداءه جبذة شديدة حتى اثرت حاشية البرد فى صفحة عنقه ثم قال يا محمد احمل لى على بعيرى هذين من مال الله الذى عندك فانك لاتحمل لى من مالك ولا من مال أبيك فسكت النبى ثم قال المال مال الله وأنا عبده ثم قال ويقاد منك يا اعرابى مافعلت بى قال لا قال لم قال لانك لا تكافىء بالسيئة السيئة فضحك عليه السلام ثم امر أن يحمل له على بعير شعير وعلى الآخر تمر قالت عائشة ما رأيت رسول الله صلى عليه وسلم منتصراً من مظلمة ظلمها قط مالم تكن حرمة من محارم الله تعالى وماضرب

بيده شيئاً قط الا ان يجاهد فى سبيل الله وما ضرب خادماً ولا امرأة فصلى الله تعالى عليه وأقر عينه باتباع المسلمين سنته

(وأما) الجود والكرم والسخاء والسماحة فكان عليه السلام لا يوازى فى هذه الاخلاق الكريمة ولا يبارى وصفه بهذا كل من عرفه قال جابر رضى الله عنه ماسئل عليه السلام عن شيء فقال لاوقال ابن عباس كان عليه السلام أجود الناس بالخير واجود ما كان فى شهر رمضان وكان اذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة وقالت خديجة فى صفته عليه السلام مخاطبة له انك تحمل الكل وتكسب المعدوم وحسبك شاهداً فى هذا الباب ما فعله مع هوازن من ردالسبى اليها وما فعله يوم تقسيم السبى من اعطاء المؤلفة قلوبهم عظيم الاعطية وقد استوفينا ذلك فى موضعه وحمل اليه عليه السلام تسعون ألفاً فوضعها على حصير واخذ يقسمها فما قام حتى فرغ منها وجاءه رجل فسأله فقال ما عندى شيء ولكن ابتع على فاذا جاءنا شيء قضيناه فقال له عمر ما كلفك الله مالا تقدر عليه فكره ذلك عليه السلام فقال له رجل من الانصار يا رسول الله انفق ولا تخف من ذى العرش اقلالا فتبسم عليه السلام وعرف البشرفى وجهه وقال بهذا أمرت والاخبار بجوده وكرمه عليه السلام كثيرة يكفى منها لتعليمك ما ذكرناه

(وأما) الشجاعة والنجدة فكان عليه السلام منهما بالمكان الذى لايجهل قد حضر المواقف الصعبة وفر الكماة والابطال عنه غير مرة وهو ثابت لايبرح . ومقبل لايدبر ولا يتزحزح . وما من شجاع الا احصيت له فرة وحفظت عنه جولة سواه وحسبك ما فعله فى حنين وأحد مما ذكرناه مستوفى قال ابن عمر ما رأيت اشجع ولا انجد ولا اجود ولا ارضى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال على انا كنا اذا اشتد البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله فما يكون احد اقرب الى العدوّ منه ولقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى صلى الله

عليه وسلم وهو أقربنا الى العدوّ وكان من أشد الناس يومئذ بأساً وقال أنس كان عليه السلام أشجع الناس وأحسن الناس وأجود الناس لقد فزع أهل المدينة ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم عليه السلام راجعاً قد سبقهم الى الصوت واستبرأ الخبر على فرس لابى طلحة عرى والسيف فى عنقه وهو يقول لن تراعوا

(وأما) الحياءوالاغضاء فكان عليه السلام أشد الناس حياء وأكثرهم عن العورات اغضاء قال أبوسعيد الخدرى كان عليه السلام أشد حياء من العذراء فى خدرها وكان اذا كره شيئاً عرفناه فى وجهه وكان عليه السلام لطيف البشرة رقيق الظاهر لا يشافه أحداً بما يكرهه حياء وكرم نفس قالت عائشة كان عليه السلام اذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل ما بال فلان يقول كذا وكذا بل يقول ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا ينهى عنه ولا يسمى فاعله وقالت رضى الله عنها لم يكن عليه السلام فاحشاً ولا متفحشاً ولا سخاباً بالاسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح

(وأما) حسن عشرته وأدبه وبسط خلقه مع أصناف الخلق فمما انتشرت به الاخبار الصحيحة قال على رضى الله عنه كان عليه السلام أوسع الناس صدراً وأصدق الناس لهجة وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة وكان عليه السلام يؤلفهم ولا ينفرهم ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ويحذر الناس ويحترس منهم من غير ان يطوى عن أحد منهم بشره ولا خلقه ويتفقد أصحابه ويعطى كل جلسائه نصيبه لا يحسب جليسه ان احداً اكرم عليه منه من جالسه او قاربه لحاجة صابره حتى يكون هوالمنصرف عنه ومن سأله حاجة لم يرده الا بها او بميسور من القول قد وسع الناس بسطه وخلقه فصارلهم أبا وصاروا عنده فى الحق سواء بهذا وصفه ابن أبى هالة وكان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب

ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مداح يتغافل عما لا يشتهى ولا يؤيس منه قال تعالى (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فأعف عنهم واستغفرلهم وشاورهم فى الامر) وقال تعالى (ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك و بينه عداوة كأنه ولى حميم) وكان عليه السلام يجيب من دعاه و يقبل الهدية ولو كانت كراعاً و يكافئ عليها وكان يمازح أصحابه و يخالطهم و يحادثهم و يلاعب صبيانهم و يجلسهم فى حجره و يجيب دعوة الحر والعبد والامة والمسكين و يعود المرضى اقصى المدينة و يقبل عذر المعتذر وقال أنس ما التقم أحد أذن النبى يحادثه فنحى رأسه حتى يكون الرجل هو الذى ينحى رأسه وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر وكان يبدأ من لقيه بالسلام ويبدأ اصحابه بالمصافحة ولم يرقط ماداً رجليه بين اصحابه حتى يضيق بها على احد يكرم من يدخل عليه وربما بسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة التى تحته ويعزم عليه فى الجلوس عليها ان ابى ويكنى اصحابه ويدعوهم بأحب اسمائهم تكرمة لهم ولا يقطع على احد حديثه حتى يتجوز فيقطعه بنهى او قيام وكان اكثر الناس تبسما واطيبهم نفساً مالم ينزل عليه قرآن اويعظ اويخطب

(وأما) الشفقة و الرأفة والرحمة بجميع الخلق فقد وصفه الله بها فى قوله (عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم) وقال (وما ارسلناك الا رحمة للعالمين) روى ان اعرابياً جاءه يطلب منه شيئاً فاعطاه ثم قال أأحسنت اليك قال الاعرابى لا ولا اجملت فغضب المسلمون وقاموا اليه فأشار اليهم ان كفوا ثم قام ودخل منزله وأرسل اليه وزاده شيئاً ثم قال أأحسنت اليك قال نعم فجزاك الله من اهل وعشيرة خيراً فقال عليه السلام انك قلت ما قلت وفى انفس اصحابى من ذلك شىء فان احببت فقل بين ايديهم ما قلت بين يدىّ حتى يذهب ما فى صدورهم عليك قال نعم فلما كان الغد او العشى جاء فقال عليه السلام ان هذا الاعرابى قال ما قال فزدناه فزعم انه رضى اكذلك قال نعم فجزاك الله من اهل

وعشيرة خيراً فقال عليه السلام مثلي ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها الا نفوراً فناداهم صاحبها خلوا بيني وبين ناقتي فاني ارفق بها منكم واعلم فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الارض فردها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها واني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار وقال عليه السلام لا يبلغني أحد منكم عن اصحابي شيئاً فاني أحب ان اخرج اليكم وانا سليم الصدر وكان يسمع بكاء الصبي فيتجوز في صلاته وعن ابن مسعود كان عليه السلام يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا

(وأما) خلقه عليه السلام في الوفاء وحسن العهد وصلة الرحم فروى عن عبدالله بن ابي الخمساء قال بايعت النبي عليه السلام ببيع قبل ان يبعث وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها مكانه فنسيت ثم ذكرت بعد ثلاث فجئت فاذا هو في مكانه فقال يافتى لقد شققت علي أنا هنا منذ ثلاث أنتظرك وكان اذا أتي بهدية قال اذهبوا بها الى بيت فلانة فانها كانت صديقة لخديجة انها كانت تحب خديجة. وكان عليه السلام يصل ذوي رحمه من غير ان يؤثرهم على من هو افضل منهم ووفد عليه وفد فقام يخدمهم بنفسه فقال له اصحابه نكفيك فقال انهم كانوا لاصحابنا مكرمين واني احب ان أكافئهم وفي حديث خديجة أبشر فوالله لايخزيك الله أبداً انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق

(وأما) تواضعه عليه السلام على علوّ منصبه ورفعة رتبته فكان اشد الناس تواضعاً واقلهم كبراً وحسبك انه خير بين ان يكون نبياً ملكاً اونبياً عبداً فاختار انيكون نبياً عبداً وخرج عليه السلام مرة على اصحابه متوكئاً على عصا فقاموا فقال لا تقوموا كما تقوم الاعاجم يعظم بعضهم بعضاً وقال انما انا عبد آكل كما يأكل العبد واجلس كما يجلس العبد وكان

يركب الحمار ويردف خلفه ويعود المساكين ويجالس الفقراء ويجيب دعوة العبد ويجلس بين اصحابه مختلطاً بهم حيثما انتهى به المجلس جلس وقال عليه السلام (لاتطروني كما أطرت النصارى ابن مريم انما انا عبد فقولوا عبدالله ورسوله) وحج عليه السلام على رحل رث وعليه قطيفة ماتساوى اربعة دراهم فقال اللهم اجعله حجاً لا رياء فيه ولا سمعة. هذا وقد فتحت عليه الارض واهدى في حجه هذا مائة بدنة ولما فتحت عليه مكة ودخلها بجيوش المسلمين طأطأ على رحله رأسه حتى كاد يمس قادمته تواضعاً لله تعالى. وعن أبي هريرة رضي الله عنه دخلت السوق مع النبي صلى الله عليه وسلم فاشترى سراويل وقال للوازن زن وارجح ثم قال فوثب الى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلها فجذب يده وقال هذا تفعله الاعاجم بملوكها ولست بملك انما انا رجل منكم ثم اخذ السراويل فذهبت لاحمله فقال صاحب الشيء احق بشيئه ان يحمله

(واما) عدله عليه السلام وامانته وعفته وصدق لهجته فكان امن الناس واصدقهم لهجة منذ كان اعترف له بذلك محادوه واعداؤه وكان يسمى قبل نبوته الامين وقد قدمنا ذلك في سيرته عليه السلام قبل النبوة. وفي الحديث عنه عليه السلام مالمست يده يد امرأة قط لايملك رقها قال ابوالعباس المبرد قسم كسرى ايامه فقال يوم الريح يصلح للنوم ويوم الغيم للصيد ويوم المطر للهو والشرب ويوم الشمس للحوائج ولكن نبينا عليه السلام جزأ نهاره ثلاثة اجزاء جزء لله وجزء لاهله وجزء لنفسه ثم جزأ جزأه بين الناس فكان يستعين بالخاصة على العامة ويقول (ابلغوا حاجة من لايستطيع ابلاغي فان من ابلغ حاجة من لايستطيع ابلاغها أمنه الله يوم الفزع الاكبر) وكان عليه السلام لايأخذ احداً بذنب احد ولا يصدق احداً على احد

(وأما) وقاره عليه السلام وصمته وتؤدته ومرؤته وحسن هديه فكان عليه السلام اوقر الناس في مجلسه لا يكاد يخرج شيئاً من اطرافه وكان اذا جلس احتبى بيديه وكذلك كان اكثر جلوسه محتبياً وكان كثير السكوت لا يتكلم في غير حاجة يعرض عمن تكلم بغير جميل وكان ضحكه تبسماً وكلامه فصلاً لا فضول ولا تقصير وكان ضحك اصحابه عنده التبسم توقيراً له واقتداء به مجلسه مجلس حلم وحياء وخير وامانة لا ترفع فيه الاصوات ولا تؤبن فيه الحرم اذا تكلم اطرق جلساؤه كانما على رؤسهم الطير. وقال ابن ابى هالة كان سكوته عليه السلام على اربع على الحلم والحذر والتقدير والتفكر. وقالت عائشة رضي الله عنها كان عليه السلام يحدث حديثاً لوعده العاد لاحصاه وكان يحب الطيب والرائحة الحسنة ويستعملهما كثيراً ويحض عليهما ومن مرؤته عليه السلام نهيه عن النفخ في الطعام والشراب والامر بالاكل مما يلي والامر بالسواك وانقاء البراجم والرواجب (مواصل الاصابع من ظاهر الكف وباطنها)

(وأما) زهده عليه السلام فقد قدمنا لك فيه ما فيه الكفاية وحسبك شاهداً على تقلله من الدنيا واعراضه عن زهرتها وقد سيقت اليه بحذافيرها وترادفت عليه فتوحها الى ان توفي (١) عليه السلام ودرعه مرهونة عند يهودي في نفقة عياله وهو يدعو ويقول اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً وقالت عائشة رضي الله عنها ما شبع عليه السلام ثلاثة ايام تباعاً من خبز حتى مضى لسبيله وقالت ما ترك عليه السلام ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً ولقد مات وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد الا شطر شعير في رف لي وقال اني عرض علي ان تجعل لي بطحاء مكة ذهباً فقلت لا يارب اجوع يوماً واشبع يوماً فاما اليوم الذي اجوع فيه فاتضرع اليك

(١) قوله الى ان توفي كذا في نسخة من الشفاء وفي اخرى ان توفي بحذف الى وهو خبر قوله وحسبك والخبر على ما في الاولى محذوف فتامل اه

وادعوك واما اليوم الذى اشبع فيه فاحمدك واثنى عليك وقالت عائشة ان كنا آل محمد لنمكث شهراً ما نستوقد ناراً ان هو الا التمر والمـاء وعن أنس ما اكل عليه السلام على حوان ولا فى سكرجة ولا خبز له مرقق ولا رأى شاة سميطاً قط وفى حديث عائشة كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى ينام عليه أدما حشوه ليف وعن حفصة كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته مسحاً نثنيه ثنيتين فينام عليه فثنيناه ليلة باربع فلما اصبح قال ما فرشتمولى الليلة فذكرنا له ذلك فقال ردوه بحاله فان وطأته منعتنى الليلة صلاتى وقالت عائشة لم يمتلىء جوف النبى صلى الله عليه وسلم شبعاً قط ولم يبث شكوى الى احد وكانت الفاقة احب اليه من الغنى وان كان ليظل جائعاً يلتوى طول ليلته من الجوع فلا يمنعه صيام يومه ولو شاء سأل ربه جميع كنوز الارض وثمارها ورغد عيشها ولقد كنت ابكى رحمة له مما ارى به وأمسح بيدى على بطنه مما أرى به من الجوع واقول نفسى لك الفداء لو تبلغت من الدنيا ما يقوتك فيقول ياعائشة مالى وللدنيا اخوانى من اولى العزم من الرسل صبروا على ماهو اشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فاكرم مآبهم واجزل ثوابهم فاجدنى استحيى ان ترفهت فى معيشتى ان يقصر بى غدا دونهم وما من شىء احب الىّ من اللحوق باخوانى واخلائى قالت فما اقام بعد الا اشهراً حتى توفى صلوات الله عليه وسلامه

(وأما) خوفه ربه وطاعته له وشدة عبادته فعلى قدر علمه ولذلك قال لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ارى مالا ترون واسمع مالا تسمعون اطت (صوتت) السماء وحق لها ان تئط ما فيها موضع اربع اصابع الا وملك واضع جبهته ساجداً لله والله لو تعلمون ما اعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم الى الصعدات تجأرون الى الله تعالى لوددت انى شجرة تعضد وكان عليه السلام يصلى حتى ترم قدماه فقيل له اتكلف هذا وقد غفر

الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال (افلا اكون عبداً شكورا) وقالت عائشة رضى الله عنها كان عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ديمة وايكم يطيق ما كان يطيق وقالت كان يصوم حتى نقول لا يفطر ويفطر حتى نقول لا يصوم وقال عوف بن مالك كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فاستاك ثم توضأ ثم قام يصلى فقمت معه فاستفتح البقرة فلا يمر بآية رحمة الا وقف فسأل ولا مر بآية عذاب الا وقف وتعوّذ ثم ركع فمكث بقدر قيامه يقول سبحان ذى الجبروت والملكوت والعظمة ثم سجد وقال مثل ذلك ثم قرأ آل عمران ثم سورة سورة يفعل مثل ذلك وقال بعضهم اتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى ولجوفه ازيز كأزيز المرجل وفى وصف ابن ابى هالة كان متواصل الاحزان دائم الفكرة ليست له راحة وعن على رضى الله عنه قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال (المعرفة رأس مالى والعقل اصل دينى والحب اساسى والشوق مركبى وذكر الله انيسى والثقة كنزى والحزن رفيقى والعلم سلاحى والصبر ردائى والرضا غنيمتى والعجز فخرى والزهد حرفتى واليقين قوتى والصدق شفيعى والطاعة حسبى والجهاد خلقى وقرة عينى فى الصلاة وثمرة فؤادى فى ذكره وغمى لاجل امتى وشوقى الى ربى) فجزاه الله من نبى عن امته خيراً ورحم الله عبداً تأمل فى هذه الشمائل الكريمة والخصال الجميلة فتمسك بها واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحوز شفاعته يوم الفزع الاكبر ويرضى الله عنه فنسألك اللهم التوفيق لما فيه الخير بمنك وكرمك يا ارحم الراحمين

معجزاته عليه السلام

اذا تأمل المتأمل ما قدمناه من جميل أثر هذا السيد الكريم وحميد سيره وبراعة علمه ورجاحة عقله وحلمه وجملة كماله وجميع خصاله وشاهد حاله وصواب مقاله لم يمتر فى صحة نبوته وصدق دعوته وقد

كفى هذا غير واحد فى اسلامه والايمان به كعبد الله بن سلام فانه قال لما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة جئته لا نظر اليه فلما استبنت وجهه عرفت ان وجهه ليس بوجه كذاب . وروى مسلم ان ضماداً لما وفد عليه قال له صلى الله وسلم (ان الحمد لله نحمده ونستعينه من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل الله فلا هادى له وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله) فقال له ضماد أعد على كلماتك هؤلاء فاقد بلغن قاموس البحر هات يدك ابايعك ولما بلغ ملك عمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوه الى الاسلام قال والله لقد دلنى على هذا النبى الامى أنه لا يأمر بخير الا كان اوّل آخذ به ولا ينهى عن شئ الا كان اوّل تارك له وانه يغلب فلا يبطر ويغلب فلا يضجر ويفى بالعهد وينجز الموعود واشهد أنه نبى وقال ابن رواحة

لو لم تكن فيه آيات مبينة * لكان منظره ينبيك بالخبر

كيف وقد اظهر الله على يده تصديقاً لدعوته من المعجزات ما لا يفى به العد فهو اكثر الانبياء آية وأظهرهم برهاناً وسنذكر لك فى هذا الفصل من الآيات ما تقر به عينك ويزداد به يقينك مما رواه الجم الغفير من الصحابة رضوان الله عليهم وأثبته المحدثون فى صحاحهم ونبدأ منها بأظهرها شأناً واوضحها بياناً وهو القران الشريف واعجازه (اعلم) ان كتاب الله العزيز منطو على وجوه من الاعجاز كثيرة وتحصيلها من جهة ضبط انواعها في اربعة (اوّلها) حسن تأليفه والتئام كلمه وفصاحته ووجوه ايجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب وذلك انهم كانوا ارباب هذا الشان وفرسان الكلام قدخصوا من البلاغة والحكم . بما لم يخص به غيرهم من الامم . واوتوا من ذرابة اللسان . ما لم يؤت انسان . ومن فصل الخطاب . ما يقيد الالباب . جعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقة وفيهم غريزة وقوة يأتون منه على البديهة بالعجب ويدلون به الى كل سبب فيخطبون بديهاً فى المقامات وشديد الخطب . ويرتجزون به بين

الطعن والضرب . ويقدحون ويتوسلون ويتوصلون ويرفعون ويضعون فيأتون من ذلك بالسحر الحلال . ويطوقون من اوصافهم أجمل من سمط اللآل . فيخدعون الالباب . ويذللون الصعاب . ويذهبون الاحن . ويهيجون الدمن . ويجرؤن الجبان . ويصيرون الناقص كاملاً . ويتركون النبيه خاملاً . منهم البدوى ذواللفظ الجزل . والقول الفصل . والكلام الفخم والطبع الجوهرى . والمنزع القوى . ومنهم الحضرى ذوالبلاغة البارعة . والالفاظ الناصعة . والكلمات الجامعة . والطبع السهل والتصرف فى القول القليل الكلفة الكثير الرونق الرقيق الحاشية وكلاهما له فى البلاغة الحجة البالغة . والقوة الدامغة . والقدح الفالج . والمهيع الناهج . لا يشكون ان الكلام طوع مرادهم . والبلاغة ملك قيادهم . قدحوا فنونها . واستنبطوا عيونها . ودخلوا من كل باب من أبوابها . وعلوا صرحاً لبلوغ أسبابها . فقالوا فى الخطير والمهين . وتفننوا فى الغث والثمين . وتقاولوا فى القل والكثر . وتساجلوا فى النظم والنثر . فما راعهم الا رسول كريم بكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد احكمت آياته . وفصلت كلماته . وبهرت بلاغته العقول . وظهرت فصاحته على كل مقول . وتضافر ايجازه واعجازه . وتظاهرت حقيقته ومجازه . وتبارت فى الحسن مطالعه ومقاطعه . وحوت كل البيان مجامعه و بدائعه . واعتدل مع ايجازه حسن نظمه . وانطبق على كثرة فوائده مختار لفظه . وهم افسح ما كانوا فى هذا الباب مجالاً . واشهر فى الخطابة رجالاً . واكثر فى الشعر والسجع ارتجالاً . واوسع فى الغريب واللغة مقالاً . بلغتهم التى بها يتحاورون . ومنازعهم التى عنها يتناضلون . صارخا بها فى كل حين . ومقرعاً لهم بضعاً وعشرين عاماً على رؤس الملا اجمعين (أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون

الله ان كنتم صادقين) (وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين فان لم تفعلوا ولن تفعلوا) (قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) (قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) فلم يزل يقرعهم أشد التقريع ويوبخهم أشد التوبيخ ويسفه احلامهم . ويحط اعلامهم . ويشتت نظامهم. ويذم آلهتهم وآباءهم ويستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم وهم فى كل هذا نا كصون عن معارضته. محجمون عن مماثلته يخادعون انفسهم بالتشغيب بالتكذيب والاغتراء بالافتراء وقولهم (ان هذا الاسحر يؤثر . وسحر مستمر . وافك افتراه . واساطير الاولين) والمباهتة والرضى بالدنية كقولهم (قلوبنا غلف وفى اكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ولا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) والادعاء مع العجز كقولهم (لو نشاء لقلنا مثل هذا) وقد قال لهم (ولن تفعلوا) فما فعلوا ولا قدروا ومن تعاطى ذلك من سخافهم كمسيلمة كشف عواره لجميعهم وسلبهم الله ما القوه من فصيح كلامهم والا فلم يخف على اهل الميز منهم انه ليس من نمط فصاحتهم ولا جنس بلاغتهم بل ولوا عنه مدبرين . واتوا اليه مذعنين . وانت اذا تأملت قوله تعالى (ولكم فى القصاص حياة) وقوله (ولو ترى اذ فزعوا فلا فوت واخذوا من مكان قريب) وقوله (ادفع بالتى هي احسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كانه ولى حميم) وقوله (وقيل يا ارض ابلعى ماءك ويا سماء اقلعى وغيض الماء وقضى الامر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين) وقوله (فكلا اخذنا بذنبه فمنهم من ارسلنا عليه حاصبا ومنهم من اخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الارض ومنهم من اغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون) واشباهها من الآى بل اكثر القرآن حققت ما بينته من ايجاز الفاظها وكثرة معانيها وديباجة عبارتها وحسن تاليف حروفها وتلاؤم كلمها وان تحت كل لفظة

منها جملاً كثيرة وفصولا جمة وعلوماً زواخر ملئت الدواوين من بعض ما استفيد منها . وكثرت المقالات فى المستنبطات عنها . ثم هو فى سرد القصص الطوال واخبار القرون السوالف التى يضعف فى عادة الفصحاء عندها الكلام ويذهب ماء البيان آية لمتأمله من ربط الكلام بعضه ببعض والتئام سرده وتناصف وجوهه كقصة يوسف على طولها ثم اذا ترددت قصصه اختلفت العبارات عنها على كثرة ترددها وتناصف فى الحسن وجه مقابلتها ولا نفور للنفوس من ترديدها ولا معاداة لمعادها (الوجه الثانى) من اعجاز القرآن صورة نظمه العجيب والاسلوب الغريب المخالف لاساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها الذى جاء عليه ووقفت عليه مقاطع آيه وانتهت فواصل كلماته اليه ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له ولا استطاع احد مماثلة شيء منه بل حارت فيه عقولهم وتدلهت دونه احلامهم ولم يهتدوا الى مثله فى جنس كلامهم من نثر او نظم اوسجع اورجز اوشعر والاعجاز بكل واحد من النوعين الايجاز والبلاغة بذاتها او الاسلوب الغريب بذاته كل واحد منهما نوع اعجاز لم تقدر العرب على الاتيان بواحد منهما اذ كل واحد منهما خارج عن قدرتها مباين لفصاحتها وكلامها (الوجه الثالث) من الاعجاز ما انطوى عليه من الاخبار بالمغيبات ومالم يكن ولم يقع فوقع فوجد كما ورد وعلى الوجه الذى اخبر كقوله تعالى (لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين) وقوله عن الروم (وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين) وقوله (ليظهره على الدين كله) وقوله (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذى من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً) وقوله (اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا) فكان جميع هذا كما أخبر فغلبت الروم فارس ودخلت الناس فى الدين أفواجاً واتسع ملك المسلمين حتى كان لهم فى وقت من أقصى بلاد

الاندلس غربا الى اقاصى الهند شرقاً ومن بلاد الاناضول شمالا الى أقاصى السودان جنوباًوقوله (انانحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) فكان كذلك الى الآن والحمدلله وقوله (سيهزم الجمع ويولون الدبر) فكان كذلك فى بدر والآية نزلت بمكة وقوله (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم) فكان كذلك مما اطلع عليه قارئ هذهالسيرة وما فيه من كشف أسرار المنافقين واليهود ومقالهم وكذبهم فى خلفهم كقوله (ويقولون فى انفسهم لو لا يعذبنا الله بما نقول) وقوله (يخفون فى انفسهم ما لا يبدون لك) وقوله (من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا لياً بالسنتهم وطعناً فى الدين) الى غير ذلك من الآيات البينات (الوجه الرابع) ما انبأ به من اخبار القرون السالفة والامم البائدة والشرائع الداثرة مما كان لايعلم منه القصة الواحدة الا الفذ من احبار اهل الكتاب الذى قطع عمره فى تعلم ذلك فيورده عليه السلام على وجهه ويأتى به على نصه فيقر العالم بذلك على صحته وصدقه وان مثله لم ينله بتعليم وقد علموا انه عليه السلام أمى لا يقرأ ولا يكتب ولا اشتغل بمدارسة ولا مجالسة لم يغب عنهم ولا جهل حاله احد منهم وكثيراً ما كان يسأله كثير من اهل الكتاب عن هذا فينزل عليه من القرآن مايتلو عليهم منه ذكراً كقصص الانبياء وبدء الخلق وما فى الكتب السابقة مما صدقه فيها العلماء بها ولم يقدروا على تكذيب ماذكر منها ولم يؤثر ان واحداً منهم اظهر خلاف قوله من كتبه ولا ابدى صحيحاً ولا سقيماً من صحفه بعد ان قرعهم ووبخهم بقوله (قل فاتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين) ومما يدل على ان اهل الكتاب يعلمون صدقه ما تحداهم فيه الله بقوله (قل ان كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين) ثم حتم عدم اجابتهم بقوله (ولن يتمنوه ابداً بما قدمت أيديهم) فما سمع عن احد منهم انه تمنى ذلك ولو بلسانه مع انهم كانوا

احرص الناس على تكذيبه ومثل ذلك ما فعله اهل نجران حينما دعاهم للمباهلة فأبوا وقد قدمنا ذلك فى فصل وفودهم ومما يدل على ان هذا القرآن ليس من كلام البشر الروعة التى تلحق قلوب سامعيه والهيبة التى تعتريهم عند تلاوته لقوة حاله وانافة خطره حتى كانوا يستثقلون سماعه ويزيدهم نفوراً ولهذا قال عليه السلام ان القرآن صعب مستصعب على من كرهه وهو الحكم واما المؤمن فلا تزال روعته به وهيبته اياه مع تلاوته توليه اقبالا وتكسبه هشاشة كميل قلبه اليه وتصديقه به قال تعالى (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله) وقال تعالى (لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعا من خشية الله) ومن وجوه اعجاز القران كونه آية باقية لاتعدم مابقيت الدنيا مع تكفل الله بحفظه فقال (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) وقال (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) وسائر معجزات الانبياء لم يبق الا خبرها والقرآن الى وقتنا هذا حجة قاهرة ومعارضة ممتنعة والاعصار كلها طافحة باهل البيان وحملة علم اللسان وأئمة البلاغة وفرسان الكلام وجهابذة البراعة والملحد فيهم كثير والمعاند للشرع عتيد فمامنهم من أتى بشئ يؤثر فى معارضته ولا الف كلمتين فى مناقضته ولا قدر فيه على مطعن صحيح ولا قدح المتكلف من ذهنه فى ذلك الا بزند شحيح. بل المأثور عن كل من رام ذلك القاؤه فى العجز بيديه. والنكوص على عقبيه ولنختم لك هذا الباب بحديثه عليه السلام فى القرآن قال (ان الله انزل هذا القرآن آمراً وزاجراً وسنة خالية ومثلاً مضروباً فيه نبؤكم وخبر من كان قبلكم ونبأ ما بعدكم وحكم مابينكم لا يخلقه طول الرد ولا تنقضى عجائبه هو الحق ليس بالهزل من قال به صدق ومن حكم به عدل ومن خاصم به فلج ومن حكم به اقسط ومن عمل به اجر ومن تمسك به هدى الى صراط مستقيم ومن طلب الهدى من غيره اضله الله ومن حكم بغيره قصمه الله هو الذكر الحكيم والنور المبين والصراط المستقيم وحبل

الله المتين والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه لا يعوج فيقوم ولا يزيغ فيستعتب)

(ومن) معجزاته عليه السلام انشقاق القمر وقد قدمنا حديثه مستوفى

(ومن) معجزاته عليه السلام نبع الماء من بين اصابعه وتكثيره ببركته وقد روى هذا الجم الغفير من الصحابة منهم أنس وجابر وابن مسعود قال أنس رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد حانت صلاة العصر فالتمس الناس ماء للوضوء فلم يجدوه فاتي النبى صلى الله عليه وسلم بوضؤ فوضع فى الاناء يده وامر الناس أن يتوضؤا منه قال فرأيت الماء ينبع من بين اصابعه فتوضأ الناس حتى توضؤا عن آخرهم فقيل كم كنتم قال زهاء ثلاثمائة وقال ابن مسعود بينما نحن مع النبى صلى الله عليه وسلم وليس معنا ماء فقال لنا اطلبوا من معه فضل ماء فأتى بماء فصبه فى اناء ثم وضع كفه فيه فجعل الماء ينبع من بين اصابعه وقال جابر عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله بين يديه ركوة فتوضأ منها وأقبل الناس نحوه وقالوا ليس عندنا ماء الا مافى ركوتك فوضع يده فى الركوة فجعل الماء يفور من بين اصابعه كأمثال العيون قيل كم كنتم قال لو كنا مائة ألف لكفانا كنا خمس عشرة مائة وروى هذه القصة جمع عظيم من الصحابة ومثل هذا فى هذه المواطن الحفيلة والجموع الكثيرة لا تتطرق التهمة الى المحدث به لانهم كانوا أسرع شئ الى تكذيبه لما جبلت عليه نفوسهم من ذلك ولانهم كانوا ممن لا يسكت على باطل فهؤلاء قد رووا هذا واشاعوه ونسبوا حضور الجم الغفير له ولم ينكر عليهم احد من الناس ماحدثوا به عنهم أنهم فعلوه وشاهدوه فصار كتصديق جميعهم لهم

ومما يشبه هذا تفجير الماء ببركته وانبعاثه بمسه ودعوته كماورد عن معاذ بن جبل فى قصة غزوة تبوك وأنهم وردوا العين وهى تلمع بشىء من ماء مثل الشراك فغرفوا من العين بأيديهم حتى اجتمع فى شىء ثم غسل

عليه السلام فيه وجهه ويديه وأعاده فيها فجرت بماء كثير فاستقى الناس وفي رواية ابن اسحق فانخرق من الماء ماله حس كحس الصواعق ثم قال يوشك يا معاذ ان طالت بك حياة ان ترى ما هنا قدملئ جناناً وقد قدمنا ذلك في غزوة تبوك . وروى عن البراء وسلمة ابن الاكوع تكثير عين الحديبية بدعوته عليه السلام وروى ابوقتادة ان الناس شكوا الى رسول الله العطش في بعض اسفاره فدعا بالميضأة فجعلها في صبنه (ما بين الكشح الى الابط) ثم التقم فمها فالله أعلم أنفث فيها أم لافشرب الناس حتى رووا وملؤا كل اناء معهم فخيل لى انها كما اخذها منى وكانوا اثنين وسبعين رجلاً. ورويت قصص مشابهة لهذه عن كثير من الصحابة رضوان الله عليهم في محال مخلتفة بحيث لايشك أحد في صدقها بعد تضافر الثقات على روايتها

(ومن) ذلك تكثير الطعام ببركته ودعائه صلى الله عليه وسلم روى طلحة انه عليه السلام أطعم ثمانين أوسبعين رجلا من اقراص من شعير جاء بها انس تحت ابطه فأمر بها عليه السلام ففتتت وقال فيها ما شاء الله ان يقول. وروى جابر انه عليه السلام أطعم يوم الخندق ألف رجل من صاع شعير وعناق وقال جابر فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا وان برمتنا لتغلى كما هي وان عجيننا ليخبز وكان عليه السلام قد بصق في العجين والبرمة وبارك. وروى أبو أيوب انه صنع لرسول الله وأبى بكر طعاماً يكفيهما فأطعم منه عليه السلام مائة وثمانين رجلا. وروى مثل ذلك كثير من الصحابة كعبد الرحمن بن أبى بكر وسلمة بن الاكوع وأبى هريرة وعمر بن الخطاب وأنس بن مالك رضوان الله عليهم أجمعين

(ومن) معجزاته عليه السلام قصة حنين الجذع قال جابر بن عبد الله كان المسجد مسقوفاً على جذوع نخل فكان عليه السلام اذا خطب يقوم الى جذع منها فلما صنع له المنبر سمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار وفي رواية أنس حتى ارتج المسجد لخواره وفي رواية سهل

وكثر بكاء الناس لما رأوه به وفى رواية المطلب وانشق حتى جاء النبى صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليه فسكت زاد غيره فقال عليه السلام ان هذا بكى لما فقد من الذكر وزاد غيره والذى نفسى بيده لو لم ألتزمه لم يزل هكذا الى يوم القيامة تحزناً على رسول الله فأمر به فدفن تحت المنبر وهذا الحديث خرجه أهل الصحة ورواه من الصحابة كثيرون ورواه عنهم من التابعين ضعفهم وبمن دون عدتهم يقع العلم لمن اعتنى بهذا الباب. والله المثبت على الصواب.

(ومن) معجزاته عليه السلام ابراء المرضى وذوى العاهات فقد أصيبت يوم أحد عين قتادة بن النعمان حتى وقعت على وجنته فردها عليه السلام فكانت أحسن عينيه وأحدهما وبصق على أثر سهم فى وجه أبى قتادة في يوم ذى قرد فما ضرب عليه ولا قاح وأصاب ابن ملاعب الاسنة استسقاء فبعث الى النبى عليه السلام فأخذ بيده حثوة من الارض فتفل عليها ثم أعطاها رسوله فأخذها يرى انه قد هزىء به فأتاه بها وهو على شفا فشربها فشفاه الله وتقدم حديث على ورمده فى غزوة خيبر وغير ذلك كثير مما يعجز قلمنا عن عده ورواه ثقات المسلمين الاعلام

(اما) ما منحه الله اياه من اجابة دعواته فروى عن أنس بن مالك قال قالت امى أم سليم يا رسول الله خادمك أنس ادع الله له فقال اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما آتيته قال أنس فوالله ان مالى لكثير وان ولدى وولد ولدى ليعادون اليوم نحو المائة ودعا لعبد الرحمن بن عوف بالبركة فكان نصيب كل زوجة من زوجاته الاربع من تركته ثمانون الفاً وتصدق مرة بعير فيها سبعمائة بعير وردت عليه تحمل من كل شىء فتصدق بها وبما عليها وبأقتابها واحلاسها

ودعا لمعاوية بالتمكين فى الارض فنال الخلافة ودعا لسعد باجابة الدعوة فما دعا على احد الا استجيب له وتقدم دعاؤه لعمر بن الخطاب ان يعز الاسلام به وقال لابى قتادة افلح وجهك اللهم بارك فى شعره وبشره

فمات وهو ابن سبعين سنة وكانه ابن خمس عشرة ودعواته عليه السلام المستجابة اكثر من ان تحصى يطلع عليها قارئ سيرتنا هذه

(اما) ما اطلعه الله عليه من علم ما لم يكن فمما سارت به الركبان فعن حذيفة رضي الله عنه قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً فما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك الى قيام الساعة الاحدثه حفظه من حفظه ونسيه من نسيه قد علمه اصحابي هؤلاء وانه ليكون منه الشي فأعرفه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل اذا غاب عنه ثم اذا رآه عرفه وما ادري أنسي اصحابي ام تناسوه والله ما ترك عليه السلام من قائد فتنة الى ان تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعداً الا قد سماه لنا باسمه واسم ابيه واسم قبيلته وقد خرج اهل الصحيح والائمة ما أعلم به أصحابه مما وعدهم به من الظهور على أعدائه وفتح مكة وبيت المقدس واليمن والشام والعراق وظهور الامن حتى تظعن المرأة من الحيرة الى مكة لا تخاف الا الله وان المدينة ستغزى وبفتح خيبر على يد علي في غد يومه وما يفتح الله على امته من الدنيا ويؤتون من زهرتها وقسمتهم كنوز كسرى وقيصر وقد قدمنا كثيراً من ذلك في هذه السيرة وقدمنا ما في القرآن من ذلك وهذا يغنينا عن الاطالة في هذا المقام فحسبك ما سمعت

(ومما) ينير بصيرتك أيها القارئ ما منّ الله به على رسولنا من عصمته له من الناس وكفايته من آذاه قال تعالى (والله يعصمك من الناس) وقال (واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا) وقال (أليس الله بكاف عبده) وقال (انا كفيناك المستهزئين) ولما نزل (والله يعصمك من الناس) صرف حجابه وقال انصرفوا فقد عصمني الله وقد قدمنا حديث دعثور وارادته قتل النبي عليه الصلاة والسلام وعصمة الله لنبينا وذكرنا كثيراً مما حصل من أبي جهل لما أراد بالرسول المكايد فكفاه الله شره وما من الله به عليه ليلة الهجرة وحديث سراقة في الطريق

وعلى الجملة فيكفينا من هذا الباب انه عليه السلام مكث بين أعداء الداء بمكة ثلاث عشرة سنة وبين مشابهيهم من المنافقين واليهود عشر سنين فما تمكن أحد من ايصال اذى اليه صلى الله عليه وسلم بل كفاه مولاه شر أعدائه حتى اظهر الدين وتممه والحمد لله حمداً يوافى نعمه ويكافىء مزيده ونسأله ان يوفق قارئى هذه السيرة الى اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى اصحابه وانصاره

والحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه ومحبيه .

فهرست كتاب نور اليقين في سيرة سيد المرسلين

صحيفه

٣ خطبة الكتاب
٥ النسب الشريف
٧ زواج سيدنا عبدالله بالسيدة آمنة وحملها
٨ الرضاع
٨ شق الصدر
٩ وفاة السيدة آمنة وكفالة عبد المطلب ووفاته وكفالة ابي طالب
٩ السفر الى الشام المرة الاولى
١٠ حرب الفجار
١١ حلف الفضول
١٢ رحلته الى الشام المرة الثانية
١٢ زواجه خديجة
١٣ بناء البيت
١٥ معيشته عليه السلام قبل البعثة
١٦ سيرته في قومه قبل البعثة
١٧ ما اكرمه الله به قبل النبوة
١٨ تبشير التوراة به
٢٠ تبشير الانجيل به
٢١ حركة الافكار قبل البعثة
٢٢ بدء الوحي
٢٤ فترة الوحي

صحيفه

٢٤ عودة الوحي
٢٥ الدعوة سراً
٢٩ الجهر بالتبليغ
٣٢ الايذاء
٣٧ اسلام حمزة
٤٤ هجرة الحبشة الاولى
٤٥ اسلام عمر
٤٦ رجوع مهاجري الحبشة
٤٨ كتابة الصحيفة
٤٨ هجرة الحبشة الثانية
٤٩ نقض الصحيفة
٤٩ وفود نجران
٥٠ وفاة خديجة رضي الله عنها
٥١ زواج سودة رضي الله عنها
٥١ زواج عائشة رضي الله عنها
٥٢ هجرة الطائف
٥٤ الاحتماء بالمطعم بن عدي
٥٤ وفد دوس
٥٤ الاسراء والمعراج
٥٧ العرض على القبائل
٥٨ بدء اسلام الانصار
٥٩ العقبة الاولى

صحيفه

٦٠ العقبة الثانية
٦١ هجرة المسلمين الى المدينة
٦٢ دار الندوة
٦٣ هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم
٦٥ النزول بقباء
٦٦ هجرة الانبياء
٦٦ اعمال مكة
٦٧ مسجد قباء
٦٨ الوصول الى المدينة
٦٨ اوّل جمعة
٦٩ النزول على ابى ايوب
٦٩ نزول المهاجرين
٧٠ اخوة الاسلام
٧٠ هجرة اهل البيت
٧١ حمى المدينة
٧١ منع المستضعفين من الهجرة
٧١ السنة اولى. بناء المسجد
٧٢ بدء الاذان
٧٤ يهود المدينة
٧٥ المنافقون
٧٦ معاهدة اليهود
٧٦ مشروعية القتال

صحيفه

٧٨ بدء القتال
٧٨ سرية
٧٩ وفيات
٨٠ السنة الثانية. غزوة ودان
٨٠ غزوة بواط
٨١ غزوة العشيرة
٨١ غزوة بدر الاولى
٨١ سرية
٨٢ تحويل القبلة
٨٣ صوم رمضان
٨٣ صدقة الفطر
٨٣ زكاة المال
٨٤ غزوة بدر الكبرى
٩٢ أسرى بدر
٩٣ الفداء
٩٧ العتاب فى الفداء
٩٨ غزوة قينقاع
٩٩ جلاء قينقاع
٩٩ غزوة السويق
١٠٠ صلاة العيد
١٠٠ زواج على بفاطمة عليهما السلام
١٠٠ السنة الثالثة
١٠١ قتل كعب بن الاشرف

صحيفه

١٠٢ غزوة غطفان
١٠٣ غزوة بحران
١٠٣ سرية
١٠٣ غزوةاحد
١١٠ غزوة حمراء الاسد
١١١ حوادث
١١٢ السنة الرابعة
١١٣ سرية
١١٤ سريه
١١٥ غزوة بنى النضير
١١٦ غزوة ذات الرقاع
١١٧ غزوة بدر الآخرة
١١٧ حوادث
١١٨ السنة الخامسة . غزوة دومة الجندل
١١٨ غزوة بنى المصطلق
١٢١ حديث الافك
١٢٤ غزوة الخندق
١٢٦ الخدعة فى الحرب
١٢٨ هزيمة الاحزاب
١٢٩ غزوة بنى قريظة
١٣١ زواج زينب بنت جحش رضى الله عنها

صحيفه

١٣٣ الحجاب
١٣٥ فرض الحج
١٣٥ السنة السادسة. سرية
١٣٧ غزوة بنى لحيان
١٣٧ غزوة الغابة
١٣٨ سرية
١٣٨ سرية
١٣٩ سرية
١٣٩ سرية
١٣٩ سرية
١٤٠ سرية
١٤٠ سرية
١٤١ سرية
١٤١ قتل أبى رافع
١٤٢ سرية
١٤٣ قصة عكل وعرينة
١٤٣ سرية
١٤٤ غزوة الحديبية
١٤٧ بيعة الرضوان
١٤٧ صلح الحديبية
١٥٠ مكاتبة الملوك
١٥٠ كتاب قيصر
١٥١ حديث أبى سفيان

صحيفة		صحيفة	
١٥٢	كتاب أمير بصرى	١٦٦	سرية
١٥٣	كتاب الحارث بن أبى شمر	١٦٦	غزوة مؤتة
١٥٣	كتاب المقوقس	١٦٨	سرية
١٥٤	كتاب النجاشى	١٦٩	سرية
١٥٥	كتاب كسرى	١٧٠	غزوة الفتح الاعظم
١٥٥	كتاب المنذر بن ساوى	١٧٤	العفو عند المقدرة
١٥٦	كتاب ملكى عمان	١٧٧	وفود كعب بن زهير
١٥٧	كتاب هوذة بن على	١٧٧	بيعة النساء
١٥٧	السنة السابعة. غزوة خيبر	١٧٨	هدم العزى
١٦٠	زواج صفية رضى الله عنها	١٧٨	هدم سواع
١٦١	النهى عن نكاح المتعة	١٧٨	هدم مناة
١٦١	رجوع مهاجرى الحبشة	١٧٨	غزوة حنين
١٦١	فتح فدك	١٨١	سرية
١٦١	صلح تيماء	١٨٢	غزوة الطائف
١٦٢	فتح وادى القرى	١٨٣	تقسيم السبى
١٦٢	اسلام خالد ورفيقيه	١٨٥	وفود هوازن
١٦٢	سرية	١٨٦	عمرة الجعرانة
١٦٣	سرية	١٨٧	سرية
١٦٣	سرية	١٨٧	وفود صداء
١٦٤	عمرة القضاء	١٨٧	سرية
١٦٥	زواج ميمونة رضى الله عنها	١٨٧	وفود تميم
١٦٥	السنة الثامنة. سرية	١٨٨	سرية
١٦٥	سرية	١٨٩	سرية

صحيفة
١٨٩ السنة التاسعة . سرية
١٩٠ وفود عدى بن حاتم
١٩١ غزوة تبوك
١٩٣ وفود صاحب أيلة
١٩٣ كتاب صاحب أيلة
١٩٤ كتاب أهل أذرح وجرباء
١٩٤ مسجد الضرار
١٩٤ حديث الثلاثة الذين خلفوا
١٩٥ وفود ثقيف
١٩٦ كتاب أهل الطائف
١٩٧ هدم اللات
١٩٧ حج أبى بكر رضى الله عنه
١٩٨ وفاة ابن ابى
١٩٨ وفاة ام كلثوم رضى الله عنها
١٩٨ السنة العاشرة .سرية
١٩٨ سرية
١٩٩ بعث العمال على اليمن
١٩٩ حجة الوداع
٢٠٠ خطبة الوداع
٢٠٢ الوفود
٢٠٣ وفود نجران
٢٠٣ وفود ضمام بن ثعلبة
٢٠٤ وفود عبد القيس
٢٠٥ وفود بنى حنيفة

صحيفة
٢٠٥ وفود طيء
٢٠٥ وفود كندة
٢٠٦ وفود ازدشنوءة
٢٠٦ وفود رسول ملوك حمير
٢٠٦ كتاب ملوك حمير
٢٠٧ وفود همدان
٢٠٨ وفود تجيب
٢٠٨ وفود ثعلبة
٢٠٩ وفود بنى سعد بن هذيم
٢٠٩ وفود بنى فزارة
٢١٠ وفود بنى أسد
٢١٠ وفود بنى عذرة
٢١٠ وفود بنى محارب
٢١١ وفود غسان
٢١١ وفاة ابراهيم ابن النبى عليه الصلاة والسلام
٢١١ السنة الحادية عشر. سرية
٢١٢ مرض الرسول صلى الله عليه وسلم
٢١٢ صلاة ابى بكر بالناس
٢١٣ وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم
٢١٥ شمائله عليه الصلاة والسلام
٢٣١ معجزاته عليه الصلاة والسلام

الخطايا الواقعة عند الطبع

صحيفه	سطر	خطا	صواب
١١	٢٤	بن	بين
٣٤	٧	فاستجيت	فاستحييت
٣٨	٩، ١١	زنيزه	زنيره
٥٢	٤	وزرجه	وزوجه
٥٧	٧	وثلاثا	وثلاثا اذانحربت
٥٨	٩	جفاهم	جاءهم
٦٢	١٦	حيه	حيث
٦٣	١٥	ارقط	اريقط
٦٤	٨	بحسر	بسحر
٢٣٩	١٠	مخلتغة	مختلفة

إِتمَامُ الوَفاءِ

في سِيرَةِ الخُلفَاءِ

تأليف المرحوم

الشيخ محمد الخضَرىْ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشـر

تمثل سيرة الخلفاء الراشدين ـ رضى الله عنهم ـ مرحلة فى بداية التاريخ الإسلامى ، لأنها امتداد طبيعى لسيرة الرسول ﷺ ، وبيان لأثر التربية النبوية لذلك الجيل ، الذى رُبِّىَ فى دار الأرقم بن أبى الأرقم ، فترك فى التاريخ ضوءاً لايزال سناه ساطعاً ينير للأمة الإسلامية دروب الحياة ، ويحيي فيها موات فضائلها ، كلما عصفت بها الأنواء ، أو ناوشتها الخطوب ، وينتشلها من المهاوى السحيقة التى تتردى فيها كلما بعدت عن هويتها ، أو حاولت أن تنسلخ من إنتمائها .

فبعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، ترك وراءه ميراث النبوة ، أثقالا وأمانات ، حملتها الجماعة المسلمة ، وانطلقت فى فجاج الأرض بمنهجها القويم تصحح به أغلاط الزمن فى أهله وأغلاط الناس فى زمنهم ، وتبيد رؤوس الجاهلية ، وتحيي سنن الله فى الكون ، وتشيع فى النفس البشرية الأمان والإسلام ، وتمحوا منها التية والركام والزيف ، الذى خلفته براثن الإستعباد والطغيان الذى صاحب سيطرة الروم والفرس على مقاليد الأمور فى أنحاء شتى من المعمورة .

وكان هذا الجيل ، الذى صنع أمة لها تاريخ الأرض من بعد ، إذا أمعنت النظر فيه وجدت أنك تذهب مع القلوب والأنفس والحقائق ، لامع الكلام والناس والوقت .

وكان هذا عمل التربية والإعداد ، وثمرة الفداء والعقيدة ، التى زرعها المربي الأول فى النفوس ، فعمل قوله وفعله فى نفوسهم مايجعل العقل الإنسانى يقف ساهماً شارداً فى عجب ، وهو يطل على هذه الصفحات من تاريخ هذه الأمة ، ليرى آثار التربية النبوية فى إعداد رجال بعيدٌ شأنهم ،

كثير من الناس الذين تدفنهم معانى التراب وهم أحياء فوق التراب ، يحدهم الجسم الإنسانى من جميع جهاتهم بحدود طباعه ونزعاته ، رجال فوا من ثقل المادة فسمت أرواحهم وتعلقت بالأمل البعيد .

وكان منهم الراشدون رضى الله عنهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ين شهد الإسلام على أيديهم وأيدى قادتهم إنتصاراته وفتوحاته التى دت إلى أنحاء شتى من المعمورة فكانت سيرتهم فى الناس امتداداً للسيرة طرة فكانت تماماً لها وتعميقاً لأصولها وتأصيلا لمعانيها . فما كان لدارس سيرة النبوية أن يتوقف عن الإمتداد إلى معرفة سيرة الخلفاء الراشدين عرفة زمانهم وفتوحاتهم وانتصاراتهم ومعالم شخصياتهم التى ارتفعت إسلام وسمت بمعانيه فكانت أثراً واضحاً من آثار النبوة بعد انتهاء عهد بوة .

لأجل هذا كان الكتاب « إتمام الوفاء فى سيرة الخلفاء » للشيخ محمد لخضرى ـــ رحمه الله ـــ والذى حاول فيه أن يبرز سيرة لخلفاء الراشدين أربعة ، ليستعين بها من أراد أن يكمل السيرة فى إدراك المعانى والدلالات اريخ الإسلام الطويل :

و « دار الوفاء » إذ ترى من واجبها أن تقدم هذا الكتاب إلى المسلمين ، شتى بقاع الأرض ، نسأل الله أن يكون به النفع والعون لكل باحث دارس ، والله من وراء القصد .

الناشـــر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حق حمده. والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أوضح السبل. وبلغ الرسالة كما حمل: والرضاء عن أصحابه الكرام البررة الذين اتبعوا نهجه القويم فدانت لهم الملوك وذلت لهيبتهم الأمم.

(أما بعد) فيقول المرحوم محمد الخضرى بن المرحوم الشيخ عفيفى الباجورى: سألتنى وفقنى الله وإياك أن أردف لك كتابى فى سيرة النبى ﷺ الذى سميته «نور اليقين» بكتاب فيه تاريخ خلفائه الراشدين. إذ هم الذين ظهر الدين الإسلامى بأسمى مظاهره فى أيامهم وتجلى فى أجمل حليته بأقوالهم وأفعالهم، طالباً منى أن أنهج على سنن الكتاب الأول فى سهولة التعبير. والإجتهاد فى جمع ماتشتت من تاريخ هؤلاء السادة فى مطولات الكتب التى يملّ القارىء منها، ذاكراً أنّ من أعظم مايبث فى الأمة روح النشاط والإجتهاد أن تعكف على دراسة تاريخ كبارها حتى تعرف كيف تغلبوا على المصاعب الجمة التى كادت تحول بينهم وبين أمانيهم العظيمة، وتعرف النتيجة التى تعود من اتباع الدين والسير على نظاماته، فعلمت حسن قصدك وصحة إيمانك وغيرتك على أمتك، ورأيت أن أساعدك على مقصدك، وأتغلب على المصاعب التى تحول بينى وبين هذا العمل الجسيم مستعيناً بالله سبحانه وتعالى وهو نعم العون. وقد جعلت الكتاب قسمين: (القسم الأول) فى اتحاد الكلمة وفيه الفتوحات الإسلامية فى عهد الخليفتين أبى بكر وعمر وزمن غير قليل من زمن عثمان بن عفان رضى الله عنهم أجمعين. واتبعت هذا القسم بنبذة فى نظامات الأمة الإسلامية إذ ذاك وسير المسلمين مع بعضهم من حسن الإخاء والسعى وراء تتميم ماأنبأ به رسول الله ﷺ من تعميم الدين الإسلامى فى مشارق الأرض ومغاربها. و (القسم الثانى) فى عصر الإختلاف

والفتن وهو من أواخر مدة عثمان إلى أن قُتِل على بن أبى طالب وسلم ابنه الحسن الخلافة إلى معاوية رضى الله عنهم أجمعين وأتبعه بنبذة تُظهر للمسلمين نتائج الإختلاف والفرقة ليكون الكتاب بعون الله درساً مفيداً لعامة المسلمين. (وقدمت) أمام القسمين مقدمة صغيرة فى الخلافة وما يتعلق بها ، ولعل كتابى هذا يحل عند إخوانى المسلمين محل القبول فيقبلون عليه كما أقبلوا على سابقه وإنى بحمد الله واثق بحسن مسعاى لأنى قصدت به وجه الله سبحانه أسأل به حسن الذخر فى الأخرى وتوفيقاً للمسلمين حتى تقوى شوكتهم وينزل الله النصر عليهم.

وهذه هى الكتب التى استقيت منها فى جمع كتابى هذا:

(١) صحيح أبى عبدالله محمد بن إسماعيل البخارى الجعفى فى كثير من المواضع التى عنى فيها بأخبار الصحابة رضى الله عنهم .

(٢) صحيح أبى الحسين مسلم بن الحجّاج القشيرى كذلك .

(٣) تاريخ الرسل والملوك لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى إلا ماكان من أمر صفين فإنى لم أعثر على الجزء الذى يحتوى عليها .

(٤) تاريخ أبى الحسن على بن أبى الكرم محمد المعروف بابن الأثير الجزرى .

(٥) تاريخ عبد الرحمن بن خلدون المغربى .

(٦) تاريخ على بن الحسين المسعودى من ولد عبدالله بن مسعود صاحب رسول الله ﷺ .

(٧) إحياء علوم الدين لأبى حامد محمد بن محمد الغزالى .

(٨) سراج الملوك لأبى بكر محمد بن الفهرى الطرطوشى . وقد التزمت أن أنص لك على موضع النقل عندما أرى ذلك لازماً لما رأيت من حرصك على ذلك والله الموفق.

المقدمة فى الخلافة

معنى الخلافة

أرسل الله سبحانه محمداً ﷺ بدين قويم وصراط مستقيم: من اتبعه نجا، ومن حاد عنه هلك، وقد اشتمل هذا الدين على قوانين بها صلاح المجتمع الإنسانى فى الدنيا والأخرى فَبَلَّغَ عليه الصلاة والسلام الرسالة كما حَمَل ثم لحق بربه راضياً مرضياً، فكان لابد للناس من إمام يخلُفه فى حمل الكافة على اتباع هذا الدين ليقف كل إنسان عند حده فيتساوى القوى والضعيف والشريف والوضيع أمام الحق فهو خليفة رسول الله ﷺ فى حراسة الدين وسياسة الدنيا.

وجوب إقامة الخليفة

وقد أجمعت الأمة الإسلامية بعد وفاة رسول الله ﷺ على وجوب إقامة هذا الخليفة، وتابعهم على ذلك من بعدهم من المسلمين ولم يشذ عن هذا الإجماع أحد، اللهم إلا بعضاً من الخوارج والأصم من المعتزلة: قالوا بالإستغناء عنه إذا صلحت الأمة بأن اتبعت الدين القويم فعملت بالكتاب والسنة، والذى حملهم على ذلك إنما هو الفرار عن الملك ومذاهبه من الإستطالة والتغلب والإستمتاع بالدنيا، لما رأوا الشريعة ممتلئة بذم ذلك والنعى على أهله ومرغبة فى رفضه.

عدم تعدد الإمام

وكذلك أجمع المسلمون على أنه لايصح أن يكون لهم فى عصر واحد خليفتان لما يجره ذلك من التنافس والتباغض اللذين هما سبب الخسران والوبال وكفى بما حصل للمسلمين منذ تفرقت كلمتهم وتعدد سلطانهم مانعاً من ذلك فإن عدوهم تمكن من أن يتصنع لأحدهم ليستعين به على الآخر ، فكان ملوك الروم يتقربون من ملوك الأندلس ليكونوا لهم ردءاً مانعاً من تعدى العباسيين عليهم وصارت الحال تتقهقر من سيىء إلى أسوأ حتى زمننا الذى نجتهد فيه للتقرب ممن يتمنون لنا الفناء والزوال ، ولو عرف ملوك الإسلام مصلحتهم وأزالوا الكبرياء من نفوسهم فتمسكوا بالدين ماوصلوا إلى هذا الدرك الأسفل (إن فى ذلك لعبرة لأولى الألباب).

صاحب الخلافة

منصب عظيم كمنصب الخلافة لايستغرب تشعب الأفكار فيه واختلاف الأمة فى الأحق به ، فقد مضت القرون والأحقاب وهذه المسألة شاغلة أفكار العلماء من أكابر المسلمين وأول خلاف ظهر فيها كان عقب وفاة رسول الله ﷺ فإن الأصحاب كانوا فى ذلك على ثلاثة مذاهب. (قوم) قالوا نها ترجع لرأى الأمة تختار من تشاء ليكون إماماً لها متى رأوا فيه القدرة على حراسة الدين وسياسة الدنيا لافرق فى ذلك بين القرشى وغيره ، وكان هذا أى أغلب الأنصار من سكان المدينة رضوان الله عليهم ، ولذلك طلبوها نفسهم وأرادوا أن يبايعوا سعد بن عبادة سيد الخزرج. وأخذ برأيهم من هم عامة المعتزلة وأكثر الخوارج والحجة فى ذلك قوله عليه الصلاة سلام «اسمعوا وأطيعوا وإن ولى عليكم عبد حبشى ذو زبيبة». و (قوم) قالوا باختيار الأمة أيضاً ولكن لاتكون إلا فى قريش ، وكان هذا رأى أغلب جرين رضوان الله عليهم. وأخذ برأيهم من بعدهم عامة أهل السنة ، جة فى ذلك مارواه أبو بكر رضى الله عنه من قوله عليه الصلاة والسلام

« الأئمة من قريش »، و (قوم) رأوا أن الأولى بها قرابة رسول الله ﷺ والمقدم فيهم على بن أبى طالب رضى الله عنه لسابقته بالإسلام وحسن بلائه فيه وقوله عليه السلام له حينما خلفه على أهله فى غزوة تبوك « أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبوة بعدى » وكان هذا رأى أغلب بنى هاشم ومن شايعهم . وأخذ برأيهم من بعدهم عامة الشيعة ، والدليل على أنَّ ذلك كان رأياً لعلى قوله لأبى بكر فى حديث مسلم الآتى « وكنا نحن نرى لنا حقاً لقرابتنا من رسول الله ﷺ » فلم يكن رضى الله عنه يرى لنفسه مرجحاً سوى هذه القرابة ولو كان هناك وصاية له أو لغيره لما خفيت عن أصحاب رسول الله ﷺ وقد تغلب الرأى الأوسط على ما سواه عقب وفاة رسول الله ﷺ ولكن ظهر لهذا الإختلاف فى مستقبل الأمة آثار لاتحمد من الشقاق العظيم والمصائب التى توالت على الأمة حتى فرقت كلمتها وأضعفت أمرها ولو روعى السر الذى من أجله خصصت قريش بالخلافة لما كان هناك خلاف ولا فرقة .

السر فى تخصيص قريش بالخلافة

وإنما خص رسول الله ﷺ قريشاً بخلافته اعتباراً للعصبية التى تكون بها الحماية ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب فتسكن إليه الملة وأهلها وينتظم حبل الإلفة فيها ، ولا شك أن قريشاً كان لهم العز والشرف على سائر مضر ، يعترف لهم بذلك سائر العرب . فلو جعل الأمر فى سواهم لتوقع افتراق الكلمة بمخالفتهم وعدم انقيادهم فتفترق الجماعة وتختلف الكلمة ، وهذا ما حذره الشرع ، أما إذا جعل فيهم فلا يحصل شىء من ذلك لأنهم قادرون على سوق الناس بعصا الغلب لما يراد منهم فلا يخشى من أحد اختلاف عليهم ولا فرقة لأنهم كفيلون حينئذ بدفعها ومنع الناس منها ، قال ابن خلدون فى مقدمة تاريخه بعد كلام لا يخرج عما ذكرناه « فإذا ثبت أن اشتراط القرشية إنما هو لدفع التنازع بما كان لهم من العصبية والغلب وعلمنا أن الشارع لا يخص الأحكام بجيل ولا عصر ولا أمة علمنا أن ذلك إنما هو من الكفاية فرددناه إليها وطردنا العلة المشتملة على المقصود من القرشية وهو وجود العصبية

فاشترطنا فى القائم بأمور المسلمين أن يكون من قوم أولى عصبية قوية غالبة على من معها لعصرها ليستتبعوا من سواهم وتجتمع الكلمة على حسن الحماية ولا يعلم ذلك فى الأقطار والآفاق كما كان فى القرشية إذ الدعوة الإسلامية التى كانت لهم كانت عامة ، وعصبية العرب كانت وافية بها فغلبوا سائر الأمم وإنما يخص لهذا العهد كل قطر بمن تكون له فيه العصبية الغالبة ، وإذا نظرت سر الله فى الخلافة لم تعد هذا ، لأنه سبحانه وتعالى إنما جعل الخليفة نائباً عنه فى القيام بأمور عباده ليحملهم على مصالحهم ويردهم عن مضارهم وهو مخاطب بذلك ولا يخاطب بالأمر إلا من له قدرة عليه » اهـ.

أقول ولا نعلم الآن عصبية كافية لحماية الأمة أقوى من عصبية القائمين بأمور المسلمين الآن وهم بنو عثمان بالقسطنطينية وفقهم الله للعمل بدينه القويم والسير بسيرة الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم أجمعين.

شروط الخليفة

لابد لمن يتولى هذا المنصب العظيم أن يكون جامعاً لشروط أربعة :

(١) العلم : لأنه منفذ لأحكام الله تعالى ومتى كان جاهلاً بها لا يمكنه تنفيذها.

(٢) العدالة : لأن الإمامة منصب دينى ينظر فى سائر الأحكام التى تشترط فيها العدالة فكانت أولى باشتراطها.

(٣) الكفاية : بأن يكون جريئاً على إقامة الحدود واقتحام الحروب بصيراً بها ، كفيلاً بحمل الناس عليها عالما بأحوال الدهاء قوياً على معاندة السياسة ليصلح له بذلك ما أسند إليه من حماية الدين وجهاد العدو وإقامة الأحكام وتدبير المصالح.

(٤) أن يكون سليم الحواس والأعضاء مما يؤثر فقدانه فى الرأى والعمل ويلحق بذلك العجز عن التصرف لصغر أو أسر أو غيرهما.

انتخاب الخليفة

قال الله تعالى فى سورة آل عمران مخاطباً نبيه الكريم «وشاورهم فى الأمر» وهذا خطاب للأمة كلها فكانت الشورى بذلك أساساً للأعمال العظيمة التى يعملها المسلمون. وأجلها تنصيب الخليفة فلا تنعقد إلا بشورى المسلمين ورضاهم والمعتبر فى ذلك أهل الحل والعقد منهم وهم كبار الصحابة رضوان الله عليهم الذين امتازوا بكثرة الصحبة فاستنارت بصائرهم وعرفوا من يصلح للأمة. وهذا فى العصر الأول ، وينزل منزلتهم فيما بعده من العصور من له خير فى الإسلام ولا يلزم إجماع ذوى الحل والعقد على المنتخب بل المعتبر الأغلبية وهى ما زاد على نصف المجتمعين والحجة فى ذلك عهد عمر ، فمتى تم الرضا على واحد بايعوه على السمع والطاعة وعلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وبهذه البيعة تجب على المسلمين طاعته وتنفيذ أوامره ما وافق منها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وليست الطاعة للإمام فى حياته فقط بل وبعد وفاته فإذا عهد لأحد من المؤمنين بالخلافة انعقدت له ووجبت مبايعته فصار واجب الطاعة ، وقد فعل ذلك أبو بكر لعمر رضى الله عنهما فأجازه المسلمون ، وإذا حصر الشورى فى عدد مخصوص من ذوى الحل والعقد أجيز ذلك وصح انتخابهم كما فعل عمر مع عثمان رضى الله عنهما ، وهذه الكيفيات الثلاث فى انتخاب الإمام وهى انتخابه بالشورى العامة أو الخاصة التى يختارها الإمام السابق أو ولاية العهد هى الكيفيات التى عمل بها فى العصر الأول .

وبقيت كيفية رابعة أقر العلماء بعد العصر الأول على انعقاد الإمامة بها وهى كيفية التغلب وتكون حينما لا يكون للمسلمين إمام واختلفوا فيما بينهم فلم يرضوا واحداً فيجوز لمن يعرف من نفسه القدرة على سياسة الأمة بدرايته وعصبيته أن يطلب هذا الأمر فيدخل الناس فى طاعته إما طوعاً وإما كرهاً ومتى هدأت الأحوال وأجيب نداؤه صارت خلافته معمولا بها وصار واجب الطاعة .

طاعة الإمام

قال الله تعالى فى سورة النساء (**يأأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم**) وقال رسول الله ﷺ (إسمعوا وأطيعوا وإن تأمر عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة) وقال عليه السلام (من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ومن يطع الأمير فقد أطاعنى ومن يعص الأمير فقد عصانى) وقال عليه السلام لأبى هريرة (عليك السمع والطاعة فى عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك) والأثرة هى الإستئثار بالحقوق . وقال عليه السلام (لو أستعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله فاستمعوا له وأطيعوا له) وقال أبو ذر رضى الله عنه (أوصانى خليلى أن أسمع وأطيع وإن كان عبد مجدع الأطراف) .

مخالفة الإمام

وهذه الطاعة محدودة بما حده الشرع فإذا أمر بما يطبق على قواعد الدين ولا يخالف صريح القرآن ولا السنة الظاهرة المكشوفة فأمره مطاع واجب التنفيذ وكذلك إذا كان باجتهاد من عنده استند فيه لكتاب أو سنة ، أما إذا أمر بما خالف صريح القرآن أو السنة فلا طاعة له قال رسول الله ﷺ (لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق) وقال عليه السلام (فإذا أمرت بمعصية فلا سمع ولا طاعة) كما إذا أمر بشرب خمر أو ترك صلاة مثلاً فيجب على المرء المسلم أن لاينفذ أمره بل ينفذ أمر الله ولا يخاف فيه لومة لائم .

منابذة الإمام

أما إذا خرج هو فى أعماله عن حد الشرع بأن ظلم أو أستأثر بالحقوق أو فسق بشرب خمر أو ترك صلاة مثلاً فالواجب على المسلمين القيام بأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر لاتأخذهم فى ذلك لومة لائم عملاً بحديث عبادة

(وعلى أن نقول الحق أينما كان لانخاف فى الله لومة لائم) بشرط ألا يؤثر ذلك فى طاعته شيئاً فلا يجوز الخروج عليه وإشهار السلاح فى وجهه أبداً مهما استأثر أو فعل إلا إذا ظهر منه كفر صريح لاتأويل فيه، ففى حديث عبادة (ولا ننازع الأمر أهله إلا أن يروا كفراً بواحاً) وهنا لاإمامة له ولا طاعة بل يجب على كل مسلم القيام ضده حتى يبوء بالخزى والنكال وقد كان أكثر الصحابة الذين فى عهد يزيد على هذا المبدأ فلما شهر يزيد بما شهر به لم يجرؤ أحد منهم على الخروج عليه إلا الحسين بن على رضى الله عنه فإنه رأى لنفسه ذلك لأهليته التى لايمارى فيها وشوكته التى لم تكن بالحادة فلم يتمكن مما أراد رحمه الله وقد عذله على خروجه أخوه محمد بن الحنفية وابن عمه عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير فلم يرض لنصحهم لأمر أراده الله. وقد كان فى ذلك العصر كثير من الصحابة بالحجاز والشام والبصرة والكوفة ومصر وكلهم لم يخرج على يزيد لاوحده ولا مع الحسين ولم يقاتلوا مع يزيد أيضاً بل اعتزلوا هذه الفتنة. ولعل الحسين رضى الله عنه تأول قوله تعالى «**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر**» وساعد على ذلك أن أرسل له سراة أهل العراق يطلبونه لمبايعته فرأى ذلك له مع قرابته من رسول الله ﷺ فكان ماكان.

جزاء المحاربين

الإمام خليفة رسول الله ﷺ فمن عصاه فقد عصى الرسول ومن عصى الرسول فقد عصى الله، ومن حارب الإمام فقد حاربهما، وأجدر بمن حارب الله ورسوله أن يبوء بإثم عظيم، وقد بين الله سبحانه وتعالى جزاء المحاربين فى سورة المائدة قال تعالى «**إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم * إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم**» فجعل المحارب أربعة أنواع محارباً قتل فجزاؤه القتل، ومحارباً قتل وسرق فجزاؤه

الصلب ، ومحارباً سرق فجزاؤه القطع ، ومحارباً أخاف السبيل فجزاؤه النفى . والذى حدد هذه الأنواع السنة المطهرة . وقال بعض الفقهاء إنه لاتوزيع فى هذه العقوبات ، وللإمام الخيار فى الحكم بأى واحدة منها حسبما يراه من المصلحة وإن كانت لهم فئة يرجعون إليها كانوا بغاة ولهم أحكام تذكر فى كتب الفقه ، ثم ذكر سبحانه أن من تاب قبل القدرة عليه فقد عفا الله عنه ، ولذلك يلزم الإمام أن يدعوهم إلى طاعته قبل أن يبدأهم بالقتال ، وقد فعل ذلك على بن أبى طالب مع من خرج عليه من الحروريين ، ورأى أن قليلاً ممن خرج على الأئمة فى العصور السابقة لهم مقاصد دينية والغالب عليهم المقاصد الذاتية النفسانية ولذلك قلما رأينا منهم من نجح لأن سنة المصطفى ﷺ هى النور الذى يستضىء به كل مسلم وهى قد حرمت الخروج تحريماً شديداً مخافة تفريق المسلمين وتشتيت كلمتهم .

واجبات الإمام

قد علمنا أن وظيفة الإمام هى حراسة الدين وكفاية الأمة فالواجب عليه إذاً أن يكون الشرع قائده لاينحرف يمنة ولا يسرة عما جاء فى كتاب الله الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وسنة رسوله ﷺ العادلة الصحيحة وإجماع أئمة المسلمين فى العصر الأول ، فإن فعل ذلك واهتدى بهدى من هو خليفة عنه وهدى خلفائه الراشدين كانت مرتبته مرتبة الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً وكان من الذين يظلهم الله يوم لاظل إلا ظله ، وأما إن انحرف وحاد واتبع شهواته النفسية فهناك يكون الوعيد الشديد والعقاب الأليم ، قال عليه الصلاة والسلام (مامن أمير يلى أمور المسلمين ثم لايجهد لهم وينصح لهم إلا لم يدخل معهم الجنة) وقال عليه السلام (مامن عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصحه إلا لم يجد رائحة الجنة) وقال عليه السلام (من ولى من أمر المسلمين شيئاً ثم لم يحطهم بنصحه كما يحوط أهل بيته فليتبوأ مقعده من النار) إلى غير ذلك من الأحاديث التى كلها تحذير للأئمة كى لاتهوى بهم أعمالهم فى الدرك الأسفل من النار نعوذ بالله من ذلك . اللهم ألهم ولاة أمورنا الرشد وبين لهم السداد ليقتدوا بسيرة نبيك ﷺ سيد الأنبياء وسيرة خلفائه الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين .

القسم الأول من الكتاب

خلافة أبى بكر

لما لحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى اجتمع أصحابه من مهاجرين وأنصار فى سقيفة بنى ساعدة لإقامة خليفة له وكان الأنصار أهل المدينة يريدونها لأنفسهم لما لهم من نصرة رسول الله ﷺ وإيوائه بطيبتهم ولا يرون اختصاص قريش بالخلافة ، فلما حجهم أبو بكر رضى الله عنه بقوله عليه الصلاة والسلام (الأئمة من قريش) أصاخوا له وتركوا ماذهبوا إليه من أحقيتهم بالخلافة لأن المخالف مادام حائداً عن الهوى سهل إرجاعه إلى الحق، وهؤلاء كانوا أجلة أصحاب رسول الله ﷺ فلا يهمهم إلا ضم كلمة المسلمين ولم شعثهم غير ناظرين إلى الدنيا وزخارفها (وكان) بنو هاشم يريدونها لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه لما يرون من أحقيته بالخلافة لقرابته من رسول الله ﷺ ولكن الرأى الغالب كان مع أبى بكر رضوان الله عليه لأن رسول الله ﷺ خلفه فى الصلاة وقت مرضه فقال : المؤمنون قد رضيه ﷺ لديننا أفلا نرضاه لدنيانا؟ فبويع بها لثلاث عشرة خلت من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة وأول من بايعه عمر بن الخطاب رضى الله عنه ولم يبايع على بن أبى طالب إلا بعد وفاة فاطمة رضى الله عنها ، وفى مسلم عن عائشة رضى الله عنها أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ أرسلت إلى أبى بكر تسأله ميراثها من رسول الله ﷺ مما أفاء الله عليه بالمدينة وفدك (قريع بخيبر) وما بقى من خمس خيبر ، فقال أبو بكر إن رسول الله ﷺ قال : لانورث . ماتركناه صدقة إنما يأكل آل محمد من هذا المال وإنى والله لاأغير شيئاً من صدقة رسول الله ﷺ

عن حالها التى كانت فى عهد رسول الله ﷺ ولا أعمل فيها إلا بما عمل رسول الله ﷺ ، فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة شيئاً فوجدت فاطمة على أبى بكر فى ذلك قال فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت ، وعاشت بعد رسول الله ﷺ ستة أشهر ، فلما توفيت دفنها زوجها على بن أبى طالب ليلاً ولم يؤذن بها أبا بكر وصلى عليها وكانت لعلى من الناس وجهة حياة فاطمة فلما توفيت استنكر على وجوه الناس فالتمس مصالحة أبى بكر ومبايعته ولم يكن بايع تلك الأشهر فأرسل إلى أبى بكر أن إئتنا ولا يأتنا معك أحد كراهية محضر عمر بن الخطاب فقال عمر لأبى بكر والله لا تدخل عليهم وحدك فقال أبو بكر وما عساهم أن يفعلوا بى والله لآتينهم فدخل عليهم أبو بكر فتشهد على بن أبى طالب ثم قال : إنا قد عرفنا ياأبا بكر فضيلتك وما أعطاك الله ولا ننفس عليك خيراً ساقه الله إليك ولكنك استبددت علينا بالأمر وكنا نحن نرى لنا حقا لقرابتنا من رسول الله ﷺ فلم يزل يكلم أبا بكر حتى فاضت عينا أبى بكر فلما بكى أبو بكر قال لقرابة رسول الله ﷺ أحب أن أصل من قرابتى وأما الذى شجر بينى وبينكم من هذه الأموال فإنى لم آل فيها عن الحق ولم أترك أمراً رأيت رسول الله ﷺ يصنعه إلا صنعته . فقال لأبى بكر موعدك العشية للبيعة فلما صلى أبو بكر صلاة الظهر رقى المنبر فتشهد وذكر شأن على وتخلفه عن البيعة وعذره بالذى اعتذر إليه ثم استغفر وتشهد على بن أبى طالب فعظم شأن أبى بكر وأنه لم يحمله على الذى صنع نفاسة على أبى بكر ولا إنكار للذى فضله الله به ولكنا كنا نرى لنا فى الأمر نصيباً فاستبد به فوجدنا فى أنفسنا ، فسر بذلك المسلمون وقالوا أصبت وكان المسلمون إلى على قريباً حين راجع الأمر بالمعروف . ولما قضى الأمر ببيعة أبى بكر صعد المنبر فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه (أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل وأطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم ، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله) .

ترجمة أبى بكر

هو أبو بكر عبد الله بن أبى قحافة بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد ابن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر التيمى القرشى يجتمع مع النبى ﷺ فى مرة بن كعب وأمه أم الخير سلمى بنت صخر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة. ولد رضى الله عنه لسنتين من ميلاد رسول الله ﷺ وشب على الأخلاق الفاضلة والسيرة الكريمة وكان ذا يسار يحمل الكل ويكسب المعدوم وكان مصاحباً لرسول الله ﷺ قبل النبوة فلما شرف الله محمداً برسالته كان أبو بكر أول رجل أجابه حتى قال عليه السلام «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبى بكر» ثم قام بدعوة إخوانه وأصدقائه من قريش إلى هذا الدين فأجابه جمع منهم عثمان بن عفان والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وغيرهم ولما آذى المشركون من أسلم من عبيدهم كان لأبى بكر. اليد الطولى فى شرائهم وعتقهم إبتغاء وجه ربه الأعلى منهم بلال بن رباح وعامر بن فهيرة وغيرهما. وقد أراد الهجرة إلى الحبشة مع من هاجر فمنعه من ذلك ابن الدغنة سيد القارة وقال: مثل أبى بكر لا يخرج وجعله فى حمايته فأقام أبو بكر على ذلك زمناً ثم ترك هذه الحماية راضياً بحماية الله سبحانه وتعالى إذ لايليق بالمسلم القوى الإيمان أن يرضى بحماية غير الله جل جلاله. ولما أذن الله لنبيه ﷺ فى الهجرة إلى المدينة كان له شرف الصحبة بنص القرآن الشريف قال تعالى فى سورة التوبة «**إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا**» وزوج رسول الله ﷺ بنته عائشة وسنها إذ ذاك سبع سنوات وبنى بها وهو فى المدينة وسنها تسع سنوات. وشهد أبو بكر مع رسول الله ﷺ مشاهده كلها وكان يحمل رايته العظمى فى آخر غزواته وهى غزوة تبوك وأمره

عليه السلام أن يحج بالمسلمين فى السنة التاسعة ، ولما مرض عليه الصلاة والسلام أمره أن يصلى بالناس وهذه أعظم إشارة لاستحقاقه بالخلافة من بعده وكان له من الولد عبد الله الذى جرح بالطائف وتوفى فى أول خلافة أبيه وأسماء زوج الزبير ابن العوام أم عبد الله بن الزبير وله عبد الرحمن وأم المؤمنين عائشة ومحمد الذى ولى مصر فى مدة على بن أبى طالب وقتل بها وأم كلثوم التى ولدت بعد وفاته. وكان رضى الله عنه أبيض خفيف العارضين أحنى لا يتمسك إزاره معروق الوجه (قليل لحمه) نحيفاً أقنى غائر العينين يخضب بالحناء والكتم . ولما تولى الخلافة كان منزله بالسنح (وهو محلة خارج المدينة) فكان يأتيها كل يوم ماشياً وربما ركب فرسه ثم انتقل إلى المدينة بعياله بعد ستة أشهر من خلافته وترك تجارته التى كان ينفق منها على عياله وقال : ما تصلح الناس أمور التجارة وما يصلح لهم إلا التفرغ والنظر فى شأنهم وأنفق من مال المسلمين ما يصلحه وعياله يوماً بيوم وكان يحج ويعتمر ثم فرضت له الأمة شيئاً معلوماً يقوم بكفايته وقدره ستة آلاف درهم سنوياً . ومن مآثره رضى الله عنه قول رسول الله ﷺ فى حقه «إن من أمن الناس على فى صحبته أو ماله أبا بكر ولو كنت متخذاً خليلا غير ربى لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن أخوة الإسلام ومودته لا يبقين فى المسجد باباً إلا سد إلا باب أبى بكر» وجاءت امرأة إلى النبى ﷺ فأمرها أن ترجع إليه قالت : أرأيت إن جئت ولم أجدك — كأنها تقول الموت — قال ﷺ «إن لم تجدينى فائتى أبا بكر» وحدث أبو الدرداء قال : كنت جالساً عند النبى ﷺ إذ أقبل أبو بكر آخذاً بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبتيه فقال النبى ﷺ أما صاحبكم فقد غامر (ألقى بنفسه فى الشدة) فسلم وقال : يارسول الله إنه كان بينى وبين ابن خطاب شىء فأسرعت (فى الحال) إليه ثم ندمت فسألته أن يغفر لى فأبى عَلَىَّ ، فأقبلت إليك فقال : يغفر الله لك ياأبا بكر ثلاثاً ثم إن عمر قدم فأتى منزل أبى بكر فسأل أثم أبو بكر ؟ فقالوا : لا . فأتى النبى ﷺ فسلم عليه فجعل وجه النبى ﷺ يتمعر (يتغير غيظاً) حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه فقال : يارسول الله والله أنا كنت أظلم مرتين . فقال : النبى ﷺ «إن الله بعثنى إليكم فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدق وواسانى بنفسه وماله ، فهل أنتم تاركو لى صاحبى ؟ مرتين» فما أوذى بعدها .

أعماله فى خلافته

أول عمل بدأ به أبو بكر تسيير جيش أسامة بن زيد الذى كان النبى ﷺ جهزه إلى أبنى ولم يثنه عن ذلك ما حصل من الإضطرابات فى بلاد العرب عقب وفاة رسول الله ﷺ وقد طلب بعض كبار الأنصار على لسان عمر بن الخطاب من أبى بكر أن يولى إمارة الجيش رجلاً أسن من أسامة فغضب أبو بكر حتى قام وقعد وقال : ياعمر استعمله رسول الله ﷺ وتأمرنى أن أعزله ؟ ثم خرج رضى الله عنه وشيع الجيش بنفسه ماشياً وأسامة راكب فقال : له أسامة ياخليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن فقال : والله ما نزلت ولا ركبت وما على أن أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله فإن للغازى بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له وسبعمائة درجة ترفع له وستمائة سيئة تمحى عنه ، ثم وصاه هو وأصحابه فقال (لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا تعزقوا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكل وإذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له وإذا لقيتم قوماً فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاضربوا بالسيف ما فحصوا عنه ، فإذا قرب عليكم الطعام فاذكروا اسم الله . ياأسامة اصنع ما أمرك نبى الله ببلاد قضاعة ثم أنت قافل ولا تقصر من أمر رسول الله ﷺ ، ثم ودعه من الجرف ورجع (والجرف موضع قرب المدينة) ورغب أسامة من عمر بن الخطاب التخلف عن هذا البعث والمقام مع أبى بكر شفقة من أن يدهمه أمر فأذن أبو بكر لعمر فى ذلك وسار أسامة حتى انتهى لما أمره به رسول الله ﷺ فبعث الجنود إلى بلاد قضاعة (وكان لبنى قضاعة ملك ما بين الشام والحجاز إلى العراق فى أيلة

وجبال الكرك إلى مشارف الشام واستعملهم الروم على بادية العرب هنالك وكان أول الملك فيهم فى تنوخ منهم ثم غلبهم عليه بنو سليح وكانت رياستهم فى ضجعم بن معد منهم ثم غلبهم على هذا الملك بنو غسان (الذين مدحهم حسان بن ثابت) وأغار أسامة على أبنى فسبى وغنم ورجع إلى المدينة ظافراً بعد أن غاب عنها بعد أربعين يوماً وكان إنفاذ هذا الجيش من أعظم الأمور نفعاً للمسلمين فإن العرب قالوا: لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش. فكفوا عن كثير مما كانوا عزموا عليه.

أخبار الردة

منى الإسلام بعد وفاة رسول الله ﷺ بمصيبة عظمى لو لم تتداركها حكمة أبى بكر رضى الله عنه لضعف الدين وتشتت شمل المسلمين فإن العرب ما لبثت بعد أن علمت بموت رسول الله ﷺ حتى إرتدت ولم يبق أحد متمسكاً بدينه منهم إلا قريشاً بمكة وثقيفاً بالطائف وقليلاً من غيرهم وكان الناس فى ذلك على قسمين فمنهم التارك للدين بالمرة وهم وبنو طيىء وأسد ومن تبعهم من غطفان الذين اتبعوا طليحة بن خويلد الأسدى وبنو حنيفة الذين اتبعوا مسيلمة وأهل اليمن الذين اتبعوا الأسود العنسى وكثير غيرهم. ومنهم المعطل للزكاة وهم بعض بنى تميم الذين يرأسهم مالك بن نويرة وبنو هوازن وغيرهم، وكان من رأى أبى بكر رضى الله عنه قتال مانعى الزكاة كما يقاتل المرتدون، لأن تعطيل الزكاة طعن على الصلاة بل على جميع منازل الدين فقال له عمر بن الخطاب ياأبا بكر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لاإله إلا الله فمن قال لاإله إلا الله فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله»، قال أبو بكر والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لو منعونى عقالاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. قال: عمر فوالله ما هو إلا أن رأيت أن قد شرح الله صدر أبى بكر للقتال، فعلمت أنه الحق (رواه البخارى)

فشمر رضى الله عنه عن ساعد الجد غير مبال بهذه الأهوال الجسام مع قلة حيشه وكثرة عدوه واثقا بوعده سبحانه وتعالى فى قوله « **إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** » وها نحن نسوق لك حروب الردة لتعرف كيف ينجح الإنسان إذا اعتمد على ربه واستسهل المصاعب وليعلم المسلمون كافة فعل خليفتهم الأول عندما كان المسلمون كالغنم فى الليلة الممطرة لقلتهم وكثرة عدوهم وإظلام الجو بفقد نبيهم .

خبر عبس وذبيان

أقام أبو بكر جيش أسامة فعاجلته عبس ودبيان ومنازلهم بنجد مما يلى وادى القرى وجبل طيىء فنزل بعضهم بالأبرق ونزل آخرون بذى القصة (موضعان شمال المدينة الغربى جهة نجد) واجتمع معهم جماعة من بنى أسد ومن انتسب إليهم من كنانة وقد بعثوا وفداً لأبى بكر يطلبون الإقتصار على الصلاة دون الزكاة فأبى أبو بكر وردهم خائبين وخشى على المدينة البيات فجعل على أنقابها علياً وطلحة والزبير وعبدالله بن مسعود وأمر أهل المدينة بلزوم المسجد فلما رجع وفد مانعى الزكاة إلى قومهم أطمعوهم فى المدينة لقلة من فيها فأغاروا عليها فأرسل من بالأنقاب إلى أبى بكر فخرج بالمسلمين على النواضح (الإبل التى يسقى عليها) فهرب العدو وتبعهم المسلمون إلى ذى خشب (وادى بقرب المدينة)فخرج عليهم رده للعدو بقرب قد نفخوها وفيها الحبال ثم دهدهوها (دحرجوها) على الأرض فنفرت إبل المسلمين ورجعت بهم إلى المدينة ولم يصرع أحد منهم بفضل الله ثم خرج أبو بكر ليلاً على بقية وبيت الأعداء فلم يشعروا إلا والمسلمون على رؤوسهم ولم تطلع الشمس إلا وقد ولوا الأدبار فأتبعهم أبو بكر حتى وصل ذا القصة فترك بها النعمان بن مقرن ورجع إلى المدينة وحينذاك قدم أسامة بن زيد من غزوته فاستخلفه أبو بكر على المدينة وترك معه جنده ليستريحوا وخرج هو قاصداً ذا خشب وذا القصة ثم سار حتى نزل على أهل الربذه فقاتل من هناك من المرتدين وهزمهم ثم غلب على بلاد ذبيان وجعلها حمى لدواب المسلمين ثم رجع إلى المدينة حتى إذا استراح جيش أسامة وثاب من حوالى المدينة خرج إلى القصة فعسكر بها وعقد أحد عشر لواء لأحد عشر قائداً .

تسيير الجيوش إلى أهل الردة

(١) سيف الله خالد بن الوليد ووجهه إلى طليحة بن خويلد الأسدى فإذا فرغ منه فصد مالك بن نويرة بالبطاح (٢) عكرمة بن أبى جهل ووجهه إلى مسيلمة باليمامة (٣) شر حبيل بن حسنة ووجهه فى أثر عكرمة (٤) المهاجر ابن أبى أمية ووجهه إلى جنود العنسى ومعاونة الأبناء (قوم من الفرس سكنوا اليمن) ثم يمضى إلى كندة (٥) حذيفة بن محصن الغطفانى ووجهه إلى أهل دبا (٦) عرفجة بن هرثمة ووجهه إلى أهل مهرة وأمر هذا ومن قبله أن يجتمعا وكل واحد أمير على صاحبه فى عمله (٧) سويد بن مقرن ووجهه إلى تهامة اليمن (٨) العلاء بن الحضرمى ووجهه إلى البحرين (٩) طريفة بن حاجز ووجهه إلى بنى سليم ومن معهم من هوازن (١٠) عمرو بن العاص ووجهه إلى قضاعة (١١) خالد بن سعيد بن العاص ووجهه إلى مشارف الشام.

كتاب أبى بكر للأمراء

وكتب الأمراء عهداً هذه صورته:

« بسم الله الرحمن الرحيم » هذا عهد من أبى بكر خليفة رسول الله ﷺ لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام وعهد إليه أن يتقى الله ما استطاع فى أمره كله سره وجهره ، وأمره بالجد فى أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أمانى الشيطان بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بدعاية الإسلام فإن أجابوه أمسك عنهم وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقرروا له ثم ينبئهم بالذى عليهم والذى لهم فيأخذ ماعليهم ويعطيهم الذى لهم لاينظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم فمن أجاب إلى أمر الله وأقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف ، وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله فإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به ومن لم يجب إلى داعية الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مرغمة لايقبل الله من أحد شيئاً مما أعطى إلا الإسلام ، فمن أجابه وأقر قبل منه وأعانه ، ومن قاتله فإن أظهره الله عليه عز وجل قتلهم فيه كل قتلة بالسلاح والنيران ، ثم قسم ماأفاء الله إلا الخمس فإنه يبلغناه ويمنع أصحابه العجلة والفساد وأن لايدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم ويعلم ماهو لئلا يكونوا عيوناً ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم ، وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم فى السير والمنزل ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصى بالمسلمين فى حسن الصحبة ولين القول.

وكتب إلى المرتدين جميعهم كتباً صورتها واحدة وهذا نصها:

كتب أبى بكر إلى المرتدين

« بسم الله الرحمن الرحيم » من أبى بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى من بلغه كتابى هذا من عامة أو خاصة أقام على الإسلام أو رجع عنه . سلام على من اتبع الهدى ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والهوى فإنى أحمد الله إليكم الذى لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله ألا الله وحده لا شريك له وأن محمداً ﷺ عبده ورسوله وأؤمن بما جاء به (أما بعد) فإن الله أرسل محمد ﷺ بالحق من عنده إلى خلقه بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين يهدى الله للحق من أجاب إليه وضرب رسول الله ﷺ بإذنه من أدبر عنه حتى صار إلى الإسلام طوعاً أو كرهاً ثم توفى رسول الله ﷺ وقد نفذ لأمر الله ونصح لأمته وقضى الذي عليه وكان الله قد بين ذلك لأهل الإسلام فقال (إنك ميت وإنهم ميتون) وقال (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون) وقال للمؤمنين (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين) فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله وحده لا شريك له فإن الله بالمرصاد حى قيوم لا يموت ولا تأخذه سنة ولا نوم حافظ لأمره منتقم من عدوه بحزبه وإنى أوصيكم بتقوى الله وحظكم ونصيبكم من الله وما جاء به نبيكم وأن تهتدوا بهديه وأن تعتصموا بدين الله عز وجل فإن من لم يهده الله ضل وكل من لم يعرفه مبتلى وكل من لم ينصره مخذول فمن هداه الله كان مهدياً ومن أضله كان ضالاً (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً) ولم يقبل منه فى الدنيا عمل حتى يقربه ولم يقبل له فى الآخرة صرف ولا عدل وقد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام وعمل به أغتراراً بالله عز وجل وجهالة لأمره وإجابة للشيطان وقال

جل ثناؤه (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا) وقال جل ذكره (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) وإنى قد أنفذت لكم خالد بن الوليد فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وأمرته أن لا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله. فمن استجاب وأقر وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعانه عليه. ومن أبى أن يقاتله على ذلك ولا يبقى على أحد منهم قدر عليه. وأن يحرقهم بالنيران ويقتلهم كل قتلة ويسبى النساء والذرارى. ولا يقبل من أحد إلا الإسلام. فمن آمن فهو خير له ومن تركه فلن يعجز الله وقد أمرت رسولى أن يقرأ كتابى فى كل مجمع لكم. والداعية الأذان. فإن إذن المسلمون فأذنوا كفوا عنهم وإن لم يؤذنوا فسألوهم بما عليهم فإن أبوا عاجلوهم وإن أقروا قبلوا منهم وحملهم على ما ينبغى لهم. وسير هذه الكتب قبل مسير الأمراء ثم خرجت الأمراء معهم العهود كل إلى وجهته والله ناصره.

خبر طليحة

كان طليحة بن خويلد الأسدى رجلاً كاهناً ادعى النبوة فى حياة رسول الله ﷺ فتبعه أفاريق من بنى إسرائيل ونزل سميراء من بلاد بنى أسد شرقى نجد مما يلى العراق فبعث رسول الله ﷺ ضرار بن الأزور الأسدى لمقاتلته فسار إليه ولما هم لمناجزته جاءت الأخبار بوفاة رسول الله ﷺ فاستطار أمر طليحة واجتمعت إليه غطفان وهوازن وطىء فرجع ضرار إلى المدينة وحينئذ سير أبو بكر خالد بن الوليد لقتال طليحة ومن معه وكان فى جيش خالد عدى بن حاتم الطائى فاستأذن خالداً فى أن لا يتعجل حتى يدعو قومه بنى طىء إلى الرجوع لدين الله فسار إليهم ودعاهم فأجابوه لذلك وتركوا طليحة وانضموا إلى جيش المسلمين ، ودعا عدى أيضاً من مع طليحة من بني جديلة فأجابوه ثم سار خالد حتى التقى بالمرتدين ببزاخة فقاتلهم قتالاً شديداً ولما رأى طليحة أن لاقبل له بالحرب هرب هو وزوجته على فرسين كان قد أعدهما لذلك ولحق بالشام فانهزم جيشه . وقد أسلم طليحة بعد ذلك حينما علم بإسلام بنى أسد وغطفان وله ذكر جميل فى فتح العراق . ثم اجتمعت قبائل غطفان إلى سلمى بنت مالك بن حذيفة بالحوأب وكانت سلمى هذه قد سلبيت فى مدة رسول الله ﷺ وأعتقتها أم المؤمنين عائشة وقال لها عليه السلام يوماً وقد دخل عليها وهى فى نسوة فى بيت عائشة إن إحداكن تستنبح كلاب الحوأب فكان فعلها هذا مصداقاً لقوله عليه السلام (عن ابن خلدون) ولما علم بذلك خالد سار إليها وقاتل جيشها وهى راكبة على جمل قتل دونه نحو مائه رجل ثم قتلت هى أيضاً فانهزم جيشها .

أما بنو عامر فإنهم لما رأوا ماحل بأسد وغطفان أتوا خالداً وقالوا ندخل

فيما خرجنا منه ونؤمن بالله ورسوله . فقبل منهم وبايعهم على أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويبايعوا على ذلك أبناءهم ونساءهم. ثم طلب من أحدثوا حدثاً فى الإسلام فؤتى بهم وجازاهم بمثل مافعلوا. (أما بنو سليم) فقد كان الفجاءة بن عبديا ليل سار إلى أبى بكر وطلب منه المعونة ليقاتل أهل الردة فأعطاه أبو بكر وأمره فلما رجع إلى قومه ارتد. وأرسل نجبة بن المثنى ليشن الغارة على المسلمين. فسار إليه طريفة بن حاجز أحد أمراء جيوش الردة وقاتله فقتل نجبة وهرب الفجاءة فأدرك وأرسل إلى أبى بكر فقتله . ورجعت بنى سليم للإسلام .

خبر مالك بن نويرة

كان رسول ﷺ قد أمَّرَ على بنى تميم ستة أمراء وهم : الزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم وصفوان بن صفوان وسبرة بن عمرو ووكيع بن مالك ومالك بن نويرة ، فلما توفى عليه السلام سير الزكاة إلى أبى بكر صفوان بن صفوان والزبرقان بن بدر ومنعها قيس بن عاصم ومالك بن نويرة فقام من بقى على إسلامه فى وجه من ارتد ومنع الزكاة ، وبينما هم على اختلافهم إذ جاءتهم إمرأة اسمها سجاح من أرض الجزيرة ثم من بنى تغلب وكانت نصرانية فلما توفى رسول الله ﷺ ادعت النبوة فتبعها كثير من أوباش العرب فقصدت بهم غزو أبى بكر فلما وصلت بلاد تميم (وكانت منازلهم بأرض نجد دائرة من هنالك على البصرة واليمامة) أرسلت إلى مالك بن نويرة تطلب موادعته فوادعها وردها عن غزو المدينة وأغراها على المسلمين من تميم ففروا أمامها ، أما هى فسارت تريد المدينة حتى بلغت النباح (قرية بالبادية) فاعترضها قوم من تميم فحاربوها وأسروا بعض رجالها ثم تحاجزوا على أن تطلق أسراهم ويطلقوا أسراها وترجع فلا تجتاز عليهم ، فيئست بذلك من الذهاب إلى المدينة وانقلبت تريد اليمامة . وأما بنو تميم فإنهم راجعوا الإسلام وندموا على ما فعلوا إلا مالك بن نويرة فإنه ظل متحيراً واجتمع إليه قومه بالبطاح فسار إليه خالد بعد أن انتهى من أمر طليحة فلما علم مالك بمسيره أمر قومه فتفرقوا فى المياه فبعث خالد السرايا فى أثرهم فأتى بكثير منهم أسرى وبينهم مالك بن نويرة فأمر بقتلهم وتزوج امرأة مالك ، وقد نقم عليه عمر بن الخطاب قتل مالك وتزوج امرأته لأن جماعة شهدوا عنده أن مالكاً كان قد راجع الإسلام فطلب من أبى بكر أن يقتص منه فقال أبو بكر تأول فأخطأ فارفع لسانك عن خالد فإنى لا أشيم سيفاً سله الله على الكافرين .

خبر مسيلمة

كان بنو حنيفة ممن وفدوا على رسول الله ﷺ فى حياته وفيهم مسيلمة ابن ثمامة أحد بنى عدى بن حنيفة فلما ورد المدينة جعل يقول إن جعل لى الأمر من بعده تبعته ، فأقبل إليه النبى ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس وفى يد النبى ﷺ قطعة جريد حتى وقف على مسيلمة فى أصحابه وقال لو سألتنى هذه القطعة ما أعطيتك ولن أتعدى أمر الله فيك وإن أدبرت ليعقرنك الله وإنى لأراك الذى أريت فيك ما أريت وهذا ثابت يجيبك عنى ثم انصرف . فسأل ابن عباس أبا هريرة عما رآه النبى ﷺ فقال إن النبى ﷺ قال بينا أنا نائم رأيت فى يدى سوارين من ذهب فأهمنى شأنهما فأوحى إلى فى المنام أن أنفخهما فنفختهما فطارا فأولتهما كذابين يخرجان من بعدى فكان أحدهما العنسى صاحب صنعاء والآخر مسيلمة صاحب اليمامة (رواه مسلم) فلما رجع مسيلمة ومن معه إلى منازلهم (وهى اليمامة بين نجد والبحرين كالحجاز بين نجد وتهامة) إدعى مسيلمة النبوة وأنه أشرك مع محمد فى الأمر فاتبعه قومه وكتب إلى رسول الله ﷺ من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله سلام عليك فإنى قد أشركت فى الأمر معك وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قريش قوم لا يعدلون . فكتب إليه رسول الله ﷺ «من محمد رسول الله ﷺ إلى مسيلمة الكذاب سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين» قال الطبرى وذلك بعد منصرف رسول الله ﷺ من حجة الوداع فلما توفى عليه السلام عقد أبو بكر لواء لعكرمة بن أبى جهل وسيره لقتال مسيلمة وسير على أثره شرحبيل بن حسنة مدداً له فلم ينتظر عكرمة مدده حتى يكون اجتماعهما أشد على عدوهما بل تعجل ليكون له الفضل خاصة ، فتقدم ولاقى جيش مسيلمة فنكب ، ولما علم بذلك أبو بكر غضب عليه ونهاه عن العودة إلى المدينة وأمره باللحاق إلى

اليمن ليكون مع حذيفة وعرفجة على قتال أهل مهرة فإذا انتهوا ساروا إلى المهاجر ابن أبي أمية لقتال جنود الأسود العنسي . وبعث أبو بكر لخالد بن الوليد يأمره بالمسير إلى مسيلمة وأمده بجيش كثيف من المهاجرين والأنصار وأرسل إلى شرحبيل يأمره بانتظار خالد حتى يجتمعا على جنود مسيلمة التي تبلغ عدتها أربعين ألفاً فلما علم مسيلمة وبنو حنيفة بدنو خالد خرجوا فعسكروا في منتهى ريف اليمامة واستنفروا الناس فخرج إليهم عدد كثير ، فتقدم خالد وعلى مقدمته شرحبيل ولما كان على ليلة من معسكر بني حنيفة التقى بسرية منهم راجعة من بلاد بني تميم وعامر لإدراك ثأر لهم وعليهم مجاعة بن مرارة من سادات بني حنيفة فأمر بهم خالد فقتلوا إلا مجاعة فإنه استبقاه لشرفه ثم سار خالد حتى التقى بجيش المرتدين فتقاتل الفريقان قتالاً شديداً ولما حمى القتال انكشف المسلمون بادىء الأمر حتى وصل المرتدون إلى فسطاط خالد وأرادوا أخذ زوجته فمنعهم من ذلك مجاعة وقال نعم الحرة هي . ثم تداعى المسلمون وأنزل الله عليهم سكينته فحمل خالد في الناس حتى رد المشركين إلى أبعد ما كانوا وثابر بنو حنيفة وقاتلوا قتالاً شديداً فعلم خالد أن رحى الحرب تدور على مسيلمة فطلبه للبراز فبرز إليه فلما اشتد عليه الأمر أدبر وزال أصحابه فنادى خالد في المسلمين فحملوا حتى هزموا المرتدين شر هزيمة فتحصنوا في بستان لمسيلمة كان يسمى حديقة الرحمن فقال البراء بن مالك أحد شجعان الأنصار ألقوني عليهم في الحديقة فألقوه عليهم فقاتل عن الباب حتى فتحه فدخله المسلمون وأكثروا القتل في بني حنيفة حتى قتل مسيلمة واشترك في قتله وحشيٌ قاتل حمزة بن عبد المطلب ورجل من الأنصار فانهزم بنو حنيفة وركبهم المسلمون يقتلون ويأسرون فقال مجاعة لخالد والله ما جاءك إلا سرعان الناس وإن جماهيرهم لفي الحصون فهلم أصالحك على قومي ، وقد كان خالد التقط من دون الحصون من نساء وصبيان ومال ، فقال مجاعة أصالحك على ما دون النفوس وانطلق كأنه يشاورهم فأفرغ السلاح على النساء ووقفهن الأسوار ثم رجع إليه وقال أبوا أن يجيزوا ذلك فنظر خالد إلى الحصون فوجدها ممتلئة بالجيوش والمسلمون قد نهكتهم الحرب وقتل من الأنصار ما ينيف على ثلاثمائة وستين ومن المهاجرين مثلهم ومن التابعين لهم مثلهم أو يزيدون وقد فشت

الجراحات فيمن بقى فجنح للسلم فصالحه على الصفراء والبيضاء ونصف السبى والسلاح وحائط ومزرعة من كل قرية فأبوا فصالحهم على الربع فصالحوه وفتحت الحصون فلم يجد بها خالد إلا النساء والمستضعفين فقال لمجاعة خدعتنى . فقال قومى ولم أستطع إلا ما صنعت ، وبعد هذا الصلح جاءه كتاب من أبى بكر يأمره فيه بقتل كل محتلم فوفى لهم بصلحه ولم يغدر ثم أرسل وفدا منهم لأبى بكر باسلامهم فلقيهم وسألهم عن أسجاع مسيلمة فقصوها عليه فقال سبحان الله هذا الكلام ما خرج من إل ولا بر فأين يذهب بكم عن أحلامكم وردهم إلى قومهم .

خبر البحرين

كانت أرض البحرين مقراً لكثير من قبائل ربيعة منهم عبد القيس بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة ومنهم بنو بكر بن وائل بن قاسط ابن هنب بن أفصى ، وكان أهل البحرين قد وفدوا على رسول الله ﷺ فى حياته وأسلموا فَأمَّر عليهم المنذر بن ساوى فلما توفى عليه السلام توفى عقبه المنذر بن ساوى فارتد أهل البحرين ، فأما بكر فتمت على ردتها ، وأما عبد القيس فراجعت الإسلام بهمة الجارود بن المعلى العبدى فإنه جمعهم حينما قالوا لو كان محمد نبياً لم يمت . فقال لهم أتعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى؟ قالوا نعم . قال فما فعلوا قالوا ماتوا . قال : فإن محمداً قد مات كما ماتوا ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فأسلموا وثبتوا على إسلامهم ،فاجتمعت ربيعة بالبحرين على الردة إلا الجارود ومن تبعه ، وخرج الحطم بن ضبيعة من بكر بن وائل فاجتمع إليه كثير من المشركين والمرتدين حتى نزل القطيف وهجر وحصر أصحاب الجارود فأرسل أبو بكر العلاء بن الحضرى لأهل البحرين فلما كان بجبال اليمامة لحق به ثمامة بن أثال الحنفى فى مسلمة بنى حنيفة وقيس بن عاصم المنقرى فى قومه وأتاه كثير من أهل اليمن فسلك بهم الدهناء حتى إذا كانوا فى بحبوحتها «وسطها» نزل وأمرهم بالنزول فنفرت إبلهم بأصحابها فغموا لذلك غماً شديداً فقال لهم العلاء ماذا حل بكم فقالوا : كيف نلام ونحن إن بلغنا غداً لم تحمى الشمس حتى نهلك ، فقال لن تراعوا أنتم المسلمون وفى سبيل الله وأنصار الله فأبشروا فوالله لن تخذلوا ، فلما صلوا الصبح دعا العلاء ودعوا فلمع الماء فمشوا إليه فشربوا وأغتسلوا فما تعالى النهار حتى أقبلت الإبل تجمع من كل وجه فأناخوها وسقوها ، ثم أرسل العلاء إلى الجارود يأمره أن ينزل بالحطم مما يليه وسار هو فيمن معه حتى نزل عليه مما يلى هجر فاجتمع المشركون إلى الحطم واجتمع

المسلمون إلى العلاء وخندق كل على نفسه وكانوا يتراوحون القتال فإذا أمسوا رجع كل إلى خندقه حتى إذا كانت ليلة سمع المسلمون فيها ضوضاء فى عسكر المشركين فأرسل العلاء من يستعلم الخبر فجاء بأنهم سكارى فبيتهم المسلمون شر بيات حتى هربوا فمن بين مقتول ومأسور وقتل الحطم ثم قصد فلهم دارين « جزيرة فى الخليج الفارسى قريبة من سواحل البحرين » فعبر خلفهم المسلمون خوضاً وقاتلوهم هناك فظفروا بهم وأكثروا فيهم القتل ثم أرسل العلاء إلى إبى بكر بهذا الفتح المبين .

خبر عمان

لما أسلم أهل عمان فى حياة رسول الله ﷺ ولى عليهم الأخوين جيفراً وعبداً" بنى الجلندى ، وكان يسامى الجلندى فى الجاهلية : ذو التاج لقيط بن مالك الأزدى من رؤساء عمان فلما توفى رسول الله ﷺ إدعى لقيط النبوة فتبعه كثير من أهل عمان فخافه إبنا الجلندى فالتجئا إلى الجبال وكاتب جيفر أبا بكر فبعث إليه حديفة بن محصن وعرفجة بن هرثمة لأول إلى عمان والثانى إلى مهرة وكل منهما أمير على صاحبه فى عمله فإذا قاربا عمان كاتبا جيفراً ، وأرسل فى أثرهما عكرمة بن أبى جهل بعد هزيمته فى اليمامة فلحقهما قبل أن يصلا عمان فلما قاربوها كاتبوا جيفراً فأتاهم وعسكروا بصحار (عاصمة عمان) أما لقيط فإنه جمع جموعه وعسكر بدبا فالتقى الفريقان واقتتلا قتالاً شديداً كاد المسلمون ينهزمون فيه لولا أن من الله عليهم بمدد عظيم من بنى ناجية فاستظهروا بهم وهزموا المشركون بعد أن قتلوا منم مقتلة عظيمة ثم سبوا الذرية وقسموا العنيمة وبعثوا إلى أبى بكر بالخمس مع عرفجة ،وأقام حذيفة بعمان يسكن الناس ، أما عكرمة فسار ومعه جمع من بنى ناجية إلى مهرة ولما وصلها وجد أهلها قسمين مختلفين كل قسم رئيس فكاتب رئيس أحد القسمين فأجابه وراجع الإسلام ولم يجب الآخر فقاتله حتى هزمه .

أخبار الأسود

لما فتحت اليمن فى عهد رسول الله ﷺ ولى عليها بازان الفارسى الذى كان عاملاً للأكاسرة على اليمن ثم دان بالإسلام وكان مركزه صنعاء فلما مات قسم عليه السلام عمله فولى على صنعاء إبنه شهر بن باذان وعلى مأرب أبا موسى الأشعرى. وعلى همدان ــ وكانوا يقيمون شرقى اليمن ــ عامر بن شهر الهمدانى وعلى عك والأشعريين الطاهر بن أبى هالة «بنو عك كانوا يقيمون بين زبيد ورمع» وعك هو ابن عدنان والأشعريون كانوا يقيمون شمالى زبيد وينسبون إلى أشعر بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان مابين نجران ورمع وزبيد خالد بن سعيد بن العاص، وعلى نجران عمرو بن حزم، وعلى حضرموت زياد ابن لبيد البياضى وعلى السكاسك والسكون «وهما قبيلتان من كندة كانتا شمالى حضرموت» عكاشة بن ثور وعلى بنى معاوية من كندة المهاجر بن أبى أمية أخا أم المؤمنين أم سلمة ولم يذهب إلى عمله حتى توفى رسول الله ﷺ لمرض كان به وكان زياد بن لبيد يقوم بعمله، وعلى الجند يعلى بن أمية وكان معاذ بن جبل معلماً ينتقل فى كل بلد فقبل وفاة رسول الله ﷺ ثار باليمن رجل من عنس إسمه عبهله ولقبه ذو الخمار وشهرته الأسود فادعى النبوة فأجابته مذحج ووثبوا على نجران فأخرجوا منهما عاملها عمرو بن حزم وأخرجوا عمرو بن سعيد بن العاص فلحقا بالمدينة ثم توجه الأسود فى سبعمائة من قومه إلى صنعاء فقتل شهر بن باذان واستولى على المدينة وتزوج امرأة شهر ثم استولى على ما بين صنعاء وحضرموت من الجنوب إلى أعمال الطائف من الشمالى إلى البحرين من الشرق واستفحل أمره فخرج معاذ بن جبل هارباً ومر بأبى موسى وهو بمأرب فخرج معه ولحقا بحضرموت فنزل معاذ فى قبيلة السكاسك ونزل أبو موسى فى قبيلة السكون وأقام الطاهر بن أبى هالة ببلاد عك فلما بلغ خبر

ذلك إلى رسول الله ﷺ أرسل إلى من باليمن من الأبناء وأبى موسى ومعاذ والطاهر أن يقوموا بقتال الأسود وقتله إما غيلة أو مصادمة فقام بذلك من الأبناء فيروز وداذويه واهتموا بقتله وساعدتهم زوجه التى كانت تحت شهر بن باذان فقتلوه ليلاً ، قتله فيروز فلما أصبح الصبح نادوا بشعائر المسلمين وهو الأذان فماج الناس بعضهم فى بعض واختطف بعض أصحاب الأسود صبياناً من أبناء المسلمين وخرجوا من المدينة تاركين فيها كثيراً من صبيانهم ثم تراسل الفريقان فى أن يرد كل ما بيده وأقام أصحاب الأسود يترددون بين صنعاء وعدن لا يأوون إلى أحد وتراجع عمال رسول الله ﷺ إلى أعمالهم واتفقوا على أن يصلى معاذ بالناس فى صنعاء لقتل عاملها شهر حتى يأتيهم أمر رسول الله ﷺ وبعثوا إلى المدينة بالخبر فوصل البريد وقد توفى رسول الله ﷺ فكانت هذه أول بشارة أتت أبا بكر فلما شاع خبر الوفاة ارتد قيس ابن عبد يغوث وكاتب المنهزمين من جنود الأسود فاجتمعوا إليه وأراد أن يتحيل فى قتل كبار الأبناء وهم فيروز وداذويه وخشنش فهيأ لهم طعاماً وجمعهم ليغدر بهم فظفر بداذويه ونجا الآخران فخرج فى أثرهما فامتنعا بقبيلة خولان فرجع قيس إلى صنعاء فاستأثر بها وعمد إلى عيالات الأبناء فغربهم وأخرجهم من اليمن فى البر والبحر وعرضهم للنهب ، فلما علم بذلك فيروز هم بحربه واستعد بنى عقيل بن ربيعة وعك فساروا إليه واستخلصوا عيالات الأبناء التى سيرها قيس وقتلوا من معها من الرجال ثم توجهوا إلى فيروز فقاتل بهم قيساً ورجاله حتى هزموهم وحينذاك أتاهم المهاجر بن أبى أمية الذى عقد له أبو بكر لواء وسيره لقتال جنود الأسود ومعاونة الأبناء وجاء على أثره عكرمة ابن أبى جهل بعد أن انتهى من عمان ومهرة فساعدا الأبناء على قتال جنود قيس بن عبد يغوث حتى انهزموا وأسروا قيساً وعمرو بن يكرب الزبيدى الذى كان ارتد وتبع الأسود فسيراهما إلى أبى بكر ، فقال أبو بكر: ياقيس قتلت عباد الله واتخذت المرتدين وليجة من دون المؤمنين فأنكر قيس أن يكون قارف من أمر داذوية شيئاً ولم يكن هناك دليل ظاهر على قتله لأن القتل كان خلسة فتجافى عن دمه وقال لعمرو بن معد يكرب أما تستحى أنك كنت مهزوم أو مأسور لو نصرت هذا الدين لرفعك الله فقال لا جرم لأقبلن ولا أعود ورجعا إلى

عشائرهما مؤمنين ثم تتبع المهاجر بن أبى أمية بقية جنود الأسود بكل مكان وقتلهم بكل سبيل حتى لم تعد لهم قائمة وكانت مدة الأسود إلى أن هلك قريباً من أربعة أشهر .

أخبار كندة

كانت كندة قد ارتدت فى عهد الأسود بسبب ماوقع بينهم وبين زياد فى أمر فريضة من فرائض الصدقة أطلقها بعض بنى عمرو بن معاوية من كندة بعد أن وقع عليهم ميسم الصدقة غلطاً فقاتلهم زياد وهزمهم فاتفق بنو معاوية من كندة على منع الصدقة إلا شرحبيل بن السمط وإبنه فإنهما قالا لبنى معاوية إنه لقبيح بالأحرار التنقل إن الكرام ليلزمون الشبهة فيتكرمون أن ينتقلوا إلى أوضح منها مخافة العار فكيف الانتقال من الأمر الحسن الجميل والحق إلى الباطل القبيح اللهم إنا لا نمالىء قومنا على ذلك ، وانتقلا ونزلا مع زياد وقالا له بيت القوم فإن لم تفعل خشينا أن يتفرق القوم عنا فطرقهم فى محاجرهم فأصاب ملوكهم فقتلهم وهرب من قومهم من أطاق الهرب وعاد المسلمون بالغنائم والسبى فمروا على بنى الحارث بن معاوية فى محاجرهم وفيهم الأشعث بن قيس فنزل واستخلص السبى منهم فكتب زياد إن المهاجر يستحثه فإستخلف على جنده عكرمة وتعجل هو فى سرعان الناس وقدم على زياد فالتقوا بالأعداء فانهزم بنو الحارث وتحصنوا بالنجير « وهو حصن لهم » فحصرهم المسلمون ولما اشتد عليهم الحصار خرجوا فقاتلوا قتالاً لم يغنهم شيئاً فعادوا إلى الحصن ثم أرسل الأشعث فى طلب الصلح على تسليم الحصن بمن فيه مشترطاً الأمان لتسعة نفر من الرؤساء وكتب بذلك كتاباً ولكنه نسى نفسه فدخل المسلمون الحصن وقتلوا المقاتلة وسبوا وغنموا ثم عرضوا من أمنوا فإذا الأشعث ليس فيهم فأراد المهاجر قتله ، ولكن أشار عليه أصحابه أن يرسله إلى أبى بكر ليرى فيه رأيه فأرسله إليه فعفا عنه أبو بكر رضى الله عنه وهو ممن أبلى بلاء حسناً فى فتح العراق .

وإلى هنا انتهت أخبار أهل الردة ومنها يفهم المسلمون الذين يريدون الإقتداء بسلفهم الصالح أن المؤمن لا ينبغى أن يهن مهما كثرت أعداؤه لأن المسلمين لا يغلبون من قلة ولا يخذلون إلا من إتباعهم الهوى وحيادهم عن الصراط السوى . هذا أبو بكر أول خليفة للمسلمين كان العرب كلهم أعداءه فصار هو ومن معه كالشعرة البيضاء فى الثور الأدهم فلم يعقه ذلك عن إعزاز دين الله وقتاله من كفر بالله بمن معه من المسلمين بل وثق بوعد الله حيث قال «إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم» فجازاه الله على ذلك بالنصر العظيم والفتح المبين ودانت له أمم العرب ، فهكذا يكون الإسلام والإيمان .

تلك المكارم لا قعبان من لبن ... شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

أمر العراق

لما انتهى أبو بكر رضى الله عنه من حروب أهل الردة جمع العرب كلها للإسلام وألف الله الكلمة وجه همته لتعميم عدل الإسلام ومساواته بين الأمم الأخرى التى كان ملوكها يعتقدون فى أنفسهم أنهم أرقى درجة من رعيتهم فتصوروهم عبيداً لهم ليس لهم فى أنفسهم شيء فيسومونهم الخسف ويعاملونهم بالجور والظلم ، وكانت الممالك العظمى المجاورة للإسلام إذ ذاك مملكة الفرس فى الشرق ومملكة الروم فى الشمال فابتدأ بأمر الفرس ، وأول ما حصل بين المسلمين وبين هذه الدولة العظمى كتاب رسول الله ﷺ إلى كسرى أبرويز يدعوه فيه إلى الإسلام فمزقه كسرى إستكباراً وهذا يدلك على مقدار الجبروت والكبرياء اللذين كانا شعاراً للملوك إذ ذاك رجاء الدين الحنيفى بهدمها ، وبلغ من استعظام أبرويز لهذا الكتاب أن أرسل لعامله باذان على اليمن أن يبعث إلى رسول الله ﷺ برجلين جلدين يأتيان به فتوجها كما أمر فلما وصل الرجلان إلى المدينة كلمهما رسول الله ﷺ وقال لهما فى هذا اليوم قتل أوبرويز قتله إبنه ! وكان الأمر كما أخبر عليه السلام فإن إبنه شيرويه ثار به بمساعدة كبار الفرس فقتله واستولى على ملك فارس فلما علم الرجلان صدق رسول الله ﷺ أسلما وبعث شيرويه إلى باذان أن لا يتعرض للنبى عليه الصلاة والسلام ، وفى عهده عليه السلام فتحت اليمن وأسلم باذان فولاه عليه السلام عليها فكانت أول بلاد تحت حماية الفرس إنضمت للإسلام ثم إنضم إليه أيضاً البحرين وعمان ، وكانتا تحت حماية الفرس أيضاً فلما توفى رسول الله ﷺ وانتهى أبو بكر من حروب أهل الردة انتدب سيف الله خالد بن الوليد ليكون أول من يضع أساس الدين القويم بالبلاد الفارسية وذلك فى بدء المحرم من السنة الثانية عشرة من الهجرة وأمره أن يبدأ بالأبله « ثغر من ثغور الفرس على الخليج الفارسى عند مصب دجلة » وأمده بالقعقاع بن عمرو وانتدب عياض بن غنم ليغزو الفرس من شمال العراق وأمره أن يبدأ بالمضيح « قرية على الفرات شمال العراق » وأمده بعبديغوث الحميرى وأمرهما أن يستنفرا من قاتل أهل الردة وأن لا يغزون معهما مرتد لأن رأيه رضى الله عنه كان لا يستعان بمن ارتد على غزو أبداً .

وقعة الأبلة

فسار خالد بن الوليد حتى قارب الأبلة فقسم جيشه ثلاث فرق على الأولى المثنى بن حارثة الشيبانى وعلى الثانية عدى بن حاتم الطائى وجعل الثالثة تحت إمرته وسير الفريقين قبله وواعدهما الحفير « موضع على طريق السائر من مكة إلى البصرة وهو قريب من الأبلة » وكان صاحب هذا الثغر عظيماً من عظماء الفرس إسمه هرمز وكان مبغضاً عند العرب لكثرة غزوه لهم فكلهم ناقم عليه ولما سمع بخبر خالد وأنه وعد طلائعه الحفير سبقه إليه فمال خالد بالناس إلى كاظمة فسبقه هرمز إليها فنزل جيش المسلمين غير ماء . فقال خالد جالدوهم على الماء فان الله جاعله لاصبر الفريقين . وتقدم هو وسط الصف يطلب البراز راجلا فبرز إليه هرمز ونزل عن فرسه فاحتضنه خالد فلما رأى ذلك الفرس أرادوا الغدر بخالد وهجموا عليه فلم يمنعه ذلك عن قتله ولما رأى ذلك القعقاع حمل بجيش المسلمين فأزال الفرس عن خالد وحمى القتال فانهزم المشركون . وهذه أولى موقعة بين المسلمين والفرس ثم أرسل خالد البشارة وخمس الغنيمة إلى أبى بكر بعد أن قسم أربعة أخماسها على المقاتلين . للراجل ثلث الفارس وأرسل المثنى بن حارثة فى أثر المنهزمين ولم يتعرضوا للفلاحين بأذى كما أوصاهم بذلك أبو بكر ولما وصل خبر هذه الهزيمة إلى ملك الفرس واسمه أزدشير ومقامه بالمدائن « وهى مدائن كانت للأكاسرة على نهر الدجلة جنوبى بغداد وهى شرقية وغربية وكان فى الشرقية إيوان كسرى الشهير » أرسل إلى المسلمين جيشاً آخر يقوده عظيم من عظماء الفرس اسمه قارن فجمع المنهزمين ورجع بهم حتى وصل إلى منعطف النهر قرب البصرة .

وقعة الثنى

فنزل به فسار إليه خالد ولما التقى الجيشان خرج قارن يطلب البراز ليدرك ثأر هرمز فبرز إليه فارس مسلم فقتله وعندئذ حمل جمع المسلمين على جمع المشركين فقتلوا منهم مقتلة عظيمة سوى من غرق منهم فى النهر . ثم أخذ خالد الجزية من الفلاحين وصيرهم ذمة وأرسل بالفتح والخمس إلى أبى بكر . (أما) ملك الفرس فإنه سير إلى المسلمين جيشاً آخر يقوده (الأندر زعز) وفى أثره آخر يقوده جاذويه فعسكر الجيشان كلاهما فى الولجة .

وقعة الولجة

فسار خالد إليهما وقاتلهما المسلمون قتالاً شديداً حتى هزم عسكر المشركين ومات القائد الأندر زعز فى هزيمته وأصاب خالد أبناء من بكر بن وائل فقتلهم فغضب لهم قومهم من نصارى بكر فاجتمعوا بالليس وكاتبوا ملك الفرس ليمدهم بجيش يساعدهم على قتال المسلمين فكتب أردشير إلى بهمن جاذويه المنهزم من الولجة يأمره بأن يسير إلى نصارى بكر ليكون معهم على قتال المسلمين فلما جاءته الرسالة سير أمامه جابان وذهب هو إلى أردشير ليعلم الأخبار ويستشيره فوجده مريضاً فتوقف هناك .

وقعة الليس

وأما جابان فإنه وصل إلى جيش البكريين وعسكر معهم بالليس «موضع على الفرات من قرى الأنبار» فأقبل إليهم خالد بكتيبة وتوسط الميدان طالباً البراز فبرز إليه رئيس من رؤساء بكر فقتله ثم حمل المسلمون على الأعاجم فثبت هؤلاء كثيراً لتوقعهم قدوم بهمن وثبت المسلمون لتكون كلمة الله هى العليا فما كان إلا ضحوة نهار حتى ولى الفرس الأدبار بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة . فقسم خالد الغنائم وأرسل بالفتح والخمس إلى أبى بكر وكانت هذه الموقعة فى صفر من السنة الثانية عشرة .

فتح الحيرة

(ثم) سار قاصداً الحيرة «هى عاصمة ملوك العرب من قبل الفرس وهى غربى الفرات على قرب من الكوفة» وكان خالد يسير بحراً فى الفرات فخرج إليه مرزبان الحيرة وهو الأزاذبة وعسكر بظاهرها وأرسل إبنه فقطع الماء عن سفن المسلمين فبقيت على الأرض (وكانوا يقطعون الماء عن الفرات بإرساله فى الترع المتفرعة منه) فسار خالد على خيل نحو إبن الأزاذبه فقتله على فرات بادقلى ثم سار نحو الحيرة فهرب مرزبانها الأزاذبه فحاصر خالد قصورها وهى القصر الأبيض وقصر الغريين وقصر ابن مازن وقصر ابن بقيلة، ودعا أمراءها إلى الإسلام وأجلهم يوماً وليلة فأبوا، وافتتح المسلمون الديور فصاح القسيسون والرهبان بأهل القصور يطلبون منهم مصالحة المسلمين فنادى أمراء القصور قد قبلنا واحدة من ثلاث الإسلام أو الجزية أو المحاربة فكف عنهم المسلمون، ثم جاء الأمراء إلى خالد يتقدمهم ويتكلم عنهم عمر بن عبد المسيح فقال له خالد أسلم أنت أم حرب؟ قال: بل سلم: فقال خالد ما هذه القصور قال بنيناها للسفيه نحبسه فيها حتى ينهاه الحليم. فصالحهم خالد على الجزية وقدرت بمائة ألف وتسعين ألفاً. وأهدوا له هدايا على عادتهم مع ملوك الفرس فأرسل خالد بالفتح والهدايا إلى أبى بكر فقبل الهدايا وعدها من الجزية، وأمر خالداً أن يعدها منها، فهكذا الدين دين الإسلام لم يرض خليفتنا الأول أن يأخذ شيئاً كانت الرعية تدفعه لملوكها ملاطفة، بل لا يؤخذ منهم إلا ما فرض عليهم.

ما بعد الحيرة

(فلما) رأى دهاقين ما بعد الحيرة فعل خالد صالحوه على ما يلى: الحيرة من الفيلاليج إلى هرمز جرد على ألف ألف سوى جباية كسرى، ثم أرسل خالد أمراءه فمخروا ما وراء ذلك إلى شاطىء دجلة ثم كتب إلى ملوك الفرس

كتاباً هذه صورته :

« بسم الله الرحمن الرحيم » أما بعد (فالحمد لله الذى حل نظامكم ووهن كيدكم وفرق كلمتكم ولو لم نفعل ذلك كان شراً لكم فادخلوا فى أمرنا ندعكم وأرضكم ونجزكم إلى غيركم وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على أيدى قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة) وكتب إلى المرازبة كتاباً هذه صورته :

« بسم الله الرحمن الرحيم » أما بعد فالحمد لله الذى فض حدتكم وفرق كلمتكم وجفل حرمكم وكسر شوكتكم فأسلموا تسلموا وإلا فاعتقدوا فى الذمة وأدوا الجزية وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر) وفى ذلك الوقت دهى الفرس أمر عظيم لا يزيدهم إلا وهناً ولا يزيد المسلمين إلا قوة وهو اختلافاتهم الداخلية بعد موت ملكهم أزدشير وعدم وجود من يولى من بيت كسرى فلما وصلتهم كتب خالد اتفق نساء كسرى على تولية أحد أمراء فارس وهو الفرخزاد بن البنذوان حتى يعثروا على صالح للملك من بيت كسرى .

فتح الأنبار

أما خالد فإنه سار من الحيرة قاصداً الأنبار (مدينة على شاطىء الفرات شمال الكوفة) وكان على جيشها شيرزاد صاحب ساباط فأنشب معهم المسلمون القتال ولما رأى شيرزاد مالا قِبَلَ له به طلب الصلح على أمر لم يرضه خالد فرد رسوله ونحر الضعاف من إبل الجيش ورماها فى خندق المشركين وعدى إليهم فلما رأى ذلك شيرزاد صالح خالداً على ما أراد فقبل منه خالد وسيره إلى مأمنه فلحق ببهمن .

فتح عين التمر

ثم سافر خالد قاصداً عين التمر (بلد في برية العراق على ثلاثة مراحل عن الأنبار) بعد أن استخلف على الأنبار الزبرقان بن بدر فوصل إلى عين التمر وبها جمع عظيم من الفرس عليهم بهرام بن بهرام جوبين ومعهم عدد عظيم من العرب من النمر وتغلب الذين يقيمون بتلك الجهات تحت حكم الأكاسرة فجعل الفرس فى المقدمة العرب لأنهم أدرى بقتال العرب ، فحمل خالد على رئيسهم وهو يسوى صفوفه فأسره فانهزم قومه من غير قتال ، ولما رأى ذلك بهرام هرب هو وجيشه أيضاً وترك الحصن فتحصن به المنهزمون واستأمنوا لخالد فلم يؤمنهم ثم بعث بالخمس والبشارة إلى أبى بكر .

فتح دومة الجندل

ثم سار من عين التمر قاصداً دومة الجندل ليعين عياض بن غنم على فتحها وكان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قد أرسل خالد بن الوليد إلى دومة الجندل فى حياته وكان بها أكيدر بن عبد الملك فأصابه خالد فى ليلة مقمرة فأسره وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه فحقن دمه وصالحه على الجزية ورده إلى قريته فلما كان فى عهد أبى بكر أرسل عياض ابن غنم لفتح العراق من أعلاه فاجتمع عليه وهو بناحية دومة الجندل كثير من نصارى العرب فأرسل إلى خالد بن الوليد كتاباً يستحثه فيه لمساعدته فصادفه الكتاب وهو بعين التمر فأقبل حتى جعل دومة بينه وبين عياض فخرج الجودى الذى كان يشارك أكيدرا فى إمارة دومة إلى حرب خالد وأرسل فرقة تقاتل عياضاً فهزم كل من القائدين من يليه وفتح الحصن عنوة وأقام به خالد . أما أكيدر فإنه قد فارق الجودى لأنه لم يتبع ما أشار عليه به من عدم قتال خالد. فأرسل خالد وراءه من قبض عليه وقتله لأنه كان نقض ما عاهد عليه رسول الله صلى الله عليه من إعطاء الجزية .

وقعة الحصيد والخنافس

أما عرب الجزيرة فإنهم ثارت حميتهم لمن قتل من العرب بعين التمر فكاتبوا الفرس يطلبون منهم إرسال الجيوش لتكون لهم عوناً فخرج من الفرس عظيمان يريدان الأنبار وانتهيا إلى الحصيد والخنافس (موضعان قرب الأنبار) فسمع بالخبر القعقاع خليفة خالد على الحيرة فأرسل إليهما سريتين حالتا بينهما وبين الريف ثم قدم خالد راجعاً إلى الحيرة عندما بلغه الخبر فسير القعقاع وأبا ليلى ابن فدكى إلى لقاء جمع الفرس فسارا حتى التقيا بهم فقتل من الفرس مقتلة عظيمة وقتل القائدان وغنم المسلمون ما فى الحصيد وانهزمت الأعاجم إلى الخنافس وبها المهبوذان من الأساورة فسار أبو ليلى مقتفياً آثارهم حتى هزم المهبوذان إلى المضيح وكان به بعض عرب الجزيرة فكتب خالد إلى القعقاع وأبى ليلى أن يوافياه على المضيح فى ساعة عينها لهما لقتال من به من عرب الجزيرة ووافاها هو فى جيشه فلقاه بها وقاتلوا العرب وهزموهم شر هزيمة ثم توجه خالد إلى بجير التغلبى وهو متجمع فى جيشه بالثنى فبيتهم خالد بغارة شعواء حتى لم يفلت منهم أحداً (ثم) أرسل بالفتح والأخماس إلى أبى بكر.

وقعة الفراض

وسار إلى الفراض وهى تخوم الشام والعراق والجزيرة وكان الحر شديداً والشهر رمضان من السنة الثانية عشرة فأفطر بها هو والمسلمون وكان بها جمع عظيم من الفرس والروم والعرب اتفقوا جميعاً على حرب المسلمين وعبروا نهر الفرات فقاتلهم خالد وقاتل المشركون قتالاً شديداً لكنهم لم يلبثوا أن انهزموا «**أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون**» ثم أمر خالد بالرجوع إلى الحيرة وتخلف هو مظهراً أنه فى الساقة ويقال أنه توجه إلى مكة فحج ولحق ساقة الجيش قبل أن تدخل الحيرة وهذا غريب جداً لبعد المسافة.

صرف خالد إلى الشام

وفى ذلك الوقت صرف أبو بكر خالد بن الوليد عن حرب العراق-وسيره إلى الشام مدداً لجيوش المسلمين هناك-فاستخلف على جيش العراق المثنى بن حارثة الشيبانى فأقام بالحيرة وأذكى العيون ووضع المسلحة وعلم ملك فارس شهريران بن أزدشير برحيل خالد فوجه إلى المثنى جيشاً عظيماً يقوده هرمز .

وقعة بابل

فخرج إليه المثنى من الحيرة حتى أتى بابل (بلد قديم شرق الفرات أمامها مدينة الحلة الآن) فأقام بها.وهناك لاقاه هرمز فى جيش الفرس فقاتله جيش المسلمين قتالا شديداً حتى هزم ، وبعد هذه الهزيمة مات شهريران وكثرت الإختلافات الداخلية فى مملكة الفرس فشغلوا عن المسلمين وأبطأ خبر أبى بكر على المثنى.فاستخلف على جيشه بشير بن الخصاصية وتوجه إلى المدينة ليستأذن أبا بكر فى الإستعانة بمن حسنت توبته من المرتدين فوجده مريضاً. فاستحضر أبو بكر عمر بن الخطاب وقال له إنى لأرجو أن أموت يومى هذا فإذا مت فلا تمشين حتى تندب الناس مع المثنى ولا تشغلكم مصيبة عن أمر دينكم ووصية ربكم فقد رأيتنى وقت وفاة رسول الله ﷺ وما صنعته وما أصيب الخلق بمثله وإذا فتح الله على أهل الشام فاردد أهل العراق إلى عراقهم فإنهم أهله وولاة أمره وأهل الجرأة عليهم ، هذا ما انتهى إليه أمر فارس فى عهد الصديق رضى الله عنه تقلص ظل ملك الفرس عن كل الأراضى الخصبة التى فى غربى الفرات وهو ما يعبر عنه بريف العراق.فصار حد مملكة فارس هو نهر الفرات .

بدء أمر الروم

مملكة الروم هى المملكة الثانية العظمى التى كانت تحد البلاد العربية من الشمال وأول ما كان بينها وبين المسلمين كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل ملك الروم يدعوه فيه إلى الإسلام (والكتاب وحديث أبى سفيان عنه مذكوران فى كتابى نور اليقين صفحة ٢١١ وما بعدها من الطبعة الثانية) ثم كتب ﷺ إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى ملك غسان بالبلقاء من أرض الشام وعامل قيصر على العرب يدعوه إلى الإسلام فأدركته العزة بالإثم فأراد أن يغزو رسول الله ﷺ فأتاه أمر من قيصر ينهاه عن ذلك. وفى السنة الثامنة من الهجرة جهز عليه السلام جيشاً إلى الشام تحت إمرة زيد بن حارثة وهى غزوة مؤتة فجمع لهم الروم جمعاً كثيراً مائة ألف أو يزيدون فاستشهد زيد وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة واستلم سيف الله خالد إمرة الجيش فخلصه من الهلاك. والكلام فى هذه الغزوة مستوفى فى نور اليقين؛ وفى السنة التاسعة تجهز رسول الله ﷺ لغزو الروم فبلغ تبوك وأتاه صاحب أيلة يوحنا بن رؤبة وصاحب جرباء وأذرح وأعطوا الجزية فلما بلغ هرقل ما فعله يوحنا أمر بقتله وصلبه عند قريته. وفى السنة التى توفى فيها رسول الله ﷺ جهز سرية تحت إمرة أسامة ابن زيد بن حارثة لتتوجه إلى أبنى وقضاعة للقصاص من قتلة أبيه فتوفى عليه السلام ولم يخرج أسامة فلما استخلف أبو بكر جهز السرية فسار أسامة حتى وصل أبنى وأوقع بقبائل من قضاعة ثم رجع فائزاً: فلما عقد أبو بكر الألوية فى ذى القصة عقد منها لواء خالد بن سعيد بن العاص ووجهه إلى مشارف الشام ثم أمره أن يكون ردءاً للمسلمين بتيماء لا يفارقها إلا بأمره ولا يقاتل إلا من قاتله فبلغ خبره هرقل ملك الروم فجهز إليه جيشاً من العرب التابعين للروم من بهراء وسليح وكلب ولخم وجذام وغسان فسار إليهم خالد بن سعيد فلقيهم على منازلهم فافترقوا وأرسل هو لأبى بكر بالخبر فكتب إليه يأمره بالإقدام فتقدم ولقيه بَطْرِيقٌ رومى إسمه ماهان فهزمه خالد وكتب إلى أبى بكر يستمده فعند ذلك اهتم رضى الله عنه بأمر الشام وكان قد ورد إليه أوائل مستنفرى اليمن وقدم

عكرمة بن أبى جهل فيمن معه من تهامة والبحرين وارسل إلى عمرو بن العاص وكان والياً على صدقات سعد وهذيم من قضاعة كان أبو بكر سيره إليها يوم عقد الألوية فى ذى القصة وقد كان رسول الله ﷺ وعده ولايتها فكتب إليه أبو بكر (إنى كنت رددتك إلى العمل الذى ولاك رسول الله ﷺ مرة ووعدك به أخرى إنجازا لمواعيد رسول الله ﷺ وقد وليته وقد أحببت أن أفرغك لما هو خير لك فى الدنيا والآخرة إلا أن يكون الذى أنت فيه أحب إليك) فكتب إليه عمرو (إنى سهم من سهام الإسلام وأنت بعد رسول الله الرامى بها والجامع لها فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارم به) فأمره فقدم عليه فجهز أبو بكر أربعة جيوش على أحدهما عمرو بن العاص ووجهه إلى فلسطين (كورة بالشام فى جنوبه) وعلى ثانيهما شرحبيل بن حسنة وكان قدم عليه من العراق ووجهه إلى الأردن (كورة بالشام سميت باسم نهر يبتدىء من بحيرة طبرية وينتهى بالبحيرة الميتة) وعلى الثالث يزيد بن أبى سفيان ووجهه إلى البلقاء (بلد بالشام) وأتبعه بأخيه معاوية وعلى الرابع أمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح ووجهه إلى حمص فسارت الأمراء على بركة الله وكان أبو بكر يودعهم ماشياً ويوصيهم بما فيه صلاح دنياهم وأخراهم . ومما يؤثر عنه رضى الله وصيته العظيمة ليزيد وقد أحببت إيرادها برمتها لما فيها من النصائح التى يلزم كل أمير جيش اتباعها وهاهى : « إنى قد وليتك لأبلوك وأجربك وأخرجك فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك وإن أسأت عزلتك فعليك بتقوى الله فإنه يرى من باطنك مثل ما يرى من ظاهرك وإن أولى الناس بالله وأشدهم تولياً له وأقرب الناس من الله أشدهم تقرباً إليه بعمله وقد وليتك عمل خالد (هو ابن سعيد بن العاص الذى كان أبو بكر سيره إلى الشام أولا) فإياك وعيبة الجاهلية فإن الله يبغضها ويبغض أهلها وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم إياه وإذا وعظت فأوجز فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضا وأصلح نفسك يصلح لك الناس وصلى الصلاة لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون ولا تريهم فيروا خللك ويعلموا علمك وأنزلهم فى ثروة عسكرك وامنع من قبلك من محادثتهم وكن أنت المتولى لكلامهم

ولا تجعل سرك كعلانيتك فيختلط أمرك وإذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة ولا تخزن عن المشير خبرك فتؤتى من قبلك وأسمر بالليل فى أصحابك تأتك الأخبار وتنكشف عندك الأستار وأكثر حرسك وبددهم فى عسكرك وأكثر مفاجآتهم فى محارسهم بغير علم منهم بك فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه وعاقبه فى غير إفراط وأعقب بينهم بالليل والنهار وأجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة فإنها أيسرهما لقربها من النهار ولا تخف من عقوبة المستحق ولا تلحن فيها ولا تسرع إليها ولا تخذلها مدافعاً ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده ولا تجسس عليهم فتفضحهم ولا تكشف الناس عن أسرارهم واكتف بعلانيتهم ولا تجالس العباثين وجالس أهل الصدق والوفاء وأصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس واجتنب الغلول فإنه يقرب الفقر ويدفع النصر وستجدون أقواما حبسوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له » ولم تزل الجيوش سائرة حتى وصلت الشام فنزل عمرو بن العاص العربة من فلسطين ونزل شرحبيل الأردن ونزل يزيد البلقاء ونزل أبو عبيدة الجابية فلما بلغ ذلك هرقل ملك الروم قال لقومه أرى أن تصالحوا المسلمين فو الله لأن تصالحوهم على نصف ما يحصل من الشام ويبقى لكم نصفه مع بلاد الروم أحب إليكم من أن يغلبوكم على بلاد الشام ونصف بلاد الروم فرفضوا رأيه حتى نزل حمص « مدينة شامية فى الشرق من نهر العاصى وعلى بعد قليل منه » وأمر بجميع الجيوش فاجتمع من الروم عدد عظيم فوجه لكل أمير جيشاً يفوق عدة من معه فأشار عمرو بن العاص على الأمراء بالإجتماع فأرسلوا إلى أبى بكر فى ذلك فأشار عليهم بمثل رأى عمرو وقال « إن مثلكم لا يؤتى من قلة وإنما يؤتون من الذنوب فاحترسوا منها » .

وقعة اليرموك

فاجتمعوا باليرموك (وهو واد فى الجنوب الشرقى من الشام) وكل واحد من الأمراء أمير على جيشه والروم أمامهم وبين الفريقين خندق فكان الروم يقاتلون باختيارهم وإن شاءوا احتجزوا بخنادقهم وأقام الفريقان على ذلك صفراً والربيعين

من السنة الثالثة عشرة من الهجرة فأرسل الأمراء إلى أبى بكر يستمدونه فكتب إلى خالد بن الوليد أمير جند العراق يأمره أن يستخلف على جنده بعد أن يأخذ معه نصفه ويتوجه إلى الشام مدداً لأمرائه فسار خالد ينسف الأرض نسفاً حتى وصل إلى المسلمين فى ربيع الآخر وصادف وصوله وصول ماهان بجيش مدداً للروم فتولى خالد قتاله وقاتل كل أمير من بإزائه متساندين فرأى خالد أن هذا القتال لا يجدى نفعاً ما دامت كل فرقة من الجيش لها أمير فجمع الأمراء وخطبهم وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه (إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغى فيه البغى ولا الفخر أخلصوا جهادكم وأرضوا الله بعملكم فإن هذا يوم له مابعده ولا تقاتلوا قوماً إلا على نظام وتعبية وأنتم متساندون فإن هذا لا يحل ولا ينبغى وإن من ورائكم من لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا بما لم تؤمروا فيه بما ترون أنه رأى من واليكم ومحبته) قالوا هات فما الرأى فأشار بأن يؤمر على الجيش كله أمير واحد ويتناوبوا الإمارة حتى يؤمر هو فى اليوم الأول فقبلوا مشورته وأمروه فخرج رضى الله عنه فى تعبية لم تعبها العرب قبل ذلك، وليس تعبية أكثر فى رأى العين من الكراديس (الفرق) فجعل القلب كراديس وأقام فيه أبا عبيدة، وجعل الميمنة كراديس وأقام فيها عمرو وشرحبيلا، وجعل الميسرة كراديس وأقام فيها يزيد، وجعل على كل كردوس رجلا من الشجعان وكان عدد الكراديس ستة وثلاثين كل كردوس ألف رجل، ثم أمر القعقاع بن عمرو وعكرمة بن أبى جهل أن ينشبا القتال فأنشباه والتحم الناس وتطارد الفرسان وأظهر خالد عجائب الشجاعة والحمية الإسلامية ثم أن الروم حملوا حملة أزالوا بها المسلمين عن مواقفهم فنهض خالد بالقلب حتى حال بين خيل المشركين ورجلهم فانهزم الفرسان وتركوا الرجالة فأفرج لهم المسلمون واشتدوا على الرجالة فهزموهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً لا سيما أناسا منهم قد اقترنوا فى السلاسل لئلا يفروا وقاتل نساء المسلمين فى ذلك اليوم قتالا شديداً وأبلين بلاء حسناً وممن أبلى فى ذلك اليوم بلاء حسناً أبو سفيان بن حرب بسعيه وتحريضه وانتهت هذه الموقعة بهزيمة الروم شر هزيمة وفى أثنائها جاء بريد المدينة بموت الصديق وخلافة عمر بن الخطاب وتولية أبى عبيدة رئاسة الجيوش فلم يبلغ هذا الخبر إلا بعد أن انقضت الموقعة.

وفاة الصديق

لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة حم أبو بكر فلما اشتد عليه المرض جمع كبار الصحابة فاستشارهم فى العهد لعمر بن الخطاب فكلهم قال خيراً فدعا عثمان بن عفان وأملى عليه (بسم الله الرحمن الرحيم هذا ماعهد به أبو بكر خليفة محمد ﷺ عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة فى الحال التى يؤمن فيها الكافر ويوقن فيها الفاجر . أنى استعملت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً فإن صبر وعدل فذلك علمى به ورأيى فيه وإن جار وبدل فلا علم لى بالغيب والخير أردت لكل امرىء ما أكتسب وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) ثم أمر بالعهد فقرىء على المسلمين وقد أطل عليهم فقال لهم أترضون من استخلفت عليكم فإنى ما استخلفت عليكم ذا قرابة وإنى قد استخلفت عليكم عمر فاسمعوا له وأطيعوا فإنى والله ما ألوت من جهد الرأى . فقالوا سمعنا وأطعنا ، ثم نادى عمر فقال له (إنى قد استخلفتك على أصحاب رسول الله ﷺ ياعمر إن لله حقاً بالليل لا يقبله فى النهار وحقاً فى النهار لا يقبله فى الليل وأنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة ، ألم تر ياعمر أنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه غداً إلا حق أن يكون ثقيلاً ، ألم تر ياعمر انما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه غداً إلا باطل أن يكون خفيفاً ، ألم تر ياعمر إنما نزلت آية الرخاء مع آية الشدة وآية الشدة مع آية الرخاء ليكون المؤمن راغباً راهباً لا يرغب رغبة يتمنى فيها على الله ماليس له ولا يرهب رهبة يلقى فيها بيدية . ألم تر ياعمر أنما ذكر الله أهل النار بأسوأ أعمالهم فإذا ذكرتها قلت إنى لأرجو أن لا أكون منهم ، وإنما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم لأنه تجاوز لهم عما كان من سيء ، فإذا ذكرتها قلت أين عملى من أعمالهم ، فإن حفظت وصيتى فلا يكون غائب أحب إليك من حاضر من الموت ولست بمعجزه) ثم توفى رضى الله عنه لثمان بقين من جمادى

الآخرة فكانت خلافته رضى الله عنه سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال توجها بأعماله الجليلة وسيرته الحميدة ، فبه كان لم شعث المسلمين بعد فرقتهم بردة الكثير من العرب ، وهو الذى ابتدأ تجريد الجيوش على الدولتين العظيمتين المجاورتين لبلاد الإسلام لدعوتها إلى الدين القويم أو الدخول تحت حكمه حتى يكون عدله ومساواته عامين لجميع الأمم الذين رزئوا بملوك يعدون أنفسهم آلهة ويعدون رعيتهم عبيداً ويسيرون وراء لذاتهم وشهواتهم مهما عاد من ضررها على الرعية ففازت جيوشه بالنصر فى جميع مواقعها وكان يقضى له عمر بن الخطاب وأمينه أبو عبيدة ويكتب له عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وزيد بن ثابت .
وكانت ولايات الإسلام فى عهده (مكة) وواليها عتاب بن أسيد الذى ولاه رسول الله ﷺ عليها عقب الفتح (والطائف) وعليها عثمان بن أبى الثقفى (وصنعاء) وعليها المهاجر بن أبى أمية (وحضرموت) وعليها زياد بن لبيد (وخولان) وهى قبيلة عظيمة باليمن كانت تسكن فى جباله الشرقية وكان عليهم يعلى بن أمية (وزبيد) وعليها أبو موسى الأشعرى (ونجران) وهو موضع شمالى اليمن يقيم به قبائل من بنى الحارث بن كعب بن علة من بنى مذحج وبنى ذهل بن مزيقيا من الأزد وكانت رياسة نجران حين النبوة فى بنى الحارث بن كعب ليزيد بن عبدالمدان بن الديان ووفد أخوه حجر بن عبدالمدان على النبى ﷺ على يد خالد بن الوليد . ووالى نجران فى عهد أبى بكر جرير بن عبدالله البجلى (والبحرين) هى شواطىء بلاد العرب المطلة على الخليج الفارسى وواليها العلاء بن الحضرمى (وجرش) وهو مخلاف باليمن . والمخلاف الكورة وواليها عبد الله بن ثور (ودومة الجندل) وعليها عياض بن غنم وأمير جند العراق المثنى بن حارثة الشيبانى وقاعدة أعماله الحيرة وأمير جند الشام خالد بن الوليد القرشى المخزومى . وكان آخر ماتكلم به أبو بكر (توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين) وغسلته زوجه أسماء بنت عميس وابنه عبد الرحمن وكفن فى ثوبيه كما أوصى وصلى عليه خليفته من بعده عمر بن الخطاب ودفن ليلاً فى حجرة عائشة وجعل رأسه عند كتفى رسول الله ﷺ ودخل قبره ابنه عبد الرحمن وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة ابن عبد الله .

ترجمة عمر بن الخطاب

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر العدوى القرشى يجتمع مع رسول الله ﷺ فى كعب بن لؤى وكنيته أبو حفص ولقبه الفاروق وأمه حنتمة بنت هشام بن المغيرة المخزومية بنت عم خالد بن الوليد : ولد رضى الله عنه فى السنة الثالثة عشرة من ميلاد رسول الله ﷺ وتربى على الشهامة والنجدة والحمية الجاهلية ولما جاء الإسلام كان من أكثر المعارضين له فلما هاجر المسلمون إلى أرض الحبشة خوف الفتنة مَنَّ الله عليه بالإسلام ببركة دعوة رسول الله ﷺ «اللهم أعز الإسلام بعمر» فأتى دار الأرقم ابن أبى الأرقم عبد مناف بن أبى جند أسد بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم التى كان رسول الله ﷺ مستخفياً فيها ودان بالإسلام وأشار على رسول الله ﷺ بترك الاختفاء وإظهار الدين فخرج عليه السلام ومعه المسلمون صفين يقدم أحدهما عمر بن الخطاب ويقدم الآخر حمزة بن عبد المطلب ولا تسل عما نال مشركى قريش من الكآبة إذ ذاك حتى تعصبوا على عمر وأرادوا قتله فحماه العاصى بن وائل بن هشام بن سعيد بن سهم والد عمرو بن العاص وصار بعد ذلك عمر ينصر هذا الدين بما آتاه الله من قوة البطش حتى قال عبد الله بن مسعود (مازلنا أعزة منذ أسلم عمر) رواه البخارى فلما أذن الله بالهجرة إلى المدينة كان المسلمون يتسللون إلى الهجرة خفية إلا عمر رضى الله عنه فإنه لما عزم عليها جاء قريشاً فى ناديهم وأخبرهم بعزمه وقال من أراد أن تثكله (تفقده) أمه فليلقنى وراء هذا الوادى فلم يجسر أحد على إتباعه وحضر مع الله ﷺ مشاهده كلها من بدر إلى تبوك وزوجه إبنته أم المؤمنين حفصة بعد أن توفى عنها زوجها خنيس بن حذافة بن قيس بن عدى بن سهم من جراحة

أصابته بأحد ومن مآثره قول رسول الله ﷺ « بينا أنا نائم شربت — يعنى اللبن — حتى أنظر إلى الرى يجرى فى ظفرى أو أظفارى — ثم ناولته عمر . قالوا فما أولته يارسول الله قال العلم » وقوله عليه السلام « رأيت فى المنام كأنى أنزع بدلو بكرة على قليب (بئر) فجاء أبو بكر فنزع ذنوباً (دلواً) أو ذنوبين نزعاً ضعيفاً والله يغفر له ثم جاء عمر فاستحالت غرباً (دلوا عظيمة) فلم أر عبقرياً (سيداً) يفرى فريه (يأتى بالعجب فى عمله مثله) حتى روى الناس بعطن (أى أناخوا حول الماء بعد السقى) وفى هذا الحديث إشارة إلى مدة خلافة الشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما وقال عليه السلام مخاطباً لعمر « والذى نفسى بيده مالقيك الشيطان سالكاً فجا قط إلا سلك غير فجك » وقال عليه السلام « لقد كان فيما قبلكم محدثون ملهمون فإن يكن فى أمتى أحد فإنه عمر » وقال عليه السلام « بينا أنا نائم رأيت الناس عرضوا على وعليهم قمص فمنها مايبلغ الثدى ومنها مايبلغ دون ذلك وعرض على عمر وعليه قميص اجتره ، قالوا فما أولته يارسول الله قال الدين » وكان عمر كثيراً مايشير على رسول الله ﷺ بأشياء ينزل بها القرآن كمسألة أسرى بدر ومسألة الحجاب ولما مات رسول الله ﷺ جزع عمر جزعاً شديداً على صلابته وشدته حتى قال والله مامات رسول الله ﷺ وآله وسلم قالت أم المؤمنين عائشة : قال عمر والله ماكان يقع فى نفسى إلا ذاك وليبعثة الله فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم ، فلما جاء الصديق وذكرهم خشع ورجع إلى الصواب وكأن الله سبحانه وتعالى أراد ألا يكون من أصحاب رسول الله ﷺ شىء ليس فيه فائدة فلقد خوف عمر الناس وإن فيهم لنفاقاً فردهم الله بذلك.ثم لقد بصر أبو بكر الناس الهدى وعرفهم الحق الذى عليهم ، هكذا قالت أم المؤمنين من رواية البخارى وكان لعمر فضل عظيم يوم السقيفة حيث سارع إلى بيعة الصديق قبل أن تحدث فرقة ولما ولى الصديق كان له عمر أعظم مشير حتى أن أبا بكر لم ير غيره أهلا للخلافة بعده فعهد له بها ونعما فعل. وكان رضى الله عنه طويلاً أصلع أعسر أيسر يعمل بيديه كليتهما وكان لطوله كأنه راكب ، شديد البياض تعلوه حمرة وكان أشيب يضفر لحيته ويرجل رأسه وكان

له من الأولاد عبد الله وعبد الرحمن الأكبر وأم المؤمنين حفصة وعبيد الله وقتل بصفين مع معاوية ومن ولده فاطمة وعاصم ورقية وزيد وعبد الرحمن والأوسط وكان عمر رضى الله عنه يلقب بالفاروق : بويع بالخلافة صبيحة وفاة أبى بكر رضى الله عنه ولما بويع صعد المنبر وقال : إنما مثل السرب مثل جمل أنف اتبع قائده فلينظر قائده أين يقوده أما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق.

أمر العراق فى عهد عمر

توفى الصديق رضى الله عنه والمثنى بن حارثة أمير جيش العراق مقيم بالمدينة يطلب المدد. فلما ولى عمر ندب الناس مع المثنى فكان أول منتدب لذلك أبو عبيد بن مسعود الثقفى وسعد بن عبيد الأنصارى. وسليط بن قيس فأمَّرَ عليهم أسبقهم إنتداباً أبا عبيد بن مسعود وقال له (اسمع من أصحاب رسول الله ﷺ وأشركهم فى الأمر. ولا تجتهد مسرعاً بل إتئد فإنها الحرب لايصلحها إلا الرجل المكيث الذى يعرف الفرصة. ولا يمنعنى أن أؤمر سليطاً إلا سرعته إلى الحرب ، والسرعة إلى الحرب إلا عن بيان ضياع ، والله لولا سرعته لأمرته) ثم قال (إنك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجبرية. تقدم على قوم تجرؤوا على الشر فعملوه وتناسوا الخير فجهلوه فانظر كيف تكون وأحرز لسانك ولا تفشين سرك فإن صاحب السر مايضبطه متحصن لايؤتى من وجه يكره وإذا لم يضبطه كان بمضيعة) ثم أمر المثنى أن يتقدم إلى أن يلحقه الجيش وأمره أن يستنفر من حسنت توبته من المرتدين فسار مسرعاً حتى وصل الحيرة فى عشر ليال وكان الفرس قد شغلوا عن المسلمين باختلافاتهم الداخلية على من يلى ملكهم ثم اتفقوا أخيراً على ولاية بوران بنت كسرى وأن يقوم بأمرها رستم حتى يجدوا رجلاً من بيت كسرى يصلح للملك فاستعد رستم لقتال المسلمين وجهز لذلك الجيوش فأرسل جيشاً إلى فرات بادقلى وقائده جابان وجيشاً اخر إلى كسكر (بلد على الشاطىء الغربى لدجلة بين بغداد والبصرة على آثارها الآن مدينة واسط) وقائده ترسى وجيشاً آخر لمصادمة المثنى وأرسل إلى الفلاحين أن ينتقضوا على المسلمين ففعلوا ولما بلغت هذه الأخبار المثنى خرج

من الحيرة حتى نزل خفان (مأسدة قرب الكوفة) وانتظر أبا عبيد حتى وصل بعد شهر من مقدم المثنى وكان قد اجتمع من الفرس جمع عظيم وعسكروا بالنمارق (بلد شمالى واسط) والزاب (نهر بين سوراء وواسط ونهر آخر بقربه وعلى كل منهما كورة وهما الزابان ويجمع بما حواليه من الأنهار فيقال الزوابى ونهر جور كذلك من الأنهر المتشعبة فى جنوبى الجزيرة) فهزمت السرايا من تجمع فى هذه الجهات من الفرس وطلب أمراؤها الصلح فأجيبوا ودفعوا الجزاء معجلا ثم جاءوا إلى أبى عبيد بأنواع الأطعمة المحبوبة عند الفرس فقال لهم: هل أكرمتم الجند بمثلها فقالوا لم يتيسر ونحن فاعلون فقال أبو عبيد: (لاحاجة لنا فيه بئس المرء أبو عبيد إن صحب قوماً من بلادهم استأثر عليهم بشىء ولا والله لا آكل ماأتيتم به ولا مما أفاء الله إلا مثل مايأكل أوساطهم) فليتأمل المسلمون كيف كان سلفهم رضى الله عنهم ، ثم سار حتى لقى الجالينوس باقشيانا من باروسما فقاتله حتى هرب وانهزم جيشه فأرسل أبو عبيد إلى عمر بالبشارة والأخماس وفيها تمر كان لترسى لايأكله إلا ملوك الأعاجم أو من أكرموه بشىء منه أو لايغرسه غيرهم وكتب إلى عمر (إن الله أطعمنا مطاعم كانت الأكاسرة تحميها وأحببنا أن تروها لتشكروا إنعام الله وأفضاله) ولما رجع الجالينوس إلى رستم منهزماً جهز جيشاً عظيماً تحت قيادة بهمن جاذويه المعروف بذى الحاجب ومعه الراية العظمى لفارس واسمها (درفش كابيان) عرضها ثمانية أذرع فى طول إثنى عشر من جلود النمر فلما بلغ ذلك أبا عبيد رجع إلى الحيرة وأقبل الجالينوس حتى نزل قس الناطف على الفرات وأقبل أبو عبيد فنزل عدوته مقابلا لجيش الفرس وبين الفريقين نهر الفرات فنصب الفرس جسراً عليه.

وقعة الجسر

وخير بهمن المسلمين فى أن يعبروا هم أو يعبر الفرس إليهم فاختار أبو عبيد العبور فنهاه ذوو الرأى منهم فلم يقبل وقال لايكون الفرس أجرأ على الموت منا فعبروا واشتد القتال وكانت الفيلة كثيرة فى جيش الفرس فهابتها خيل المسلمين واشتد الأمر عليهم فقال أبو عبيد احتوشوا الفيلة واقطعوا بطانها

واقلبوا عنها أهلها ووثب هو على الفيل الأبيض ففعل به ذلك ولكن الفيل خبطه بيده فوقع فوطئه الفيل حتى مات فأخذ الراية بعده ثنية. فقاتل عن جثته حتى تمكن من أخذها ثم قتل فتتابع الراية سبعة نفر من ثقيف كلهم يأخذ الراية ويقتل ثم أخذ الراية المثنى فرأى أن الأمر اشتد على المسلمين وابتدأ بعضهم بالهزيمة فرأوا الجسر مقطوعاً قطعه أحد المسلمين لئلا يفروا فلم يعقبهم ذلك بل نزلوا فى الفرات فغرق بعضهم ونجا آخرون فنادى المثنى من عبر وأمرهم بعقد الجسر فعقدوه وأمر المسلمين بالعبور وقال اعبروا على هينتكم فإنا دونكم ولا تدهشوا ولا تغرقوا نفوسكم وبقى هو حتى عبر من عبر ثم عبر آخرهم وكان آخر من قتل على الجسر سليط بن قيس ومات من المسلمين فى هذه الوقعة ماينيف على أربعة آلاف بين قتيل وغريق وقد ذهب كثير ممن عبر عن المثنى استحياء مما فعلوه من الهزيمة فبقى المثنى جريحاً فى قلة من جيشه . ومنع الله بهمن عن العبور. خلف المسلمين بما بلغه من اختلاف الفرس وانقسامهم قسمين قسم يريد رستم وقسم يريد الفيرزان، فرجع عن قصده، ولما بلغ عمر خبر هذه الهزيمة وأن كثيراً من الناس ذهبوا فى البلاد استحياء قال (اللهم إن كل مسلم فى حل منى أنا فئة كل مسلم يرحم الله أبو عبيد لو كان انحاز إلى لكنت له فئة) ثم أمد المثنى بجيوش كثيرة فيهم جرير بن عبد الله البجلى وقومه وعصمة بن عبد الله الضبى وقومه واستنفر من حسنت توبته من المرتدين فكلما أتاه أحد منهم وجهه إلى المثنى (أما) رستم والفيرزان اللذان يتنازعان إمرة الفرس فإنهما لما علما بذلك وجها جيشاً بقيادة مهران الفارسى إلى الحيرة فكتب المثنى إلى جرير وعصمة ومن معهما أن يوافوه بالعذيب (مما يلى الكوفة الآن) وسار المثنى حتى التقى بهم هناك فلقوا جيش مهران وبينهما نهر الفرات فاختار المثنى أن يعبر إليه الفرس لأن المسلم لا يلدغ من جحر مرتين فأبلغ الفرس ذلك فعبروا . أما المثنى فسوى صفوفه وصار يحرض المسلمين ويعظهم ويقول: إنى لأرجو ألا تؤتى الناس من قبلكم اليوم والله ما يسرنى اليوم لنفسى شىء إلا وهو يسرنى لعامتكم وأنصف الناس من نفسه فى قوله وفعله وخلطهم فى المحبوب والمكروه ، وقال إنى مكبر ثلاثاً فإذا كبرت الرابعة فاحملوا فلما كبر الأولى أعجلتهم الفرس فرأى

خللا فى صفوف بنى عجل فأرسل إليهم : الأمير يقرئكم السلام ويقول لكم لا تفضحوا المسلمين اليوم فاعتدلوا فضحك فرحاً . ثم اشتد القتال وحمل المثنى على قلب المشركين وفيه مهران والمجنبتان تقتتلان لا يستطيع إحداهما أن تفرغ النصر لأميرها لا المسلمون ولا المشركون فتغلب قلب الإسلام على قلب الشرك وأوجع فيه حتى قتل مهران فلما رأى ذلك مجنبتا المسلمين مالوا على من أمامهم ميلة واحدة فردوهم على أعقابهم مدحورين فتسابقوا إلى الجسر يريدون العبور فسبقهم إليه المثنى وحال بينهم وبين ما يشتهون فافترقوا مصعدين ومنحدرين وكان المثنى رضى الله عنه يذكر هذا العمل من زلاته ويقول (لا ينبغى إحراج من لا يقوى على امتناع) ثم سير سرية لتعقب الفرس فبلغت ساباط (موضع بالمدائن) وافتتحها وصار بعد ذلك طريق المسلمين. من الحيرة إلى شواطىء دجله آمنا ثم سار قاصداً سوق الخنافس (موضع قرب الأنبار) وسوق بغداد بعد أن خلف على الحيرة بشير بن الخصاصية فأغار عليهما وسار حتى نزل نهر الساحلين بالأنبار ثم سرح سرية لقتال جمع من العرب بصفين (موضع غربى الفرات من جهة الشمال وهى الآن ولاية حلب الشهباء) فسارت إليهم وهزمتهم . وبذلك صار سواد العراق للمسلمين يأخدون الجزية من أهل الذمة ويستغلون ما فتحوه عنوة ولم تبق للفرس سلطة ما غربى الفرات وضعفت فى بلاد الجزيرة فتأثر من ذلك عامة الفرس ورأوا ملكهم آخذ فى الاضمحلال فالزوال إن لم يتلافوا الأمر فيسعوا أولا فى إزالة هذه الإختلافات التى كادت تقضى على حياتهم فاجتمع كبراؤهم عند رستم والفيرزان وقالوا لهما إنه لم يساعد العرب ويكسبهم الظفر علينا إلا تفرقكم وتخاذلكم فإن لم تحسموا هذا النزاع وتلتفتوا لعدوكم بدأنا بكم فاشتفينا قبل أن يضيع ملك فارس فانتهى الأميران إلى قول العظماء وبحثا عن رجل من آل كسرى يصلح لولاية الملك وبعد الجهد وجدوا إبنا له اسمه يزدجرد فتوجاه بتاج الملك وفرح به الأمراء وجميع الرعية وأطاعة الكل فسمى جيوشاً لحماية ثغور البلاد واسترداد ما فقد منها فسير جيشاً للأبلة وجيشاً للحيرة وجيشاً للأنبار وكانت هذه أعظم ثغورهم من الجهة الغربية فبلغت المثنى هذه الأخبار فأرسل لعمر بها فقال عمر والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب فلم يدع رئيساً ولا ذا رأى أو شرف

وبسطة ولا خطيباً ولا شاعراً إلا رماهم به وكتب إلى المثنى يأمره بالإنسحاب من أرض العجم والتفرق فى المياه حتى تجتمع الجيوش وأمره ألا يدع فى ربيعة ومضر أحداً من أهل النجدات ولا فارساً إلا أحضره طوعاً أو كرهاً فأنزل المثنى جيشه على حدود بلاد الفرس أولهم بالحلة وآخرهم بفضى (وهو جبل البصرة) متناظرين يغيث بعضهم بعضاً وكتب عمر إلى عماله أن يبعثوا من كانت له نجدة أو فرس أو سلاح أو رأى وخرج إلى الحج سنة ثلاث عشرة فحج ورجع فجاءته أفواجهم إلى المدينة ومن كان أقرب إلى العراق انضم إلى المثنى فلما اجتمع عند عمر جيش عظيم خرج بهم من المدينة بعد أن استخلف عليها على بن أبى طالب ونزل بضرار (موضع قرب المدينة) فعسكر به والمسلمون لا يعلمون قصده أيسافر إلى العراق أم يقيم فسأله عثمان بن عفان عن حركته فأعلمهم واستشارهم أيقيم ويولى قيادة الجيش غيره أم يقود الجيش بنفسه فقال العامة سر وسر بنا معك وأشار خاصة أصحاب رسول الله ﷺ بالمقام وتولية رجل من أهل الشهامة والنجدة أميراً على الجيش فتبع رأيهم وانتخب لقيادة هذا الجيش العظيم سعد بن أبى وقاص الزهرى القرشى خال رسول الله ﷺ فولاه ووصاه وكان فيما قال له (ياسعد بن أم سعد لا يغرنك من الله أن يقال خال رسول الله ﷺ فإن الله لا يمحو السيء بالسيء ولكنه يمحو السيء بالحسن وليس بين الله وبين أحد نسب إلا بطاعته فالناس فى دين الله سواء هم عباده يتفاضلون عنده بالعافيه ويدركون ماعنده بالطاعة فانظر إلى الأمر الذى رأيت رسول الله ﷺ يلزمة فالزمة) ثم سرحه بأربعة آلاف وأتبعه بمثلها وأرسل إليه عهداً هذه صورته.

(بسم الله الرحمن الرحيم) أما بعد: فإنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى المكيدة فى الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً منكم من عدوكم فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عددنا ليس كعددهم وعدتنا ليست كعدتهم فإن استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا فاعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من الله

يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا ، فرب قوم سلط عليهم من هو شر منهم كما سلط على بنى إسرائيل لما عملوا بالمعاصى كفار المجوس فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا ، وسلوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم ، وأسأل الله ذلك لنا ولكم . وترفق بالمسلمين فى سيرهم ولا تجشمهم مسيرا يتعبهم ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص من قوتهم فإنهم سائرون إلى عدو مقيم حامى الأنفس والكراع ، وأقم بمن معك فى كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون بها الأنفس ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه ، ولا يرزأ أحد من أهلها شيئاً ، فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها فما صبروا فتولوهم خيراً ولا تنتصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح وإذا وطئت أرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم ولا يخف عليك أمرهم وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه ، فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدقك فى بعض ، والغاش عين عليك وليس عيناً لك ، وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم وتتبع الطلائع عوراتهم واختر للطلائع أهل البأس والرأى من أصحابك وتخير لهم سوابق الخيل فإن لقوا عدواً كان أول ماتلقاهم القوة واجعل أهل السرايا من أهل الجهاد والصبر على الجلاد لا تخص بها أحد بهوى فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك ولا تبعث طليعة ولا سرية فى وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة ونكاية فإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك واجمع إليك مكيدتك وقوتك ثم لا تعاجلهم بالمناجزة مالم يستكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها فتصنع بعدوك كصنعه بك ثم أذك حراسك على عسكرك وتيقظ من البيات جهدك ولا تأت بأسير ليس له عقد إلا ضربت عنقه لترهب به عدو الله وعدوك والله ولى أمرك ومن معك وولى النصر لكم على عدوكم والله المستعان . ولما وصل

سعد زرود بلغه أن المثنى توفى من أثر جراحة أصابته وأنه ولى على جيشه بشير ابن الخصاصية فجمع سعد إليه جيش المثنى وكان ثمانية آلاف وعسكر بشراف وعبىء الجيش وأمر الأمراء . وعرف على كل عشرة عريفاً وجعل على الرايات رجالا من أهل السابقة أيضاً ورتب المقدمة والساقة والمجنبات والطلائع ، فجعل على المقدمة زهرة بن الحوية فإنتهى إلى العذيب وعلى الميمنة عبد الله بن المعتم وعلى الميسرة شرحبيل بن السمط الكندى وخليفته خالد بن عرفطه وعلى الساقة عاصم بن عمرو وعلى الطلائع سواد بن مالك وعلى المجردة سلمان بن ربيعة الباهلى وعلى الرجالة جمال بن مالك الأسدى وعلى الركبان عبد الله بن ذى اليمنين الحنفى وعلى القضاء بينهم عبد الرحمن بن ربيعة الباهى وكاتب الجيش زياد بن أبى سفيان ورائده وداعيه سلمان الفارسى . وكل ذلك بأمر من عمر ثم سار حتى نزل القادسية (قرية قرب الكوفة ينزل بها حاج الكوفة الآن) بين العتيق والخندق (هو حفير لسابور ملك الفرس ببرية الكوفة) والعتيق من فروع الفرات بحيال القنطرة (وهى قرية بها قنطرة على فرع من فروع الفرات فعرفت القرية بها) وكتب عمر إلى سعد (إنى ألقى فى روعى أنكم إذا لقيتم العدو غلبتموهم فمتى لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان أو إشارة أو لسان كان عندهم أماناً فأجروا لهم ذلك مجرى الأمان والوفاء فإن الخطأ بالوفاء بقية وإن الخطأ بالغدر هلكة وفيها وهنكم وقوة عدوكم) وأقام سعد بالقادسية شهراً لا يأتيه من الفرس خبر فبث سراياه بين كسكر والأنبار فأغارت على من ليس لهم ذمة ومن غدر من أهلها فأرسل أهل السواد إلى يزدجرد ملك الفرس يخبرونه بما صنع المسلمون وأعلموه إن تأخر ألقوا بأيديهم فأرسل يزدجرد إلى رستم وأمره بالإستعداد والتأهب ليكون قائداً لجيش عظيم يحارب المسلمين فامتثل كرهاً لأنه كان من رأيه مطاولة المسلمين حتى يهنوا وخرج فعسكر بساباط ، وبلغ خبره سعداً فبلغه عمر . فأرسل إليهم عمر (لا يكربنك ما يأتيك عنهم واستعن بالله وتوكل عليه وابعث رجالا من أهل المناظرة والرأى والجلد يدعونه فإن الله عاجل دعاءهم توهيناً لهم) فأرسل سعد جماعة من الأشراف دعاة إلى يزدجرد منهم النعمان بن مقرن وقيس بن زرارة والأشعث بن شعبة فلما وصلوا المدائن أدخلوا على يزدجرد فسألهم بواسطة ترجمانه : ما جاء بكم

ودعاكم إلى غزونا والولوغ ببلادنا أمن أجل أنا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ؟ فتكلم عنهم النعمان بن مقرن . فقال : (إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولاً يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر ووعدنا على إجابته خيرى الدنيا والآخرة فلم يدع قبيلة إلا قاربه منها فرقة وتباعد عنه منها فرقة ثم أمر أن نبتدىء بمن خالفه من العرب فبدأنا فدخلوا معه على وجهين مكره عليه فاغتبط وطائع فازداد فعرفنا جميعا فضل ما جاء به على الذى كنا عليه من العداوة والضيق ثم أمر أن نبيتدىء بمن جاورنا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح كله فإن أبيتم فأمر من الشر أهون من آخر شر منه الجزية فإن أبيتم فالمناجزة فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمنا على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم وإن بذلتم الجزاء قبلنا منكم ومنعناكم وإلا قاتلناكم) فقال : يزدجرد إنى لا أعلم أمة فى الأرض كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم فقد كنا نوكل بكم قرى الضواحى فيكفونا أمركم ولا تطمعوا أن تقوموا لفارس فإن كان غرور لحقكم فلا يغرنكم منا ، وإن كان الجهد فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم . فقام قيس بن زرارة فقال : أما ما ذكرت من سوء الحال فكما وصفت وأشد ثم ذكر من عيش العرب ورحمة الله بهم بإرسال النبى ﷺ مثل مقالة النعمان ثم قال : (إختر إما الجزية عن يد وأنت صاغر أو السيف وإلا فنج نفسك بالإسلام) فقال : يزدجرد لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم لا شيء لكم عندى ثم استدعى بوقر من تراب وقال لقومه احملوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن . فقام عاصم ابن عمر وقال أنا أشرفهم وأخذ التراب فحمله وخرج إلى راحلته فركبها ولما وصل إلى سعد قال له : أبشر فوالله لقد أعطانا الله مقاليد ملكهم . ثم أن رستم خرج بجيشه الهائل مائة ألف أو يزيدون من ساباط فلما مر على كوثى (قرية بين المدائن وبابل) لقيه رجل من العرب فقال له رستم : ماجاء بكم ؟ وماذا تطلبون منا ؟ قال : جئنا نطلب موعود الله بملك أرضكم وأبنائكم إن أبيتم أن تسلموا . قال رستم فإن قتلتم قبل ذلك . قال : من قتل منا دخل الجنة ومن بقى أنجزه الله وعده فنحن على يقين . قال رستم قد وضعنا إذا فى

أيديكم ؟ قال : العربى أعمالكم وضعتكم فأسلمكم الله بها فلا يغرنك ما ترى حولك فإنك لست تجادل الإنس وإنما تجادل القدر . فغضب منه رستم وقتله فلما مر بجيشه على البرس (قرية بين الكوفة والحلة) غصبوا أبناء أهله وأموالهم وشربوا الخمور ووقعوا على النساء فشكى أهل البرس إلى رستم فقال لقومه والله لقد صدق العربى والله ماأسلمنا إلا أعمالنا . والله إن العرب مع هؤلاء وهم لهم حرب أحسن سيرة منكم . ثم سار حتى نزل الحيرة فعنف عظماءها على الإستسلام للمسلمين فقال له ابن بقيلة لاتجمع علينا أن تعجز عن نصرتنا وتلومنا على الدفع عن أنفسنا (ولما) علم سعد أمير جيش المسلمين خبر رستم أرسل عمرو بن معد يكرب الزبيدى وطليحة بن خويلد الأسدى يستكشفان خبر الجيش مع عشرة رجال فلم يسيروا إلا قليلاً حتى رأوا سرح العدو منتشراً على الطفوف فرجعوا إلا طليحة فإنه ظل سائراً حتى دخل جيش العدو وعلم ما عليه فرجع إلى سعد وأخبره خبره .

وقعة القادسية

ثم أن رستم سار بجيشه من الحيرة حتى نزل القادسية على العتيق (جسر القادسية) أمام عسكر المسلمين يحول بينهم وبين النهر ومع الفرس ثلاثة وثلاثون فيلاً ولما نزل أرسل إلى سعد أن ابعث إلينا رجلاً نكلمه فأرسل إليه ربعى بن عامر فجاءه وقد جلس على سرير من ذهب وبسط النمارق والوسائد منسوجة بالذهب فأقبل ربعى على فرسه وسيفه فى خرقة ورمحه مشدود بعصب فلما انتهى إلى البساط وطئه بفرسه ثم نزل وربطها بوسادتين شقهما وجعل الحبل فيهما ثم أخذ عباءة بعيره فاشتملها فأشاروا عليه بوضع سلاحه . فقال لو أتيتكم بأمركم فعلت ذلك بأمركم وإنما دعوتمونى . ثم أقبل يتوكأ على رمحه ويقارب خطوه حتى أفسد مامر عليه من البسط ثم دنا من رستم وجلس على الأرض وركز رمحه على البساط وقال إنا لا نقعد على زينتكم فقال له رستم ما جاء

بكم ؟ قال : (الله جاء بنا وهو بعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام فأرسل رسوله بدينه إلى خلقه فمن قبله قبلنا منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه ومن أبى قاتلناه حتى نفضى إلى الجنة أو الظفر. فقال رستم قد سمعنا قولكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه : فقال نعم. وإن مما سن لنا رسول الله ﷺ ألا نمكن الأعداء أكثر من ثلاث فنحن مترددون عنكم ثلاثاً فانظر فى أمرك واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل : الإسلام وندعك وأرضك أو الجزاء فنقبل ونكف عنك وإن احتجت إلينا نصرناك أو المنابذة فى اليوم الرابع إلا أن تبدأ بنا وأنا كفيل بذلك عن أصحابى) فقال رستم أسيدهم أنت؟ قال (لا ولكن المسلمين كالجسد الواحد بعضهم من بعض يجير أدناهم على أعلاهم) ثم انصرف . فخلا رستم بأصحابه وقال أرأيتم كلاماً قط مثل كلام هذا الرجل ؟ فأروه الإستخفاف بشأنه ، فقال رستم ويلكم إنما أنظر إلى الرأى والكلام والسيرة .، والعرب تستخف اللباس وتصون الأحساب ، فلما كان اليوم الثانى من نزوله أرسل إلى سعد أن ابعث إلينا هذا الرجل فأرسل إليه حذيفه بن محصن الغطفانى فلم يختلف عن ربعى فى العمل والإجابة . ولا غرابة فهما مستقيان من إناء واحد وهو دين الإسلام فقال له رستم ما قعد بالأول عنا قال (أميرنا يعدل بيننا فى الشدة والرخاء وهذه نوبتى) فقال رستم والمواعدة إلى متى ؟ قال : إلى ثلاث من أمس . وفى اليوم الثالث أرسل إلى سعد أن أبعث إلينا رجلا فأرسل إليه المغيرة بن شعبة فتوجه إليه ولما كان بحضرته جلس معه على سريره فأقبلت إليه الأعوان يجذبونه قال لهم (قد كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوماً أسفه منكم إنا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضاً إلا أن يكون محارباً لصاحبه فظننت أنكم (تواسون قومكم كما نتواسى) وكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم وإنى لم آتكم ولكنكم دعوتمونى ، اليوم علمت أنكم مغلوبون وأن ملكاً لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول) فقالت السوقة صدق والله العربى وقالت الدهاقين (زعماء الفلاحين) لقد رمى بكلام لا تزال عبيدنا تنزع إليه قاتل الله سابقينا حيث كانوا يصغرون أمر هذه الأمة ثم

تكلم رستم بكلام عظم فيه شأن الفرس وصغر فيه شأن العرب وذكر ما كانوا عليه من سوء الحال وضيق العيش فقال المغيرة (أما الذى وصفتنا به من سوء الحال والضيق والإختلاف فنعرفه ولا ننكره والدنيا دول والشدة بعدها الرخاء ولو شكرتم ما آتاكم الله لكان شكركم قليلا على ماأوتيتم وقد أسلمكم ضعف الشكر إلى تغير الحال وإن الله بعث فينا رسولا ثم ذكر مثل ماتقدم وختم كلامه بالتخير بين الإسلام أو الجزية أو المنابذة ثم رجع . فخلا رستم بأهل فارس وقال أين هؤلاء منكم ألم يأتكم الأولان فجسراكم واستخرجاكم ثم جاءكم هذا فلم يختلفوا وسلكوا طريقاً واحداً ولزموا أمراً واحداً هؤلاء والله الرجال صادقين كانوا أم كاذبين والله لئن بلغ من أدبهم وصونهم لسرهم أن لا يختلفوا فما قوم أبلغ فيما أرادوا منهم لئن كانوا صادقين فما يقوم لهؤلاء شيء إلحوا ولم تنتفع الفرس بهذه الدعوة بل تمادوا فى غيهم ليقضى الله أمراً كان مفعولا . فأجمع القائدان على المناجزة وأقرا على أن يعبر الفرس نهر العتيق فعبروا وعبأ رستم جيشه العرمرم وجعل بينه وبين يزدجرد بريداً يخبره بالحوادث فى أوقاتها وعبأ أمير المسلمين جيوشه وكانت صفوفهم مع حائط قديس والخندق فكان الجيشان بين العتيق والخندق وأرسل سعد رجالا من ذوى المنطق الفصيح يحرضون على الجهاد وأمر القراء بقراءة سورة الأنفال فقرئت ولما أتموا قراءتها شهت قلوب الناس وعيونهم وعرفوا السكينة بقراءتها ثم قال لهم سعد إلزموا مصافكم فإذا صليت الظهر فإنى مكبر فإذا كبرت الأولى فكبروا واستعدوا وإذا كبرت الثانية فكبروا والبسوا عدتكم وإذا كبرت الثالثة فكبروا ونشطوا الناس فإذا كبرت الرابعة فازحفوا حتى تخالطوا عدوكم وقولوا (لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم) وكان ذلك فى المحرم من السنة الرابعة عشرة فلما كبر سعد تكبيرته الأخيرة خرج أهل النجدات فأنشبوا القتال ثم حمل الجيشان ولم يكن أشد على الملمين من الفيلة وكادت بجيلة أن تهلك لنفار خيلها فأرسل سعد إلى ابنى أسد أن دافعوا عن بجيلة فقام رئيسهم طليحة بن خويلد بما عهد إليه خير قيام فلما رأى الأشعث بن قيس ما يفعله بنو أسد قال لقومة يابنى كندة لله در بنى أسد أى فرى يفرون وأى هذى يهذون أغنى كل قوم مايليهم وأنتم تنتظرون من يكفيكم

أشهد ما أحسنتم أسوة قومكم من العرب . ثم نهد فنهدوا معه وأزالوا من بإزائهم وجه الفرس قوتهم إلى بنى أسد لما رأوا من شدتهم على الفيلة فدارت رحى الحرب على بنى أسد والفيلة تضربهم كثيراً فأرسل سعد إلى عاصم بن عمرو زعيم بنى تميم أن ينظر حيلة للفيلة فنادى رماة قومه وقال لهم ذبوا ركبان الفيلة عنهم بالنبل وقال لآخرين استدبروا الفيلة فقطعوا وضنها (الوضين بطان عريض منسوج من سيور أو شعر والبطان حزام القتب) ففعلوا فعوت الفيلة وقتل أصحابها فنفس عن أسد بعد أن قتل منهم خاصة فى هذه الموقعة نحو خمسمائة ولم يزل القتال ناراً تلظى إلى أن غربت الشمس فانفصل الجيشان . وهذا هو اليوم الأول من أيام القادسية ويسمى يوم أرمات وتسمى ليلته ليلة الهدأة لأنه لم يحصل فيها قتال فلما أصبحوا وَكَلَ سعد بالجرحى من يداويهم وبالقتلى من يدفنهم وعبأ الجيش كما كان بالأمس وبينما هم مصـ ـن إذ قدم على المسلمين مدد من الشام بعثه بأمر عمر أبو عبيدة عامر بن الجراح وعليه هاشم بن عتبة ابن أبى وقاص الملقب بالمرقال (لقبه بذلك على بن أبى طالب يوم صفين لأنه أعطاه الراية فصار يرقل بها أى يسرح) وكان على مقدمته القعقاع بن عمرو فوصل أولا لأنه تعجل فقدم صبيحة اليوم الثانى من أيام القادسية فقويت به قلوب المسلمين ولم يلبث حتى خرج يطلب البراز فبرز إليه ذو الحاجب صاحب وقعة الجسر فعرفه القعقاع ونادى ياثارات أبى عبيد وسليط وأصحاب الجسر ثم تضاربا فقتل ذا الحاجب وأفرح قتله المسلمون بقدر ماأحزن المشركين ثم حمى القتال وفى هذا اليوم شعر المسلمون بالظفر لأن الفيلة كانت تكسرت توابيتها فاشتغل الفرس بإصلاحها وحمل بنو عم القعقاع عشرة عشرة على إبل قد ألبسوها وهى مجللة مبرقعة وأطافت بها خيولهم تحميهم وأمرهم القعقاع أن يحملوها على خيل الفرس يتشبهون بالفيلة فلقيت منها خيل الفرس أعظم مالاقت خيل المسلمين بالأمس وأظهر القعقاع فى هذا اليوم شجاعة عظمى واستمر القتال إلى نصف الليل فانفصل الجيشان ويسمى هذا اليوم يوم أغواث وهو اليوم الثانى من أيام القادسية وتسمى ليلته ليلة السواد . ثم أصبحوا فى اليوم الثالث وهو يوم عماس على مصافهم وبين الصفين من جرحى المسلمين وقتلاهم ألفان فنقلهم إخوانهم الجريح للمداواة والقتيل للمدفن وكان

النساء هن اللاتى يداوين الجرحى أما قتلى المشركين الذين يزيدون على عشرة آلاف فلم يعتن قومهم بنقلهم وفى هذا اليوم أقبل هاشم المرقال فى بقية جيشه وقد احترس الفرس فى هذا اليوم على الفيلة فجعلوا وراءها رجالاً يحمونها لئلا تقطع وضنها ولكن خيل المسلمين لم تنفر منها لأن الفيل إذا كان وحده كان أوحش وإذا أحاط به الرجال كان آنس ولأن الخيل أيضا تعودت رؤيتها ثم ابتدأ القتال وحمى وطيسه فانتدب سعد القعقاع ومعه آخر لقتل الفيل الأبيض وهو كبير الفيلة وانتدب آخرين لقتل الفيل الأجرب فذهب القعقاع ورفيقه وأشرع كل منهم رمحه فوضعه فى عين الفيل فوقع لجنبه ثم قتلا ساسته وذهب الآخران فطعن أحدهما الفيل فى عينة فأقعى (تساند إلى ماوراءه) ثم استوى فضربه الثانى فأبان مشفره فولى الفيل لا يلوى على شيء حتى رمى نفسه فى العتيق وتبعة الفيلة فخرجت صفر ب الأعاجم وعبرت العتيق وظل القتال مستمراً حتى جاء المساء فانفصل الجيشان قليلاً ثم أمر سعد بمعاودة القتال متى أعلن بشعار القتال وهو (الله أكبر) فأعجلتهم الفرس عن انتظار تكبير سعد فحمل القعقاع ولم ينتظر فقال سعد اللهم اغفر له وانصره فقد أذنت له وإن لم يستأذن لأن المسلمين قد جربوا نتائج العصيان فى وقعة أحد فى عهد رسول الله ﷺ فخاف سعد أن يعاقبوا فأذن فى القتال وإن لم يستأذنوه ثم حمل بنو أسد فقال سعد اللهم اغفر لهم وانصرهم فقد أذنت لهم ، وهكذا كان يقول رضى الله عنه كلما حمل قوم قبل إعلانه التكبير ، فلما صلى العشاء كبر فحمل المسلمون كلهم وكانت ليلة ليلاء كان صوت الحديد فيها كصوت القيون وترك المسلمون الكلام وإنما كانوا يهرون هريراً ولذلك سميت هذه الليلة ليلة الهرير رأى فيها العرب والفرس مالم يروا مثله قبلها فالمسلمون يحامون عن دينهم والفرس يحامون عن دولتهم ولكن أين من يحارب عن الدنيا ممن يحارب لتكون كلمة الله هى العليا ؟ واستمر القتال إلى الصباح فقال القعقاع إن الدائرة تكون لمن صبر ساعة . فاصبروا ساعة فإن النصر مع الصبر فانضم إليه جماعة من الرؤساء واستمروا يقاتلون حتى قام قائم الظهيرة فابتدأ الفرس بالتقهقر وكان أول من زال الفيرزان والهرمزان فتأخرا عن مواقفهما ثم حمل هلال بن علفة أحد فرسان المسلمين فقتل رستم ، فلما رأى ذلك الفرس ابتدأوا بالإنهزام ، فقام الجالينوس على الردم وأمر الجيش بالعبور فعبر من نجا منهم فتبعهم زهرة بن الحيوية وأدرك الجالينوس وهو يجمع المنهزمين فقتله وأخذ ضرار بن الخطاب الفهرى الراية

العظمى لفارس وهى (درفش كابيان) ويسمى هذا اليوم يوم القادسية وبعد تمام الهزيمة أمر سعد بجمع الأسلاب والغنائم وكانت شيئاً كثيراً فقسمها كما أمر الله سبحانه وتعالى وهنأ جنوده بهذا النصر المبين وبعث بالخمس والبشارة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وكان رضى الله عنه يخرج كل يوم من المدينة يتنسم الأخبار حتى يرده حر الظهيرة . فلما جاء البشير لاقاه عمر وهو يسير سيراً حثيثاً فسأله عمر من أين ؟ فأخبره الرجل أنه آت من قبل سعد . فقال ياعبد الله حدثنى قال هزم الله المشركين وعمر يخطو وراءه والرجل لا يعرفه حتى دخل المدينة فإذا الناس يسلمون عليه بإمرة المؤمنين فقال البشير هلا أخبرتنى رحمك الله فقال عمر لا بأس عليك ياأخى .

وهذه الموقعة كانت أعظم وقعات المسلمين مع فارس قتل فيها مشاهير الفرس وكبار قوادهم وقتل من الجيش كثير غرقاً وقتلاً وقاتل فيها أغلب رؤساء العرب لأن عمر لم يترك أحداً من ذوى النجدات يتأخر عنها وكان المسلمون لا يذكرون مابعدها من الوقائع ، وأقام سعد بالقادسية شهرين ينتظر أمر عمر حتى جاءه بالتوجه لفتح المدائن وتخليف النساء والعيال بالعتيق مع جند كثيف يحوطهم وعهد إليه أن يشركهم فى كل مغنم ما داموا يخلفون المسلمين فى عيالاتهم ففعل ، وسار بالجيش لأيام بقين من شوال وكان فل المنهزمين لحق ببابل وفيهم بقايا الرؤساء مصممين على المدافعة .

فتح البرس

فلما وصلت مقدمة المسلمين برس قابلهم فيها بعض عساكر الفرس فقاتلوا ثم انهزموا ولما أدركهم سعد أخبروه الخبر فسر واستمر سائراً حتى وصل بابل .

فتح بابل

وهناك عبر الفرات وقاتل من تجمع ببابل فلم يلبث الفرس إلا ساعة من نهار وانهزموا مدحورين فى أسرع من لفت الرداء وناهيك بقتال من ملىء قلبه رعباً وهذا مصداق قول رسول الله ﷺ (نصرت بالرعب) وهرب الفيرزان إلى نهاوند وهرب الهرمزان إلى الأهواز (إقليم بالجنوب الغربى من بلاد فارس بين البصرة وإقليم فارس وهى تسع كور وقاعدتها السوس ومن مدنها تستر) وقصد بقية المنهزمين المدائن (مدينة كسرى جنوبى بغداد على الدجلة وسميت المدائن لكبرها وهى غربية وشرقية وفى هذه إيوان كسرى وهى قاعدة الملك) وتبع زهرة المنهزمين فلحقهم بين الدير وكوثى فطردهم وقتل منهم جمعاً عظيماً

فتح كوثى

ثم سار حتى وصل كوثى فخرج إليه أميرها مقاتلاً فقتل وانهزم جيشه وانتظر زهرة هناك سعداً .

فتح ساباط

وبعد أن وصل سعد سار زهرة حتى ورد ساباط فصالحة أهلها على الجزية وانتظر سعداً فلما جاء سار الجيش كله قاصداً بهرسير — وهى المدينة الغربية — فرأى المسلمون إيوان كسرى أمامهم وتذكروا وعد رسول الله ﷺ ؛ روى مسلم عن جابر بن سمرة أن رسول الله ﷺ قال (عصيبة من المسلمين يفتتحون البيت الأبيض بيت كسرى أو آل كسرى) فقويت قلوبهم وعظمت همتهم وهؤلاء جديرون بنصر الله لهم لأنهم على يقين من دينهم فكلما سنحت لهم فرصة تقربهم إلى الله بادروا إليها « **إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** » ونادى ضرار بن الخطاب: الله أكبر هذا أبيض كسرى هذا ماوعد الله وصدق رسوله

وكبر وكبر معه المسلمون ، وحاصر سعد المدينة فى ذى الحجة من السنة الرابعة عشرة وأرسل الخيل لفتح القرى المجاورة واستشار سعد عمر فى أسرى الفلاحين ، فجمع عمر أصحاب شوراه وخطبهم قال (إنه من يعمل بالهوى والمعصية يسقط حظه ولا يضر إلا نفسه ، ومن يتبع السنة وينته إلى الشرائع ويلزم السبيل النهج ابتغاء ماعند الله لأهل الطاعة أصاب أمره وظفر بحظه وذلك بأن الله عز وجل يقول «**ووجدوا ماعملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً**» وقد ظفر أهل الأيام والقوادس بما يلهيهم وجلا أهله وأتاهم من أقام على عهدهم فما رأيكم فيمن زعم أنه استكره وحشر، وفيمن لم يدع ذلك ولم يقم وجلا، وفيمن أقام ولم يدع شيئاً ولم يجل، وفيمن استسلم) فأجمعوا على الوفاء لمن أقام وكف لم يزده غلبه إلا خيراً وأن من ادعى فصدق أو وفى فبمنزلتهم وإن كذب نبذ إليهم أو أعادوا صلحهم ، وأن يجعل أمر من جلا إليهم فإذا شاؤا دعوهم وكانوا لهم ذمة ، وإن شاءوا تموا على منعهم من أرضهم ولم يعطوهم إلا القتال ، وأن يخيروا من أقام واستسلم بين الجزاء والجلاء . فكتب عمر إلى سعد بما أقر عليه علماء المسلمين ورجال شوراهم فخلى سعد عن الفلاحين وأرسل إلى الدهاقين ودعاهم إلى الإسلام أو الجزية ولهم الذمة فتراجعوا ولم يبق غربى دجلة سوادى إلا دخل فى ذمة المسلمين واغتبط بملكهم؛ كيف لاوقد رأوا قوماً أساس دينهم المساواة فأميرهم كأصغر الرعية أمام الحق، لاكبر، لاظلم، لافساد فى الأرض، خفت عنهم وطأة الكبرياء والعبودية التى كانوا يسامونها فصاروا عباداً الله وحده (ولما) اشتد الحصار على المدائن الغربية ترك يزدجرد المدينة وعبر إلى المدينة الشرقية فعزم سعد على العبور ولكن الفرس كانوا أجمعوا المعابر فدله فارسى على مخاضة تصلح للعبور فقال سعد لرؤساء الجيش إنى قد عزمت على قطع هذا البحر فقالوا جميعاً عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل فانتدب منهم من يعدى أولا ويحمى الفراض حتى يعبر المسلمون فأجابه لذلك ذو البأس والنجدة عاصم بن عمرو سيد بني تميم فعبر فى ستين فارساً من قومه فلما رآهم الأعاجم قصدوهم فشرعوا نحوهم الرماح فلم يصبر الفرس ، ولما رأى سعد أن الفراض محمية أمر المسلمين بالعبور فعبروا وهم يقولون نستعين بالله ونتوكل عليه حسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وكان يساير سعداً

سلمان الفارسى فعامت بهم خيولهم وسعد يقول حسبنا الله ونعم الوكيل والله لينصرن الله وليه وليظهرن دينه وليهزمن عدوه إن لم يكن فى الجيش بغى أو ذنوب تغلب الحسنات فقال له سلمان: الإسلام جديد ذللت لهم البحور كما ذلل لهم البر أما والذى نفس سلمان بيده ليخرجن منه أفواجا كما دخلوا فأبر الله قسمه وخرجوا ولم يفقد أحد منهم شيئاً، ولم يغرق منهم أحد غير أن رجلا زال عن ظهر فرسه فثنى القعقاع عنان فرسه إليه فأخذه بيده وأخرجه سالماً فانظر رعاك الله كيف لم تشغل القعقاع نفسه وهو فى أحرج المواقف بل آثر رفيقه على نفسه وبذلك تتجلى لك مظاهر الإسلام والأخوة الإسلامية فى أعلى درجاتها.

وكان هذا اليوم يسمى يوم الجراثيم لايعيى أحد إلا تبينت له جرثومة يريح عليها (ولما) رأى الفرس عبور المسلمين سقط فى أيديهم ورأوا أن لا قبل لهم بالمدافعة فترك يزدجرد المدينة وهرب قاصداً حلوان (بلدة بينها وبين بغداد أربعة مراحل وهى منتهى العراق من جهة الشرق وتعد من كور الجبل وهى مبنية على شاطىء نهر متفرع من دجلة وتقابل طبرستان) وكان قد قدم إليها أهله وولده فدخل المسلمون المدينة من غير معارض ونزل سعد القصر الأبيض واتخذه مصلى وقرأ قوله تعالى «**كم تركوا من جنات وعيون وكنوز وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوماً آخرين**» وابتدأ بجمع الغنائم والأسلاب وكانت شيئاً عظيما وأرسل وراء الهاربين بالأموال والذخائر فأتى بهم ولم يفلت منهم أحد وكان أول من دخل المدائن من جيوش المسلمين كتيبة القعقاع بن عمرو وتسمى الخرساء وبعدها كتيبة عاصم بن عمرو وتسمى كتيبة الأهوال ثم قسم سعد الغنيمة فأصاب منهم إثنا عشر ألفاً وقسم المنازل بين الناس وأحضر العيالات من العتيق فأنزلهم الدور وصارت المدائن قاعدة لأعمال العراق يقيم بها أميره وكانت أول جمعة جمعت بالمدائن فى صفر من السنة السادسة عشرة وأرسل سعد الأخماس إلى عمر ومعها كل شىء أراد أن يعجب منه العرب وكان فتح المدائن فى أواخر السنة الخامسة عشر ولما قدم البشير على عمر بذخائر كسرى قال: إن قوماً أدوا هذا لذوو أمانة فقال: له على (إنك عففت فعفت الرعية) ومما بعث به إليه بساط لكسرى يسمى القطف وكان ستين ذراعاً فى ستين فاستشار عمر أصحابه فيما يفعل به

فكلهم أشار عليه بأخذه لنفسه إلا عليا فإنه قال له « ياأمير المؤمنين الأمر كما قالوا ولم يبق إلا التروية إنك إن تقبله هذا اليوم لم تعدم فى غد من يستحق به ماليس له قال : صدقتنى ونصحتنى فقسمه بينهم . وولى عمر سعد بن أبى وقاص صلاة ماغلب عليه وحربه وولى على الخراج النعمان بن مقرن على ماسقت دجلة ، وسويدا أخاه على ماسقى الفرات ثم استعفيا فولى عملهما حذيفة بن أسيد وجابر بن عمرو المزنى ثم ولى عملهما بعد حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف .

فتح جلولاء

ولما أنهزم الفرس ورحلوا عن المدائن اتجهوا شمالاً حتى وصلوا جلولاء شرق دجلة (بلدة على شاطىء دجلة شمال المدائن وهى من أعمال بغداد فافترقت بهم الطرق ، أهل أذربيجان يريدون الشمال وأهل أقليم فارس يريدون الجنوب فقالوا إن افترقنا لم نجتمع فهلم فلنحتشد لحرب العرب هنا فإن كانت لنا كان ماأردنا وإن كانت علينا كنا شفينا أنفسنا وولوا أمرهم مهران الرازى وحفروا حولهم خندقاً أحاطوه بحسك الحديد إلا طرقهم فبلغ ذلك سعدا فسرح إليهم ابن أخيه هاشم بن عتبة فى إثنى عشرة ألفاً وجعل على مقدمته القعقاع حسبما أمر عمر فساروا فى صفر من السنة السادسة عشرة حتى أتوا جلولاء فانحصر الفرس فى خنادقهم ثمانين يوما ولا يقدر عليهم المسلمون وبعد هذه المدة انكشف لهم طريق من الخندق كان المشركون أعدوه لسير خيلهم فهجموا منه وقاتلوهم قتالاً شديداً شبيهاً بقتال ليلة الهرير إلا أنه كان أسرع فقتل من المشركين مقتلة عظيمة وانتهى القتال بهزيمتهم إلى خانقين فتبعهم إليها القعقاع والمسلمين وهزمهم منها . أما يزدجرد فإنه لما بلغه امتلاك جلولاء ترك حلوان وتوجه إلى الرى فسار القعقاع إلى حلوان وامتلكها . ثم أرسل سعد إلى عمر يخبره بهزيمة الفرس ويستأذنه فى اتباعهم إلى داخل بلادهم فلم يرض عمر وقال : وددت أن بين السواد والجبل سداً حصينا من ريف السواد فقد آثرت سلامة المسلمين على الفىء والأخماس ولما قدمت عليه الأخماس قال : والله

لا يجنها سقف حتى أقسمها فبات عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن الأرقم يحرسانها فى المسجد فلما أصبح الصبح جاء عمر فنظر إلى مافى الأخماس من جوهر ودر فبكى فقال: عبد الرحمن ما يبكيك ياأمير المؤمنين فوالله إن هذا لموطن شكر فقال: عمر والله ما ذلك يبكيني ، وبالله ماأعطى الله هذا قوماً إلا تحاسدوا وتباغضوا ولا تحاسدوا إلا ألقى بأسهم بينهم ومنع عمر من قسمة السواد وهو ما بين حلوان شرقاً إلى القادسية غرباً وكان فتح جلولاء فى ذى القعدة من السنة السادسة عشرة ، وفى جمادى الأولى من السنة السادسة عشرة بلغ سعداً أن الإنطاق ملك الموصل سار منها إلى تكريت (بلد على شاطىء دجلة الشرق شمال بغداد) ومعه جمع كثير من الروم والعرب فسير إليه عبد الله ابن المعتم حسبما أمر عمر فسار عبد الله إلى تكريت وحصرها أربعين يوماً وفى نهايتها أرسل إلى العرب الذين مع الإنطاق يستميلهم إليه ويدعوهم لنصرته وخذلان الفرس والأروام الذين ليسوا من جنسهم فأجابوه لذلك وإنهم معه فأرسل إليهم إن كنتم صادقين فأسلموا . فهداهم الله للدين القويم وأسلموا . فأرسل إليهم إذا سمعتم تكبيرنا فأعلموا أنا قد أخذنا أبواب الخندق فخذوا الأبواب التى تلى دجلة وكبروا واقتلوا من قدرتم عليه ثم حمل عبد الله وكبر فكبر العرب فظن المشركون أن المسلمين جاؤوهم من خلفهم مما يلى دجلة فقصدوا أبواب الخندق فأخذتهم سيوف المسلمين فلم من يستطيعوا مدافعة وهرب منهم من أطاق الهرب ودخل المسلمون المدينة .

فتح نينوى والموصل

ثم أرسل عبد الله سرية لفتح نينوى والموصل (بلدان على دجلة بعد الدرجة السادسة والثلاثين من خط العرض الشمالى الأولى على الشاطىء الشرقى والأخرى على الغربى) وأرسل فى هذه السرية جمعاً من العرب الذين كانوا مع الفرس فسبقوا إلى البلدين أخبروا بفتح وظفر على الفرس ففتحت لهم الأبواب ولم يلبث المسلمون أن جاؤا من غير معارض فطلب أهلها الأمان على الجزية فأمنوا وصاروا ذمة ثم قسم عبد الله الغنائم وأرسل الخمس إلى عمر .

فتح ماسبذان

ثم بلغ سعداً أن جمعاً عظيماً من الفرس تجمعوا بسهل ماسبذان فأرسل إليهم ضرار بن الخطاب الفهرى فشتت شملهم وقام بماسبذان مرابطا لأنها كانت ثغرا تؤتى المدائن من قبلها .

فتح هيت

ثم أرسل سعد عمر بن مالك بجيش إلى هيت (ناحية من نواحى بغداد) لفتحها فجاء وقد خندق حولها المشركون فحاصرها وفى أثناء الحصار فتح قرقيسياء (بلد على شاطىء الفرات شمالى الأنبار بينها وبين الرقة وهذه واسطة ديار ربيعة التى مركزها نصيبين) ولما رأى أهل هيت أن لا قبل لهم بالحرب أجابوا إلى دفع الجزية وصاروا ذمة .

تخطيط الكوفة

مكثت المدائن قاعدة أعمال العراق منذ فتحت إلى السنة السابعة عشرة فرأى عمر بن الخطاب فى وجوه العرب الذين نزلوا بها تغيراً فى ألوانهم وضعفاً فى أبدانهم فكتب إلى سعد أن أبعث سلمان الفارسى وحذيفة بن اليمان رائدين فليرتادا منزلا برياً بحرياً ليس بينى وبينكم فيه بحر ولا جسر فارسلهما سعد كل واحد من جهة فاجتمعا بالكوفة ــ ومعناها الرملة الحمراء المستديرة أول كل رملة تخالطها حصباء ــ فاستحسناها وصليا بها ودعوا الله أن يجعلها منزل الثبات ثم رجعا إلى سعد وأخبراه فأرسل إلى القعقاع وعبد الله بن المعتم أن يستخلفا على جيوشهما ويحضرا ثم سار من المدائن حتى وصل أرض الكوفة فعسكر بها فى المحرم من السنة السابعة عشرة ثم استشاروا عمر فى البناء

بالقصب فأذن لهم ولما حصل فيها الحريق عقب تخطيطها أستأذنوه فى البناء باللبن فقال افعلوا ولا يزيدن أحدكم عن ثلاثة أبيات ولا تطاولوا فى البنيان وألزموا السنة تلزمكم الدولة وكان مخطط الكوفة أبو هياج بن مالك فجعل النهج (الشارع الأعظم) أربعين دراعا وما يليه ثلاثين وما بين ذلك عشرين والأزقة سبعة أذرع ليس دون ذلك شيء وجعل القطائع ستين ذراعا وأول شيء أسس فيها المسجد وبنى بحياله داراً لسعد وهى قصر الكوفة والمدينة مبنية على الشاطىء الغربى لنهر الفرات بينها وبينه نحو نصف فرسخ كله حدائق نخل ملتفة يمتد سوادها إمتداد البصر والمسافة بينها وبين بغداد ثلاثون فرسخاً أى عرض الجزيرة من هناك، وبعد أن تم تخطيطها نقل إليها العرب الذين بالمدائن بعد أن خيرهم فمن شاء الإقامة بالمدائن تركه ومن شاء الرجوع إلى الكوفة رجع وصارت قاعدة أعمال العراق من ذلك الحين. وفى هذه السنة على ماعليه أكثر المؤرخين أسست مدينة البصرة وهى قريبة من خليج فارس على مجتمع الدجلة والفرات أسسها عتبة بن غزوان بأمر عمر وصارت قاعدة ثانية للعراق لأن عمر قسمه قسمين أعلى وقاعدته الكوفة وواليها سعد وأسفل وقاعدته البصرة وواليها عتبة وقد كان يتبع الكوفة من ولايات الفرس بعد افتتاحها الباب وأذربيجان وهمذان والرى وأصبهان وماه والموصل وقرقيسياء وكلها فى الجهة الشمالية وكان يتبع البصرة خراسان وسجستان ومكران وكرمان وفارس والأهواز.

غزو الفرس من البحرين

كان المسلمون فى العصر الأول يتنافسون فيما يقربهم إلى الله فلما رأى العلاء بن الحضرمى أمير البحرين نكاية سعد فى الفرس أراد أن يؤثر فيهم أثراً مثله فانتدب أصحابه لذلك فأجابوه فقسمهم ثلاث فرق على إحداها الجارود بن المعلى العبدى وعلى الثانية سوار بن همام وعلى الثالثة خليد بن المنذر بن ساوى وهو الرئيس العام وأجازهم الخليج الفارسى لفتح تلك الجهات ولكن مما يؤسف له أن هذا العمل كان بغير استشارة أمير المؤمنين وخصوصاً أن الغزو من البحر كان مما لا يراه عمر بن الخطاب وكثيراً ما كان ينهى عنه خوف الغرق فعبر جيش العلاء البحر وسار حتى أتى اصطخر (وسط أقليم فارس وهى المدينة العظمى فيه) فخرج إليهم جمع عظيم من الفرس وحالوا بينهم وبين مراكبهم فلما علم بذلك خليد خطب أصحابه فقال (أما بعد فإن القوم لم يدعوكم إلى حربهم وإنما جئتم لهم السفن والأرض لمنْ غلب فاستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) ثم عبأ جيشه وحمل فقتل من المسلمين الجارود وسوار وقتل من الفرس كثير. ولما رأى المسلمون أن مكثهم قليلون وسط بلاد الفرس تغرير بهم أرادوا الرجوع إلى البصرة من طريق البر لأنه لا سبيل لهم إلى السفن فأخذ الفرس عليهم الطريق فعسكروا وامتنعوا. لما بلغ عمر فعلة العلاء وحصر المسلمين أرسل لعتبة بن غزوان أمير البصرة أن يجهز جيشاً كثيفاً لتخليص المحصورين قبل أن يهلكوا فجهز لهم جيشاً فى إثنا عشر ألف مقاتل فساروا حتى التقوا بالمسلمين إخوانهم من شر عمل لم يستشر فيه أمير المؤمنين وهذه أول غزوة شرفت بها نابتة البصرة وكان عقاب عمر للعلاء أن صرفه عن إمارة البحرين وسيره إلى الكوفة ليكون تحت إمرة سعد.

فتح الأهواز

قدمنا أن الهرمزان لما انهزم من القادسية قصد الأهواز وملك خوزستان (من كور الأهواز) وهى الآن اسم لأقليم فى بلاد الفرس قاعدته تستر وكان يغير على أهل ميسان (كورة بين البصرة وواسط) يأتى إليها من مناذر ونهر تيرى (من ثغور الأهواز) فأرسل عتبة بن غزوان إلى عمر يخبره بخبر الهرمزان فأرسل عمر إلى سعد أمير الكوفة أن يمد عتبة فأمده بنعيم بن مقرن ونعيم بن مسعود وأمرهما أن يأتيا أعلى ميسان حتى يكونا بين البصرة وثغور الأهواز وأرسل عتبة بن سلمى بن القين وحرملة بن مريط فنزلا على ثغور البصرة بميسان ودعوا من يقيم هنالك من العرب ليكونوا مع المسلمين على قتال الفرس، فأجابهم بنو العم وكانوا ينزلون قبل الإسلام بخوزستان فاتحد الأميران مع رئيسين من هؤلاء العرب على أن يثور أحدهما بمناذر والآخر بنهرتيرى فى يوم عيناه لهما فلما كان هذا اليوم أنشب جيشا البصرة والكوفة القتال مع الهرمزان وبينما هو يقاتل إذ جاءه الخبر بأخذ مناذر ونهرتيرى فانكسرت نفسه وانهزم جيشه فاتبعهم المسلمون إلى شاطىء دجيل (شعب من دجلة بالأهواز) وعبر الهرمزان جسر سوق الأهواز وطلب الصلح فصولح على مادون مناذر ونهرتيرى المأخوذين عنوة وأقيمت فيها حامية، وكان فتح الأهواز فى السنة السابعة عشرة، ورجع باقى المسلمين إلى البصرة ومعهم بنو العم الذين هدوا للإسلام فأرسل عتبة وفداً منهم إلى عمر وفيهم الأحنف بن قيس فلما وصلوا إليه طلب من كل منهم أن يرفع إليه حاجة فطلب كل واحد منهم خاصة نفسه إلا الأحنف بن قيس فإنه قال (ياأمير المؤمنين لقد يعزب عنك ما يحق لنا إنهاؤه إليك مما فيه صلاح العامة وإنما ينظر الوالى فيما غاب عنه بأعين أهل الخبر ويسمع بآذانهم)، ثم ذكر حال البصرة وحال الكوفة وبين ماامتاز به الكوفيون عن إخوانهم البصريين وقال فى آخر كلامه وقد وسع الله علينا وزادنا فى أرضنا فوسع علينا أمير المؤمنين وزدنا طبقة تطوف علينا ونعيش بها) فلما سمع قوله أحسن إليهم وأقطعهم مما كان لأهل كسرى، ثم قال إن هذا الفتى سيد قومه وكتب إلى عتبة أمير البصرة أن يسمع منه ويرجع إلى رأيه.

انتقاض الهرمزان

(ثم) إن الهرمزان انتقض بعد الصلح لخلاف حصل بينه وبين حامية مناذر ونهرتيرى فى تحديد التخوم واستعان بالأكراد فكتب عتبة إلى عمر يخبره بذلك فأجابه بأن يقصده وأمد المسلمين بحرقوص بن زهير السعدى وأمره على القتال وعلى ما غلب عليه، فسار وسار معه جيش البصرة حتى أتى جسر سوق الأهواز وعبره وقاتل الهرمزان وهزمه وبعث فى أثره جز بن معاوية ففتح سوق الأهواز وأعجزه الهرمزان فمال إلى مدينة سوق (قاعدة كورة بالأهواز) وفتحها ودعا من هرب للرجوع ودفع الجزية، فأجابوا. وأقام هناك والياً فعمر البلاد وشق الأنهار وأحيا الموات (ثم) أن الهرمزان راسل حرقوصاً فى طلب الصلح فأجابه بعد استئذان عمر وأقام الهرمزان والمسلمون يمنعونه من الأكراد ونزل حرقوص جبل الأهواز فشق ذلك على المسلمين وأهل الذمة، فكتب إليه عمر أن أنزل السهل وألا تشق على مسلم ولا معاهد وأن لا تدركك فترة ولا عجلة فتكدر دنياك وتذهب آخرتك. وفى هذا الوقت ولى عمر البصرة المغيرة بن شعبة بعد وفاة أميرها عتبة بن غزوان رضى الله عنه ثم عزله وولى عليها أبو موسى الأشعرى وأعانه بتسعة وعشرين من أصحاب رسول الله ﷺ فيهم أنس ابن مالك وعمران بن الحصين وهشام بن عامر (وفى) عهد أبى موسى كان يزدجرد ملك الفرس يمر ويدعو الفرس للأخذ بناصره واسترداد ملكهم فتحركوا وكاتبوا أهل الأهواز الذين صالح عليهم الهرمزان فبلغ ذلك ولاة الأهواز فأرسلوا إلى عمر بالخبر فكتب إلى سعد أمير الكوفة أن يسير إلى الأهواز جنداً كثيفاً مع النعمان بن مقرن، وأرسل إلى أبى موسى أمير البصرة أن يسير إليها جنداً كثيفاً مع معد بن عدى وأن يكون قائد الجيشين أبو سبرة بن أبى رهم، فسار النعمان بن مقرن مع جيشه حتى وصل رامهرمز (بلد بخوزستان) والهرمزان بها عاص فقاتله النعمان حتى هزمه فلحق بتستر (من مدن الأهواز قريبة من السوس) فملك النعمان رامهرمز.

فتح تستر

ولما وصل جيش البصرة إلى الأهواز نزلو سوقها وكانوا يريدون رامهرمز فبلغهم خبر الواقعة وأن الهرمزان لحق بتستر فقصدها وكذلك النعمان وولاة الأهواز ونزل الجميع عليها والفرس مخندقون حولها فأقام المسلمون على حصارها وممن أبلى فيه بلاء حسناً البراء بن مالك ومجزأة بن ثور وعدة من أهل البصرة والكوفة ، ولما اشتد الحصار على أهل تستر خرج منهم رجل فاستأمن المسلمين على أن يدلهم على مدخل يدخلون منه المدينة فأمنوه فدلهم على مدخل الماء فانتدب قائد الجيش من يسير مع الرجل فأجابه عدة من أهل البصرة والكوفة ودخلوا من هذا السرب والمسلمون ينتظرون تكبيرهم فلما وصلوا المدينة كبروا فكبر المسلمون وفتحت الأبواب ومن قاتل قتل وتحصن الهرمزان بقلعة المدينة فأطافوا به فطلب منهم النزول على حكم عمر فقبلوا ذلك منه وقتل فى هذا الحصار البراء بن مالك ومجزأة بن ثور .

فتح السوس

ثم سار الجيش حتى بلغ السوس (قاعدة كورة بالأهواز) وفتحها صلحاً ثم سير الأمير سرية لفتح جند نيسابور فصالح أهلها وبعد تمام الفتح سير أبو سبرة إلى عمر وفداً فيهم الأحنف بن قيس وأنس بن مالك ومعهم الهرمزان .

وفود الهرمزان

فلما قدموا المدينة ألبسوا الهرمزان كسوته من الديباج الذى فيه الذهب وتاجه وكان مكللا بالياقوت وحليته ليراه عمر والمسلمون ثم توجهوا إلى عمر فى

المسجد فوجدوه نائماً والدرة فى يده فقال الهرمزان أين عمر ، فقالوا ها هو قال فأين حرسه وحجابه ؟ قالوا ليس له حارس ولا حاجب . قال فينبغى أن يكون نبياً . قالوا بل يعمل بعمل الأنبياء فاستيقظ عمر وأخبر بالهرمزان فنظر إليه وقال (الحمد لله الذى أذل بالإسلام هذا وأشباهه) ثم أمر بنزع ما عليه وأن يلبس ثوباً خفيقاً ثم قال له عمر كيف رأيت عاقبة الغدر وعاقبة أمر الله فقال ياعمر إنا وإياكم فى الجاهلية كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم فلما كان الآن معكم غلبتمونا . فقال له عمر (إنما غلبتمونا فى الجاهلية بإجتماعكم وتفرقنا) ثم قال عمر ما حجتك وما عذرك فى انتقاضك مرة بعد أخرى فقال أخاف أن تقتلنى قبل أن أخبرك فقال لا تخف ذلك واستسقى ماء فأتى به فى قدح غليظ . فقال لومت عطشاً لم استطع أن أشرب فى مثل هذا فأتى فى إناء يرضاه فقال أخاف أن أقتل قبل أن أشرب فقال عمر لا بأس عليك حتى تشربه . فأكفأه فقال عمر أعيدوا عليه ولا تجمعوا عليه بين القتل والعطش . فقال لا حاجة لى فى الماء وإنما أردت أن أستأمن به . فقال عمر إنى قاتلك قال قد أمنتنى . فقال عمر كذبت . فقال أنس بن مالك صدق ياأمير المؤمنين قد أمنته . قال عمر ياأنس أنا أؤمن قاتل البراء بن مالك ومجزأة بن ثور والله لتأتين بمخرج أو لأعاقبنك . قال قلت لا بأس عليك حتى تخبرنى ولا بأس عليك حتى تشربه وقال من حوله مثل ذلك . فأقبل على الهرمزان وقال خدعتنى والله لا أنخدع إلا لمسلم فأسلم الهرمزان وصار من التابعين بإحسان ففرض له عمر العطاء على ألفين وكان يترجم بينهما المغيرة بن شعبة ثم قال عمر للوفد لعل المسلمين يؤذون أهل الذمة فلذلك ينتقضون قالوا ما نعلم إلا وفاء ، قال فكيف هذا؟ فقال الأحنف بن قيس ياأمير المؤمنين إنك نهيتنا عن الإنسياح فى البلاد وإن ملك فارس بين أظهرهم ولا يزالون يقاتلوننا مادام ملكهم فيهم ولم يجتمع ملكان متفقان حتى يخرج أحدهما الآخر وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئاً بعد شىء إلا بانبعاثهم وغدرهم وأن ملكهم هو الذى يبعثهم ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا بالإنسياح فنسيح فى بلادهم ونزيل ملكهم فهناك ينقطع رجاؤهم . فقال عمر صدقتنى والله وصمم على إتباع مشورته .

وقعة نهاوند

أما ملك الفرس فإنه لما اجتمعت له الجموع بنهاوند (من بلاد الجبل جنوبي همذان) سار إليهم من امروا وقام بمساعدته الملوك بين الباب والسند وخراسان وحلوان (هذه حدود المملكة الفارسية من الشمال والجنوب والشرق والغرب) فكتب سعد إلى عمر بالخبر وفى هذا الوقت اشتكى سعداً جماعة من أهل الكوفة واتهموه بأنه لا يعدل فقال عمر والله لا يمنعنى ما نزل بالمسلمين عن النظر فى شكواهم واستقدم سعداً فخلف على عمله عبد الله بن عتبان وتوجه إلى المدينة ، وحقق عمر ما نسب إلى سعد بواسطة محمد بن مسلمة الذى كان يقتص آثار من شكا من العمال فوجده بريئاً ، ولكن عمر كان يحب ألا يكون بين الرئيس والمرءوس بغضاً لأن ذلك يؤدى إلى الفشل والخيبة فعزله وولى على الكوفة النعمان بن مقرن المزنى وكان قد اقتحم جند نيسابور والسوس فى جمع من أهل الكوفة فأرسل إليه عمر عهد الولاية وهذا نصه:

« بسم الله الرحمن الرحيم » من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرن سلام عليك: فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو.

أما بعد فإنه قد بلغنى أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند فإذا أتاك كتابى هذا فسر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين ولا توطئهم وعراً فتؤذيهم ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم ولا تدخلهم غيضة فإن رجلا من المسلمين أحب إلى من مائة ألف دينار والسلام عليك . (من تاريخ الطبرى) . وأمره بالمسير إلى ماه لتجتمع عليه الجيوش هناك ثم يسير

بهم إلى نهاوند . وكتب إلى عبد الله بن عبد الله ،حليفة سعد على الكوفة يأمره باستنفار الناس للتوجه إلى النعمان وأرسل إلى جند الأهواز يأمرهم بالمقام به ليكونوا حائلا بين أهل إقليم فارس وبين المجتمعين بنهاوند فلما اجتمعت الجيوش عند النعمان أرسل عمر بن ثنى وعمرو بن معديكرب وطليحة بن خويلد يكتشفون الطريق بين ماه ونهاوند فأما عمر بن ثنى فرجع من ليلته فقيل له ما أرجعك فقال : لم أكن بأرض العجم وقتلت أرض جاهلها وقتل أرض عالمها . وأما عمرو بن معديكرب فرجع صبيحة اليوم الثانى فسئل عما راه فقال سرنا يوماً وليلة فلم نر شيئاً . وأما طليحة فلم يزل سائراً حتى رأى جيش الفرس وعرفه فرجع وأخبرهم أن ليس بينهم وبين نهاوند شيء يكرهونه . فسار النعمان بالجيش وعلى مقدمته أخوه نعيم بن مقرن وعلى مجنبتيه أخوه سويد بن مقرن وحذيفة بن اليمان وعلى المجردة القعقاع وعلى الساقة مجاشع ابن مسعود وجاءهم مدد من المدينة عليهم المغيرة بن شعبة فلما وصلوا نهاوند كبر النعمان فكبر الجند ثم حطوا الأثقال وضرب فسطاط النعمان أكابر الكوفة حذيفة بن اليمان وعقبة بن عامر والمغيرة بن شعبة وبشير بن الخصاصية وحنظلة الكاتب وجرير بن عبد الله والأشعث بن قيس وغيرهم فلم ير بناء فسطاط بالعرب كهؤلاء . ثم أنشب المسلمون القتال فقاتلوا يوم الأربعاء ويوم الخميس وفى يوم الجمعة انحجز الفرس فى خنادقهم فخاف المسلمون أن يطول عليهم الإنتظار فتشاوروا فيما يفعلون ثم أقروا على أن يأمروا القعقاع بإنشاب القتال فإذا قاتله الفرس أظهر الهزيمة أمامهم فإذا تبعوه وصاروا بين المسلمين قاتلوهم ويقضى الله ما يشاء فأمر النعمان القعقاع أن ينشب القتال ففعل فخرج الفرس من خنادقهم فأظهر القعقاع الهزيمة أمامهم فتبعوه فرحين لأنهم لم يروا مثل ذلك من المسلمين قبل الآن ولم يزالوا حتى قاربوا الجيش فأمر النعمان جنده ألا يحاربوا حتى يأذن لهم وانتظر الساعة التى كان رسول الله ﷺ يحب ألا يقاتل فيها إذا زالت الشمس فلما حانت حمل وكبر فتبعه المسلمون وقال إن قتلت الأمير بعدى حذيفة وقاتل المسلمون والفرس قتالاً لم يروا مثله ولا يوم القادسية وفى أثناء القتال استشهد النعمان فسجاه أخوه نعيم وكتم موته عن الجند لئلا يهنوا وأخذ الراية حذيفة واستمر القتال إلى آخر النهار ولما أظلم الليل انهزم الفرس وعمى

عليهم الطريق فتركوه وأخذوا نحو اللهب الذى كانوا يعبدونه فوقع فيه كثير منهم ولم يفلت إلا الشريد ونجا الفيرزان من بين الصرعى فذهب شمالا نحو همذان فتبعته فصيلة من الجيش وقتلوه بثنية همذان وفتحوا همذان صلحاً ولما بلغ الماهين هذا الخبر بادروا إلى طلب الصلح فأجيبوا وهذا نص كتاب عهدهم عن الطبرى .

« بسم الله الرحمن الرحيم » هذا ما أعطى حذيفة بن اليمان أهل ماه بهراذان أعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وأرضهم لايغيرون عن ملة ولا يحال بينهم وبين شرائعهم ولهم المنعة ما أدوا الجزية فى كل سنة إلى من وليهم على كل حالم فى ماله ونفسه على قدر طاقته وما أرشدوا ابن السبيل وأصلحوا الطرق وقروا جنود المسلمين ممن مر بهم فأوى إليهم يوماً وليلة ووفوا ونصحوا فإن غشوا وبدلوا فذمتنا منهم بريئة . شهد القعقاع بن عمرو ونعيم بن مقرن وسويد بن مقرن وكتب فى المحرم سنة ١٩ ثم عادت السرية وجمع المسلمون من الغنائم والأسلاب شيئاً كثيراً وكان الذى يحسب لهم ويكتب السائب بن الأقرع فأرسله حذيفة بالخمس والبشارة فلما قارب المدينة وجد عمر خارجاً يتنسم الأخبار لأنه قدر الواقعة قبلها فبات يتململ فلما رأى السائب قال ماوراءك قال خيراً ياأمير المؤمنين فتح الله عليك وأعظم الفتح واستشهد النعمان بن مقرن قال عمر « إنا لله وإنا إليه راجعون » ثم بكى فنشج حتى بانت فروع كتفيه فوق كتده : فلما رأى السائب ذلك قال : ياأمير المؤمنين ما أصيب بعده رجل يعرف وجهه . فقال : أولئك المستضعفون من المسلمين ولكن الذى أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم وأنسابهم وما يصنع أولئك بمعرفة عمر . وكان سهم الفارس بنهاوند ستة آلاف وسمى المسلمون فتح نهاوند فتح الفتوح لأنه لم يقم للفرس بعده قائمة ومما يستحق الذكر أن المسلمين عثروا فى غنائم نهاوند على سفطين مملوءين جوهراً نفيساً من ذخائر كسرى فأرسلهما حذيفة أمير الجيش لى عمر مع السائب فلما أوصلهما له قال : ضعهما فى بيت المال والحق بجندك فركب راحلته ورجع فأرسل عمر وراءه رسولا يخب السير فى أثره حتى لحقه بالكوفة فأرجعه فلما رآه عمر قال مالى وللسائب ما هو إلا أن نمت الليلة التى خرجت فيها فباتت الملائكة تسحبنى إلى السفطين يشتعلان ناراً

يتوعدوننى الكى إن لم أقسمهما فخذهما عنى وبعهما فى أرزاق المسلمين فبيعا بسوق الكوفة . فرضى الله عنك ياعمر لقد سرت بسيرة نبيك فعززت وأعززت بالإسلام والمسلمين اللهم ألهمنا الإتباع واكفنا شر الإبتداع (ثم) رجع حذيفة بجيشه بعد وقعة نهاوند فائزاً منصوراً.

فتح همذان

وبينما هو راجع بلغه أن أهل همذان انتقضوا بعد الصلح فابلغ الخبر عمر. فأمره أن يسير إليها نعيم بن مقرن فرجع إليها من الطريق على تعبية واستولى على بلادها جميعاً وحاصرها هى فطلب أهلها الصلح فصولحوا على الجزية ثم توجه إلى واج رود حيث تجمع الديلم وأهل أذربيجان وأهل الرى فقاتلهم نعيم قتالاً شديداً حتى هزمهم وأرسل إلى عمر بالخبر فأمره بقصد الرى (بلد قرب طهران فى جنوبها الشرقى) فسار حتى قدمها فخرج إليه رئيس جندها أبو الفرخان طالباً الصلح ومخالفاً لملكها فاستمد الملك من جاوره فأمدوه والتقى معهم نعيم فى سفح جبل الرى قريباً من المدينة وقاتلهم قتالاً شديداً ولما رأى أبو الفرخان أن الأمر سيطول طلب من نعيم أن يعطيه فصيلة من الجيش يدخل بها المدينة من حيث لايشعر الفرس فسير معه جماعة دخل بهم المدينة كما قال أما نعيم فبيت القوم فقاتلوه ولكنهم لما سمعوا التكبير من ورائهم انهزموا شر هزيمة وأفاء الله على المسلمين فى الرى نحوا مما حازوه فى المدائن وجعل نعيم أبا الفرخان والياً على المدينة وكتب إلى عمر بالفتح فأرسل إليه أن سير أخاك سويداً إلى قومس (تقع بين خراسان وبلاد الجبل) فسيره إليها فلم يقف فى وجهه أحد فأخذها سلماً وعسكر بها ثم كتب إليه أهلها فى الرجوع إلى بلادهم ودفع الجزية فأجابهم وكتب لهم كتاباً هذا نصه.

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ماأعطى سويد بن مقرن أهل قومس ومن حشوا من الأمان، على أنفسهم ومللهم وأموالهم، على أن يؤدوا الجزية على كل حالم بقدر طاقته، وعلى أن ينصحوا، ولا يغلوا، وعليهم نزل من نزل بهم من المسلمين يوماً وليلة من أواسط طعامهم، وإن بدلوا واستخفوا بعهدهم فالذمة منهم بريئة،

وكتب وشهد وسار إلى خرجان (بلد شمالى بلاد فارس) وعسكر قريباً منها، فراسله ملكها على الصلح ودفع الجزية فأجابه وخرج إليه الملك وتلقاه خارج المدينة، ثم دخل معه وعسكر بها وجبى الخراج: وفيها راسله صاحب طبرستان (إقليم فى الشمال) فى الصلح على أن يتوادعا ويجعل له شيئاً على نصر ولا معونة على أحد فأجابه وكتب له كتاباً هذا نصه:

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب من سويد بن مقرن للفرخان اصبهبذ خراسان على طبرستان وجيلان من أرض العدو. إنك آمن بأمان الله عز وجل على أن تكف بصوتك وأهل حواشى أرضك، ولا تؤوى لنا بغية، وتتقى من ولى فرج أرضك بخمسمائة ألف درهم من دراهم أرضك فإذا فعلت ذلك فليس لأحد منا أن يغير عليك، ولا يتطرق أرضك، ولا يدخل عليك إلا بإذنك، سبيلنا عليكم بالأذان آمنة وكذلك سبيلكم، ولا تؤون لنا بغية، ولا تسلون لنا إلى عدو، ولا تغلون، فإن فعلتم فلا عهد بيننا وبينكم شهد سواد بن قطبة التميمى وهند بن عمرو المرادى وسماك بن مخرمة الأسدى ابن عبيد الله العبسى وعتيبة بن النهاس البكرى.

ثم أرسل عمر بن الخطاب إلى عبد الله بن عبيد الله بن عتبان أمير البصرة قبل المغيرة يأمره أن يسير إلى أصبهان، وأمر أبا موسى الأشعرى أن يكون مدداً له، فسار عبد الله حتى وصل أصبهان (فى العراق العجمى)، وعلى جندها الإسبيذان، فاقتتل الفريقان قتالاً شديداً انتهى بهزيمة المشركين، فطلبوا الصلح فصولحوا؛ ثم سار عبد الله إلى مدينة جى وهى قاعدة أصبهان فحاصرها ثم صالحه الفاذوستان وهو أمير أصبهان عليها مشترطاً الجزية على من أقام وأقام على ماله، وأن يجرى من أخذت أرضه عنوة مجراه، ومن أبى وذهب كانت لكم أرضه.

الانسياح فى بلاد العجم

ولما رأى عمر رضى الله عنه أن شوكة الفرس قد ضعفت فلم يعد يخاف على المسلمين من انسياحهم فى بلاد الفرس صمم على إتباع مشورة الأحنف بن قيس فأرسل إلى أبى موسى الأشعرى الذى قدمنا أن عمر ولاه البصرة بعد المغيرة بن شعبة وأمره أن يسير منها غير بعيد ويقيم حتى يأتيه أمره، ثم بعث إليه مع سـهيل بن عدى بألوية الأمـراء الذين يسيحون فى بلاد العجم: لواء للأحنف بن قيس ووجهته (خراسان) ولواء لمجاشع بن مسعود السلمى ووجهته (أزدشير خره وسابور) ولواء لعثمان بن أبى العاص الثقفى ووجهته (اصطخر) ولواء لسارية بن زنم الكتانى ووجهته (فساودرابجرد) ولواء لسهيل بن عدى ووجهته (كرمان) ولواء لعاصم بن عمرو ووجهته (سجستان) ولواء للحكم ابن عمير التغلبى ووجهته (مكران) وكان مبدأ الإنسياح فى مبدأ السنة الثامنة عشر.

فتح أذربيجان

فسار بكير بن عبد الله إلى أذربيجان (ولاية فى الغرب من بحر الخزر وقاعدتها الآن تبريز) وكتب إلى نعيم بن مقرن فاتح الرى أن يمده بسماك بن خرشة فلما طلع بكير بجبال جرميذان قابله المنهزمون من واج روذ وعليهم اسفنديار أخو رستم قتيل القادسية فقاتلوا بكيراً ولكنهم إنهزموا وأسر اسفنديار فقال: لبكير السلم أحب إليك أم الحرب قال: بل السلم فقال: لا تقتلنى وأمسكنى معك فإن أذربيجان لا يصالحونك مالم أصالحك فأمسكه بكير وبعد قليل وصل إليه مدد نعيم فسار الجميع إلى أذربيجان فصالح أهلها على الجزية وكتب بكير إلى عمر بذلك فأمره أن يولى عتبة بن فرقد على أذربيجان ويتقدم

هو مددا لجيش الباب فكتب عتبة لأهل أذربيجان كتاباً هذا نصه:

« بسم الله الرحمن الرحيم » هذا ما أعطى عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل أذربيجان سهلها وجبلها وحواشيها وشعابها وأهل مللها كافة على الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم على أن يؤدوا الجزية على قد طاقتهم ليس على صبى ولا امرأة ولا زمن ليس فى يديه شيء من الدنيا، ولا متعبد ولا متخل ليس فى يديه من الدنيا شيء، لهم ذلك ولمن سكن معهم وعليهم قرى المسلم من جنود المسلمين يوماً وليلة ودلالته ومن حشر منهم فى سنة وضع عنه جزاء تلك السنة ومن أقام فله مثل ما لمن أقام من ذلك ومن خرج فله الأمان حتى يلجأ إلى حرزه وكتب جندب.

فتح الباب

وسار سراقة بن عمر إلى الباب (ثغر بالخزر وهو الفاصل بين الفرس وأرمينية والروس) وعلى مقدمته عبد الرحمن بن أبى ربيعة وقد سبقه بكير إليها وانتظره فلما أطل عبد الرحمن بن أبى ربيعة أمير المقدمة على الباب والملك بها يومئذ شهريراز، كاتب عبد الرحمن فى الصلح فأجابه إليه فجاءه وقال: له إنى بإزاء عدو كلب وأمم مختلفة ليست لهم أحساب ولا ينبغى لذى الحسب والعقل أن يعينهم ولست من الفتح ولا الأرمن فى شيء وإنكم قد غلبتم على بلادى وأمتى فأنا فيكم ويدى فى أيديكم وجزيتى إليكم والنصر لكم والقيام بما تحبون فلا تسوموننا الجزية فتضعفوننا بعدوكم فأرسله عبد الرحمن إلى سراقة فكلمه بمثل ما كلم عبد الرحمن فقال له سراقة: لابد من الجزية على من أقام ولم يحارب العدو فأجابه إلى ذلك وصدق عليه عمر فكتب لهم سراقة كتاباً هذا نصه.

« بسم الله الرحمن الرحيم » هذا ما أعطى سراقة بن عمرو عامل أمير

المؤمنين عمر بن الخطاب شهريراز وسكان أرمينية والأرمن من الأمان أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وملتهم أن لا يضاروا ولا ينقصوا وعلى أهل أرمينية والأبواب الطراء منهم والثناء ومن حولهم فدخل معهم أن ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالى صلاحاً على أن يوضع الجزاء عمن أجاب إلى ذلك إلا الحشر والحشر عوض من جزائهم ومن استغنى عنه منه وقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء والدلالة والنزل يوماً كاملاً فإن حشروا وضع ذلك عنهم وإن تركوا أخذوا به ولما فرغ سراقة من الباب سير السرايا إلى الجبال المحيطة بأرمينية فوجه بكير بن عبد الله إلى موقان (كورة بأرمينية) وحبيب بن مسلمة إلى تفليس (بلد فى القوقاز من أملاك الروس الآن) وحذيفة بن أسد إلى جبال اللان.(أمة وبلاد فى طرف أرمينية) وسلمان بن ربيعة إلى الوجه الآخر فافتتح بكير موقان وصالح أهلها وكتب لهم هذا الكتاب.

« بسم الله الرحمن الرحيم » هذا ما أعطى بكير بن عبد الله أهل موقان من جبال الفتح الأمان على أموالهم وأنفسهم وملتهم وشرائعهم على الجزاء دينار عن كل حالم أو قيمته والنصح ودلالة المسلم ونزله يومه وليلته فلهم الأمان ما أوفوا ونصحوا وعلينا الوفاء والله المستعان فإن تركوا ذلك واستبان منهم غش فلا أمان لهم إلا أن يسلموا الغششة برمتهم وإلا فهم متمالئون كتب (سنة ٢١) وكتب سراقة إلى عمر بذلك ثم توفى سراقة رضى الله عنه واستخلف على جيشه عبد الرحمن بن أبى ربيعة فأقره عمر وأمره أن يغذو الترك فخرج حتى قطع الباب فسأله شهريراز عن وجهته فقال: أريد بلنجرد (بلد بالخزر خلف باب الأبواب) والترك فقال إنا لنرضى منهم أن يدعونا من دون الباب فقال: عبد الرحمن لكنا لا نرضى حتى نغزوهم بلادهم وبالله إن معنا أقواماً لو يأذن لهم أميرنا فى الإمعان لبلغت بهم الردم فقال: شهريراز ومن هم قال: أقوام صحبوا رسول الله ﷺ ودخلوا فى هذا الأمر بنية ولا يزال هذا الأمر فيهم حتى يغيرهم من يغلبهم وحتى يلفتوا عن حالهم فسار حتى بلغ بلنجرد فلما رآه أهلها قالوا ما اجترأ علينا إلا ومعه الملائكة ولم يقفوا فى وجهه ولم يزل حتى أبلغ خيله

البيضاء على مائتى فرسخ من بلنجرد ورجع ولم يصب أحد من جيشه وأقام هناك والياً على جيش الباب.

فتح خراسان

وسار الأحنف بن قيس إلى خراسان ليلاقى يزدجرد ملك الفرس الذى أقام بمرور يثير الفرس على المسلمين فلما بلغ هراة (بلد من إقليم خراسان وهى الآن من بلاد الأفغان) افتتحها ثم سار نحو مرو الشاهجان فخرج منها يزدجرد ولحق بمرو الروذ (كلاهما بين هراة وبلخ) وكتب إلى خاقان الترك وإلى ملك الصغد وملك الصين يستمدهما فملك الأحنف مرو الشاهجان واستخلف عليها ثم سار نحو مرو الروذ وخرج منها يزدجرد ولحق ببلخ (بلد قريب من نهر جيحون وهى الآن تحت حماية الروس) فملك الأحنف مرو الروذ وهنا أتته أمداد أهل الكوفة فسيرهم أمامه إلى بلخ فساروا حتى التقوا بيزدجرد هناك وقاتلوه فهزموه حتى عبر النهر ولم يدرك الأحنف ومن معه الموقعة حيث أتى بعد الهزيمة فرجع إلى مرو وأقام بها وأرسل إلى عمر بالفتح والأخماس وأخبره بعبور يزدجرد النهر فنهاه عمر عن العبور خلفه. أما يزدجرد فجاءته بعد عبوره أمداد الترك وعليهم خاقان وأمداد أهل فرغانة والصغد فعدا بهم النهر راجعاً وترك الترك أمام الأحنف وجيشه بمرو الروذ وقصد يزدجرد مرو الشاهجان فحصر حاميتها واستخرج منها خزائنه وأراد أن يرحل بها إلى فرغانة أو الصين فيقيم باحداهما فلم يمكنه من ذلك أهل خراسان قائلين ارجع بنا إلى هؤلاء القوم فصالحهم فإنهم أوفياء وأهل دين وإن عدوا يلينا فى بلادنا أحب إلينا من عدو يلينا فى بلاده ولا دين لهم ولا ندرى ما فاؤهم فلم يقبل فأخذوا منه الخزائن قهراً فلحق بخاقان ملك الترك الذى لم يتمكن من الوقوف أمام المسلمين وجاء الخراسانيون إلى الأحنف فصالحوه ودفعوا إليه خزائن كسرى وتراجعوا إلى بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا عليه زمن الأكاسرة واغتبطوا بملك المسلمين حيث أن الرجل منهم لم يكن مكلفاً إلا بدفع شىء قليل جزاء حمايته وبعد ذلك ماله وعرضه ودمه كمال المسلم وعرضه ودمه محرم كحرمة اليوم الحرام فى الشهر

الحرام فى البلد الحرام وناهيك بمن اعتبره المسلمون فى دمة الله فكيف تخفر وليس عليه بعد ذلك إلا النصيحة للمسلمين وعدم الممالأة عليهم فإن فعل شيئاً من ذلك فقد غدر وليست له ذمة فدمه حلال وماله حلال وهذا شىء يسير على الإنسان مادامت له الحرية فى دينه وعمله وهذا ماقرره دين الإسلام .

وأصاب الفارس يوم يزدجرد كسهمه يوم القادسية ثم سار الأحنف إلى بلخ وأنزلها أهل الكوفة لأنها من فتوحهم وكتب بكل ذلك إلى عمر وأقام هو والى خراسان (وتتمة حديث يزدجرد ستأتى فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه)

وسار عثمان بن أبى العاص الثقفى إلى اصطخر فالتقى هو وأهلها بجور (هى مدينة فيروز أباد قريبة من أصبهان ينسب إليها الورد الجورى) فهزمهم ثم رجع من فروا منهم طالبين البقاء فى بلادهم مع دفع الجزية فأجابهم ثم فتح كازرون والنوبندجان (قاعدة كورة بفارس اسمها سابور) واشترك هو وأبو موسى الأشعرى فى فتح شيراز (قصبة بلاد فارس) وأرجان وسيبنز وقصد عثمان جنابة (بلد بفارس تحازى جزيرة خارك بالبحر الفارسى وتقرأ الآن كرك وهو غلط مصدره الترجمة) ففتحها ولقى جمعاً من الفرس بناحية شهرك فهزمهم ثم أقام والياً باصطخر .

فتح فسا ودرابجرد

وسار سارية بن زنيم الكلابى إلى مدينة فسا ودرابجرد والتقى مع أهلها بصحراء فاقتتلوا ثم إن الفرس استمدوا من بقربهم من أكراد فارس فأمدوهم فدهى المسلمين أمر عظيم وكان عمر رضى الله عنه قد رأى ليلة الواقعة فيما يرى النائم ماعليه المسلمون فلما أصبح نادى بالصلاة جامعة حتى إذا كانت

الساعة التى رأى فيها ما رأى خرج إلى المسلمين وكان سارية ومن معه بصحراء إن أقاموا فيها هلكوا وإن استندوا إلى جبل خلفهم لم يؤتوا إلا من وجه واحد فقام عمر فقال ياأيها الناس إنى رأيت هذين الجمعين وأخبر بحالهما ثم صاح وهو يخطب ياسارية بن زنيم الجبل الجبل . ثم أقبل على المسلمين وقال إن لله جنوداً ولعل بعضها أن تبلغهم . فبحول الله وقوته سمع سارية هذا الصوت فانحاز بمن معه إلى الجبل وقاتل العدو حتى هزموهم فأرسل إلى عمر بالفتح والخمس ومعه سفط فيه جوهر فلما رآه عمر لم يقبله ورده ليباع ويقسم على الفاتحين ، وسأل من فى المدينة رسول سارية هل سمعتم شيئاً يوم الواقعة ؟ قال : نعم سمعنا(ياسارية الجبل الجبل)فلجأنا إليه وقد كدنا نهلك ،وأقام سارية واليا على درابجرد .

فتح كرمان

وسار سهيل بن عدى إلى كرمان «ولاية تلى إقليم فارس من الشرق عاصمتها كرمان» وأمده عمر بعبد الله بن عبد الله بن عتبان فلما وصلاها وجدا بها جمعاً عظيماً من الفرس فقاتلاهم حتى فض الله جمعهم وقتل مرزبان كرمان فدخلها المسلمون ظافرين ووجدوا فيها كثيراً من البعير والشاه .

فتح سجستان

وسار عاصم بن عمرو إلى سجستان «ولاية شرقى كرمان أغلبها الآن فى أيدى الأفغان وقصبتها زرنج» فاستقبله أهلها بحرب انتهت بهزيمتهم فتبعهم المسلمون حتى حصروهم بزرنج فطلبوا الصلح على زرنج وما احتازوه من الأرضين واشترطوا أن فدافدها حمى فأجيبوا وكان المسلمون يتجنبون هذه الفدافد خشية أن يصيبوا منها شيئاً فيكونوا قد خفروا الذمة وهو أمر نهوا عنه .

فتح مكران

وسار الحكم بن عمير التغلي إلى مكران ولحقه سهيل بن عدى فاتح كرمان وعبد الله بن عتبان الذى كان مدداً لسهيل فساروا حتى انتهوا إلى دوين النهر (على الحدود بين الفرس والسند) والمشركون من مكران على شاطئه وأمدهم ملك السند بجيش كثيف فقاتلهم المسلمون حتى هزموهم وأوصلوهم النهر ثم رجع المسلمون إلى مكران وكتب الحكم بالفتح والخمس إلى عمر مع صحار العبدى فسأله عمر عن مكران فقال : ياأمير المؤمنين هى أرض سهلها جبل وماؤها وشل وثمرها وقل وعددها بطل وخيرها قليل وشرها طويل والكثير فيها قليل والقليل فيها ضائع وما وراءها شر منها . فقال عمر : أسجاع أنت أم مخبر ولا والله لا يغزوها جيش لى أبداً وكتب إلى الحكم يأمره بالوقوف عند ما فتح وألا يجوز مكران .

هذا ما فعله المسلمون من الأفعال العظيمة مدة عمر فى البلاد الفارسية ذات الشوكة ، العظمة ابتدأوا سنة إثنتى عشرة من الهجرة فى فتح أول بلد من بلادهم وهى الأبلة واستمروا على الفتوحات إلى أن مات عمر رضى الله عنه ، تمموا فتح بلاد تبتدىء من حدود بلاد العرب غرباً وتنتهى إلى ما وراء النهر وبلاد السند شرقاً والخليج الفارسى جنوباً وبحر الخزر وأرمينية والروس شمالاً . اجتمعوا مع الفرس فى كثير من الوقائع أشهرها وقعة الأبلة لخالد بن الوليد ووقعة القادسية لسعد بن أبى وقاص ونهاوند للنعمان بن مقرن ووقعة يزدجرد للأحنف ابن قيس وكثير غيرها ، لم تنكس لهم راية ولم يفل لهم جيش لم ير المسلمون فى وقعة من الوقائع مساوين أقرانهم من الفرس فى العدة والعدد بل كان الفرس فى كل وقعة أضعافهم . لم يكن العرب أعلم من الفرس بتعبية الجيوش ولا بإحكام معدات الدفاع . لم يكن المسلمون أكثر من الفرس مالا حتى يمكنهم أن يستميلوا به أعداءهم ليكونوا معهم بل حالهم من الشظف وضيق العيش

لا يخفى، لم يكن المسلمون أعلم من الفرس بطرق الدسائس والخديعة حتى يستعملوها فى حروبهم فلم إذن هذه الإنتصارات الباهرة والفتوحات العظيمة؟ اللهم ماذلك إلا بالتأييد الإلهى اكتسبوه بإتحاد وإئتلاف قلوبهم حتى صاروا أجساماً متعددة لهم قلب واحد ورأى واحد وهو تعميم الدين الإسلامى بين الأمم الحائدة عن الصراط السوى والمنهج القويم، انظر رعاك الله إلى ما كلم به رسل سعد ملوك فارس وقواده تراه جواباً واحداً ، وهو أن الله أرسلنا لنخرج العباد من ظلمات الجهالة وجور الملوك إلى نور الإيمان وعدل الإسلام ، كلهم فى ذلك سواء حتى الأعرابى الجافى الذى كان قبل الإسلام لاهم له إلا النهب والغارة. لم تكن خلفاؤهم بالجبناء الذين يخشون تهديداً أو يخافون وعيداً ولم تكن قوادهم بالدخلاء الذين يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم ، ولم تكن الأمة بالمختلفة الأهواء المتشعبة المذاهب تشتغل بسفسف الأمور وتترك عظيمها أو تترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لخوف أو جبن ولم تكن علماؤهم يشتغلون بالزهو والكبرياء والعجب والتفانى فى حب الدنيا وتقليد المناصب والمفاخرة بذلك حتى تدب بينهم العداوة والبغضاء ، ولم يكن الدين قد بليت جدته بل كانت مظاهره تتجلى على أقوالهم وأعمالهم ، لا يخشون فى الله لومة لائم ، فلا عجب أن انتصروا وفتحوا وملكوا فى زمن يسير مالا يتصور أن تعمله أمة عظيمة عندها بسطة فى القوة والمال والعلم. اللهم ألهم المسلمين وولاة أمورهم ما فيه السداد فإن الطريق واضح والحق بين فإذا انتبهت البصائر، رشدت إلى ما فيه خيرى الدنيا والآخرة وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

فتح بلاد الشام

تركنا المسلمين فائزين منصورين باليرموك بعد موقعتها الهائلة وأمير الجند أمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح العامرى القرشى بعد سيف الله خالد بن الوليد المخزومى القرشى وحينئذ بلغ الأمير أن فلول الروم لحقوا بفحل وأن مدداً عظيماً من قبل ملك الروم أتى دمشق فكتب إلى أمير المؤمنين يستشيره

بأى البلدين يبدأ ، فكتب إليه أن سير إلى فحل فرقة تشغل من بها ، وسر أنت إلى دمشق فإنها حصن الشام وبيت ملكه .
فسير أبو عبيدة فرقة من جيشه إلى فحل فحاصرتها وسير أخرى لتكون بين حمص ودمشق لتمنع الإمداد عنها وأخرى لتكون بين دمشق وفلسطين ، وتوجه هو وعلى مقدمته خالد بن الوليد إلى دمشق واستخلف على فلسطين والأردن عمرو بن العاص .

فتح دمشق

فلما وصل إلى دمشق تحصن أهلها فحصرهم المسلمون (أبو عبيدة من جهة وخالد بن الوليد من أخرى) ودام الحصار سبعين ليلة وبينما خالد على حصاره ليلة سمع جلبه فأرسل من يستعلم الخبر لأنه كان يتجسس أحوال عدوه فلا يخفى عليه منها شيء لينتهز الفرصة فعلم أن ولد لبطريق المدينة ولد فصنع وليمة سكر فيها الجند سكراً شديداً فاتخذ خالد حبالاً على هيئة السلالم وأوقاها ثم نهض هو ومن معه من أرباب النجدة وهو أمامهم ومعه القعقاع (قبل أن يتوجه للعراق) وأمثاله وقال خالد لمن معه إذا سمعتم تكبيرنا على السور فاقصدوا الأبواب ولما وصل خالد ومن معه إلى السور رموا الحبال فعلق منها حبلان فصعدوا عليهما وتبعهم كثير ولما صاروا فوق السور قصدوا الباب ففتحوه وكبروا فدخل الجيش مكبراً حتى أزعج تكبيره أهل المدينة فصحوا من سكرتهم مذعورين لا يقدرون على شيء فذهب وفد منهم إلى أبى عبيدة يطلبون الأمان فأمنهم ودخل معهم المدينة ليؤمن الناس فالتقى بخالد وسط البلد هذا سلماً وذاك حرباً ، فأخبره أبو عبيدة بالصلح فكف وأجروا ما فتح عنوة مجرى الصلح فصارت كلها صلحاً وبعث أبو عبيدة إلى عمر بالفتح ثم استخلف على المدينة يزيد بن أبى سفيان ففتح سواحلها : (صيدا وعرقه وجبيل وبيروت) وسير أخاه معاوية لفتح قيسارية ففتحها . أما أبو عبيدة فسار إلى فحل وعلى مقدمته خالد وعلى المجنبتين عمرو ابن العاص وأبو عبيدة وعلى الخيل ضرار بن الأزور الأسدى وعلى الرجال عياض بن غنم وعلى الناس شرحبيل بن حسنة فنزل شرحبيل بالناس فحلا وحاصرها . وفى ليلة خرج الروم يريدون بيات

المسلمين وكان شرحبيل حذراً لا يبيت ولا يصبح إلا على تعبية لكثرة ماكان عمر بن الخطاب يحذرهم البيات فقاتلهم قتالاً شديداً تلك الليلة كلها ويومها كله فلما أمسى المساء خمدت همة الروم فانهزموا وحيل بينهم وبين المدينة بمياه كانوا فجروها ووحلوا بها الأرض لتكون خندقاً حول المدينة فأخذهم المسلمون من كل جهة واستولوا على المدينة فأرسل الأمير إلى عمر بالفتح والخمس ثم فصل من جيشه فرقتين أمر على إحداهما شرحبيل بن حسنة ووجهه إلى بيسان ووجه الأخرى إلى طبرية (قصبة الأردن) ففتح كل منهما مدينته على مثل صلح دمشق. أما أبو عبيدة فسار ومعه خالد إلى حمص فلما وصل مرج الروم التقى بجيشين بعثهما هرقل لقتال المسلمين أحدهما برياسة بطريق إسمه توذر والثانى برئاسة شنش الرومى فوقف خالد أمام الأول وأبو عبيدة أمام الثانى فلما أصبح خالد لم يجد لتوذر ولا لجيشه أثراً لأنه ترك خالداً وتوجه إلى دمشق ليفتحها ظاناً أن ليس بها حامية فعلم خالد قصده فتبعه وعلم به يزيد بن أبى سفيان أمير دمشق فاستعد للقائه فانحصر توذر بين الجيشين فأخذ هو وجنده ولم يفلت منهم إلا القليل أما أبو عبيدة فإنه لاقى شنش وهزمه فرجع خالد وقد قضى الأمر.

فتح حمص

فسار مع أبى عبيدة إلى حمص ولما بلغ ذلك ملك الروم وأرسل إلى بطريق حمص يأمره بالمسير إليها وسار هو إلى الرها أما المسلمون فمروا ببعلبك ففتحوها ولما وصلوا حمص حاصروها فتحصن أهلها منتظرين مدد هرقل ولكن لما طال عليهم الأمر راسلوا أبا عبيدة فى صلح مثل صلح دمشق فأجيبوا واستخلف عليها عبادة بن الصامت وسار هو قاصداً حماه فتلقاه أهلها مذعنين فصالحهم على الجزية والخراج ثم سار نحو شيزر (بلد قريب من حماه) ففتحها صلحاً وقصد بعدها المعرة (بين حماه وحلب) ففتحها كذلك ثم اللاذقية (من أعمال حلب) فملكها عنوة وهرب سكانها ثم طلبوا الأمان على أن يرجعوا إلى بلادهم ويقيموا فيها فقوطعوا على خراج يؤدونه وبنى فيها المسلمون

مسجداً جامعاً ثم أرسل أبو عبيدة خالداً لفتح قنسرين (كورة بالشام) فلما بلغ الحاضر قابله جمع عظيم من الروم عليهم قائد إسمه ميناس فقاتلهم خالد حتى هزمهم . وقصد قنسرين فتحصن أهلها منه . فقال لهم لو كنتم فى السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا . فنظروا فى أمرهم وما لقيه أهل البلدان الأخرى من المسلمين فرأوا أن لا قبل لهم بالحرب ولا الحصار فطلبوا الصلح على مثل صلح دمشق فلم يرض إلا على تخريب المدينة فخربت حصونها ثم أدرب خالد وراء هرقل من الشام وأدرب وراءه عياض بن غنم من الروم فترك ملك الروم الشام وودعها الوداع الأخير وسار إلى القسطنطينية ، ولما بلغ عمر فعل خالد . قال : أمر خالد نفسه يرحم الله أبا بكر كان أعلم بالرجال منى (ثم) سار أبو عبيدة إلى حلب فتحصن أهلها ثم طلبوا صلحاً بأمان على أنفسهم وأولادهم وأموالهم وكنائسهم وحصنهم فأجيبوا واستثنى عليهم موضع المسجد ثم سار إلى أنطاكية فصالحه أهلها على الجلاء لمن أراد والجزية على من أقام وكانت أنطاكية أعظم ثغور الروم فأرسل عمر إلى أبى عبيدة أن يرتب لها جماعة من المسلمين يرابطون بها . ثم سار إلى معرة مصرين ففتحها صلحاً وبث السرايا لما جاورها من القرى والبلدان ففتحت لهم ثم سار أبو عبيدة إلى قورس (كورة بنواحى حلب وهى الآن خراب) ففتحها وفتح تل عزاز ثم سار إلى منبج من بلاد الروم على الفرات فصالح أهلها على مثل صلح حمص واشترط عليهم أن يخبروا المسلمين بأخبار الروم وولى أبو عبيدة على كل كورة فتحها عاملا وشحن الثغور المخوفة بالمرابطين وسار إلى بالس (بلد بشط الفرات) وبعث سرية مع حبيب بن مسلمة إلى قاصرين فصالح أهلها وتم للمسلمين فتح الشام من هذه الناحية إلى الفرات . ثم عاد أبو عبيدة إلى فلسطين وسير جيشاً مع ميسرة بن مسروق العبسى وآمده بمالك بن الحارث الملقب بالأشتر فسلكوا درب بفراس (بلد بلحف جبل اللكام وهو جبل يسامت حماه وشيزر وأفامية ويمتد شمالا إلى صهيون والشغر وبكاس وينتهى عند انطاكية) إلى بلاد الروم فلقوا هناك جمعاً للروم معهم عرب من غسان وتنوخ وإياد يريدون اللحاق بهرقل فأوقعوا بهم وسير أبو عبيدة جيشاً آخر إلى مرعش (قرب انطاكية) ورئيسه خالد بن الوليد ففتحها على إجلاء أهلها بالأمان وخربها .

أما عمرو بن العاص الذى كان على الأردن فإنه سار إلى أجنادين وقد تجمع بها جيش عظيم من الروم عليهم داهية منهم اسمه أرطبون فحاصره عمرو حصاراً شديداً ثم لم يزل يتجسس حتى عرف مأخذه فحاربه وهزمه فانتهى فى هزيمته إلى إيلياء (بيت المقدس)

فسار وراءه عمرو وحصره ثم طلب أهله الصلح على أن يكون المتولى للعقد عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكتب عمرو إليه بذلك فعزم عمر على السفر إلى الشام ليتسلم بيده مفاتيح المسجد الأقصى فسار من المدينة بعد أن ولى عليها على بن أبى طالب وكتب إلى عماله أن يوافوه بالجابية وهى بلد بدمشق فوافوه بها وكان أول من لقيه يزيد بن أبى سفيان ثم أبو عبيدة ثم خالد بن الوليد على الخيول عليهم الديباج والحرير فنزل وأخذ الحجارة ورماهم بها وقال ما أسرع ما رجعتم عن رأيكم إياى تستقبلون فى هذا الزى وإنما شبعتم منذ سنتين والله لو فعلتم هذا على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم فقالوا ياأمير المؤمنين أنها يلامعة (هى ما برق من السلاح) وإن علينا السلاح قال فنعم إذاً وجاءه وهو بالجابية أهل إيلياء مستأمنين فصالحهم على الجزية وكتب لهم أماناً هذه صورته .

«بسم الله الرحمن الرحيم» هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم سقيمها وبريئها وسائر ملتها أن لا تسكن كنائسهم ، ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شىء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن إيلياء معهم أحد من اليهود ، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص ، فمن خرج منها فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو ، آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان فمن شاء

منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم ، وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية (اهـ من الطبرى) ولما دخل عمر المدينة دخل كنيسة القيامة وجلس فى صحنها وحان وقت الصلاة فقال للبطريك : أريد الصلاة ، فقال : له صل موضعك . فامتنع وصلى على الدرجة التى على باب الكنيسة منفرداً ، فلما قضى صلاته قال للبطريك . لو صليت داخل الكنيسة أخذها المسلمون بعدى وقالوا هنا صلى عمر وكتب لهم ألا يجمع على الدرجة للصلاة ولا يؤذن عليها ، ثم قال : أرنى موضعاً أبنى فيه مسجداً . فقال على الصخرة التى كلم الله عليها يعقوب ووجد عليها ردماً كثيراً ، فشرع فى إزالته وتناوله بيده يرفعه فى ثوبه واقتدى به المسلمون كافة فزال لحينة ، وأمر ، ببناء المسجد (ذكر ذلك ابن خلدون فى الجزء الثانى من تاريخه ثم ولى رضى الله عنه الولاة على الشام بعد أن قسمها أقساماً وجعل فلسطين ولايتين إحداهما قصبتها الرملة والأخرى قصبتها إيلياء ثم رجع رضى الله عنه إلى المدينة فائزاً منصوراً وهذه أول مرة سافر إلى الشام .

وفى السنة الثامنة عشر حصل فى الشام طاعون أتى على كثير من جند المسلمين وهو طاعون عمواس ، وبلغ عمر خبره وهو متوجه إلى الشام المرة الثانية ، فوافاه الأمراء بسرغ (موضع قرب الشام بين المغيثة وتبوك) وفيهم أبو عبيدة فأخبروه بالوباء وشدته وكان مع عمر المهاجروين والأنصار فجمعهم مستشيراً أيمضى لوجهه أم يرجع فاختلفوا عليه فمن قائل خرجت لوجه الله فلا يصدنك عنه هذا . ومن قائل إنه بلاء وفناء فلا نرى أن تقدم عليه ، ثم أحضر مهاجرة الفتح من قريش فلم يختلفوا عليه بل أشاروا بالعودة ، فنادى عمر فى الناس إنى مصبح على ظهر . فقال أبو عبيدة أفراراً من قدر الله ؟ فقال : نعم من قدر الله إلى قدر الله لو كان لك إبل فهبطت وادياً له عدوتان إحداهما مخصبة والأخرى جدبة أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله . فسمع بهم عبد الرحمن بن عوف فجاءهم وقال إن

النبى ﷺ قال (إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه وإذا وقع ببلد وأنتم فيه فلا تخرجوا فراراً منه) فانصرف عمر بالناس إلى المدينة ، ومات بهذا الوباء أبو عبيدة فخلفه عمرو بن العاص فخرج بالجيش إلى موضع مرتفع من الجبال فخف عنهم الوباء . فاستحسن عمر فعله ، ومات يزيد بن أبى سفيان أمير دمشق فاستخلف عليها أخاه معاوية واستعمل شرحبيل بن حسنة على جند الأردن وخراجها . وأصاب الناس من الموت ما لم يروا مثله ثم رفعه الله عنهم بعد إقامته شهوراً ، فكتب الأمراء إلى عمر بما فى أيديهم من المواريث فجمع الناس واستشارهم وقال قد بدا لى أن أطوف على المسلمين فى بلدانهم لأنظر فى آثارهم فأشيروا على ، وإن مواريث أهل الشام قد ضاعت فأبدأ بالشام فأقسم المواريث وأقيم لهم ما فى نفسى ثم أرجع فأنقلب فى البلاد وأبدى إليهم فسار عن المدينة واستخلف عليها على بن أبى طالب وجعل طريقه على أيلة فلما دنا منها ركب بعيره وعلى رحله فرو مقلوب وأعطى غلامه مركبه فلما تلقاه الناس قالوا أين أمير المؤمنين ؟ قال : أمامكم — يعنى نفسه — فسار وانتهى هو إلى إيلة فقيل للمتلقين قد دخل أمير المؤمنين أيلة ونزلها فرجعوا ، ولما قدم رضى الله عنه إلى الشام قسم المواريث فورث بعض الورثة من بعض وأخرجها إلى الأحياء من ورثة كل منهم ورتب الشواتى والصوائف (الشواتى جمع الشاتية وهى السرية التى تغزو فى الشتاء والصوائف جمع صائفة وهى التى تغزو فى الصيف) وسد فروج الشام ومساحلها واستعمل عبد الله بن قيس على السواحل من كل كورة ، واستعمل معاوية على دمشق ، وعزل شرحبيل عن الأردن ، وقال للناس إنى لم أعزله عن ريبة ولكن أريد رجلا أقوى من رجل ، واستعمل عمرو بن عتبة على الأهراء (جمع هرى وهو بيت كبير يجمع فيه طعام السلطان) ثم قيل لعمر لو أمرت بلالا فأذن فأمره بذلك فما بقى أحد أدرك النبى ﷺ إلا بكى حتى بل لحيته ، وعمر أشد الناس بكاء ، وبكى من لم يدركه لبكائهم ، كل ذلك لذكرى رسول الله ﷺ ثم رجع عمر إلى المدينة فى ذى القعدة .

فتح مصر

ولما كان بالشام استأذنه عمرو بن العاص فى فتح مصر وذكر له خيرها وأنها قوة عظيمة لمملكة الروم وكانت إذ ذاك تابعة لهم عليها وال من قبلهم يقيم بالاسكندرية ، فسيره عمر بجيش كثيف ثم أتبعه بالزبير بن العوام فاقتحموا باب أليون وساروا فى قرى الريف إلى مصر وهناك قابلهم الجاثليق أبو مريم ومعه الأسقف بعثه المقوقس عظيم مصر لحماية البلاد فلما نزل بهم عمرو بدأه بالقتال فقال عمر لاتعجلوا حتى نعذر إليكم وليبرز إلى الجلثليق والأسقف فخرجا إليه فدعاهما إلى الإسلام أو الجزية وأخبرهما بوصية النبى ﷺ بأهل مصر بسبب هاجر أم إسماعيل . روى مسلم فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال «إنكم ستفتحون مصر وهى أرض فيها يسمى القيراط فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحما أو ذمة وصهراً» فقال قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلا الأنبياء آمنا حتى نرجع إليك . فقال مثلى لا يخدع ولكنى أؤلكما ثلاثاً لتنظرا . فقالا : زدنا . فزادهما يوماً . فرجعا إلى المقوقس عظيم القبط وارطبون الوالى من قبل الروم فأخبرهما خبر المسلمين فأما أرطبون فأبى وعزم على الحرب وبيت المسلمين فهزموه هو وجنده إلى الإسكندرية ونزل المسلمون عين شمس (وهى المطرية وكانت على فرع من فروع النيل) فحاصروها ، وبعث عمر لحصار الفرماء أبرهة بن الصباح ، ولحصار الاسكندرية عوف بن مالك ، وراسله أهل البلاد وانتظروا مايفعله المسلمون بعين شمس وبعد مدة من حصارها رضى أهلها بالصلح على إعطاء الجزية وأجروا ماأخذ قبل ذلك عنوة مجرى الصلح وشرطوا رد السبايا ، فأرسل ابن العاص إلى أمير المؤمنين بذلك فأجاب وكتب لهم عمرو بذلك كتاباً هذا نصه :

«بسم الله الرحمن الرحيم» هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وأموالهم وملتهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم لايدخل

عليهم شيء من ذلك ولا ينقص ولا يساكنهم النوب وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إن اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف درهم وعليهم ماجنى لصوتهم فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزاء بقدرهم وذمتنا ممن أبى بريئة وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوب فله مثل مالهم وعليه مثل ماعليهم ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا ماعليهم أثلاثاً فى كل ثلث جبايه ثلث ما عليهم على مافى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً وكذا وكذا فرساً على أن يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه ، وكتب وردان وحضر (عن الطبرى) فدخل ذلك الصلح أهل مصر كلهم. أما المبلغ الذى قرر عليهم فبلغ ألف ومائتين وخمسين ألفاً من دنانير اليوم باعتبار الدرهم قرشين ونصفاً فلا ينال الشخص الواحد منهم إلا عشر دينار أو مايزيد عن ذلك قليلاً لأن تعداد مصر إذ ذاك كان على أقل ماورد فى كتب التاريخ عشرة آلاف ألف . ثم نزل المسلمون على الفسطاط الذى ضربه عمرو واختطال حوله خيامهم فى الموضع الذى كانوا يحاصرون مصر منه ، وهجروا المدينة التى يسكنها المقوقس وأسس عمرو بمدينته مسجده المشهور ، ولما انتهى أمر الصلح سار عمرو إلى الاسكندرية فإجتمع له من بينها وبين الفسطاط من الروم والقبط فهزمهم واثخن فيهم ونازل الأسكندرية وطلب من أهلها النزول على صلح أهل مصر فلم يفعلوا ففتحها عنوة وغنم مافيها وجعلهم ذمة وكان الروم قد أخذوا فى وقت الحرب شيئاً كثيراً من الأقباط أهل الأرياف ، فأتوا إلى عمرو وقالوا لم نكن محاربين بل أخذت أموالنا قهراً عنا فرد عليهم ماعرفوه أنه لهم بعد إقامة البينة على ذلك ، ولما تم فتح مصر والاسكندرية وارتحل الروم إلى القسطنطينية أقام المقوقس والقبط على الصلح الذى عقده لهم عمرو وأُبْقِىَ المقوقس على رياسة قومه وكان المسلمون يشاورونه فيما ينزل بهم من المهمات إلى أن توفى وكان يقيم بالأسكندرية وفى بعض الأوقات بمنف.

وبفتح مصر انتهى مافعله المسلمون رضوان الله عليهم مع الروم فى مدة عمرو وأخذوا ولا يتين عظيمتين الشام ومصر وجزاء مهما من جنوب بلاد الروم (الأناضول) وبالإجمال فقد أضعفوا شوكتهم وأدالوا دولتهم، وحيث قد مضى القول فيما كان من الفتوحات زمن الخليفتين رضى الله عنهما وكان من اللازم على المسلم أن يعرف تلك النظامات السامية التى كان يتبعها المسلمون فى ذلك العصر حتى وصلوا إلى ماوصلوا إليه من خوارق العادات فنقول:

كان عصر رسول الله ﷺ وعصر الأمة فى عهد الخليفتين من بعده مظهر الإسلام ونظاماته فحق لنا أن نجعل هذا الوقت أساساً لنظام الإسلام فى العصر الأول ونحكم حكماً قطعياً أن المسلمين إذا اتبعوها عزوا وإذا حادوا عنها ذلوا.

مقام الخلافة

مقام الخلافة هو مقام نيابة عن سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ فى حراسة الدين وسياسة الدنيا وكان الخلفاء الراشدون يستمدون أقوالهم وأفعالهم من كتاب الله الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أو سنة رسول الله ﷺ ولذلك كانت الأمة تنظر إلى الخليفة نظرها إلى رسول الله ﷺ يبذلون له الطاعة فى سرهم وعلانيتهم ممتثلين قوله تعالى «**ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم**» وقوله تعالى «**ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ماتفعلون. ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا**» وقوله «**فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً**» فكانوا يرون أن عصيان الخليفة مروق عن الدين وخروج عن حده ولم يكن ذلك نتيجة تكبر أو ترفع من الخلفاء. حاشا لله. بل كان أصغر الناس يقف له الخليفة حتى تقضى حاجته إقتداء برسول الله ﷺ وكان عمر يجالس الفقراء والمساكين لايأنف من ذلك.

هذا كان حال الأمة مع الخليفة أما الخليفة فكان لايعتقد فى نفسه أنه أرق درجة من الأمة قال أبو بكر فى أول خطبة له (قد وليت عليكم ولست بخيركم) ولم يكن يظن لنفسه أدنى تصرف فى أموالهم ولا دمائهم قال رسول الله ﷺ فى خطبة الوادع «أيها الناس إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا» ولما أرسل خالد بن الوليد لأبى بكر هدية الفرس التى اعتادوا تقديمها لملوكهم عهدها من الجزية وأمر خالد أن يحسبها منها ولما جاءت عمر دخائر الأكاسرة بعد فتح العراق ردها

لتباع وتقسم على الفاتحين كما أمر الله تعالى ولما عدا جبلة ابن الأيهم الغسانى (آخر ملوك الغساسنة بالشام) على الأعرابى فلطم وجهه أبى عمر إلا القصاص وكان عمر يرسل لجميع الأمة فى الأمصار أن من آذاه وال أو أمير فليواف الموسم ليقتص له ، فكان الأمراء والولاء يخشون إيذاء مسلم أو ذمى لئلا يقتص منهم على رؤوس الأشهاد فينفضحوا فكانت الأمة فى نظر الخليفة سواء لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى قال أبو بكر فى أول خطبة له (الضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له الحق، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه) ولم يكن الخليفة يحتجب عن الرعية حتى يصعب على أحد منهم أن يكلمه فكان عمر لايبالى أن يجلس فى المسجد أو فى السوق وكانت الرحمة للأمة ملء قلوبهم تشبهاً برسول الله ﷺ سماه الله الرءوف فكان أبو بكر وعمر يخرجان بالليل يتفقدان أحوال البائسين من الأمة حتى لايكون لأحد عليهما حجة يوم لاينفع مال ولا بنون وكان عمر يقول والله الذى بعث محمداً بالحق لو أن جملا هلك ضياعاً بشط الفرات خشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب ـــ يعنى بذلك نفسه ـــ وكان إذا ولى عاملاً يقول اللهم إنى لم أبعثهم ليأخذوا أموالهم ولا يضربوا أبشارهم ، من ظلمه أميره فلا إمرة عليه دونى . وكان يحمل الدقيق على ظهره ليوصله إلى الفقراء والمساكين (روى الطبرى عن زيد بن أسلم عن أبية قال خرجت مع عمر بن الخطاب رحمه الله إلى حرة واقم حتى إذا كنا بصرار إذا نار تؤرث فقال ياأسلم إنى أرى هؤلاء ركباً قصر بهم الليل والبرد انطلق بنا فخرجنا نهرول حتى دنونا فإذا امرأة معها صبيان لها وقدر منصوبة على النار وصبيانها يتضاغون ، فقال : عمر السلام عليكم ياأصحاب الضوء ـــ وكره أن يقول ياأصحاب النار ـــ قالت : وعليك السلام . قال : أأدنو . قالت : ادن بخير أو دع . فدنا فقال : ما بالكم قالت قصر بنا الليل والبرد قال : فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون قالت : الجوع . قال : أى شىء فى هذه القدر ؟

قالت : ماء أسكتهم به حتى يناموا الله بيننا وبين عمر . قال : أى رحمك الله مايدرى عمر بكم . قالت : يتولى أمرنا ويغفل عنا . فأقبل على فقال : انطلق بنا فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق فأخرج عدلا فيه كبة شحم فقال :

احمله على فقلت أحمله عنك . قال : احمله على مرتين أو ثلاثاً . كل ذلك وأنا أقول أنا أحمله عنك . فقال فى آخر ذلك أنت تحمل عنى وزرى يوم القيامة لاأم . لك فحملته عليه فانطلق وانطلقت معه نهرول حتى انتهينا إليها فألقى ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئاً فجعل يقول ذرى على وأنا أحرك لك وجعل ينفخ تحت القدر وكان ذا لحية عظيمة فجعلت أنظر إلى الدخان من خلل لحيته حتى أنضج أدم القدر ثم أنزلها وقال : أبْغينى شيئاً فأتته بصحفة فأفرغها فيها ثم جعل يقول أطعميهم وأنا أسطح لك فلم يزل حتى شبعوا ثم خلى عندها فضل ذلك ، وقام فقمت معه فجعلت تقول جزاك الله خيراً ، أنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين . فيقول قولى خيراً إنك إذا جئت أمير المؤمنين وجدتنى هناك إن شاء الله ثم تنحى عنها . ثم استقبلها وربض مربض السبع فجعلت أقول له إن لك أشأنا غير هذا وهو لايكلمنى حتى رأيت الصبية يضطرعون ويضحكون ثم ناموا وهدأوا . فقام وهو يحمد الله ثم أقبل على وقال : ياأسلم إن الجوع أسهرهم وأبكاهم فأحببت أن لاأنصرف حتى أرى مارأيت منهم) بقدر ماكانت رحمتهم كانت شدتهم فى جانب الله وحدوده لايبالون على من أقاموها عليه متبعين ماقاله رسول الله ﷺ حينما سرقت المرأة المخزومية وكلموه فى أن يعفو عن قطع يدها «إنه أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها» وحد عمر ابنه فى شراب له فمات ، لم تمنعه رقة الأبوة عن إقامة حد الله ، وعلى العموم فكان خلقهم القرآن والسنة لاينحرفون عنها يمنة ولا يسرة ويجتهدون أن يصيبوا ماكان رسول الله ﷺ يعمله فى أمره كله .

الصلاة

كان المسلمون يعتقدون أن الفارق بين المسلم وغيره هو الصلاة قال تعالى «**إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً**» وقال «**إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**» وقال رسول الله ﷺ وقد سئل أي الأعمال أفضل «الصلاة لوقتها» فكانوا يحافظون على أوقاتها، ولما كان للشرع مقصد سام من تفضيل صلاة الجماعة لتجتمع القلوب بالتوجه لوجهة واحدة كانوا يفضلون صلاة الجماعة على صلاة الفذ (المنفرد) حتى إنهم ليتهمون تاركها بالنفاق وناهيك بما قاله رسول الله ﷺ في حق المتخلفين عنها «والذى نفسى بيده لقد هممت أن آمر بحطب فيحطب ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها ثم آمر رجلا فيؤم الناس ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم» رواه البخارى وقال رسول الله ﷺ «صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة» وكانت إمامة المسلمين فى الصلاة راجعة إلى الخليفة يعدها أرفع وظائفه ولقد استدل الصحابة رضوان الله عليهم على أحقية أبى بكر بالخلافة باستخلاف رسول الله ﷺ له فى الصلاة بالمسلمين حين مرضه ولم يكن الخلفاء يوكلون فيها بل كانوا يباشرونها بأنفسهم كما كان أمراؤهم فى الولايات كذلك ومثل إمامة الصلاة الخطبة فى أوقاتها والجمعة والأعياد والحوادث لايقوم مقام الخليفة أو أميره أحد من الناس. وهذا كان يفعل فى المساجد الكبرى فى الأمصار أما المساجد المختصة بقوم أو محلة فكان الخليفة يعين لها من يقوم بالصلاة فيها كما فعل عليه الصلاة والسلام مع أهل قباء وغيرهم وليس ذلك شأن الخطبة فإنه لم يكن فى المصر الواحد إلا مسجد واحد جامع يقوم فيه بالخطبة فيه أمير المؤمنين أو أمير المصر، وجعل الشرع عقاب تارك الصلاة كسلا: القتل إن لم يتب حسبما رآه بعض الفقهاء، ورأى آخرون أنه يعزر فحسب: أما إذا لم يعتقدها فهو مارق من الدين يقتل كفراً.

الزكاة

الزكاة هى أحد أركان الإسلام وقد أمر الشرع بأخذها من الأغنياء وردها على الفقراء وجعل لها نصاباً معلوماً متى ملكه الإنسان حقت عليه فى النقدين والنعم وما يخرج من بركات الأرض وعروض التجارة ، ومن منعها قوتل عليها كما فعل أبو بكر مع مانعي الزكاة . ومصارفها مذكورة فى قوله تعالى «**إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضه من الله والله عليم حكيم**» والفقراء والمساكين هم العاجزون عن إدراك حاجاتهم بأنفسهم ، والعاملون عليها هم العمال الذين يعينهم الخليفة لقبضها ، والمؤلفة قلوبهم من لم يسلموا وينتظر إسلامهم إن أعطوا أو أسلموا وفى إسلامهم ضعف الإعطاء يقويه ، وقد أعطى رسول الله ﷺ القسمين بعد فتح مكة ، والرقاب هم المكاتبون الأرقاء الذين كاتبهم ملاكهم على شيء إذا دفعوه عتقوا أو الأسارى أو تشترى الرقاب فتعتق ، والغارمون هم الذين ركبتهم الديون ولا يملكون بعدها مايبلغ النصاب ، وسبيل الله الجهاد ، وابن السبيل المنقطع عن ماله ، ومن تأمل إلى نظام الزكاة وجده أبدع نظام لصلاح الأمة والحكومة فهى شيء لايضر الأغنياء ويعود بالنفع العميم على الفقراء فتعم السعادة الأمة بأسرها فلا يشتغل أفرادها بالاحتيال لأخذ أموال الناس بالباطل سلباً أو سرقة ، ولا تتولد العداوة والبغضاء بين الغنى والفقير فيتمنى هذا هلاك ذاك ، وتعسث أمة بين أفرادها عداوة وبغضاء .

الحج

الحج ركن من أركان الدين العظمى وقد فرضه الله على كل مسلم مرة فى عمره. قال تعالى «ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا» وكان الذى يتولى الحج بالمسلمين خليفتهم وكان الخلفاء الراشدون يكتبون إلى ولاتهم بالأمصار أن يوافوا موسم الحج للإطلاع على أمرهم وسيرهم مع رعيتهم فمن كان لأحد من الرعية عليه شكوى اقتص منه مع مافى ذلك من رؤية المسلمين فى بقاع الأرض لخليفتهم فيتجدد بذلك عندهم عهد الطاعة. وقلما كان الخلفاء ينيبون عنهم من يحج بالناس وقد فعل رسول الله ﷺ الأمرين جميعا فحج بنفسه حجة الوادع وأمر أبا بكر أن يحج بالناس فى السنة التاسعة.

الصوم

الصوم هو الركن الخامس من أركان الإسلام وقد فرضه الله على الأمة شهراً فى السنة لتنهذب نفوسهم وتعطف على الفقراء والمساكين الذين بهم خصاصة فيعطوا الزكاة عن طيب نفس، ولذا فرض الله عقبه زكاة الفطر وتارك الصوم يعزر بما يراه الإمام رادعا. فما أرفق هذه الأركان وما أسعد الأمة لو تبعتها ولم تتهاون بشىء منها فكلها لها حكمة باهرة لم يفرضها البارىء عبثاً، ياعجبا كل العجب لمن يقول إنى مسلم ثم هو يترك ركناً من أركان دينه !! ألا يرى أنه إذا نقض من البناء ركن تداعى له البناء كله. ويوشك أن ينقض من أسسه والعياذ بالله؟ ألهمنا ياألله الصواب ووفقنا لما يرضيك إنك سميع الدعاء.

القضاء

القضاء من وظائف الخلافة الكبرى لأنه منصب الفصل بين الناس فى الخصومات حسبماً للتداعى وقطعاً للنزاع بالأحكام الشرعية الملتقاة من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ ، قال الله تعالى فى سورة المائدة « **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** » وفى آية أخرى « **فأولئك هم الظالمون** » وفى أخرى « **فأولئك هم الفاسقون** » وكان الخلفاء فى صدر الإسلام يباشرونه بأنفسهم ولا يجعلونه لمن سواهم وأول من دفعه إلى غيره كما قال ابن خلدون هو عمر بن الخطاب فولى أبا الدرداء معه بالمدينة وولى شريحا بالبصرة وولى أبا موسى الأشعرى بالكوفة وكتب له فى ذلك الكتاب المشهور الذى تدور عليه أحكام القضاة وهذا نصه منقولاً بالكامل للمبرد .

« بسم الله الرحمن الرحيم » من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله ين قيس سلام عليك ، أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم إذا أدلى فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له . آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك حتى لايطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك . والبينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلاحلا، لايمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل ، الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة ، ثم اعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق ، واجعل لمن ادعى حقاً غائباً

أو بينة أمداً ينتهى إليه فإن أحضر بينته أخذت له بحقه وإلا أستحللت عليه القضية فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى. المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً فى حد أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنيناً فى ولاء أو نسب ، فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان ، وإياك والقلق والضجر والتأذى ، بالخصوم والتنكر عند الخصومات ، فإن الحق فى مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذخر ، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس ، من نفسه شأنه الله ، فما ظنك بثواب غير الله عز وجل فى عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام: وإنما قلد عمر القضاء لغيره ولقيامه بالسياسة العامة وكثرة أشغالها فى الجهاد والفتوحات وسد الثغور وحماية البيضة ، ولم يكن ذلك مما يقوم به غيره لعظم العناية به فاستخف القضاء فى الواقعات بين الناس ، واستخلف فيه من يقوم به تخفيفاً على نفسه وكان الذين ينتخبون لهذا العمل العظيم من كثرت صحبتهم لرسول الله ﷺ فسطع عليهم نوره فهم لذلك يقدرون على استنباط الأحكام من القرآن والسنة المطهرة ويتباعدون عن كل ما يغضب الله ورسوله من جور ورشوة قال تعالى فى سورة النساء «**وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل**» وقال «**يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل**» حتى كانوا يتباعدون عن قبول الهدايا وإجابة الدعوة إلى الولائم فكان الولاة إذ ذاك سُرُجاً يُهْتَدَى بهم فى الظلمات لا يريدون إلا الله بأعمالهم بعد أن قربت منهم الدنيا فابتعدوا عنها لعلمهم أنها ظلمات يوم القيامة فرضى الله عنهم أجمعين.

❊ ❊ ❊

الفتيا

الفتيا فى صدر الإسلام كانت مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وكان نور النبوة إذ ذاك ساطعاً على الأمة فبينهم كثير ممن روى الأحاديث وحفظها فمن مقل ومن مكثر كأم المؤمنين عائشة وعبد الله ابن مسعود وابن عمرو بن عمرو بن العاص وغيرهم ولم يكن هناك أدنى مجال للكذب على رسول الله ﷺ ، كيف وقد قال « من كذب على عامداً متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » فكان الدين خالياً من تلك الشائبة التى أحدثها خلف من بعدهم ، وكان الخلفاء يستفتون كبار الصحابة فيما يعرض لهم من الحوادث فقد استفتى عمر عبد الرحمن بن عوف فيمن قتل أرنباً فى الحرم . ولخطر الفتيا كان يحيلون على بعضهم فيها وكان المتصدرون لها منهم على كثرتهم سبعة عشر صحابياً وإنما كانوا يتباعدون عنها خوف الخطأ فى الأحكام .

الحدود

قد فرض الله عقاباً لكثير من الأعمال التى تنتج الفساد فى الأمة وهذا العقاب حاسم وكفيل بعدم العودة إلى الشر . وهو أربعة أنواع قتل وجلد وقطع وتعزيز . فالأول على من قتل نفساً بغير حق أو ارتد أو سعى فى الأرض فساداً أو فر من الزحف أو ترك الصلاة كسلا على رأى أو زنى بعد إحصان لأن الزنا جناية على الأمة كلها ، حيث يختل نظام البيوت فيخرج الولد ولا أب له يربيه ويهذبه فهو والحالة هذه أشد خطراً من جناية القتل ، والجلد لمن زنى قبل إحصانة مائة ، ومن قذف غيره بزنا يجلد ثمانين ، ومن شرب خمراً يجلد أربعين أو ثمانين على اختلاف الصحابة فى ذلك . والسارق تقطع يده والجانى على ما سوى النفس يقتص منه بمثل ما فعل ، العين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن والسن بالسن ، والجروح قصاص ، وجعل الحق فى العفو للمجنى عليه أو وليه ، وهذا حق من حقوق الأمة أخذه الحكام حباً فى الأثرة بالسلطان . أما إذا كان القتل فما دونه خطأً فقد فرض الشرع لولى المجنى عليه فى القتل الدية وله فيما دون ذلك الأرش ليكون بمثابة تعويض عما فقد من نفس أو عضو ، وهذا العقاب أفيد للمجنى عليهم وأردع للجناة . أما التعزيز فهو فيما سوى ذلك من الأعمال التى أنكرها الدين كالغصب وترك الصوم وما شاكل ذلك ، وهذا فوض الشرع فيه الأمر للولاة ولو كان كتابنا هذا من موضوعة التكلم فى الفروع لاستقصينا أحكام الشرع فى الحدود والجنايات ، ولكن فيما ذكرناه من أمهات المسائل كفاية فى الدلالة على أن نظام الشرع أرقى وأسمى مما يبتدع من النظامات التى لا تلبث على حال بل هى كل يوم فى تغيير وتبديل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

الجهاد

أرسل الله محمداً ﷺ بدين قويم بشيراً ونذيراً فقام بما حمل وبلغ رسالة ربه كما أمر ، ولما كان قومه العرب بدأ بهم عامة وبقريش خاصة فأرشدهم إلى الحق وأنار لهم الطريق ودعاهم إلى دين كله مكارم أخلاق فتبعه قوم وجفاه آخرون وقاموا فى وجهه يمنعونه تأدية رساله ربه ، فصبر عليهم صبر نبى كريم رءوف رحيم فلم يزدهم الحلم إلا غياً فارتكبوا صنوفاً من البغى والإيذاء له ولمن تبعه وازداد بهم الأمر حتى تآمروا على قتله ، فأمره الله بالهجرة إلى دار قوم اتبعوا وآمنوا به وهم الأنصار سكان المدينة الذين بايعوه على القيام دونه حتى يؤدى رسالة ربه ، فواقع قريشاً جملة وقائع أولها غزوة بدر وآخرها غزوة الفتح التى فتحت فيها ، مكة وسقطت دولة الأوثان من البيت الحرام فدان أكثر قريش بالدين الحنيفى وازدادوا به عزاً على عزهم فى الجاهلية ولما كان أكثر العرب ممالئاً لهم على ماهم فيه من الطغيان أمره الله بقتالهم كافة كما قاتلوا المسلمين كافة فكان له معهم جملة مواقع آخرها وقعة هوازن بحنين التى ذهبت بها دولة الشرك من بلاد العرب ، ودعا عليه السلام من يجاوره من أهل الكتاب إلى دينه الذى جاء مصدقاً لما بين يديه قال تعالى فى سورة آل عمران « **نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان** » فأبوا الدخول فى دينه فعاهدهم وعاهدوه على ألا يكونوا مع عدوه ، فلم يفوا بما عاهدوا ، وما لأوا الأحزاب فنبذ إليهم على سواء وواقعهم جملة مواقع آخرها غزوة خيبر التى انفض بها جموع اليهود وزالت دولتهم .

ولما كانت دعوته عليه الصلاة والسلام عامة بحكم قوله تعالى فى سورة

سبأ «**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً**» وأرسل ، ملوك الأرض الذين كانت لهم السطوة إذ ذاك ، فكاتب ملك الفرس كسرى ومن تحت حمايته من ملوك العرب ، وكاتب قيصر ملك الروم ومن تحت رعايته ، وكاتب النجاشي ملك الحبشة ، ليستضيء العالم بنور الإسلام ويتساوى الصغير والكبير أمام الحق فلا يطمع الشريف فى الحيف ولا ييأس الضغيف من العدل فتتخلص الأمم من جور ملوك كانوا يعدون أنفسهم آلهة ورعيتهم عبيداً ، وكان مما فرضه الله على لسان نبيه أن من أسلم فقد أحرز ماله ودمه وصار للمسلمين أخاً لايكلف إلا دفع الزكاة التى بها قوام ، الأمة ومن أبى الإسلام لايجبر عليه بل يرضى بحكم الإسلام ونظاماته فى المعاملات يدفع مقابل حمايته جزء صغيراً حده الشرع ، وبذلك يكون فى ذمة الله ورسوله له ماللمسلمين وعليه ماعليهم فيجب على المسلمين أن يدافعوا عنه كما يدافعوا عن أنفسهم وأموالهم وأبنائهم وله الحرية التامة فى العمل بمقتضى دينه أما من أبى الأمرين فيقاتل لأن الإسلام دين قويم جاء مصدقاً بجميع الكتب المنزلة قبله واحتوى على مكارم أخلاق عليها مدار السعادة فى الدنيا فآبى الدخول فيه أو الإنقياد لأحكامه الدنيوية مع البقاء على دينه فى عبادته لاعذر له ، ولما توفى رسول الله ﷺ كان من واجبات الخليفة بعده تتميم ماأمر به لأنه خليفته فى حراسه الدين وسياسة الدنيا فقام الخلفاء الراشدون بعده بذلك خير قيام غير هيابين ولا وكلين فجردوا الجيوش لحرب الدولتين العظيمتين المجاورتين لبلاد العرب — دولة الفرس ودولة الروم — بعد أن كتبوا لهم الكتب يدعونهم للدخول فى الإسلام أو الإنقياد لأحكامه مع إعطاء الجزاء وكانت قيادة الجيوش من وظائف الخليفة تبعاً لرسول الله ﷺ الذى كان يخرج بنفسه فى الغزوات ولكن لما كان للخلفاء مقاصد كثيرة فى بلدان متعددة يريدون فتحها فى آن واحد لم يكن بد من أن يستعينوا بغيرهم فى إمرة الجيوش ممن لايقل عنهم فى الشجاعة وتدبير الحرب فانتخبوا من إخوانهم من الصحابة من يستحق أن يسند له منصب عظيم كهذا ولم يكن ينظر فيه لغنى أو شرف قبيلة أو قدم صحبة أو كبر سن فقد ولى رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إمرة جيش فيه أبو بكر وعمر وولى أسامة بن زيد إمرة جيش آخر هما ، فيه وإنما كان ينظر فى ذلك إلى العلم

بالحرب والقدرة على تدبيرها وإعداد كل أمر لما يناسبه وكان الخلفاء يأمرون أمراء الجيوش بما كان يأمرهم به رسول الله ﷺ ألا يبدأوا أمة بقتال، حتى يعرضوا عليهم الإسلام فإن أبوه فالجزية فإن أبوهما فالقتال وكانوا يوصونهم بما أوصى به أبو بكر أسامة حين سيره بعد وفاة رسول الله ﷺ بعدم الإفساد فى الأرض وعدم التعدى على النساء والصبيان والشيوخ والرهبان. وكانوا يقسمون الجيش إلى خمسة أقسام: مقدمة وساقة ومجنبتان وقلب. ولكل قسم أمير يصدر عن أمر قائد الجيش وكانوا يقسمون الجيش بعد ذلك كراديس (صفوفاً) كل كردوس ألف رجل وعلى كل كردوس رجل من الشجعان يكون فيهم بمنزلة الأمير، ثم يقسمون الكردوس إلى عشرات على كل عشرة رئيس يسمى عريفاً، وكانوا يقاتلون بالزحف عملاً بقوله تعالى «**إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص**» وقال عليه السلام «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وقتال الزحف أشد الأعداء من قتال الكر والفر الذى كان متبعاً عند العرب (أما) غنائم الحرب فكانت تقسم أخماساً فأربعة أخماسها للغزاة، الراجل ثلث، الفارس والخمس الباقى حسبما أمر الله تعالى فى سورة القتال «**واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل**» وأما الأسرى فحكمهم ماذكره الله فى سورة القتال «**فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها**» والمن أن يعفو الخليفة عن الأسير فيطلقه من غير والفداء يختلف بحال الأسرى غنى وفقراً. أما سلب القتيل فحق القاتل لاينازع فيه، ولم يكن فى العصر الأول عدد معلوم للجيش بل كان كل مسلم ملزماً بالإستعداد عندما ينتدبه الخليفة وإذا كان الإستنفار عاماً وجب على كل مسلم الخروج ومن تخلف ظن فيه النفاق وعوقب أشد العقاب وناهيك ماحصل فى عهد رسول الله ﷺ للمتخلفين عن غزوة تبوك حيث نهى المسلمون عن مخالطتهم ومحادثتهم كأنهم ليسوا منهم إلى أن تاب الله عز وجل حينما ظنوا أن لاملجأ من الله إلا إليه، وكانت العادة فى عصر الخلفاء الراشدين أن من تخلف عن وجهته التى وجه إليها يشهر فى الناس حتى يعتبر المعتبرون وأول من عاقب بالقتل عن

التخلف عن الخروج إلى الوجهة التى أمر بها هو الحجاج بن يوسف الثقفى أمير العراق فى الدولة الأموية وكانوا يقرعون بين الناس إذا احتاجوا لعدد معين وكانت الجيوش تسير ونصر الله يكفلها وعنايته تحوطها لما كان عليه الأفراد من طاعة الرؤساء وما كان عليه الأمراء من الأنقياد لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وعدم الإستئثار بشيء من الفيء أو الغنيمة ، فليس ثم مجال للظنون التى تنزل بالرئيس والمرءوس إلى الدرك الأسفل من الهوان ، وانظر مافعله أبو عبيد بن مسعود الثقفى أحد أمراء جيش العراق حينما قدم له الفرس طعاماً خاصاً فإنه سألهم هل أطعمتم الجند مثله فقالوا لم يتيسر فامتنع من أكله وقال بئس المرء أبو عبيد إن صحب قوماً استأثر عليهم بالفى ، وهكذا كان غيره من الأمراء رضوان الله عليهم أجمعين وكان كل مسلم يعتقد أن الجهاد أول واجباته فترى طفلهم يشب وقد عود الفروسية والطعن والضرب وكان الصبيان يتسابقون إلى درج أسمائهم فى الغزاة ويحزنهم إن ردوا وناهيك بما كان من رافع بن خديج وسمرة بن جندب حينما استصغرهما رسول الله ﷺ فردهما ثم أجاز رافعاً لما قيل له إنه رام فبكى سمرة وقال لزوج أمة أجاز رسول الله ﷺ رافعاً وردنى مع أنى أصرعه فلما ، علم عليه الصلاة والسلام أمرهما بالمصارعة فغلب سمرة فأجازه : فإذا كبر الطفل ركب الأهوال وهو عالم بها معتقداً أنه سينال إحدى الحسنيين إما ظفر بفتح وإما ظفر بشهادة وحسبك فى ذلك ماأجاب به رسل سعد بن أبى وقاص رئيس جيش القادسية يزدجرد ملك الفرس ورستم قائد جيشها فإذا تأملت إلى اتفاق جميعهم فى الإجابة لم ترْتَب فى أن أولئك قوم لهم وجهة واحدة يتجهون إليها فى أقوالهم وأفعالهم وهى نصر دين الله وإعلاء كلمته لايبالون بما يحول دون ذلك من الأخطار ، أولئك قوم جاهدوا فى الله حق جهاده فمنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير ، وفى كلام الله سبحانه وتعالى وأحاديث رسول الله ﷺ كثير من المحرضات على الجهاد ولذلك أقبل المسلمون عليه غير هيابين ولا وكلين لاتلهيهم الأمانى الكاذبة ولا تخدعهم الأوهام.

بيت المال

أول من اتخذ بيتاً للمال عمر بن الخطاب وكان إيراده من زكاة المسلمين وجزية أهل الذمة وخمس الغنائم ومواريث من ليس لهم وارث من موتى المسلمين ، فكان مطهراً من المظالم نقياً عما كانت الملوك تأخذه من أممها ظلماً. وأما مصاريف بيت المال فكانت الزكاة تصرف فى مصارفها التى ذكرناها . فى الزكاة وجزية أهل الذمه تصرف فى سبيل الله وهو معدات الجهاد وخمس الغنائم فى مصارفه المذكورة فى الجهاد . ومواريث الموتى تصرف فيما يراه الإمام ولم يكن للمستحقين شيء مخصوص يعطونه حتى فرض عمر العطاء ودون الدواوين لحصر أسماء الغزاه ، فجعل للعباس خمسة وعشرين ألف درهم فى السنة ، ولأزواج رسول الله ﷺ عشرة آلاف عشرة آلاف ، ولأهل بدر خمسة آلاف خمسة آلاف ولنسائهم خمسمائة خمسمائة ، وألحق بأهل بدر أربعة ليسوا منهم الحسن والحسين ابنى على وأبا ذر وسلمان الفارسى ، ولمن بعد بدر إلى الحديبية أربعة آلاف أربعة آلاف ولنسائهم أربعمائة أربعمائة ، ولمن بعد الحديبية إلى أن انتهى أبو بكر من حروب أهل الردة ثلاثة آلاف ولنسائهم ثلاثمائة ثلاثمائة ، ولمن شهد القادسية واليرموك الفين ألفين ولنسائهم مائتين مائتين ولأهل البلاد النازع منهم ألفين وخمسمائه ألفين وخمسمائهولنسائهم كمن قبلهم ، ولمن بعد القادسية واليرموك ألفا ألفا ولنسائهم كمن قبلهم ، وللروادف المثنى خمسمائة ، ثم للروادف الثليث بعدهم ثلاثمائة ثلاثمائة ، وفرض للروارف الربيع مائتين وخمسين مائتين وخمسين وفرض لمن بعدهم وهم أهل هجر والعباد مائتين مائتين سوى كل طبقة فى العطاء قويهم وضعفيهم وعربهم وعجمهم ، وللصبيان مائة مائة ، ولكل مسكين جريبتين فى الشهر ، ثم قال عمر إنى كنت امرءً تاجراً يغنى الله عيالى بتجارتى وقد شغلتمونى بأمركم

هذا فما ترون أنه يحل لي من هذا المال؟ فقال علي ، لك ماأصلحك وعيالك بالمعروف ليس لك غيره ، فأخذ قوته ، واشتدت بعد ذلك حاجته فاجتمع نفر من كبار الصحابة فيهم عثمان وعلي وطلحة والزبير وقالوا : لو قلنا لعمر في زيادة نزيده إياها في رزقه ، فقال عثمان هلم فلنعلم ماعنده من وراء ورا ، فأتوا أم المؤمنين حفصه بنت عمر فأعلموها الحال وأوصوها ألا تخبر بهم عمر ، فلقيت حفصة عمر في ذلك فغضب وقال من هؤلاء لأسوءنهم قالت لاسبيل إلى علمهم ، قال أنت بيني وبينهم ماأفضل مااقتنى رسول الله ﷺ في بيتك من الملبس ؟ قالت ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد والجمع ، قال : فأي الطعام ناله عندك أرفع ؟ قالت : حرفاً من خبز شعير فصببنا عليه وهو حار أسفل عكة لنا فجعلتها دسمة حلوة فأكل منها . قال فأي مبسط يبسط عندك كان أوطأ ؟ قالت : كساء ثخين كنا نربعه في الصيف فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه . قال : ياحفصة فأبلغيهم أن رسول الله ﷺ قدر فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالترجية فوالله لأضعن الفضول مواضعها ولأتبلغن بالترجية وإنما مثلي ومثل صاحبي كثلاثة سلكوا طريقاً فمضى الأول لسبيله وقد تزود فبلغ المنزل ثم اتبعه الآخر فسلك سبيله فأفضي إليه ثم اتبعه الثالث فإن لزم طريقهما ورضي بزادهما لحق بهما وإن سلك طريقاً غير طريقهما لم يلقهما . فتأمل كيف أن عمر رضي الله عنه مع إقبال الدنيا على المسلمين وتغير الأحوال عما كانت في عهد رسول الله ﷺ لم يجد لنفسه مسوغاً أن يزيد عما كان عليه رسول الله ﷺ بل اتبع هديه وسار بسيرته ليلقاه آمنا ، وكان رضي الله تعالى عنه يقول أنا كوصي مال اليتيم إن استغنيت استعففت وإن أافتقرت أكلت بالمعروف إشارة إلى قوله تعالى في حق الوصي «**فمن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف**» وحج رضي الله عنه مرة فلما رجع قال لابنه أنظر كم صرفنا ، فنظر فإذا هو ستة عشر ديناراً فأخبره فقال عمر : لقد أسرفنا يابني ، لاجرم أن أعزه الله ومكن له في الأرض .

* * *

العلم والتعليم

كانت العرب أمة أُمِيَّة لاتشغل نفسها بالعلم فلما أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق نص كثيراً على فضل العلم والتعليم والتعلم ، قال تعالى فى فضل العلم « **يرفع الله الذين** آمنوا منكم **والذين أوتوا العلم درجات** » وقال « **هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون** » وقال عليه الصلاة والسلام « من يُرِدِ الله به خيراً يفقهه فى الدين ويلهمه رشده » وقال « العلماء ورثة الأنبياء » ومما قاله سبحانه وتعالى فى فضل التعلم « **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين** » وقال « **فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون** » وقال عليه السلام « من سلك طريقاً يطلب به علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة » وقال « باب من العلم يتعلمه الرجل خير من الدنيا وما فيها » ومما جاء فى فضل التعليم قوله تعالى « **ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** » فجعل ثمرة العلم التعليم وقال « **وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه** » وقال عليه الصلاة والسلام لمعاذ حين بعثه معلماً لأهل اليمن لأن « يهدى الله بك رجلا واحداً خيراً من الدنيا وما فيها » وقال « نعم العطية نعم الهدية كلمة حكمة تسمعها فتطوى عليها ثم تحملها إلى أخ لك مسلم تعلمه إياها تعدل عبادة سنة » وقال « مثل مابعثنى به الله عز وجل كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكانت منها بقعة قبلت الماء فأنبتت الكلا والعشب الكثير وكانت منها بقعة أمسكت الماء فنفع الله عز وجل الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا وكانت منها طائفة قيعان لاتمسك ماء ولا تنبت كلأ » الأول مثل للمنتفع بعلمه والثانى مثل للنافع بعلمه والثالث مثل للمحروم منهما فكانت هذه الآيات القرآنية والأحاديث المحمدية حاضة للأمة الإسلامية على العلم وتعليمه وتعلمه ، والعلم الذي حض الشرع على تعلمه هو الذى يوصل الإنسان إلى سعادته والأخروية والراحة فى الدنيا ، وها نحن نسوق لك العلوم التى كانت تعلم فى العصر الأول فنقول .

القرآن

كان أفضل مايتعلمه المتعلمون فى العصر الأول هو كتاب الله الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وما لم يعرفه الإنسان كان مقلداً فى إيمانه ، وهذا نقص لاينبغى لمسلم الإتصاف به ، ولا نعنى بتعلمه حفظه عن ظهر قلب لأن هذا لايتيسر للكثير من أفراد الأمة بل نقصد قراءته بتدبر وتفهم ليعلم المسلم أوامره وزواجره فيقف عند حده ، وكان القرآن فى عهد رسول الله ﷺ محفوظاً فى صدور الحفاظ ولم يكن مجموعاً فى مصحف فلما كانت خلافة أبى بكر ومات كثير من حفاظ القرآن فى وقعة اليمامة رأى رضى الله عنه أن يجمع القرآن فى مصحف بعد أن أشار عليه بذلك عمر بن الخطاب فقال كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ فلم يزل به حتى شرح الله صدره لذلك فندب لهذا العمل العظيم كاتب وحى رسول الله ﷺ وأحد الذين جمعوا القرآن فى عهده ﷺ وهو زيد بن ثابت الأنصارى فقال كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ فلم يزل به أبو بكر حتى شرح اللهصدره لما شرح له أبى بكر وعمر ، فقام بهذا العمل خير قيام وجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال ورتبه كما كان مرتباً فى عهد رسول الله ﷺ ولما كان يكتب سورة التوبة وأتى على قوله تعالى « **صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لايفقهون** » ظنها آخر السورة فجاءه خزيمة بن ثابت الأنصارى ذو الشهادتين وقال لقد أقرأنى رسول الله ﷺ بعدها « **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ؛ فإن تولوا فقل حسبى الله لاإله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم** » فكتبها وحقق الله بعمل أبى بكر ماقال فى سورة الحجر « **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** » فلما كان فى مدة عثمان ابن عفان وتفرق القراء فى الأمصار كان بينهم اختلاف فى الإقراء

اختلاف ألفاظ لا اختلاف اللغات فرأى حذيفة بن ثابت أن اختلافاً كهذا بين الأمة يؤدى إلى شقاق وفساد وأنهى ذلك إلى عثمان وحذره من سوء العقبى فرأى عثمان أن يجمع الأمة على مصحف واحد بلغة قريش فجمع ستة من كبار القراء فيهم زيد بن ثابت وأمرهم بذلك وقال لهم إن اختلفتم فى شىء فاكتبوه بلسان قريش فكتبوا عدة مصاحف سيرها إلى الأمصار وأبقى واحداً عنده وهذا المصحف هو الذى بين أيدينا الآن وهو الذى أقرأه رسول الله ﷺ أصحابه فجزى الله أصحاب رسول الله ﷺ أفضل ماجازى هداة قوم عن أمتهم وهذا الذى نقلناه فى جمع القرآن هو ماورد فى صحيح البخارى والإتقان للسيوطى.

* * *

السنة

السنة . ونعنى بها أحاديث رسول الله ﷺ مما شرع الله من الدين قال تعالى فى سورة الحشر « **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فإنتهوا** » وقال « **وما ينطق عن الهوى** » وكانت محفوظة فى صدور رواتها وكانوا يعلمونها أولادهم وخصوصاً مايتعلق منها بالمغازى يقولون تعلموا مجد آبائكم ويعلم الله أن ذلك من أفضل التعليم للناشىء فإنه يبث فى قلبه الحمية فيشب ولا شىء أحلى عنده من اكتساب مجد يعلى قدره ويرفع ذكره ولم تدون الأحاديث فى الكتب حتى زمن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه .

الفقة

الفقة كان فى عهد أصحاب رسول الله ﷺ مراداً به كما قال الغزالى فى الإحياء علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب ، يدلك على ذلك قوله تعالى « **ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** » وما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا وقال تعالى « **لهم قلوب لايفقهون بها** » وأراد به معانى الإيمان وقال ﷺ « **ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه قالوا ؟ بلى يارسول الله قال من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يؤمنهم من مكر الله ولم يؤيسهم من روح الله ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى ماسواه** » قال عليه الصلاة والسلام فى ضمام بن ثعلبة الأعرابى الذى وفد عليه فآمن به وعلم أركان الدين وسلم ذلك تسليماً خالصاً من شائبة نفاق أو رياء فقه الرجل » وهو لم يعلم بعد إلا أمهات الدين أما المسائل التى اصطلح على تسميتها بالفقة فى العصر الذى بعدهم فكانت تأتى أحكامها حسب وقائعها ولم يكن فى أصحابه من تجرد لاختراع المسائل والإجابة عليها .

التوحيد

التوحيد كان عندهم عبارة عن أن يرى الموحد الأمور كلها من الله عز وجل رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط فلا يرى الخير والشر إلا منه جل ذكره وكانوا يكتفون فى الإستدلال على ذات الله وصفاته بما ورد فى القرآن الشريف لايعتدونه إلى ماسواه إذ كانوا على الفطرة لم تشب قلوبهم شوائب الشك والإرتياب فكانوا بعيدين عن صناعة الكلام ومعرفة طرق المجادلة والإحاطة بطرق مناقضات الخصوم والقدرة على التشدق فيها بتكثير الأسئلة وإثارة الشبهات وتأليف الإلزامات «الأمور التى جعلت بعضهم موضوعاً للتوحيد» كان أصحاب رسول الله ﷺ فى شغل شاغل عن ذلك بنصر دين الله والإجتهاد فى تعميمه فى بقاع الأرض ، قال إمامنا المرحوم الشيخ محمد عبده فى رسالة التوحيد:

وقد مضى زمن النبى ﷺ وهو المرجع فى الحيرة والسراج فى ظلمات الشبهة وقضى الخليفتان بعده ماقدر لهما من العمر فى مدافعة الأعداء وجمع كلمة الأولياء ولم يكن للناس من الفراغ مايخلون فيه مع عقولهم ليبتلوها بالبحث فى مبانى عقائدهم وما كان من اختلاف قليل رد إليهما وقضى الأمر فيه بحكمهما بعد استشارة من جاورهما من أهل البصر بالدين إن كانت حاجة إلى الإستشارة وأغلب الخلاف كان فى فروع الأحكام لافى أصول العقائد ثم كان الناس فى الزمنين يفهمون إشارات الكتاب ونصوصه يعتقدون بالتنزيه ويفوضون فيما توهم التشبيه ويرون أن له معنى غير مايوهمه ظاهر اللفظ ا هـ:

أما الحكمة التى أثنى الله عليها فى قوله **«ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً»** والتى أثنى عليها رسول الله ﷺ فى قوله «كلمة من الحكمة

يتعلمها الرجل خير من الدنيا وما فيها ، والتى حض عليه السلام على البحث عنها فى قوله ! الحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنى وجدها » فقد كانت منتشرة بين الصحابة وورد عن كثير منهم حكم لايحصيها العد تهذب النفس وتحيى القلب وأكثرهم فى ذلك أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه وها نحن نسوق لك شذرات منها مما نقلناه من الجزء الثانى من الكتاب المرسوم

بنهج البلاغة قال رضى الله عنه « البخل عار ، والجبن منقصة ، والفقر يخرس الفطن عن حجته ، والمقل غريب فى بلدنه ، والعجز آفه والصبر شجاعة ، والزهد ثروة ، والورع جنة » نعم القرين الرضى ، « والعلم وراثة كريمة ، والآداب حلل مجددة والفكر مرآة صافيه »وقال « صدر العاقل صندوق سره والبشاشة حبل المودة والإحتمال قبر العيوب » وقال « إذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه » وقال إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه » وقال « إذا وصل إليكم أطراف النعم فلا تنفروا أقصاها بقلة الشكر » وقال من جرى فى عنان أمله عثر بأجله » وقال « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » ويروى هذا عن رسول الله ﷺ وقال « من كفارات الذنوب العظام إعانة الملهوف والتنفيس عن المكروب » وقال ياابن آدم إذا رأيت ربك سبحانه يتابع نعمه عليك وأنت تعصيه فأحذره » وقال « الحذر فوالله لقد ستر حتى كأنه اغفر » وقال « فاعل الخير خير منه وفاعل الشر شر منه » وقال « كن سمحاً ولا تكن مبذراً وكن مقدراً ولا تكن مقتراً » وقال « من أسرع إلى الناس بما يكرهون قالوا فيه بما لايعملون » وقال «طوبى لمن ذكر المعاد وعمل للحساب وقنع بالكفاف ورضى عنه الله » وقال « احذروا صولة الكريم إذا جاع وصولة اللئيم إذا شبع » وقال : « أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة » وقال : « القناعة مال لاينفد » وقال « اللسان سبع إن خلى عنه عقر » وقال « فوت الحاجة أهون من طلبها إلى غير أهلها » وقال « لاتستح من إعطاء القليل فإن الحرمان أقل منه » وقال « إذا تم العقل نقص الكلام » وقال « من نصب نفسه للناس إماما فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم » وقال

«قيمة كل إمرىء مايحسنه» وقال «أوصيكم بخمس لو ضربتم إليها آباط الإبل لكانت لذلك أهلا: لايرجون أحد منكم إلا ربه، ولا يخافن إلا ذنبه، ولا يستحين أحد إذا سئل عما لايعلم أن يقول لاأعلم، ولا يستحين أحد إذا لم يعلم الشيء أن يتعلمه، وعليكم بالصبر فإن الصبر من الإيمان، كالرأس من الجسد، ولا خير فى جسد بغير رأس، ولا فى إيمان لاصبر معه» وقال «من أصلح مابينه وبين الله أصلح الله مابينه وبين الناس، ومن أصلح أمر آخرته أصلح الله له أمر دنياه ومن كان له من نفسه واعظ كان عليه من الله حافظ» وقال «اعقلوا الخير عقل رعاية لاعقل رواية، فإن رواة العلم كثير ولكن رعاته قليل» وقال «لايترك الناس شيئاً من أمر دينهم لاستصلاح دنياهم إلا فتح الله عليهم ماهو أضر منه» وقال «إضاعة الفرصة غصة» وقال «عجبت للبخيل يستعجل الفقر الذى منه هرب! ويفوته الغنى الذى إياه طلب! فيعيش فى الدنيا عيش الفقراء ويحاسب فى الآخرة حساب الأغنياء وعجبت! للمتكبر الذى كان بالأمس نطفة ويكون غداً جيفة وعجبت لمن شك فى الله وهو يرى خلق الله وعجبت لمن نسى الموت وهو يرى الموتى وعجبت لمن أنكر النشأة الأخرى وهو يرى المنشأة الأولى وعجبت لعامر دار الفناء وتارك دار البقاء» وقال «لايكون الصديق صديقاً حتى يحفظ أخاه فى ثلاث فى نكبته، وغيبته ووفاته» وقال «تنزل المعونة على قدر المؤنة» وقال «المرء مخبوء تحت لسانه» وقال «لايعدم الصبور الظفر وإن طال به الزمان» وقال «الراضى بفعل قوم كالداخل معهم وعلى كل داخل فى باطل إثمان إثم العمل به وإثم الرضى به» وقال «من استبد برأيه هلك ومن شاور الرجال شاركها فى عقولها» وقال «من كتم سره كانت الخيرة بيده» وقال «الإعجاب يمنع من الازدياد» وقال «الناس أعداء ماجهلوا» وقال «ازجر المسىء بثواب المحسن» وقال «الطمع رق مؤبد» وقال «من أبدى صفحته للحق هلك» وقال «لم يذهب من مالك ماوعظك» وقال «لايزهدنك فى المعروف من لايشكر لك فقد يشكرك عليه من لايستمتع به وقد تدرك من شكر الشاكر أكثر مما أضاع الكافر والله يحب المحسنين» وقال «بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد» وقال

«من كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه» وقال «الكرم أعطف من الرحم» وقال «من ظن بك خيراً فصدق ظنه» وقال «الحدة ضرب من الجنون فإن صاحبها يندم فإن لم يندم فجنونه مستحكم».

وهذا قليل من كثير أوردناه لك لتعلم ماكان عليه أصحاب رسول الله ﷺ فى أقوالهم وأفعالهم فتعز بإتباعهم إن كان لك فى العز حاجة.

وهذه العلوم التى كانت فى العصر الأول مشغلة للمعلمين والمتعلمين لايعرفها إلا مسلم ولا يتركها إلا منافق وهى التى بها صلاح الأمة فى الدين والدنيا ولا بأس أن نذكر لك بعضها لتعلم كيف كان شغلهم بها.

الكتابة

كانت الكتابة فى صدر الإسلام قليلة جداً لأمية العرب ولكنها أخذت فى الإنتشار حينما حض على تعلمها رسول الله ﷺ وكان إبتداء شيوعها لما جعل عليه السلام فداء بعض الأسرى فى بدر أن يعلم عشرة من صبيان المدينة القراءة والكتابة وكان لرسول الله ﷺ كثيرون لكتابة الوحى والمراسلات أشهرهم على بن أبى طالب وعثمان بن عفان وزيد بن ثابت ومعاوية بن أبى سفيان وغيرهم وفى مدة الشيخين شاعت الكتابة أكثر.

لغات الأعاجم

أمر رسول الله ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلم اللغة العبرانية لغة اليهود ليكون بينه وبينهم وليكتب لهم عنه عليه السلام مايريد أن يكتبه فلا بأس أن يكون فى الأمة من يعرف اللغات الأعجمية متى كان هناك احتياج إلى ذلك وكان فى الصحابة كثير من عرف لغة الفرس والروم وغيرهم.

الطب

كان الطب مشتهراً بين العرب وله قوم مخصوصون اتخذوه حرفة من أشهرهم الحارث بن كلدة وقد انتدبه عليه السلام ليداوى مرضا ألم بسعد بن أبى وقاص وبعث عليه السلام إلى أبى بن كعب طبيباً فقطع منه عرقاً ثم كواه عليه. رواه مسلم ولرسول الله ﷺ أحاديث فى الحث على تعلم الطب منها «لكل داء دواء فإذا أصيب دواء الداء برىء بإذن الله» وفى هذا الحديث حث على معرفة طبائع العقاقير وتشخيص الداء حتى يجعل لكل داء دواءه. وورد عنه عليه السلام أحاديث فى الطب منها «الحمى من فيح جنهم فأبردوها بالماء» رواه مسلم ومنها — أو هو أثر — والمعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء وأصل كل داء البردة» ويعجبى هنا ماذكره الغزالى فى الإحياء تنديداً بطلاب العلم الذين جعلوا دأبهم الإشتغال بفروع الفقة الدقيقة التى تنقضى الدهور ولا يحتاج لشىء منها ويهملون ماعدا ذلك من الكفايات قال رحمه الله فكم من بلد ليس فيه طبيب إلا من أهل الذمة ولا تجوز شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقة ثم لانرى أحداً يشتغل به ويتهابرون على علم الفقة لاسيما الخلافيات والجدليات والبلد مشحون من الفقهاء ممن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع فليت شعرى كيف يرخص فقهاء الدين فى الإشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة وإهمال مالا قائم به !! هل لهذا من سبب إلا أن الطب ليس يتيسر به الوصول إلى تولى الأوقاف والوصايا وحيازة مال الأيتام وتقلد القضاء والحكومة والتقدم على الأقران والتسلط به على الأعداء) ونحمد الله أن أوجد من غير الفقهاء من يسد هذه الثلمة فى الأمة فقام بتعلم الطب وإفادة الناس منه ومن هنا يعلم أن الأمة فى العصر الأول لم تكن تخلو من قائم بالكفايات التى عليها مدار العمارية والتقدم كالحساب أو

الهندسة وغير ذلك . وإلى هنا انتهى ما أردنا إيراده من نظامات الإسلام وبقيت فى النفس بقية نذكر فيها معاملة المسلمين لبعضهم فى العصر الأول إذ هذا هو الذى تدور عليه سعادة الأمة وشقاوتها وبه عزها وذلها فاسمع وافقه ألهمنى الله وإياك الرشد قال الله تعالى فى كتابه العزيز « **واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا** » وقال « **إنما المؤمنين إخوة** »فكان أصحاب رسول الله ﷺ متآخين فى الله متحابين وكانت الأخوة بينهم فى أعلى درجاتها ,وهو الإيثار على النفس وقال الله تعالى فى وصف الأنصار « **والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدروهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** » فكان الرجل منهم يحب لأخيه ما يحب لنفسه عملا بقوله عليه السلام « لاتؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه » فلا يفشه لئلا يدخل تحت قول عليه السلام : « من غشنا فليس منا ، ولا يكذب عليه إذا حدثه ولا يخلفة إذا وعده ولا يخونه إذا ائتمنه لئلا يكون منافقاً » قال عليه السلام « آيه المناق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان » وفى حديث آخر « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ، إذا أؤتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر » ولا يقصر فى معاونته إمتثالا لقوله تعالى « **وتعاونوا على البر والتقوى** » ولا يسخر منه ولا يلمزه ولا ينابزه بالألقاب ولا يظن به الظنون ولا يتجسس عليه ولا يغتابه قال تعالى « **ياأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الإسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ◦ ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا إيغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم** » وقال عليه السلام « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً ، وقال لاتحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبيع بعضكم

على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، التقوى ههنا ــ ويشير إلى صدره ثلاث مرات ــ بحسب امرىء من البشر أن يحقر أخاه المسلم وكل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله » وقال « لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخوانا ولا يحل لامرىء أن يهجر أخاه فوق ثلاثة » ولا ينم عليه لئلا يحرم الجنة ، قال عليه السلام « لا يدخل الجنه نمام » ولا يسبه لئلا يفسق قال عليه الصلاة والسلام « سباب المؤمن فسوق » ولا يجرد فى وجهه سيفاً لئلا تكون عاقبته النار قال عليه السلام « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار قيل يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال أنه كان حريصاً على قتل صاحبه » وقال الله تعالى « **ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً** » ولا يترفع عليه لضعة فى نسبه أو قلة فى ماله قال عليه السلام فى حجة الوادع « أيها الناس كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على أعجمي إلا بالتقوى إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ولا يعامله بالربا ، كيف وقد نهى الله تعالى عنه أشد نهى فقال وقوله الحق « **الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون * ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون * وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون * واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون** » فليتدبر هذا النهى أولو النهى من المسلمين ليعرفوا كيف آلت حالهم وإلى ما هم عليه الآن . وكان المسلم يرى أن من دينه نصيحة أخيه قال عليه السلام « الدين النصيحة ، قيل لمن يارسول الله؟ قال لله ولرسوله ولأئمة المسلمين

وعامتهم » ويمنع عنه أذى يده ولسانه قال عليه السلام « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » وكان الحياء من شعارهم قال عليه السلام « الحياء من الإيمان » يطعمون الطعام ويقرءون السلام قال عليه السلام وقد سئل أى الأعمال أفضل « تطعم الطعام وتقرىء السلام على من عرفت ومن لم تعرف » يحبون الله ورسوله أكثر من الأموال والأولاد قال عليه السلام « ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار » ومن المعلوم أن المحبة ليست شقشقة اللسان إنما هى الطاعة فى الأقوال والأفعال

قال تعالى « **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم** » وآداب الإسلام التى كان المسلمون يتمسكون بها فى العصر الأول لانمل أن نذكر لك بعضاً منها ليكون لك من نفسك زاجر قال الله سبحانه « **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون** » وقال « **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون** » وقال « **ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين** » وقال « **يسألونك ماذا ينفقون قل ماأنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم** » وقال « **ياأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ماكسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون** « **ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد** » وقال « **إن تبدوا الصدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير** » وقال وهى من أهم مايجب على المسلمين تنفيذه « **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** « **ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا**

من بعد ماجاءهم البينات * وأولئك لهم عذاب عظيم« وقال «واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لايحب من كان مختالاً فخوراً» وقال «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً» وقال «ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين» وقال «ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود» وقال «ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا إعدلوا هو أقرب للتقوى» وقال «قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ماظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون * ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لانكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون * وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون» وقال «إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون * وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ماتفعلون» وقال «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً * واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا * ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً وآت ذاالقربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً * وإما تعرضنّ عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً * ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً * إن ربك

يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بعباده خبيراً بصيراً * ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأ كبيراً ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا * ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف فى القتل إنه كان منصوراً. ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده. وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا، وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم. ذلك خير وأحسن تأويلا. ولا تقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا. ولا تمش فى الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا، كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها» وقال «قد أفلح المؤمنون، الذين هم فى صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون، والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون، إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، والذين هم على صلواتهم يحافظون، أولئك هم الوارثون، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون» وقال «وإذ قال لقمان لأبنه وهو يعظه يابنى لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم، ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين أن أشكر لى ولوالديك إلى المصير، وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعلمون، يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير، يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر وأصبر على ماأصابك إن ذلك من عزم الأمور، ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحاً إن الله لايحب كل مختال فخور، واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير» وقال تعالى «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره» هذا ولو أردنا استقصاء الآداب الإسلامية التى جاء بها القرآن الكريم والسنة المطهرة لاحتجنا إلى مجلدات، ولكنا أردنا بما ذكرنا أمرين: الأول أنا ذكرنا لك أمهات

الفضائل التى كان المسلمون فى العصر الأول متخلقين بها ، والثانى أنا لفتنا نظرك أيها المسلم لمذاكرة القرآن لتعرف ماحتوى عليه من الآداب والحكم فتقف عند ماحده لك ومذاكرة السنة المطهرة الهادية ولا تكن ممن يضعها فى بيته تبركاً بأوراقها ونقوشها ،[١] والله الهادى إلى الصراط المستقيم .

مقتل عمر

لم يصب المسلمون فى العصر الأول بمصيبة بعد وفاة رسول الله ﷺ أعظم من قتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه : جنى عليه غلام مجوسى اسمه أبو لؤلؤة كان للمغيرة بن شعبة وها نحن نسوق لك مارواه البخارى فى صحيحه عن عمرو بن ميمون فى هذا المصاب الجلل قال عمرو ، إنى لواقف ما بينى وبينه (عمر) إلا عبد الله بن عباس غداة أصيب وكان إذا مر بين الصفين قال استووا حتى إذا لم ير فيهن خللا تقدم فكبر وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك فى الركعة الأولى حتى يجتمع الناس فما هو إلا أن كبر فسمعته يقول قتلنى أو أكلنى الكلب حين طعنه أبو لؤلؤة فسار العلج بسكين ذا طرفين لا يمر على أحد يميناً وشمالاً إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً فمات منهم سبعة فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنساً فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه وتناول (عمر) يد عبد الرحمن بن عوف فقدمه ، فمن يلى عمر فقد رأى الذى أرى وأما نواحى المسجد فإنهم لا يدرون غير أنهم فقدوا صوت عمر وهم يقولون سبحان الله سبحان الله فصلى بهم عبد الرحمن بن عوف صلاة خفيفة ، فلما انصرفوا قال : ياابن عباس انظر من قتلنى . فجال ساعه ثم جاء فقال : غلام المغيرة . قال : الصنع . قال : نعم . فقال قاتله الله لقد أمرت به معروفاً الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل يدعى الإسلام وقد كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثرا العلوج بالمدينة وكان العباس أكثرهم رقيقاً فقال إن شئت فعلت أى إن شئت قتلنا قال كذبت بعد ما تكلموا بلسانكم وصلوا إلى قبلتكم وحجوا حجكم

فاحتمل ، إلى بيته فانطلقنا معه وكان الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ ، فقائل يقول لا بأس عليه ، وقائل يقول أخاف عليه فأتى بنبيذ فشربه فخرج من جوفه ثم أتى بلبن فشربه فخرج من جوفه فعلموا أنه ميت فدخلنا عليه وجاء الناس يثنون عليه وجاء رجل شاب فقال أبشر ياأمير المؤمنين ببشرى الله لك من صحبة رسول الله ﷺ وقدم فى الإسلام ما قد علمت ثم وليت فعدلت ثم شهادة قال وددت أن ذلك كفاف لا على ولا لى فلما أدبر إذا إزاره يمس الأرض قال ردوا الغلام قال ياابن أخى إرفع ثوبك فإنه أبقى لثوبك واتقى لربك ياعبد الله بن عمر انظر ما على من الدين فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفا أو نحوه قال إن وفى بذلك مال آل عمر فأده من أموالهم وإلا فسل فى بنى عدى بن كعب فإن لم تف أموالهم فسل فى قريش ولا تعدهم إلى غيرهم فأدعنى هذا المال . انطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل يقرأ عليك عمر السلام ولا تقل أمير المؤمنين فإنى لست اليوم للمؤمنين أمير وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه ، فسلم واستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكى فقال يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه فقالت كنت أريده لنفسى ولأوثرن به اليوم على نفسى فلما أقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء ، فقال ارفعونى فأسنده رجل إليه ، فقال ما لديك ؟ قال الذى تحب ياأمير المؤمنين أذنت . قال الحمد لله ما كان شيء أهم إلى من ذلك فإذا قضيت فاحملونى ثم سلم فقل يستأذن عمر بن الخطاب فإن أذنت فأدخلونى وإن ردتنى فردونى إلى مقابر المسلمين ، وجاءت أم المؤمنين حفصة (بنت عمر) والنساء تسير معها ، فلما رأيناها قمنا فولجت عليه داخلا لهم فسمعنا بكاءها من الداخل فقالوا أوص ياأمير المؤمنين استخلف . فقال كما ورد فى رواية مسلم «أتحمل أمركم حياً وميتاً لوددت أنى أحظى منها من الكفاف لا على ولا لى وإن استخلف فقد استخلف من هو خير منى — يعنى أبا بكر — وإن أترككم فقد ترككم من هو منى — يعنى رسول الله ﷺ — قال عبد الله بن عمر فعرفت أنه — حين ذكر رسول الله — غير مستخلف ثم قال عمر ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر أو الرهط الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض فسمى علياً وعثمان والزبير

وسعداً وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وقال يشهدكم عبد الله ابن عمر وليس له من الأمر شيء كهيئة التعزية له فإن أصابت الإمرة سعداً فهو ذاك والا فليستعن به أيكم ما أمر فإنى لم أعزله من عجز ولا خيانة وقال أوصى الخليفة من بعدى بالمهاجرين الأولين أن يدفع لهم حقهم ويحفظ لهم حرمتهم وأوصية بالأنصار خيراً الذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم وأوصيه بالأهل الأمصار خيراً فإنهم ردء الإسلام وجباة المال وغيظ العدو وألا يأخذ عنهم إلا فضلهم عن رضاهم وأوصية بالأعراب خيراً فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام أن يأخذ من حواشى أموالهم وترد على فقرائهم وأوصيه بذمة الله وذمة رسول الله ﷺ يوفى لهم بعدهم وأن يقاتل من وراءهم ولا يكلفوا إلا طاقتهم فلما قبض خرجنا به فإنطلقنا نمشى فسلم عبد الله بن عمر وقال يستأذن عمر ابن الخطاب قال ادخلوا فأدخل فوضع هناك مع صاحبيه، وهناك قال على رضى الله عنه كما فى رواية البخارى عن ابن عباس (رحمك الله لأرجو أن يجعلك الله مع صاحبيك لأنى كثيراً ما كنت أسمع رسول الله ﷺ يقول كنت وأبو بكر وعمر وفعلت وأبو بكر وعمر وانطلقت وأبو بكر وعمر فإن كنت لأرجو أن يجعلك الله معهما) فلما فرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط فقال عبد الرحمن بن عوف اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم فقال الزبير قد جعلت أمرى إلى على وقال طلحة قد جعلت أمرى إلى عثمان وقال سعد قد جعلت أمرى إلى عبد الرحمن بن عوف فقال عبد الرحمن (لعثمان وعلى) أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه والله عليه والإسلام لينظرن إلى أفضلهم فى نفسه فأسكت الشيخان فقال عبد الرحمن أفتجعلونه إلى الله على أن لا آلو عن أفضلكم قال نعم فأخذ بيد أحدهما (على) فقال لك قرابة من رسول الله ﷺ وقدم فى الإسلام ما قد علمت فالله عليك أئن أمرتك لتعدلن ولئن أمرت عثمان لتسمعن ولتطيعن ثم خلا بالآخر فقال مثل ذلك فلما أخذ الميثاق قال أرفع يدك ياعثمان فبايعه وبايع له على وولج أهل الدار فبايعوه ولما تمت البيعة صعد عثمان المنبر فخطبهم فقال (الحمد ﷺ، أيها الناس اتقوا الله إن الدنيا كما أخبر الله عنها: لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً

وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) فخير العباد فيها من عصم بالله واستعصم بالله وبكتابه وقد وكلت من أمركم بعظيم لا أرجو العون عليه إلا من الله ولا يوفق للخير إلا الله وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ثم نزل .

ترجمة عثمان

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الأموى القرشي وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ولد فى السنة الخامسة من ميلاد رسول الله ﷺ وشب على الأخلاق الكريمة والسيرة الحسنة حيياً عفيفاً ولما بعث الله محمداً ﷺ كان عثمان من السابقين إلى الإسلام على يد الصديق رضى الله عنه وزوجه عليه السلام بنته رقية فلما آذى المشركون المسلمين هاجر رضى الله عنه مع زوجه إلى بلاد الحبشة ثم رجع إلى مكة قبل الهجرة إلى المدينة فلما أذن الله بها هاجر إليها هو وزوجه وحضر مع رسول الله ﷺ كل مشاهده ولكنه لم يحضر بدراً لشغله بتمريض زوجه التى ماتت عقب انتصار المسلمين فيها وأسهم له رسول الله ﷺ فى غنيمتها ثم زوجه بنته الثانية أم كلثوم وكان ممن عفا الله عنهم فى أحد وكان فى عمرة الحديبية سفيراً بين رسول الله ﷺ وبين قريش فلما شاع غدرهم بعثمان بايع النبى أصحابه بيعة الرضوان وقال بيده اليمنى هذه يد عثمان فضرب بها على يده فقال هذه لعثمان وكان له فى جيش العسرة إلى تبوك اليد الطولى فقد أنفق من ماله أكثر مما جاد به غيره واشترى بئر رومة بماله ثم تصدق بها على المسلمين فكان رشاؤه فيها كرشاء واحد منهم وقد قال عليه السلام « من حفر بئر رومة فله الجنة » ولما توفى رسول الله ﷺ كان للخليفتين من بعده عاملا أميناً . ولما أصيب المسلمون بقتل عمر كانت أغلبية الشورى له فقام بأمر الخلافة خير قيام إلا أن فى آخر مدته تغير بعض المسلمين عما كانوا عليه فى عهد رسول الله ﷺ والشيخين من بعده ودبت إليهم الدنيا وحبها وهو رأس كل خطيئة فقام عليه جماعة من بغاتهم فشتتوا شمل المسلمين بشق عصا الطاعة حتى تداعت أركان الخلافة وقتل ظلماً رضى الله عنه وقد جاوز الثمانين من عمره وكان

رجلاً ليس بالطويل ولا بالقصير حسن الوجه رقيق البشرة بوجهه أثر جدري. كبير اللحية عظيمها أسمر اللون أصلع عظيم الكراديس عظيم مابين المنكبين يصفر لحيته وله من الأولاد عبد الله الأكبر وعبد الله الأصغر وعمرو وخالد وأبان وعمر ومريم والوليد وسعيد وأم سعيد وعبد الملك وعائشة وأم أبان وأم عمرو ومريم وعنبسة وأم البنين.

* * *

أعماله فى خلافته

فى الكوفة

فى بدء خلافته استعمل سعد بن أبى وقاص على الكوفة عملا بوصية عمر وكان معه عبد الله بن مسعود على الخراج فأقام سعد فى إمارة الكوفة سنة ثم عزله عثمان لخلاف وقع بينه وبين عبد الله بن مسعود، سببه أن سعداً اقترض من عبد الله مالا فلما تقاضاه إياه لم يجد له سعد أداء فطلب منه التأجيل فلم يقبل وحصل بينهما فى ذلك نزاع فتعصب لهذا قوم ولذاك آخرون وكان هذا أول شقاق حصل بين أهل الكوفة فغضب لذلك أمير المؤمنين عثمان وعزل سعداً وولى مكانه الوليد بن عقبة بن أبى معيط بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس وأمه أم عثمان وعزل عتبة بن فرقد عن أذربيجان التى كانت تابعة لولاية الكوفة فانتقض أهلها فغزاهم الوليد فأغار على أهل موقان والبير والطيلسان ففتح وغنم ثم طلب أهل كور أذربيجان الصلح فصالحهم على صلح حذيفة وهو ثمانمائة ألف درهم (ثم) سير سلمان بن ربيعة الباهلى إلى أهل أرمينية فى إثنى عشر ألفاً فشتت شملهم ورجع إلى الوليد بغنائمهم فرجع الوليد من طريق الموصل فلما أتى المدينة جاءه وهو بها كتاب من عثمان يأمره أن يمد أهل الشام بجيش يقوده رجل ذو نجدة فندب الناس مع سلمان بن ربيعة الباهلى فانتدب له ثمانية آلاف سيرهم معه وأقام الوليد والياً على الكوفة خمس سنين فى نهايتها إتهمه جماعة من أهل الكوفة بأنه شرب الخمر وشهدوا بذلك عند عثمان فعزله عن إمارتها وجلده حد الشارب أربعين جلدة كما أفتى بذلك على بن أبى طالب وولى مكانه سعيد ابن العاص فلما وصل الكوفة صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: والله لقد بعثت إليكم وإنى لكاره ولكننى لم أجد بداً إذا أمرت أن آتمر، ألا وإن الفتنة قد أطلعت خطمها وعينها ووالله ضربن وجها أو تعيينى

وإنى لرائد نفسى اليوم ، ثم نزل وسأل عن أهل الكوفة فعرف حالهم وكتب إلى عثمان أن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وغلب على أهل الشرف والبيوتات منهم والغالب على تلك البلاد روادف قدمت وأعراب لحقت حتى لاينظر إلى ذى شرف أو بلاء من نابتتها ولا نازلتها ، فكتب إليه عثمان (أما بعد ففضل أهل السابقة والقدم ومن فتح الله عليه تلك البلاد وليكن من نزلها من غيرهم تبعاً لهم إلا أن يكونوا تثاقلوا عن الحق وتركوه وقام به هؤلاء واحفظ لكل منزلته وأعطهم جميعاً بقسطهم من الحق فإن المعرفة بالناس يصاب بها العدل) فأرسل سعيد إلى أهل القادسية والأيام فقال أنتم وجوه الناس والوجه ينبى عن الجسد فأبلغونا حاجة ذوى الحاجة وأدخل معهم من يحتاج إليه من اللواحق والروادف وجعل القراء فى سمره ففشت القالة فى الكوفة بالقدح فى ولاة عثمان وفيه لتوليته إياهم فكتب سعيد إلى عثمان فجمع الناس وأخبرهم بما كتب إليه فقالوا أصبت لاتطمعهم فيما ليس له أهل فأنه إذا نهض فى الأمور من ليس لها بأهل لم يحتملها وأفسدها ، فقال عثمان ياأهل المدينة استعدوا واستمسكوا فقد دبت إليكم الفتن وإنى والله لأتخلصن الذى لكم حتى أنقله إليكم إن رأيتم حتى يأتى من شهد مع أهل العراق سهمه فيقيم معه فى بلاده ، فقالوا كيف تنقل إلينا سهمنا من الأرضين فقال يبيعها من شاء بما كان له فى الحجاز واليمن وغيرها من البلاد ففرحوا وفتح الله عليهم أمرا لم يكن فى حسابهم وفعلوا ذلك واشتراه رجال من كل قبيلة وجاز لهم عن تراض : وفى عهد سعيد بن العاص فتحت طبرستان سار إليها ومعه الحسن والحسين إبنا على وابن عباس وابن عمر وابن العاص وابن الزبير وحذيفة بن اليمان وغيرهم من كبار الصحابة فقاتل أهلها ثم طلبوا الصلح فصالحهم وكان ذلك فى السنة الثلاثين ثم سار سعيد وحذيفة ابن اليمان لإمداد عبد الرحمن بن ربيعة الذى كان بالباب فلما بلغا أذربيجان سير سعيد وأقام هو رداء له فسار حذيفة وغزا مع عبد الرحمن ثم رجع إلى سعيد فصبحة بالكوفة . وفى السنة الثانية والثلاثين غزا مع عبد الرحمن ابن ربيعة الترك ثالث مرة وأوغل فى سيره فتجمع عليه الترك والخزر وقاتلوه قتالاً شديداً حتى قتل فتفرق جيشه فرقتين فرقة سارت نحو الباب فالتقت بسليمان بن ربيعة الباهلى أخى عبد الرحمن الذى سيره سعيد مدداً لأخيه فنجوا معه ،

وفرقة سارت نحو جيلان وجرجان فيهم سلمان الفارسى وأبو هريرة الدوسى واستعمل سعيد مكان عبد الرحمن أخاه سليمان على غزو الباب واستعمل على الغزو بأهل الكوفة حذيفة بن اليمان وأمدهم أمير المؤمنين عثمان بأهل الشام عليهم حبيب بن مسلمة

فتأمر عليهم سليمان ابن ربيعة وامتنع حبيب أن يكون تحت إمرته حتى قال أهل الشام ولقد هممنا أن نضرب سليمان فقال الكوفيون إذن نضرب حبيباً ونحبسه وإن أبيتم كثرت القتلى فينا وفيكم وكان هذا أول شقاق حصل بين الكوفيين والشاميين ودبت البغضاء بينهم بسبب التنافس فى الرياسة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، وفى السنة الثالثة والثلاثين حصل بالكوفة ماينبىء بمصيرها من دون إلى أدنى فى الشقاق والتنازع لأن نزالها من أصحاب رسول الله ﷺ قليلون وأهل السابقة والفضل من أهلها وزعهم سعيد ولاة على كور الكوفة من بلاد فارس وكان يجلس إلى سعيد كثير من أهل الكوفة للسمر فكانوا يتذاكرون وقائعهم وحوادثهم وأدى ذلك إلى مشاجرة بعضهم بعضاً واستخفوا بصاحب الشرطة لما نهاهم عن ذلك التنازع حتى أنهم ضربوه فطردهم سعيد من السمر عنده فابتعدوا وأقاموا فى مجالس لهم لاهم لهم إلا الوقيعة بسعيد ومن ولاه ، فكتب إلى أمير المؤمنين عثمان بخبرهم فكتب إليه أن يحمل رؤساءهم إلى معاوية بالشام وكتب إلى معاوية إن نفراً خلقوا للفتنة فأقم عليهم وأنههم فإن آنست منهم رشداً فأقبل وإن أعيوك فارددهم على فلما قدموا على معاوية أكرمهم وأحسن وفادتهم وأجرى عليهم أرزاقهم كما كانوا بالعراق فلم تزدهم النعمة إلا بطراً واستخفوا بمعاوية واعترضوا على ولايته فقال لهم إن رسول الله ﷺ كان معصوماً فولأنى وأدخلنى فى أمره ثم استخلف أبو بكر فولانى ثم استخلف عمر فولانى ثم استخلف عثمان فولانى ولم يولنى أحد إلا وهو عنى ،راض وإنما طلب رسول الله ﷺ للأعمال أهل الجزاء من المؤمنين والغناء وإن الله ذو سطوات ونقمات يمكر بمن مكر به فلا تتعرضن لأمر وأنتم تعلمون من أنفسكم غير ماتظهرون فإن الله غير تارككم حتى يختبركم ويبدى للناس سرائركم؟ ولما رآهم ممن ضلوا على علم فلم تفدهم النصيحة كتب إلى عثمان بخبرهم فأرسل إليه أن سيرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بحمص فلما وصلوا إليه دعاهم فقال ياآلة الشيطان لامرحباً بكم ولا

أهلاً قد رجع الشيطان محسوراً أأنتم بعد فى نشاط خسر والله عبد الرحمن إن لم يؤدبكم يامعشر من لاأدرى أعرب هم أم عجم لاتقولوا لى مابلغنى أنكم قلتم لمعاوية أنا ابن خالد بن الوليد أنا ابن من عجمته العاجمات أنا ابن فاقىء عين الردة والله يافلان لئن بلغنى أن احداً ممن معى دق عنك ثم غمصك لأطيرن بكم طيرة بعيدة المهوى ، فأقامهم شهراً كلما ركب أمشاهم خلفه حتى قالوا نتوب إلى الله أقلنا أقالك الله ، فما زالوا به حتى قال تاب الله عليكم (ثم) أن سعيد بن العاص أمير الكوفة رحل إلى أمير المؤمنين فى أمور تخص ولايته واستخلف على عمله عمرو بن حريث فقام جماعة من أهل الكوفة كرهوا ولاية سعيد واتفقوا على التوجه إلى عثمان واستعفائه منه وكاتبوا من عند عبد الرحمن بن خالد فساروا إليهم وخرج الجميع لذلك فقابلهم سعيد فى الطريق راجعاً فأخبروه خبره فقال كان يكفيكم أن ترسلوا لعثمان رجلا وإلى رجلا ثم رجع إلى عثمان وأخبره بذلك ، وقال إنهم يريدون البدل بى ويحبون أبا موسى فولاه عثمان عليهم وكتب إليهم (أما بعد فقد أمرت عليكم من اخترتم وأعفيتكم من سعيد ووالله لأقرضنكم غرضى ولأبذلن لكم صبرْى ولأستصلحنكم بجهدى فلا تدعوا شيئاً أحببتموه لايعصى فيه الله إلا استعفيتم منه أنزل فيه عندما أحببتم حتى لايكون لكم على الله حجة ولنصبرن كما أمرنا حتى تبلغوا ماتريدون) ثم جاء أبو موسى ودخل الكوفة وخطب أهلها وأمرهم بلزوم الجماعة ولم يزل والياً عليها حتى مات عثمان رضى الله عنه .

* * *

فى البصرة

كان والى البصرة أول خلافة عثمان أبو موسى الأشعرى فأقام فيها إلى السنة التاسعة والعشرين ثم عزله عثمان وولى بدله عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن عبد شمس وجمع له جند أبى موسى وجند عثمان بن أبى العاص الثقفى من عمان والبحرين (وفى) عهده انتقض أهل فارس بأميرهم عبيد الله ابن معمر فسار إليهم عبيد الله ولاقاهم على باب اصطخر فقتل وانهزم من معه ولما بلغ ذلك ابن عامر سار إليهم بجيش كثيف فقاتلهم قتالاً شديداً حتى هزمهم وفتح اصطخر عنوة وأتى دارابجرد وقد غدر أهلها ففتحها وبلغه ، وهو هناك أن أهل اصطخر عادوا إلى غدرهم فرجع إليهم وفتحها ثالث مرة وقتل كثيراً من وجوه أهلها ، ثم وطىء أهل فارس وطأة لم يزالو منها فى ذل (وفى) عهده قتل يزدجرد ملك الفرس وهو آخر ملوكهم والأخبار مضطربة فى كيفية قتله إلا أنهم اتفقوا على أنه قتل وحيداً وطريداً لم يغن عنه هذا الملك الواسع شيئاً واتفقوا على أنه قتل بيد أعجمية وكان يتمنى إذ ذاك أن لو كان وقع فى يد العرب المسلمين فإنهم كانوا يبقون عليه فيعيش منعماً فى ظل الإسلام الظليل ولكن أنى له ذلك والشقاء متى غلب لايرد؟ (وفى) السنة الحادية والثلاثين سار عبد الله بن عامر لفتح خراسان التى انتقض أهلها بعد موت عمر فلما وصل الطبسين وهما بابا خراسان تلقاه أهلها بالصلح فسار إلى قهستان فلقى أهلها وقاتلهم حتى ألجأهم إلى حصنهم ولما أقبل على المدينة طلب أهلها الصلح فصالحهم على ستمائة ألف درهم ثم قصد نيسابور فصالحه أهلها على ألف ألف درهم ثم وجه الأحنف بن قيس إلى طخارستان ثم إلى مرو الروز فلقيه جمع كثير من جموع المشركين فهزمهم ووجه الأقرع بن حابس التميمى إلى جمع من الفرس بالجوزجان ووصاه هو وقومه فقال (يابنى تميم تحابوا وتباذلوا تصلح أموركم وأبدأوا

بجهاد بطونكم وفروجكم يصلح لكم دينكم ولا تغلوا يسلم لكم جهادكم) فسار القوم حتى لقوا الأعداء فهزموهم ثم فتح الأحنف الطالقان صلحاً وسار إلى بلخ فصالحه أهلها على أربعمائة ألف درهم ، ثم سار إلى خوارزم فلم يتمكن من فتحها فعاد عنها (ثم) رجع ابن عامر بعد أن فتح هذه البلاد العظيمة مرة ثانية فقيل له مافتح الله على أحد مثل مافتح عليك فارس وكرمان وسجستان وخراسان فقال لاجرم لأجعلن شكرى لله على ذلك أن أخرج معتمراً من موقفى هذا فأحرم بعمرة من نيسابور (وبعد ثلاث سنين من إمارة ابن عامر بالبصرة بلغه أن رجلا نزل على حكيم بن جبلة العبدى وله آراء غير مقبولة فطلبه بن عامر فسأله من أنت فقال رجل من أهل الكتاب رغبت فى الإسلام وفى جوارك فقال مايبلغنى ذلك أخرج عنى فخرج حتى أتى الكوفة فأخرج منها فأتى الحجاز والشام فأخرج منهما فأتى مصر فعشش فيها ثم باض وفرخ وكان هذا الرجل هو عبد الله بن سبأ وابن السوداء وهى أمه كان يهودياً ثم أظهر إسلامه مع ضمير خبيث ، وكانت له أراء فاسدة منها أنه يقول عجبت ممن يصدق برجوع المسيح ولا يصدق برجوع محمد ، وكان هذا ابتداء القول بالرجعة وكان يقول إن علياً وصى محمد وقد غصبه من ولى قبله حقه فالواجب على المسلمين أن يقوموا لإعادة الحق إلى أهله وقد تبع مذهبه كثير ممن طاشت أحلامهم فكان هذا من ضمن الأسباب التى أدت إلى شق عصا الطاعة وافتراق الأمة الإسلامية التى لاينفعها إلا الإجتماع والإتحاد ولا يضرها إلا الإفتراق والإختلاف.

❋ ❋ ❋

فى الشام

فى أول ولاية أمير المؤمنين عثمان بن عفان جمع الشام كله لمعاوية ابن أبى سفيان بن حرب بن أمية وفى السنة الثانية من ولاية عثمان غزا معاوية الروم فبلغ عمورية ووجد الحصون التى بين طرطوس وانطاكية خالية فجعل عندها جماعة كثيرة من أهل الشام والجزيرة ثم رجع وأغزى الصائفة يزيد بن الحر العبسى ففعل مثل معاوية وفى هذه السنة أمره أمير المؤمنين أن يغزى حبيب بن مسلمة أرمينية فوجهه إليها فأتى قاليقلا وحاصرها وضيق على أهلها فطلبوا الصلح على الجلاء لمن أراد والجزية على من أقام فأجابهم وأقام حبيب بها شهراً ثم بلغه أن بطريق أرمينية قس قد جاء إلى حربه فى ثمانين ألفاً فأرسل إلى عثمان بالخبر فبعث إلى الوليد بن عقبة أمير الكوفة أن يمده فأمده بسليمان بن ربيعة فى ثمانية آلاف كما قدمنا وأجمع حبيب ومن معه رأيهم على تبييت الروم فسمعته امرأته أم عبد الله بنت يزيد الكلبية فقالت أين موعدك غداً فقال سرادق الموريان ثم بيتهم فقتل منهم مقتلة عظيمة ثم أتى السرادق فوجد امرأته قد سبقته إليه فكانت أول امرأة عربية ضرب عليها حجاب سرادق ثم عاد حبيب إلى قاليقلا ثم سار منها ونزل مربالا فأتاه بطريق خلاط بكتاب الصلح الذى كتبه له عياض بن غنم بالأمان فأجراه عليه ثم سار فلقيه صاحب مكس وهى من السفرجان فقاطعه على بلاده ثم سار إلى ازدشاط فحاصرها ثم صالح أهلها ثم أتى إليه بطريق السفرجان فصالحه على جميع بلاده ثم سار إلى تفليس ففتحها وسار سليمان ابن ربيعة إلى أران ففتح البيلقان صلحاً على أن أمنهم على دمائهم وأموالهم وحيطان مدينتهم واشترط عليهم الجزية على الرءوس والخراج على الأرض ثم أتى مدينة برذعة فعسكر على الترثور وهو نهر بينه وبينها فرسخ فقاتله

أهلها أياماً ثم صالحوه وفتح رساتيق البلاد ودعا أكراد البلاشجان إلى الإسلام فأبوا فقاتلهم وظفر بهم فأقر بعضهم على الجزية ودفع بعضهم الزكاة وهم قليل ثم سار إلى سمكور ففتحها ثم خربت بعد ثم عمرت فى زمن المتوكل على الله العباسى وسميت المتوكلية ثم صالح جميع سكان البلاد التى هناك ورجع (وفى) السنة الثامنة والعشرين فتح معاوية جزيرة قبرص وغزا معه كثير من كبار الصحابة فيهم أبو ذر وعبادة بن الصامت ومعه زوجه أم حرام بنت ملحان التى أخبرها رسول الله ﷺ أنها فى أول من يغزو فى البحر (روى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت فدخل عليها رسول الله ﷺ فأطعمته ثم جلست تفلى رأسه فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ وهو يضحك قالت فقلت مايضحكك يارسول الله قال ناس من أمتى عرضوا على غزاة فى سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر ملوكاً على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة (يشك أيهما قال) قالت فقلت يارسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم فدعا لها ثم وضع رأسه فنام ثم استيقظ وهو يضحك قالت فقلت ما يضحكك يارسول اللهقال ناس من أمتى عرضوا على غزاة فى سبيل الله كما قال فى الأولى قالت يارسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم قال أنت من الأولين. وكان معهم أبو الدرداء وشداد بن أوس وكان معاوية كثيراً مايتمنى غزو الروم فى البحر زمن عمر بن الخطاب فلا يأذن له لأن فيه غرراً بالمسلمين ولما كان زمن عثمان أذن وقال لاتنتخب الناس ولا تقرع بينهم فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه ففعل وسار من الشام إلى قبرص وأمده وإلى مصر عبد الله بن سعد بنفسه فاجتمعا عليها فصالحهم أهلها على سبعة آلاف كل سنة يؤدون إلى الروم مثلها لايمنعهم المسلمون من ذلك وليس على المسلمين منعهم ممن أرادهم من ورائهم وعليهم أن يعلموا المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم ويكون طريق المسلمين إلى العدو عليهم وفى هذه الغزوة ماتت أم حرام بنت ملحان الأنصارية سابقة الذكر ألقتها بغلتها بجزيرة قبرص فماتت (واستعمل) معاوية على غزو البحر عبد الله بن قيس الجاسى فغزا خمسين غزوة من بين صائفة وشاتية فى البر والبحر ولم يغرق أحد من جيشه ولم ينكب ثم خرج مرة فى قارب طليعة فانتهى لمرفأ من

الروم فنظروا به فجّاءوا فقتلوه (وفى السنة الثلاثين شكا معاوية أبا ذر لعثمان وكان مذهب أبى ذر أن المسلم لاينبغي له أن يكون فى ملكه أكثر من قوت يوم أو ليلة أو شيء ينفقه فى سبيل الله أو يعده للتكريم) مستدلا بقول تعالى «**والذين يكنزون الذهب والفضه ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بغذاب أليم * يوم يحمي عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ماكنزتم لأنفسكم فذوقوا ماكنتم تكنزون**» ويميل إلى هذا المذهب مذهب الإشتراكيين الآن فكان أبو ذر رحمه الله يقوم بالشام ويقول يامعشر الأغنياء واسوا الفقراء ، بشر الذين يكنزون الذهي والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من النار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، حتى أولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء فشكا الأغنياء مايلقونه من معاوية فكتب فى شأنه إلى عثمان ، فأرسل إليه أن سيره إلى فلما قدم المدينة ورأى المجالس فى أصل سلع قال بشر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار ، ولما دخل على عثمان قال له مالأهل الشام يشكون ذرب لسانك فأخبره فقال ياأبا ذر على أن أقضي ماعلي وأن أدعوا الرعية إلى الإجتهاد والإقتصاد وما على أن أجبرهم على الزهد فقال أبو ذر لاترضوا من الأغنياء حتى يبذلوا المعروف ويحسنوا إلى الجيران والإخوان ويصلوا القرابات ، ثم طلب من عثمان أن يأذن له بالخروج من المدينة فإن رسول الله ﷺ أمره بذلك إذا بلغ البناء سلعاً فسيره إلى الربذة فبنى بها مسجداً وأقطعه عثمان قطعة من الإبل وأجرى عليه العطاء فأقام أبو ذر منفرداً حتى أدركه الأجل المحتوم.

* * *

فى مصر

كان عامل مصر فى أول خلافة عثمان (فاتحها) عمرو بن العاص وفى السنة الثانية من خلافته كاتب الروم بالقسطنطينية إخوانهم بالإسكندرية داعين إلى نقض الصلح فأجابوهم إلى ذلك. أما المقوقس فكان رجلاً شريفاً لم يخن عهده فسار إلى الإسكندرية فى جمع عظيم من الروم فأرسوا بها. ولما بلغ ذلك عمرواً سار إليهم وسار الروم إليه فاقتتل الفريقان بين مصر والإسكندرية حتى انهزم الروم وتبعهم المسلمون حتى أدخلوهم الإسكندرية وقتلوا منهم فى البلد مقتلة عظيمه وهدم عمرو سور المدينة (وفى) هذه السنة سير عمرو عبد الله بن سعد بن أبى سرح إلى أطراف أفريقية (سواحلها الشمالية من طرابلس إلى طنجة)غازياً بأمر عثمان ففتح وغنم ولما عاد استأذن عثمان فى الغزو ثانية فأذن له وقال إن فتح الله عليك فلك خمس الخمس نفلا وأمر عبد الله بن نافع بن عبد القيس

وعبد الله بن نافع ابن الحارث على جند وأمرهما بالإجتماع مع عبد الله بن سعد فخرجوا حتى قطعوا أرض مصر ووطئوا أرض أفريقية وكانوا فى جيش كثير فيه عشرة آلاف من شجعان المسلمين فصالحهم ملك أفريقية على مال يؤدونه ولم يتوغلوا فى أفريقية لكثرة أهلها فعاد عبد الله بن سعد إلى مصر فولاه عثمان خراجها وجعل عمرو بن العاص على الجند فلم يتفقا فجمع لابن سعد الخراج والجند وعزل ابن العاص وعند ذلك استشار ابن سعد عثمان فى غزو أفريقية والإستكثار لها من الجند فجهز إليه الجيوش من المدينة فسار ابن سعد إلى أفريقية وكان ملكها من قبل الروم واسمه جرجير وملكه من طرابلس إلى طنجة وكان يؤدى إتاوة إلى ملك الروم فلما بلغه خروج المسلمين تجهز لهم والتقى بهم بمكان بينه وبين سبيطلة عاصمة الملك يوم واحد بعد أن راسله عبد الله يدعوه إلى الإسلام أو دفع الجزاء فأبى ودام القتال بينهم أياماً يقتتلون كل يوم إلى

الظهر ثم يعودون وكان خبر المسلمين قد أبطأ على عثمان فأمدهم بجيش يرأسه عبد الله بن الزبير فلما وصلهم أشار على بن سعد أن يقسم الجيش قسمين قسم يقاتل إلى الظهر ثم يخلفه الآخر حتى يهن المشركون فأتبع مشورته وأخرج القسم الأول فحارب إلى الظهر وأراد المشركون ترك القتال فلم يمكنهم المسلمون بل استمر القتال بالقسم الثانى حتى ضعف المشركون زانهزموا شر هزيمة وقتل جرجير ملك أفريقية قتله عبد الله بن الزبير وفتحت المدينة (ثم) بث السرايا فبلغت قفصة ففتحت وغنمت وسير سرية إلى حصن الأجم فحاصرته ثم فتحته صلحاً ثم صالح بن سعد أهل أفريقية على ألفى ألف وخمسمائة ألف دينار وأرسل إلى عثمان بالبشارة والأخماس وعاد هو من أفريقية وكان مقامه فيها سنة وثلاثة أشهر ولما وصل خمس مغنم أفريقية إلى المدينة اشتراه مروان بن الحكم ثم حط عنه عثمان ثمنه وولى أفريقية عبد الله بن نافع بن عبد القيس وجعل بن سعد على مصر فقط.

* * *

القسم الثانى من الكتاب

كان رسول الله ﷺ يحذر الفتن على أمته وكثيراً ماكان يحذرهم منها لأن بأس الأمة متى انتقل من أعدائها إلى أنفسها ساءت حالها وفسد نظامها وصارت إلى الفوضى أقرب منها إلى الإصلاح وقد ورد عن المصطفى ﷺ كثير من الأحاديث فى التحذير منها ولكن قدر فكان أن استكمل الفتح للأمة واستكمل الملك ونزل العرب بالأمصار على حدود مابينهم وبين الأمم من البصرة والكوفة والشام ومصر وكان المختصون بصحابة رسول الله ﷺ والمهتدون بهديه وآدابه المهاجرين والأنصار من قريش وأهل الحجاز ومن ظفر بمثل ذلك من غيرهم وأما سائر العرب من بكر بن وائل وعبد القيس وسائر ربيعة والأزد وكندة وتميم وقضاعة وغيرهم فلم يكونوا من تلك الصحبة بمكان إلا قليلا منهم وكان لهم فى الفتوحات قدم فكانوا يرون ذلك لأنفسهم مع مايدين به فضلاؤهم من تفضيل أهل السابقة من الصحابة ومعرفة حقهم وما كانوا فيه من الذهول والدهش لأمر النبوة ونزول الوحى وتنزل الملائكة فلما انحسر ذلك الباب وتنوسى الحال بعض الشيء وذل العدو واستفحل الملك كانت عروق الجاهلية تنبض ووجدوا الرياسة عليهم للمجاهدين والأنصار من قريش وسواهم فأنفت نفوسهم ووافق ذلك أيام عثمان فكانوا يظهرون الطعن على ولاته بالأمصار والمؤاخذة لهم باللحظات والخطرات والتجنى بسؤال الإستبدال منهم والعزل ويفيضون فى النكير على عثمان وكان رأس هذه الفتنة ذلك الرجل اليهودى الذى قدمنا ذكره المسمى عبد الله بن سبأ . قام بالدعوة لعلى بن أبى طالب زاعماً أنه وصى رسول الله ﷺ ومن أظلم ممن لم يجز وصيته فتبع مذهبه كثير من أهل الأهواء الذين لهم قلوب لايفقهون بها فقال لهم انهضوا فى هذا الأمر فإن عثمان أخذه بغير حق فكاتبوا أهل الأمصار فصادفوا من أهلها

كثيراً يرون رأيهم حتى فشت القالة فى الطعن على عثمان وولاته فبلغت هذه الأخبار أهل المدينة فسألوا عثمان عن ذلك فقال ماجاءنى عن ولاتى إلا السلامة وأنتم شركائى وشهود المؤمنين فأشيروا على فأشاروا عليه أن يبعث رجالاً إلى الأمصار للتحقق من هذه الأخبار فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة وأسامة بن زيد إلى البصرة وعبد الله بن عمر إلى الشام وعمار بن ياسر إلى مصر فرجع القوم كلهم وقالوا ماعلمنا من أمرائك إلا خيراً ماعدا عمار بن ياسر فإنه انحاز إليه جماعة من السبئية (أتباع ابن سبأ) وملؤوه كلاماً فى حق أمراء عثمان ومنعوه عن الرجوع إلى المدينة فكتب عبدالله بن سعد إلى عثمان يخبره فأرسل عثمان إلى سائر الأمصار (إنى آخذ عمالى بموافاتى كل موسم وقد رفع إلى أهل المدينة أن أقواما يشتمون ويضربون فمن ادعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم يأخذ حقه حيث كان منى أو من عمالى أو تصدقوا فإن الله يجزى المتصدقين) وبعث إلى عماله أن يوافوا الموسم فقدموا عليه: عبد الله بن عامر أمير البصرة وعبد الله بن سعد أمير مصر ومعاوية بن أبى سفيان أمير الشام فجمعهم وأدخل عمرو بن العاص السهمى وسعيد بن العاص الأموى وقال لهم ويحكم ماهذه الشكاية والإذاعة؟ إنى والله لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم وما يعصب هذا إلا بى فقالوا له ألم تبعث ألم تبعث يرجع إليك الخبر عن العوام ألم يرجع رسلك ألم يشافههم أحد بشىء والله ماصدقوا ولا بروا ولا نعلم لهذا الأمر أصلا ولا يحل الأخذ بهذه الإشاعة فاستشارهم فى تسكين هذه الفتنة فقال ابن عامر أرى أن تشغلهم بالجهاد وقال ابن سعد استصلحهم بالمال وقال ابن معاوية اجعل كفايتهم إلى أمرائهم وأنا أكفيك الشام وقال ابن العاص أرى أنك قد نلت لهم ورضيت عليهم وزدتهم على ماكان يصنع عمر فأرى أن تلزم طريق صاحبك فتشد فى موضع الشدة وتلين فى موضع اللين وقال سعيد متى تهلك قادتهم يتفرقوا فقال عثمان قد سمعت كل ماأشرتم به ولكل أمر باب يؤتى منه إن هذا الأمر الذى يخاف على هذه الأمة كائن وإن بابه الذى يغلق عليه ليفتحن فنكفكفه باللين والمواتاة إلا فى حدود الله فإن فتح فلا يكونن لأحد على حجة وقد علم الله أنى لم آل الناس إلا خيراً وإن رحى الفتنة دائرة فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها سكنوا الناس وهبوا لهم حقوقهم فإذا تعوطيت حقوق الله فلا

تدهنوا، ثم نفر ونفر الأمراء إلى بلادهم وصحبه معاوية لأن طريقه على المدينة فلما قدماها جمع عثمان كبار الصحابة فقام معاوية فحمد الله ثم قال أنتم أصحاب رسول الله ﷺ وخيرته من خلقه وولاة أمر هذه الأمة لايطمع فيه أحد غيركم اخترتم صاحبكم عن غير غلبة ولا طمع وقد كبر وولى عمره ولو انتظرتم به الهرم لكان قريباً مع أنى أرجوا أن يكون أكرم على الله تعالى من أن يبلغه ذلك وقد فشت مقالة خفتها عليكم فما عتبتم فيها من شيء فهذه يدى ولا تطمعوا الناس فى أمركم فوالله إن طمعوا فيها لارأيتم منها أبداً إلا إدبارا فنهزه على بن أبى طالب فقال عثمان صدق ابن أخى وأنا أخبركم عنى وعما وليت إن صاحبى اللذين كانا قبلى ظلما أنفسهما ومن كان منهما بسبيل احتساباً وإن رسول الله كان يعطى قرابته وأنا فى رهط أهل عيلة وقلة معاش فبسطت يدى فى شيء من ذلك لما أقوم به فيه فإن رأيتم ذلك خطأ فردوه فأمرى لأمركم تبع فقالوا قد أصبت وأحسنت أعطيت خالد بن أسيد خمسين ألفاً ومروان بن الحكم ثمانين ألفاً فأخذ منهما لك فرضوا وخرجوا راضين ثم خرج معاوية إلى الشام بعد أن عرض على عثمان الخروج معه فلم يقبل ضنا بجوار رسول الله ﷺ فسار معاوية ومر فى سيره على نفر من المهاجرين فيهم على وطلحة والزبير فقال قد علمتم أن هذا الأمر كان الناس يتغالبون عليه حتى أرسل الله نبيه وكانوا يتفاضلون بالسابقة والقدمة والإجتهاد فإن أخذوا بذلك فالأمر أمرهم والناس لهم تبع وإن طلبوا الدنيا بالتغالب سلبوا ذلك ورده الله إلى غيرهم وإن الله على البدل لقادر وإنى قد خلفت فيكم شيخاً فاستوصوا به خيراً وكانفوه تكونوا أسعد منه بذلك ثم مضى أما أهل الأمصار المنحرفون عن عثمان فإنهم لم يرتدعوا عن غيهم وجاءتهم كتب من المنحرفين بالمدينة يقولون لهم أقدموا علينا فإن الجهاد عندنا فاتعد جميعهم شوال يخرجون فيه مظهرين الحج فخرج المصريون فى خمسمائة عليهم الغافقى بن حرب وخرج أهل الكوفة فى عدد أهل مصر وكذلك أهل البصرة ولما كانوا على ثلاث ليال من المدينة نزل أهل البصرة خشباً (موضع هناك) ونزل أهل الكوفة الأعوص ومعهم جماعة من أهل مصر ونزل جميعهم بذى المروة وكانت أهواؤهم مختلفة فيمن يلى الخلافة بعد عثمان فالكوفيون يريدون طلحة بن عبيد الله والبصريون الزبير بن العوام والمصريون عليا

فاجتمع وفد من أهل كل مصر وذهبوا إلى من هواهم فأتى أهل مصر علياً فسلموا عليه وعرضوا عليه أمرهم فصاح بهم وطردهم وقال لقد علم الصالحون أنكم ملعونون على لسان محمد ﷺ وكذلك قال طلحة والزبير لمن جاءهم فانصرف الجميع مظهرين الرجوع إلى بلادهم حتى تفرق أهل المدينة ثم لم يشعروا إلا والتكبير فى نواحيها وأحيط بدار عثمان ونودى «من كف يده فهو آمن» فلزم الناس بيوتهم واستغربوا رجوع الثوار بعد الإذعان بما طلبوه من إعفائهم من العمال الذين يطلبون عزلهم فأتى محمد بن مسلمة المصريين وقال لهم ما الذى أرجعكم بعد ذهابكم فقالوا أخذنا كتاباً من البريد مع خادم عثمان لعامل مصر يأمره فيه بقتلنا ثم سأل البصريين عن مجيئهم فقالوا لنصر إخواننا وكذلك قال الكوفيون فقال كيف علمتم بما لقى أهل مصر وكلكم على مراحل من صاحبه حتى رجعتم إلينا جميعاً هذا أمر أبرم بليل فقالوا اجعلوه كيف شئتم لا حاجة لنا بهذا الرجل ليعتزلنا فأخذوا منهم الكتاب وسألوا عثمان هل هو كاتبه فقال عثمان والله ما كتبت ولا أمرت ولا علمت فقال على ومن معه من كبار الصحابة صدق عثمان فقال المصريون إذن من كتبه فقال عثمان لا أدرى ؟ قالوا فيجترأ عليك ويبعث غلامك وجمل من إبل الصدقة وينقش على خاتمك ويكتب إلى عاملك بهذه الأمور العظيمة وأنت لا تدرى . قال : نعم قالوا ما أنت إلا صادق أو كاذب فإن كنت كاذباً فقد استحققت الخلع لما أمرت به من قتلنا وإن كنت صادقاً فقد استحققت الخلع لضعفك عن هذا الأمر ولا ينبغى لنا أن نترك هذا الأمر بيد من تقطع الأمور دونه فاخلع نفسك . قال لا أخلع قميصاً ألبسنيه الله . ولم يلهم الله أحداً أن يحقق أمر هذا الكتاب ، إذ كيف اتحدوا على الرجوع بعد افتراقهم فى طرق مختلفة . أما تهمة مروان به فلم تثبت بل حينما سألوه حلف أنه لم يكتب ولم يجعل الله فى دينه القويم دليلاً على تبرئة المتهم غير يمينه إن لم تكن هناك بينة ، ولكن الفتنة متى كشرت عن نابها ضاع السداد ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، ثم قام الثوار بحصر أمير المؤمنين وصاحب رسول الله ﷺ وآله وسلم المشهود له بالجنة حصاراً شديداً حتى منعوه الصلاة فى مسجد رسول الله ﷺ فأرسل عثمان إلى على وطلحة والزبير فحضروا فأشرف عليهم فقال أيها الناس أجلسوا

فجلس المسالم منهم والمحارب ثم قال ياأهل المدينة أستودعكم الله وأساله أن يحسن عليكم الخلافة من بعدى ، ثم قال : أنشدكم الله هل تعلمون أنكم عند مصاب عمر سألتم الله أن يختار لكم ويجمعكم على خيركم أتقولون أن الله لم يستجب لكم وهنتم عليه وأنتم أهل حقه ؟ أم تقولون هان على الله دينه فلم يبال من ولى الدين بتفرق أهله يومئذ ؟ أم تقولون لم يكن أخذ عن مشورة وإنما كان مكابرة فوكل الله الأمة إذ عصته ولم يشاوروا فى الإمارة ؟ أم تقولون أن الله لم يعلم عاقبة أمرى وأنشدكم ؟ الله هل تعلمون أن لى من سابقة خير وقدم خير قدم الله لى بحق على كل من جاء من بعدى أن يعرفوا لى فضلها فمهلا لا تقتلونى فإنه لا يحل إلا قتل ثلاث رجل زنى بعد إحصان أو كفر بعد إيمان أو قتل نفسا بغير حق ، فإنكم إذا قتلتمونى وضعتم السيف على رقابكم ثم لم يرفع الله عنكم الإختلاف أبداً فقال الثوار أما ماذكرت من استخارة الناس بعد عمر ثم ولوك فإن كل ماصنع الله خير ولكن الله جعلك بلية ابتلى بها عباده وأما ماذكرت من قدمك وسبقك مع رسول الله ﷺ فقد كنت كذلك وكنت أهلا للولاية ولكن أحدثت ماعلمت ولا نترك إقامة الحق عليك خوف الفتنة عاماً قابلاً وأما قولك إنه لا يحل إلا قتل ثلاثة فإنا نجد فى دين الله غير الثلاث الذين سميت قتل من سعى فى الأرض فساداً وقتل من بغى ثم قاتل على بغيه وقتل من حال دون شيء من الحق ومنعه وقاتل دونه وقد بغيت ومنعت وحلت دونه وكابرت عليه ولم تقدمن نفسك من ظلمت وقد تمسكت بالإمارة علينا فإن زعمت أنك لم تكابرنا عليها فإن الذين قاموا دونك ومنعوك منه إنما يقاتلون لتمسكك بالإمارة فلو خلعت نفسك لا نصرفوا عن القتال معك فلم يجبهم عثمان ولزم داره وكان كثير من أهل المدينة أتوا حول داره ليذبوا عنه فأمرهم بالإنصراف فانصرفوا إلا قليلا منهم الحسن بن على وابن عباس وابن الزبير ومحمد بن طلحة وكان عثمان رضى الله عنه يكره جداً أن يحدث قتال بالمدينة فى زمنه فكان يتباعد عنه بقدر ماأمكنه حتى كان ينهى أهل بيته عن تجريد السلاح وكان يطاول الثوار ويكثر لهم من الخطب ويرسل إليهم على ابن أبى طالب المرة بعد المرة يعدهم بالرضوخ إلى مطالبهم وهم لا يزدجرون بل كلما سد عليه باباً من أبواب الفتن فتحوا غيره فمنعوا الماء عن خليفة

المسلمين فجاءهم على بالغلس فقال ياأيها الناس إن الذى تفعلون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين فلا تقطعوا عنه الماء ولا المادة فإن الروم وفارس لتأس فتطعم وتسقى فقالوا لا والله ولا دعمة عين فانصرف وجاءت أم المؤمنين حبيبة بنت أبى سفيان مشتملة على إداوة فضربوا وجه بغلتها فقالت إن وصايا بنى أمية عند هذا الرجل فأحببت أن أسأله عنها لئلا تهلك أموال الأيتام والأرامل فقالوا كاذبة وقطعوا حبل بغلتها بالسيف فنفرت وكادت أم
المؤمنين تسقط عنها فتلقاها الناس وذهبوا بها إلى بيتها ثم أشرف عثمان على الناس بعد منع الماء عنه فقال أنشدكم الله هل تعلمون أنى اشتريت بئر رومة بمالى ليستعذب بها فجعلت رشائى فيها كرجل من المسلمين ؟ قالوا نعم . قال فلم تمنعونى أن أشرب حتى أفطر على ماء البحر ؟ ثم قال أنشدكم الله هل تعلمون أنى أشتريت أرض كذا فزودتها فى المسجد ؟ قالوا نعم . قال فهل علمتم أن أحداً منع فيه الصلاة من قبلى ثم قال أنشدكم الله أتعلمون أن النبى ﷺ قال عنى كذا وكذا الأشياء عددها فى مآثره فأثرت مقالته فى كثير منهم حتى قالوا مهلا عن أمير المؤمنين فصرخ بهم شيطان هذه الفتنة لعله مكر به وبكم فإزدادوا عتوا وخرجت أم المؤمنين عائشة حاجة وقد سئمت المقام بالمدينة مع هذه الفتن وطلبت من ابن أخيها محمد بن أبى بكر أن يتبعها فأبى لأنه كان من المنحرفين عن عثمان فقال له حنظلة الكاتب تستتبعك أم المؤمنين ولا تتبعها ثم تتبع ذؤبان العرب إلى مالا يحل وإن هذا الأمر إن صار التغالب غلبك عليك بنو عبد مناف وأمر عثمان عبد الله بن عباس أن يحج بالناس فقال : قتال هؤلاء أحب إلى من الحج فعزم عليه إلا ما أطاع فخرج للحج وكتب معه كتاباً يعلم المسلمين أمره ونصه عن الطبرى .

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله عثمان أمير المؤمنين سلام عليكم فإنى أحمد الله إليكم الذى لا إله إلا هو . أما بعد فإنى أذكركم بالله جل وعز الذى أنعم علينا وعليكم بالإسلام وهداكم من الضلالة وأنقذكم من الكفر وأراكم البينات وأوسع عليكم من الرزق ونصركم على العدو وأسبغ عليكم نعمته فإن الله عز وجل يقول وقوله الحق « **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان**

لظلوم كفار » وقال عز وجل « يأأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون * واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون * ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون * ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » وقال عز وجل وقوله الحق « وإذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا » وقال وقوله الحق « يأأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين * واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون * فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم » وقال عز وجل « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » وقال وقوله الحق « فاتقوا الله ما أستطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » وقال وقوله الحق « ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون * ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون * ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتسئلن عما كنتم تعملون * ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم * ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون * ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » وقال وقوله الحق « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن

تأويلا » وقال وقوله الحق « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » وقال وقوله الحق « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » أما بعد فإن الله عز وجل رضى لكم السمع والطاعة والجماعة وحذركم المعصية والفرقة والإختلاف ونبأكم ما قد فعله الذين من قبلكم وتقدم إليكم فيه ليكون له الحجة عليكم إن عصيتموه فاقبلوا نصيحة الله عز وجل واحذروا عذابه فإنكم لن تجدوا أمة هلكت إلا من بعد أن تختلف إلا أن يكون لها رأس يجمعها ومتى ما تفعلوا ذلك لا تقيموا الصلاة جميعاً وسلط عليكم عدوكم ويستحل بعضكم حرم بعض ومتى يفعل ذلك لا يقم لله سبحانه وتعالى دين وتكونوا شيعاً وقد قال الله عز وجل لرسول الله ﷺ « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون » وإنى أوصيكم بما أوصاكم الله وأحذركم عذابه فإن شعيباً ﷺ قال لقومه (ياقوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد ‌• واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود) .

أما بعد فإن أقواماً ممن كان يقول فى هذا الحديث أظهروا للناس إنما يدعون إلى كتاب الله عز وجل والحق ولا يريدون الدنيا ولا منازعة فيها فلما عرض عليهم الحق إذا الناس فى ذلك شتى منهم آخذ للحق ونازع عنه حتى يعطاه ومنهم تارك للحق ونازل عنه فى الأمر يريد أن يبتزه بغير الحق طال عليهم عمرى وراث عليهم أملهم الإمرة فاستعجلوا القدر وقد كتبوا إليكم أن قد رجعوا بالذى أعطيتهم ولا أعلم أنى تركت من الذى عاهدتهم عليه شيئاً ، كانوا زعموا أنهم يطلبون الحدود فقلت أقيموها على من علمتم أنه تعداها أقيموها على من ظلمكم من قريب أو بعيد قالوا كتاب الله يتلى فقلت فليته من تلاه غير غال فيه بغير ما أنزل الله فى الكتاب وقالوا المحروم يرزق والمال يوفى ليستن فيه

السنة الحسنة ولا يعتدى فى الخمس ولا فى الصدقة ويؤمر ذو القوة والأمانة وترد مظالم الناس إلى أهلها فرضيت بذلك

واصطبرت له وجئت نسوة النبى ﷺ وآله وسلم حتى كلمتهن فقلت ماتأمرنى فقلن تؤمر عمرو بن العاص وعبد الله بن قيس ولا تدع معاوية فإنما أمره أمير قبلك فإنه مصلح لأرضه راض به جنده واردد عمراً فإن جنده راضون به وأمره فليصلح أرضه فكل ذلك فعلت وإنه اعتدى على بعد ذلك وعدى على الحق كتبت إليكم وأصحابى الذين زعموا فى الأمر واستعجلوا القدر ومنعوا منى الصلاة وحالوا بينى وبين المسجد وابتزوا ماقدروا عليه بالمدينة كتبت إليكم كتابى هذا وهم يخبروننى بين ثلاثلا إما يقيدوننى بكل رجل أصبته خطأ أو صواباً غير متروك منه شيء وإما أعتزل الأمر فيؤمرون آخر غيرى وإما يرسلون إلىّ من أطاعهم من الأجناد وأهل المدينة فيتبرؤن من الذى جعل الله سبحانه وتعالى لى عايهم من السمع والطاعة فقلت لهم : أما إقادتى من نفسى فقد كان من قبلى خلفاء تخطيء وتصيب فلم يستقد أحد منهم ، وقد علمت أنما يريدون نفسى وأما أن أتبرأ من الإمارة فإن يكلبونى أحب إلىّ من أن أتبرأ من عمل الله عز وجل وخلافته ، وأما قولهم يرسلون إلىّ الأجناد وأهل المدينة يتبرءون من طاعتى فلست عليهم بوكيل ولم أكن استكرهتهم من قبل على السمع والطاعة ولكن أتوا طائعين يبتغون مرضاة الله عز وجل وإصلاح ذات البين ومن يكن منكم إنما يبتغى الدنيا فليس بنائل منها إلا ماكتب الله عز وجل له ومن يكن إنما يريد وجه الله والدار الآخرة وصلاح الأمة وابتغاء مرضاة الله عز وجل والسنة الحسنة التى استن بها رسول الله ﷺ والخليفتان من بعده رضى الله عنهما فإنما يجزى بذلكم الله وليس بيدى جزاؤكم ولو أعطيتكم الدنيا كلها لم يكن فى ذلك ممن لدينكم ولم يغن عنكم شيئاً فاتقوا الله واحتسبوا ماعنده فمن يرضى بالنكث منكم فإنى لاأرضاه له ولا يرضى الله سبحانه وتعالى أن تنكثوا عهده وأما الذى يخيروننى فإنما كله النزع والتأمير فملكت نفسى ونظرت حكم الله وتغيير النعمة من الله سبحانه وكرهت سنة السوء وشقاق الأمة وسفك الدماء فإنى أنشدكم الله والإسلام ألا تأخذوا إلا الحق وتعطوه منى وترك البغى على أهله وخذوا عليكم العدل والمؤازرة فى أمر الله فإن الله سبحانه قال

وقوله الحق « **وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا** » فإن هذه معذرة إلى ربكم ولعلكم تذكرون. أما بعد فإني لاأبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربي إن ربي غفور رحيم وإن عاقبت أقواما فما ابتغي بذلك إلا الخير وإني أتوب إلى الله عز وجل من كل ماعملته واستغفره إنه لايغفر الذنوب إلا هو إن رحمة ربي وسعت كل شيء إنه لايقنط من رحمة الله إلا القوم الضالون وإنه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ماتفعلون وأنا أسأل الله عز وجل أن يغفر لي ولكم وأن يؤلف قلوب هذة الأمة على الخير ويكره إليها الفسق. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته أيها المؤمنون والمسلمون. فقرأه عليهم ابن عباس يوم التروية. أما الثوار فمنعوا الناس عن مخالطة عثمان ومكالمته ولما خافوا أن يطول عليهم الأمر فتأتيهم جنود الأمصار قصدوا الباب فقاتلهم جمع من أولاد الصحابة ولكن أنى يعملون وقد جاءهم مالا قبل لهم به؟ وأشار عثمان على من قاتل أن يكف وهو في حل من نصرته فأحرق الثوار الباب ودخلوا عليه وهو يقرأ القرآن فلم يشغله مارأى عن تلاوته ثم قال لمن عنده بالدار إن رسول الله ﷺ قد عهد إلى عهداً فأنا صابر عليه ولم يحرقوا الباب إلا وهم يريدون أعظم منه وأمرهم بالإنصراف ثم قال للحسن بن علي إن أباك لفي شغل عظيم من أمرك فأقسمت عليك لما خرجت إليه فلم يسمعوا قوله وقاتلوا دونه ولكن أنى لهم ذلك وهم في قلة والعدو كثير؟ فقتل بعضهم وجرح بعض ونجا آخرون ثم تسور بعض الثوار دار بني حزم المجاورة لدار عثمان ودخلوا عليه فقال قائل اخلعها ندعك فقال عثمان ويحك والله ماكشفت امرأة في جاهلية ولا إسلام ولا تغنيت ولا تمنيت ولا وضعت يميني على عورتي منذ بايعت رسول الله ﷺ ولست خالعاً قميصاً كسانيه الله حتى يكرم الله أهل السعادة ويهين أهل الشقاوة فخرج الرجل ولم يصنع شيئاً ثم جاء آخر فقال له كما قال للأول فرجع فجاءهم عبد الله بن سلام وقال لهم ياقوم لاتسلوا سيف الله فيكم فوالله إن سللتموه لاتغمدوه ويلكم إن سلطانكم اليوم يقوم بالدرة فإن قتلتموه لايقوم إلا بالسيف ويلكم إن مدينتكم محفوفة بالملائكة فإن قتلتموه لتتركنها فشتموه ثم دخل على عثمان الذين كتب عليهم الشقاوة فقتلوا هذه النفس الزكية ظلماً وعدواناً في الشهر الحرام والبلد والحرام لثمان عشرة خلت من ذي الحجة سنة

خمس وثلاثين وهذا هو التاريخ المشئوم الذى كان فيه فتح الشر والشقاق بين المسلمين وكان عمره اثنتين وثمانين سنة وهذا أمر خولف فيه الشرع جهاراً فى عاصمة الخلافة الإسلامية ومهبط الوحى النبوى شقوا عصا طاعة الإمام الذى انتخب انتخاباً شرعياً وأقر عليه أكابر أصحاب رسول الله ﷺ الذين عهد إليهم بذلك عمر بن الخطاب ولم يكن ثم مايوجب إلا الخروج عليه إذ لايوصيه الكفر البواح كما هو نص حديث عبادة بن الصامت المتقدم ولم يقل بذلك أحد منهم فى حق عثمان ولا حكم به قاض مستنداً إلى كتاب أو سنة وكل مانقموه عليه أمور لاحرج على الإمام فى فعلها منها تولية أقاربه وليس فى هذا أدنى عيب لأن رسول الله ﷺ ولى علياً وهو ابن عمه وإذا كانت تولية القريب عيباً لنهى عنها عليه السلام ولم يفعلها ومع كل ذلك فالإسلام سوى بين الناس لاقريب عنه ولا بعيد فالأمر موكول لرأى الإمام الذى ألقيت إليه مقاليد الأمة فإن ولى من حاد عن الدين شكونا إليه فإن لم يقبل صبرنا كما أمر بذلك رسول الله ﷺ لأن شق عصا الجماعة من مصايب الأمم التى تسرع إليها بالخراب وليس فى الشرع مبيح خلع الإمام إلا كفره الصراح (ومما) نقموه على عثمان إخراجه أبا ذر إلى الربذة وقد قدمنا لك سبب إخراجه لأن مذهبه الذى كان يدعو إليه ليس مقبولا ويمكن أن يحدث منه قيام الفقراء ضد الأغنياء فيحدث مالا يحمد (ومن) ذلك سقوط خاتم النبى ﷺ من يده فى بئر أريس وعدم لقيه ومن. ذلك زيادة النداء الثالث على الزوراء يوم الجمعة وهذا إنما فعله لكثرة المسلمين وانتشارهم فى أنحاء المدينة مما لم يكن فى عهد رسول الله ﷺ والخليفتين من بعده على القصر ولما سأله عبد الرحمن بن عوف عن ذلك أبدى سبباً واضحاً فقال بلغنى أن بعض حاج اليمن والجفاة جعل صلاة المقيم ركعتين من أجل صلاتى وقد اتخذت بمكة أهلا ولى بالطائف مال وهو عذر له رضى الله عنه وإن لم يقبله عبد الرحمن (ومن) ذلك تنازله لمروان بن الحكم عن ثمن خمس مغانم أفريقية ولم يمنع الشرع الإمام أن ينفل من شاء من المسلمين مالم ينفل غيره فقد روى مسلم أن رسول الله ﷺ وعلى آله وسلم قد كان ينفل بعض من يبعث من السرايا لأنفسهم خاصة سوى قسم عامة الجيش وكان عليه الصلاة والسلام يسهم أحياناً لبعض من لم يحضر الغزوة كما أسهم لبعض

المتخلفين عن بدر ولمن قدموا عليه يوم خيبر من مهاجرة الحبشه والدوسيين ،
فإذا نظرت رعاك الله لهذه الأمور التى نقموها على عثمان رضى الله عنه لم تر منها شيئاً يشينه ولم يخرج فى شىء منها عن حدود الشرع ولكن أولئك قوم بطروا فطلبوا لأنفسهم ماليس لهم فحق عليهم العذاب قال تعالى «**واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب**» وقد عاقب سبحانه فأبلغ العقوبة . نسأله سبحانه أن يرفع عنا مقته وغضبه ويوفقنا لما فيه رضاه بمنه وكرمه .

* * *

خلافة على

ظل المسلمون حيارى بعد قتل الخليفة المظلوم لا يجدون لهم ملجأ كأنهم فوضى ولم يكن أمامهم من يصلح للخلافة بعد عثمان إلا علىّ بن أبى طالب فذهب إليه معظمهم يطلبون منه أن يلى الخلافة فقدر المستقبل حق قدره وعلم أنه إنما يستقبل فتنة سائرة لا مرد لها فقال لهم التمسوا غيرى فإنا مستقبلون أمراً له وجوده وله ألوان لا تقوم به القلوب ولا تثبت عليه العقول فناشدوه الله والدين فقال قد أجبتكم واعلموا أنى إن أجبتم ركبت بكم ما أعلم وإن تركتمونى فإنما أنا كأحدكم إلا أنى من أطوعكم واسمعكم لمن وليتموه فأبوا إلا إياه ثم رأوا أن هذا الأمر لا يتم إلا بمبايعة الزبير وطلحة فذهب إليهما جماعة وأتوا بهما فبايعاه قيل كرهاً وقيل إن الزبير لم يبايع أصلا ثم قام الناس فبايعوه وتخلف عن بيعته جمع من أكابر الصحابة فى المدينة كسعد بن أبى وقاص وسعيد بن زيد وعبد الله بن عمر وأسامة ابن زيد والمغيرة بن شعبة وعبد الله بن سلام وقدامة بن مظعون وأبى سعيد الخدرى وكعب بن عجرة وكعب بن مالك والنعمان بن بشير وحسان بن ثابت ومسلمة بن مخلد وفضالة بن عبيد وغيرهم من أكابر الصحابة فى الأمصار (مقدمة ابن خلدون) ولما رأى على أن بيعته تمت قام فخطب فى الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال (أيها الناس إن الله أنزل كتاباً هادئاً يبين فيه الخير والشر فخذوا بالخير ودعوا الشر، الفرائض أدوها إن الله تعالى يؤدكم إلى الجنة إن الله حرم حرمات غير مجهولة وفضل حرمة المسلمين على الحرم كلها وشد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين فالمسلم من سلم المسلمين من لسانه ويده إلا بالحق لا يحل دم امرىء مسلم إلا بما يجب بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم الموت فإن الناس أمامكم وإنما خلفكم الساعة تحدوكم فخففوا تلحقوا فإنما ينتظر بالناس أخراهم. اتقوا الله عباد الله فى بلاده وعباده إنكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم، أطيعوا الله ولا تعصوه وإذا رأيتم الخير فخذوا به وإذا رأيتم الشر فدعوه وإذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض) ثم نزل.

ترجمة علي

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي القرشي ابن عم رسول الله ﷺ وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم ابن عبد مناف ولد رضي الله عنه في السنة الثانية والثلاثين من ميلاد رسول الله ﷺ فلما بعث عليه السلام كان علي دون البلوغ وكان مقيما معه في منزله يطعمه ويسقيه لفاقة لحقت بأبيه فاهتدى بهدى رسول الله ﷺ ولم يتدنس بدنس الجاهلية من عبادة الأوثان وغيرها ولما هاجر عليه السلام من مكة إلى المدينة فداه علي بنفسه ونام على فراشه ليظن المحاصرون أن رسول الله ﷺ لم يزل نائماً فلا يتبعونه ثم لحقه بعد قليل وشهد مع رسول الله ﷺ غزواته كلها إلا غزوة تبوك فإنه خلفه في أهل بيته وقال له أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبوة بعدي وكان له القدم الثابت في جميع الغزوات فهو أول المبارزين يوم بدر وممن ثبت يوم أحد وحنين وعلى يديه فتحت خيبر وزوجه عليه السلام بنته فاطمة في السنة الثانية من الهجرة فجاء منها بالحسن والحسين وزينب الكبرى وأم كلثوم الكبرى وناب عن رسول الله ﷺ في قراءة أوائل التوبة في موسم الحج إيذانا ببراءة الله ورسوله من المشركين. ولما توفي رسول الله ﷺ وبويع أبو بكر بايعه علي مع أنه كان يرى له حقاً في الخلافة لقرابته من رسول الله ﷺ ولكنه كان يكره الخلاف ولذلك كان محمد ابن سيرين التابعي يكذب كل ما نسب لعلي من الأقوال التي فيها حط من مقام الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما كما روى ذلك البخاري في صحيحه : ولما ولي عمر بايعه كذلك وزوجه بنته أم كلثوم وكثيراً ما كان عمر يستخلفه على المدينة إذا غاب عنها. ولما بويع عثمان بايعه كذلك حتى كان آخر خلافته وقام عليه الثوار وشنعوا عليه بتولية أقاربه وكان علي كثيراً ما يمحض له النصح ويرشده إلى ما فيه النجاح والفلاح فلما

حل القضاء المبرم واستشهد عثمان أقبل عليه المسلمون وبايعوه بالخلافة لخمس بقين من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين فقام بها رضي الله عنه ما يقارب خمس سنين لم يصف له فيها يوم وكان أمر الله قدراً مقدوراً وكان رضى الله عنه آدم شديد الأدمة ثقيل العينين عظيمهما ذا بطن أطلع عظيم اللحية كثير شعر الصدر هو إلى القصر أقرب وكان ضخم عضلة الذراع دقيق مستدقها ضخم عضلة الساق دقيق مستدقها وكان من أحسن الناس وجهاً ولا يغير شيبه كثير التبسم وله من الأولاد غير من ذكرناهم العباس وجعفر وعبد الله وعثمان وعبيد الله وأبو بكر ومحمد الأصغر ويحيى وعمر ورقية ومحمد الأوسط ومحمد الأكبر الشهير بابن الحنفية وأم الحسن ورملة الكبرى وأم كلثوم الصغرى وأم هانىء وميمونة وزينب الصغرى ورملة الصغرى وفاطمة وأمامة وخديجة وأم الكرام وأم سلمة وأم جعفر وجمانة ونفيسة من أمهات شتى وأعقب من هؤلاء الحسنان ومحمد الأكبر وعباس وعمر .

* * *

أعمال على

أول إمارته بعث عمالا على الأمصار غير جميع عمال عثمان فبعث على البصرة عثمان بن حنيف الأنصارى بدل عبد الله بن عامر وعلى الكوفة عمارة ابن شهاب بدل أبى موسى الأشعرى وعلى اليمن عبيد الله بن عباس بدل يعلى ابن منبة وعلى مصر قيس بن سعد بن عبادة بدل عبد الله بن سعد وعلى الشام سهل بن حنيف بدل معاوية ابن أبى سفيان وأمر كلا بالتوجه إلى عمله فأما عثمان بن حنيف فتوجه إلى البصرة ولم يرده عنها أحد ولم يعارضه ابن عامر وأما عمارة بن شهاب فقابله وهو قريب من الكوفة طليحة بن خويلد الأسدى فقال له ارجع فإن القوم لا يريدون بأميرهم بدلا فرجع إلى على وأما عبيد الله بن عباس فلما قارب اليمن خرج منها يعلى بن منبة وأخذ كثيراً من الأموال وذهب إلى مكة فدخل عبيد الله اليمن غير معارض وأما قيس ابن سعد فلما وصل مصر افترق أهلها عليه ففرقة دخلت فى الجماعة وفرقة اعتزلت بخربتا وقالوا لا نكون مع على إلا إن قتل قتلة عثمان وفرقة قالوا نحن مع على إلا إن قاد من إخواننا فكتب قيس إلى على بذلك وأما سهل ابن حنيف فلما وصل تبوك قابلته خيل عليها رجال من أهل الشام فردوه وامتنع معاوية من بيعة على واحتج على خلافته لأنه ظن فيه الموادة فى نصرة عثمان على قاتلية ومعاوية يرى لنفسه حقاً عظيماً فى القصاص من قتلة عثمان لأنه وليه والله تعالى يقول **«ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف فى القتل»** ولم ير فى الإمتناع عن البيعة خروجاً على الإمام لأنه رأى أن بيعة على لم تنعقد حيث لم تكون بإجماع ذوى الحل والعقد كما قدمنا فأرسل إليه رجلا بطومار ليس فيه شىء من الكتابة وعنوانه من معاوية إلى على بن أبى طالب وأمره إذا قدم المدينة أن يرفعه

ليعلم الناس أنه مخالف ففعل الرجل ماأمر به فلما أهل المدينة بذلك أحبوا أن يعلموا رأى على فى هذه المشكلة أيقاتل معاوية أم يحذر ذلك فدسوا إليه زياد ابن حنظلة وكان منقطعاً ، إليه فقال له على يازياد تيسر .قال لأى شيء ؟قال لغزو الشام . فقال زياد الأناة والرفق أمثل وأنشد :

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

وقال على :

متى تجمع القلب الذكى وصارما وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم

فخرج زياد فقالوا له ما وراءك ؟ قال السيف . وقد عد على خلاف معاوية بغيا وخروجا عن طاعته لانه رأى أن بيعته انعقدت بمن بايع فلزمت من لم يبايع ، وارسل الى اهل الامصال يستنفرهم لقتال معاوية وكان الزبير ابن العوام وطلحة بن عبد الله قد خرجا يريدان العمرة فبينما على يتجهز إذ جاءه خبر لم يكن فى حسابه وهو خلاف طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة وأنهم قصدوا البصرة وسبب ذلك أن أم المؤمنين لما قضت حجها بلغهاوهى عائدة قتل عثمان وخلافة على . فقالت قتل عثمان مظلوماً لأطلبن بدمه . فرجعت إلى مكة وخطبت الناس فقالت : (أيها الناس إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلما بالامس ونقموا علية استعمال من حدثت سنه وقد استعمل أمثالهم قبله ومواضع من الحمى حماها لهم فتابعهم ونزل لهم عنها فلما لم يجدوا حجة ولاعذرا بادروا بالعدوان فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام والشهر الحرام وأخذوا المال الحرام والله لأصبع من عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم ووالله لو أن الذى اعتدوا به عليه ذنباً لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه إذ ماصوه (غسلوه) كما يماص الثوب بالماء . وتبعها فى رأيها عبد الله بن الحضرمى عامل مكة ومن هرب من بنى أميه من المدينة وقدم عليهم عبد الله

بن عامر من البصرة ويعلى بن مية من الكوفة وتبعها أيضا الزبير وطلحه وكان كثير من الصحابة يرون أن أول الواجبات على المسلمين فى هذا الوقت هو تتبع قتلة عثمان والقصاص منهم إقامة لحد الله ورأوا أنه لايصلح تأخيره مهما نتج منه فكأن إقامة هذا الحد فى عنق كل مسلم وهو ملزم بالقيام بما يوصل إليه ولم ير الزبير ولا طلحة هذا خروجا على الإمام لأن بيعة على لم تنعقد حسبما اجتهدا لأن كثيراً من الصحابة فى المدينة وغيرها لم يبايعوا أما بيعتهما فكانت كرها والسيف على أعناقهما وهذا على رأيهما لا تجب به طاعة فاستقام رأيهم على قصد البصرة ودعوا عبد الله بن عمر للخروج معهم فأبى . وسار مع أم المؤمنين عائشة جمع كثير وكان يصلى بالناس عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ولما قاربوا البصرة أرسلت عائشة عبد الله بن عامر ليعرف أهلها بقدومها ففعل ، أما عثمان بن حنيف أمير البصرة فإنه بعث إلى أم المؤمنين عمران بن حصين وأبا الأسود الدؤلى ليسألاها عن سبب قدومها فلما وصلاها قالا إن أميرنا بعثنا إليك لنسألك عن مسيرك فهل أنت مخبرتنا فقالت مامثلى يعطى لبنيه الخبر إن الغوغاء وأهل القبائل غزوا حرم رسول الله ﷺ وأحدثوا فيه وآووا المحدثين فاستوجبوا لعنة الله ولعنة رسول الله ﷺ مع مانالوا من قتل إمام المسلمين بلا ترة ولا عذر فاستحلوا الدم الحرام وسفكوه وانتهبوا المال الحرام وأحلوا البلد الحرام والشهر الحرام فخرجت فى المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء وما الناس وراءنا وما ينبغى لهم من إصلاح هذه القصة وقرأت (**لاخير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس**) فتركاها وأتيا الزبير وقال ما أقدمكما قالا الطلب بدم عثمان فقالا ألم تبايعا عليا قالا والسيف على أعناقنا وما نستقيله البيعة إن هو لم يحل بيننا وبين قتلة عثمان فرجع عمران وأبو الأسود إلى ابن حنيف وأخبراه الخبر فصمم على منع البصرة حتى يحضر على ثم أراد أن يعلم هل أحد فى البصرة يمالىء طلحة والزبير فدس رجلا إلى الناس فقال أيها الناس أنا فلان إن هؤلاء القوم إن كانوا جاءوا خائفين فقد جاءوا من بلد يأمن فيه الطير وإن كانوا جاءوا يطلبون قتلة عثمان فما نحن قتلته فأطيعونى وردوهم من حيث جاءوا . فقام إليه أحد زعماء البصرة وقال إن

عمو . قتله عثمان بما جاءو يستعينون به على قتله عثمان سبا ومن غيرنا فعرف بن حنيف أن لطلحة والزبير أنصار بالبصره فخرج بمن معه حتى نزل ميسرة المربد . وأقبلت أم المؤمنين فنزلت ميمنته وخطبت الناس وكانت جهورية الصوت فحمدت الله تعالى ثم قالت (إن الناس يتجنون على عثمان ويزرون على عماله ويأتوننا بالمدينة فيستشيروننا فيما يخبروننا عنهم فننظر فى ذلك فنجده بريا تقيا وفيا ونجدهم فجرة غدرة كذبة وهم يحاولون غير مايظهرون فلما قووا كاثروة واقتحموا علية داره واستحلوا الدم الحرام بلا ترة ولا عذر إلا إن مما ينبغى لكم غيره أخذ قتلة عثمان وإقامة كتاب الله ثم قرأت: (ألم تر إلى الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون) فتبعها جمع من أصحاب عثمان وأقبل عليها جارية بن قدامة السعدى وقال يأم المؤمنين و الله لقتل عثمان وأقبل عليها جارية بن قدامة السعدى وقال يا أم المؤمنين والله لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل عرضة للسلاح إنه قد كان لك من الله سترة وحرمة فهتكت سترك وأبحت حرمتك إنه من رأى قتالك يرى قتلك إن كنت أتيتنا طائعة فارجعى إلى بيتك وإن كنت أتيتنا مكرهة فاستعينى بالناس ، ثم أقبل عليها حكيم بن جبلة من فرسان البصرة ومعه جمع فقاتل من معها فأمرتهم بالكف والمدافعة فلم ينته حكَيم فأمرت أن يأتى الجيش مقبرة بنى مازن فى الجهة اليمنى وحجز الليل بين الفريقين فلما كان الصباح خرج حكيم يقدم جيشه وقاتل إلى قريب المساء فلما مسهم حر السلاح تنادوا إلى الصلح حتى يرسلوا إلى المدينة من يعلم لهم أكانت بيعة طلحة والزبير طوعا أم كرها فإن ثبت أنهما أكرها ترك بن حنيف البصرة وإن لم يكونا أكرها يرجع الزبير وطلحة فأرسلوا لذلك كعب بن سور قاضى البصرة فلما قدم المدينة قال يا أهل المدينة أنا رسول أهل البصرة إليكم أسألكم آكره طلحة والزبير على البيعة أم أتياها طائعين فأجاب أسامة بن زيد بأنهما أكرها ، فلقى أسامة من والى المدينة سهل بن حنيف أخى عثمان بن حنيف إهانة وبلغ هذا الخبر عليا فأرسل عثمان بن حنيف يقول له والله ما أكرها على فرقة ولقد أكرها على جماعة وفضل ، فإن كانا يريدان الخلع فلا عدر لهما وإن كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظرا فقدم كعب بن سور ووافق

قدومه وصول كتاب على فأخبر كعب باكراه الزبير وطلحة على البيعة فطلبا من بن حنيف أن يخرج من البصرة فامتنع محتجاً بكتاب على فبيته القوم ذات ليلة واستولوا على البصرة وجعلوا على بيت المال عبد الرحمن بن أبى بكر وحبسوا بن حنيف فبلغ ذلك حكيم بن جبلة فأقبل برجاله يريد نصره وكلم عبد الله بن الزبير طالباً أن يخلى سبيل عثمان ويجلس فى بيت الإمارة حتى يأتى على فأبى عليه ذلك فتقدم حكيم وقاتلهم حتى قتل كثير ممن معه وهرب بقيتهم فجاء الزبير وطلحة بمن غزا المدينة منهم فقتلوا إلا حرقوص بن زهير فإن عشيرته منعته وكانت هذه الواقعة لخمس بقين من ربيع الآخر سنة ست وثلاثين وأقامت بعدها أم المؤمنين ومن معها بالبصرة. أما أمير المؤمنين على ابن أبى طالب فإنه لما بلغه وهو بالمدينة مسير عائشة وقد عبىء جيشه إلى الشام دعا وجوه أهل المدينة وقال لهم إن آخر هذا الأمر لايصلح إلا بما صلح به أوله فانصروا الله ينصركم ويصلح لكم أمركم فانتدب معه ناس وثقل آخرون فخرج من المدينة وهو يرجو أن يلحق الزبير وطلحة قبل أن يصلا البصرة واستخلف على المدينة سهل بن حنيف فلما وصل الربذة أتاه خبر سبقهم فأقام بها وأرسل محمد بن أبى بكر ومحمد بن جعفر يستنفران الناس وكتب معهم كتاباً إلى أهل الكوفة هذه صورته: «إنى اخترتكم على الأمصار وفزعت إليكم لما حدث فكونوا لدين الله أنصاراً وأعواناً وانهضوا إلينا فالإصلاح نريد لتعود هذه الأمة إخوانا» وكان من رأى أبى موسى الأشعرى أمير الكوفة قعود الناس عن هذه الفتن فلما سأله أهل الكوفة عن الخروج إلى على والقتال معه قال إنما هما أمران القعود فى سبيل الآخرة والخروج فى سبيل الدنيا فلم يخرج مع بن أبى بكر وابن جعفر أحد فأغلظا لأبى موسى فقال لهما والله إن بيعة عثمان لفى عنقى وعنق صاحبكما فإن لم يكن بد من القتال فلا نقاتل أحداً حتى نفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا فرجعا إلى اعلى بالخبر فلقياه بذى قار فأرسل بدلهما مالك بن الحارث الأشتر وعبد الله بن عباس فلما قدما الكوفة كلما أبا موسى واستعانا عليه بنفر من أهلها فقام وخطب الناس وبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال «أيها الناس إن أصحاب النبى ﷺ الذين صحبوه أعلم بالله ورسوله ممن لم يصحبه وإن لكم علينا لحقاً وأنا مؤد إليكم نصيحة كان الرأى أن لايستخفوا بسلطان الله وأن

لا تجترئوا على الله وأن تأخذوا من قدم عليكم من المدينة فتردوهم إليها حتى يجتمعوا فهم أعلم بمن تصلح له الإمامة وهذه فتنة صماء النائم فيها خير من اليقظان واليقظان خير من القاعد والقاعد خير من القائم والقائم خير من الراكب والراكب خير من الساعي فكونوا جرثومة من جرائيم العرب فأغمدوا للسيوف وأنصلوا الأسنة وقطعوا الأوتار وآووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الأمر وتنجلي هذه الفتنة» فرجع بن عباس والاشتر إلى على بالخبر فأرسل الحسن بنَ على وعمار بن ياسر فأقبلا حتى دخلا المسجد فقال الحسن لأبى موسى لم تثبط الناس عنا فوالله ماأردنا إلا الإصلاح ولا مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء فقال صدقت بأبى أنت وأمى ولكن المستشار مؤتمن سمعت رسول الله ﷺ يقول «إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم والقائم خير من الماشي والماشي خير من الراكب» وقد جعلنا الله إخوانا وقد حرم علينا دماءنا وأموالنا فكثر الجدال بين الناس فمن محرض على الخروج مع أمير المؤمنين ومن مثبط عنه فقام القعقاع بن عمرو وقال ياأهل الكوفة إنى لكم ناصح وعليكم شفيق أحب إليكم أن ترشدوا ولأقولن قولا هو الحق أما ماقال الأمير (أبو موسى) فهو الحق ولكن لاسبيل إليه إنه لابد من اعاره تنظم الناس وتنزع الظالم وتعز المظلوم وهذا أمير المؤمنين ولى بما ولى وقد أنصف فى الدعاء وإنما يدعو إلى الإصلاح فانفروا وكونوا فى هذا الأمر بمرأى ومسمع وقال سيحان بن صوحان من زعماء الكوفة أيها الناس إنه لابد لهذا الأمر وهؤلاء الناس من وال يدفع الظالم ويعز المظلوم ويجمع الناس وهذا وليكم يدعوكم لتنظروا فيما بينه وبين صاحبيه وهو المأمون على الأمة الفقيه فى الدين فمن نهض إليه فإنا سائرون معه وقال الحسن بن على أجيبوا دعوة أميركم وسيروا إلى إخوانكم فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه والله لأن يدعيه أولو النهى أمثل فى العاجل والآجل وخير فى العاقبة فأجيبوا دعوتنا وأعينونا على ماابتلينا به وابتليتم وإن أمير المؤمنين يقول قد خرجت مخرجى هذا ظالماً أو مظلوماً وإنى أذكر الله رجلا رعى حق الله إلا نفر فمن وجدنى مظلوماً أعاننى ومن وجدنى ظالماً أخذ منى والله وإن طلحة والزبير لأول من بايعنى وأول من غدر فهل استأثرت بمال أو بدلت حكماً فانفروا فمروا لمعروف وانهو عن المنكر فأثر فيهم هذا القول ورضوا بالخروج فنفر معه

قريب من تسعة آلاف ثلثهم فى نهر الفرات والباقون ركبانا معه فلما التقوا بامير المؤمنين رحب بهم (وقال لهم ياأهل الكوفة أنتم قاتلتم ملوك العجم وفضضتم جموعهم حتى صارت إليكم مواريثهم فمنعتم حوزتكم وأعنتم الناس على عدوهم وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة فإن يرجعوا فذاك الذى نريد وإن يلجوا داويناهم بالرفق حتى يبدأوا بظلم ولم ندع أمراً فيه إصلاح إلا آثرناه على مافيه الفساد إن شاء الله) ثم ندب القعقاع بن عمرو ليكون بينه وبين طلحة والزبير وقال له اذهب فادعهما إلى الألفة والجماعة وعظم عليها الفرقة ثم قال له كيف تصنع فيما جاءك منهما وليس فيه وصاة قال نلقاهم بالذى أمرت به إن جاء منهم ماليس عندنا فيه منك رأى اجتهدنا رأينا وكلمناهم كما نسمع ونرى أنه ينبغى قال أنت لها فقدم القعقاع البصرة وبدأ بأم المؤمنين فقال لها أى أمة ماأقدمك هذه البلدة قالت أى بنى: الإصلاح بين الناس قال فابعثى إلى طلحة والزبير حتى تسمعى كلامى وكلامهما فبعثت اليها فحضرا فقال القعقاع أنى سألت أم المؤمنين ماأقدمها فقالت الإصلاح بين الناس فما تقولان أنتما؟ متابعان أم مخالفان؟ قالا بل متابعان قال فأخبرانى ماوجه هذا الإصلاح فوالله لئن عرفناه لنصلحن ولئن أنكرناه لايصلح قالا قتلة عثمان فإن هذا الأمر إن ترك كان تركاً للقرآن قال قد قتلتم قتلة عثمان من أهل البصرة وأنتما قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة منكم يوم قتلتم ستمائة رجل فغضب لهم ستة آلاف فاعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم وطلبتم حرقوص بن زهير فمنعه منكم ستة آلاف فإن تركتموهم كنتم تاركين لما تقولون وإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم فالذى حذرتم وقويتم به هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون وإن أنتم منعتم مضر وربيعة من هذه البلاد اجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير. قالت أم المؤمنين فماذا تقول أنت؟ قال أقول: إن هذا الأمر دواؤه التسكين فإن سكن اختلجوا فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بثأر وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه كان علامة شر فآثروا العافية ترزقوها وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم ولا تعرضونا للبلاء فتعرضوا له فيصرعنا وإياكم وأيم الله وإنى لأقول هذا القول وأدعوكم إليه وإنى لخائف أن لا يتم حتى يأخذ الله حاجته من هذه الأمة

التى قل متاعها ونزن بها ما نزل فإن هذا الأمر الذى حدث ليس كقتل الرجل الرجل ولا النفر الرجل ولا القبيلة الرجل ، قالوا قد أصبت وأحسنت فإن رجع على وهو على مثل رأيك صلح الأمر فرجع إلى على وأخبره الخبر فأعجبه ذلك وأشرف القوم على الصلح وأقبلت وفود أهل البصرة على إخوانهم من أهل الكوفة لينظروا ما رأى إخوانهم فوجدوا الجميع متفقين على الصلح*ولا يخطر لهم قتال إخوانهم ببال فرجعوا إلى البصرة وأخبروا من بها بهذا الخبر السار وقام على خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وذكر شقاوة الجاهلية وسعادة الإسلام وأنعام الله على الأمة بالجماعة على الخليفة من بعد رسول الله ﷺ ثم الذى يليه ثم الذى يليه حدث هذا الحدث الذى جره على الأمة أقوام طلبوا هذه الدنيا ، حسدوا من أفاءها الله عليه وأرادوا رد الإسلام والأشياء على أدبارها والله بالغ أمره ، ألا وإنى راحل غدا فارتحلوا ولا يرتحلن أحد أعان على عثمان بشىء من أمور الناس وليعن السفهاء على أنفسهم فلما سمع السبئية (أصحاب ابن سبأ) مقالة على سقط فى أيديهم ورأوا أن ضرر هذا الصلح إنما يعود عليهم لأنه إن تم كان على قتلهم وتشاوروا فيما يفعلون لمنع هذا الصلح فقال لهم رئيسهم الضال والدخيل فى الإسلام ياقوم إن عزكم فى خلطة الناس فإذا التقى الناس غداً فانشبوا القتال ولا تفرغوهم للنظر فمن أنتم معه لا يجد بداً من أن يمتنع ويشغل الله علياً والزبير وطلحة ومن رأى رأيهم عما تكرهون ، فأجمعوا على رأيه ، ولا يشعر الناس بذلك فلما أصبحوا سار على وسار إليه طلحة والزبير فالتقى الجيشان خارج البصرة فسأل علياً بعض أصحابه عما سيفعله فقال الإصلاح وإطفاء النائرة لعل الله يجمع شمل هذه الأمة ويضع حربهم قال فإن لم يجيبوا قال تركناهم ما تركونا قال فإن لم يتركونا قال دفعنا عن أنفسنا قال فهل لهم من هذا مثل الذى عليهم قال نعم، وقام إليه آخر فقال أترى لهؤلاء القوم من حجة فى هذا الدم إن كانوا أرادوا الله بذلك قال نعم قال أفترى لك حجة بتأخير ذلك؟ قال نعم قال فما حالنا وحالهم إن ابتلينا غدا؟ قال إنى لأرجو ألا يقتل منا ومنهم أحد نقى قلبه لله إلا أدخله الجنة ثم قال: (أيها الناس أملكوا عن هؤلاء القوم أيديكم وألسنتكم أن تسبقونا فإن المخصوم غداً من خصم اليوم) ثم أرسل إلى طلحة والزبير إن كنتم على ما فارقتم عليه القعقاع فكفوا حتى ننزل وننظر فى هذا

الأمر فأجابا (ثم) خرج الزبير على فرسه بين الجيشين فقيل لعلى هذا الزبير فقال أما إنه أحرى الرجلين إن ذكر بالله أن يذكر ، وخرج طلحة أيضاً فخرج إليهما على حتى اختلفت أعناق دوابهما فقال لعمرى لقد أعددتما سلاحاً ورجالا إن كنتما أعددتما عند الله عذرا فاتقيا الله ولا تكونا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، ألم أكن أخاكما فى دينكما تحرمان دمى وأحرم دمكما فهل من حدث أحل لكمادمى؟ فقال طلحة: ألبت على عثمان ، فلعن علىّ قتلة عثمان ثم قال أما بايعتنى؟ قال بايعتك والسيف على عنقى ثم ذكر الزبير بأشياء كثيرة يلين بها قلبه وقال أتذكر يوم مررت مع رسول الله ﷺ فى بنى غانم فنظر إلى فضحك وضحكت إليه فقلت له لا يدع ابن أبى طالب زهوه فقال لك رسول الله ﷺ ليس بمزه لتقاتلنه وأنت ظالم له ، فرجع الزبير وهو حالف أنه لايقاتل علياً وخصوصاً حينما علم أن عمار بن ياسر مع علىّ وقد قال له رسول الله ﷺ تقتلك الفئة الباغية فكأنه قد شعر بأنه أخطأ فى اجتهاده ، لأنه يعمل لله ومتى كان العمل لله كان الرجوع إلى الحق أقرب والهداية إلى الصواب أسهل، فرجع كل منهم إلى قومه والجميع لا يشكون فى الصلح وباتوا بأهنأ ليلة للعاقبة التى أشرفوا عليها . وهنا رأى السبئية قاتلهم الله أن الوقت قد حان لتنفيذ مآربهم فخرجوا فى الغلس من غير أن يشعر بهم أحد وقصد مضرهم مضر البصرة وربيعتهم ربيعة البصرة ويمنهم يمن البصرة ووضعوا فيهم السلاح فثار كل قوم فى وجوه أصحابهم وسأل طلحة والزبير عن الخبر فقيل لهما طرقنا أهل الكوفة ليلا فقال قد علمنا أن علياً غير منته حتى يسفك الدماء وإنه لن يطاوعنا وسأل علىّ عن الخبر وكان السبئية قد وضعوا عنده رجلا يخبره إذا سأل فقال له ماشعرنا إلا وقوم منهم بيتونا فرددناهم فوجدنا القوم على رحل فركبوا وثار الناس فقال علىّ لقد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء وأنهما لن يطاوعانا ثم نادى فى الناس أن كفوا وكان من رأى الجميع فى تلك الفتنة أن لا يبدأوا بقتال يطلبون بذلك الحجة وألا يقتلوا مدبراً ولا يجهزوا على جريح ولا يستحلوا سلباً ولا يرزؤا بالبصرة سلاحاً ولا ثياباً ولا متاعا فجاء كعب ابن سور قاضى البصرة إلى أم المؤمنين وقال لها أدركى الناس قد أبى القوم إلا القتال لعل الله أن يصلح بك

فركبت بعد أن ألبسوا هودجها الأدراع ثم سارت ووقفت بحيث تسمع ضوضاء القتال أما الزبير فإنه ترك القوم يقتتلون ورجع فتبعه رجل يعرف بابن جرموز وقتله غدراً وهو يصلى بوادى النسباع ولم يقاتل جيش البصرة إلا قليلا ثم هزم فمروا فى هزيمتهم على أم المؤمنين راكبة هودجها فأطافوا بجملها وقالت لكعب بن سور تقدم إلى هؤلاء القوم بالمصحف وادعهم إلى كتاب الله فرماه بعض السبئية بسهم قتله ورموا هودج أم المؤمنين بالنبل فجعلت تنادى البقية البقية يابنى . الله اذكروا الله والحساب . ولا يأبون إلا إقداما فحرضت جيش البصرة على القتال حينما رأت أهل الكوفة يريدون هودجها وهنا كانت حميتهم العظمى لحرم رسول الله ﷺ ولم يكن هنا محيص عن القتال لأنه كالسيل إذا أتى لا يرد وأمسك بخطام الجمل كثير من أرباب الشجاعة من قريش وغيرهم فقتل دونه نحو السبعين من قريش وعدد عظيم من غيرهم وممن قتل دونه محمد بن طلحة وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد واشتد أهل الكوفة على الجمل لأنهم رأوا أن البصريين لا ينهزمون مادام واقفاً فرماه كثير منهم وكل من رماه قتل فلما رأى علىّ شدة الأمر وكثرة القتلى من المسلمين قال اعقروا الجمل فإنه إن عقر تفرقوا عنه والذى دعاه إلى هذا الأمر الحذر على أم المؤمنين أن تصاب من كثرة النبل الذى سدد لهودجها فقطعوا ساق الجمل ثم اجتمع

القعقاع بن عمرو وزفر بن الحارث على قطع بطان الجمل وحمل الهودج وإنه مثل القنفذ من كثرة السهام وعند ذلك انهزم أهل البصرة فنادى على ألا لا تتبعوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تدخلوا دوراً وأمر بحمل الهودج من بين القتلى وأمر محمد بن أبى بكر أن يضرب عليه قبة وقال أنظر هل وصل إليها شىء من جراحة فوجدها بحمد الله سليمة لم تصب بشىء ثم جاءها على فقال كيف أنت ياأمه قالت بخير يغفر الله لك قال ولك وظهرت آثار الكدر على أمير المؤمنين من هذا الحادث الجلل الذى لم يكن فيه مأرب وكذلك على السيدة أم المؤمنين فإنها كانت تود الصلح ولم يجر ما جرى إلا رغما عن الجميع وكان على يتمثل بعد انتهاء الموقعة بقول الشاعر :

إليك أشكو عجرى وبجرى ... ومعشر نفسى على بصرى
قتلت منهم مضرى بمضرى ... شفيت نفسى وقتلت معشرى

ثم أمر أن تنزل أم المؤمنين فى دار خلف بن عبد الله الخزاعى على صفية بنت الحارث بن أبى طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار وأذن فى دفن القتلى ثم أطاف عليهم فلما رأى كعب ابن سور قال زعمتم أنه خرج معهم السفهاء وهذا قد ترون ولما أتى على طلحة قال لهفي عليك أبا محمد إنا لله وإنا إليه راجعون والله لقد كنت أكره أن أرى قريشاً صرعى وأنت والله كما قال الشاعر :

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه إذ ما هو استغنى ويبعده الفقر

وصلى على القتلى من أهل البصرة وأهل الكوفة وبعث ما كان فى العسكر من الأسلاب إلى مسجد البصرة وقال من عرف شيئاً فليأخذه إلا سلاحا فى الخزائن عليه سمة السلطان ثم دخل على البصرة فبايعه أهلها وولى عليها عبد الله بن عباس وجعل على الخراج زياد ابن أبى سفيان ثم بلغه أن رجلا قال جزيت عنا أمنا عقوقنا وقال الآخر ياأمى توبى ، فأمر بكل منهما أن يجلد مائة جلدة ثم جهز على أم المؤمنين وسيرها إلى المدينة واختار معها أربعين امرأة من نساء البصرة المعروفات وسير معها أخاها محمد بن أبى بكر فلما كان اليوم الذى ارتحلت فيه اجتمع الناس إليها فقالت يابنى لا يعتب بعضنا على بعض إنه والله ما كان بينى وبين على فى القديم إلا ما يكون بين المرأة وبين أحمائها وإنه على معتبتى لمن الأخيار ، فقال على صدقت والله ما بينى وبينها إلا ذلك وإنها لزوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة ، وخرجت يوم السبت غرة رجب من السنة السادسة والثلاثين فتوجهت إلى مكة فحجت ثم رجعت إلى المدينة والحمد لله .

ورجع على إلى الكوفة التى جعلها مقر خلافته فارسل جرير بن عبد الله البجلى إلى معاوية بالشام يدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه الناس ويعلمه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته فامتنع معاوية حتى تقتل قتلة عثمان حيث كانوا ثم يختار المسلمون لأنفسهم إماماً لأنه رأى أن بيعة على لم تنعقد لافتراق الصحابه أهل الحل والعقد فى الآفاق ولا تتم البيعة إلا باتفاقهم ولا تلزم بعقد من تولاها من غيرهم أو من القليل منهم فجعل رضى الله عنه القصاص

من قتلة عثمان أول واجب على المسلمين والذى يطالب به وليه ثم اختيار الإمام أمر ثان ولم يكن معاوية يتهم علياً رضى الله عنهما بالممالئة على عثمان حاشا لله بل كان يظن فيه الهوادة عن نصرة عثمان من قاتليه ولقد كان إذا وجه ملامته إنما كان يوجهها عليه فى سكوته فقط كما ذكر ذلك العلامة ابن خلدون فى مقدمة تاريخه أما على رضى الله عنه فكان يرى أن بيعته قد تمت ولزمت من تأخر عنها باجتماع من اجتمع عليها بالمدينة دار النبى ﷺ وموطن الصحابة وإرجأ الأمر فى القصاص من قتلة عثمان إلى اجتماع الناس واتفاق الكلمة فيتمكن حينئذ مما يجب أن يفعل وبذلك عد من لم يبايعه خارجاً عليه يحل له قتاله فخرج فعسكر بالنخيلة وقدم عليه ابن عباس من البصرة واستخلف عليها زياداً ثم قدم طلائعه وعبىء جيوشه قاصداً محاربة أهل الشام لإجبارهم على الدخول فيما دخل فيه الناس ولما علم بذلك معاوية سار إليه فى جيوش الشام فالتقى الجيشان فى سهل صفين على نهر الفرات شرقى حلب فمكثا يومين ابتدأت بعدهما المراسلة فأرسل على بُشير بن عمرو الأنصارى وسعيد بن قيس الهمدانى وشيث بن ربعى التميمى فقال لهم إئتوا هذا الرجل فادعوه إلى الله والطاعة والجماعة فتوجهوا إليه فتكلم بشير بن عمرو فحمد الله وأثنى عليه ثم قال يامعاوية إن الدنيا عنك زائلة وإنك راجع إلى الآخرة وإن الله محاسبك بعملك ومجازيك عليه وإنى أنشدك الله ألا تفرق جماعة هذه الأمة وألا تسفك دماءها بينها فقال معاوية هلا أوصيت بذلك صاحبك فقال بشير ليس مثلك إن صاحبى أحق البرية بهذا الأمر فى الفضل والدين والسابقة فى الإسلام والقرابة بالرسول ﷺ قال فماذا يقول قال يأمر بتقوى الله وأن تجيب ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق فإنه أسلم لك فى دنياك وخير لك فى عاقبة أمرك ، قال معاوية ونترك دم ابن عفان؟ لا والله لا أفعل ذلك أبداً ، فذهب سعيد بن قيس يتكلم فبادره شيث بن ربعى فحمد الله وأثنى عليه ثم قال يامعاوية قد فهمت ما رددت على بشير إنه والله لا يخفى علينا ما تطلب إنك لم تجد شيئاً تستغوى به الناس وتستميل به أهواءهم وتستخلص به طاعتهم إلا قولك قتل إمامكم مظلوماً فنحن نطلب بدمه فاستجاب لك سفهاء طغام وقد علمنا أنك أبطأت عنه بالنصر وأحببت له القتل لهذه المنزلة التى أصبحت

تطلب ورب متمنى أمر وطالبه يحول الله دونه وربما أوتى المتمنى أمنيته وفوق أمنيته والله مالك فى واحدة منهما خير والله إن أخطأت ماترجو إنك لشر العرب حالا ولئن أصبت ماتتمناه لاتصيبه حتى تستحق من ربك صلى النار فاتق الله يامعاوية ودع ماأنت عليه ولا تنازع الأمر أهله؛ فأثرت مقالته هذه فى معاوية أشد التأثير لأنه حمله فيها مالم يرده ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد فإن أول ماعرف به سفهك وخفة حلمك أن قطعت على هذا الحسيب الشريف سيد قومه منطقة ثم اعترضت بعد فيما لاعلم لك به فقد كذبت ولؤمت أيها الأعرابى الجلف الجافى فى كل ماذكرت ووصفت انصرفوا فليس بينى وبينكم إلا السيف. ومن هنا يفهم أن السفراء بين الأمراء عليهم المدار فى الإصلاح والإفساد ولقد صدق معاوية فإن شيث بن ربعى كان من أول الخارجين على أمير المؤمنين ، على فرجع الوفد إلى على وأخبره وكانت الحرب إذن لامحيص عنها إذ معاوية يطلب قتلة ابن عمه عثمان بن عفان وهو أولى الناس بالمطالبه بذلك لأنه وليه وحدود الله لاتؤخر لاتؤخر لأى سبب وعلى يريد رده إلى الطاعة والجماعة ثم ينظر فى القصاص من قتله عثمان ومع ذلك كانوا يحذرون أن يلقى جمع أهل

أهل الشام جمع أهل العراق حذراً من الهلاك والإستئصال فيضيع الإسلام ويطمع فيه أعداؤه فصار على يأمر الرجل ذا الشرف فيخرج ومعه جماعة من أصحابه فيخرج له معاوية مثله وداموا على ذلك إلى أن أهل محرم السنة السابعة والثلاثين فعقد على ومعاوية هدنة مدتها شهر طمعاً فى الصلح واختلفت بينهم الرسل فأرسل على عدى بن حاتم ويزيد بن قيس الأرحبى وشبث بن ربعى وزياد بن حفصة فتكلم عدى فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد فإنا أتيناك ندعوك إلى أمر يجمع الله به كلمتنا وأمتنا ونحقن به الدماء ونصلح ذات البين إن ابن عمك أحسن الأمة سابقة وأحسنها فى الإسلام أثراً وقد استجمع له الناس ولم يبق أحد غيرك وغير من معك فاحذر يامعاوية لا يصيبك وأصحابك مثل يوم الجمل فقال معاوية كأنك إنما جئت مهدداً ولم تأت مصلحاً هيهات ياعدى إنى والله لابن حرب لا يقعقع لى بالشنان وإنك والله من المجلبين على عثمان وإنك من قتلته وإنى لأرجو أن تكون ممن يقتله الله به فقال من مع عدى

أتيناك فيما يصلحنا وإياك فأقبلت تضرب لنا الأمثال دع مالا ينفع وأجبنا فيما يعم نفعه فطلب معاوية أن يسلم على من معه من قتلة عثمان ومن ألب عليه فقال شبث بن ربعى وأيسرك أن تقتل عمار بن ياسر فقال وما يمنعنى من ذلك لو تمكنت من ابن سمية لقتلته بمولى عثمان فقال شبث والله والذى لا إله غيره لا تصل إليه حتى تندر الهام عن الكواهل وتضيق الأرض والفضاء عليك فقال معاوية لو كان كذلك لكانت عليك أضيق ثم تفرق القوم بلا نتيجة وكذلك رجع من بعثهم معاوية إلى على لأنه كان يريد قبل كل شيء مبايعته ثم ينظر فى أمر قتلة عثمان ولما انقضى شهر الهدنة أمر على منادياً ينادى ياأهل الشام يقول لكم أمير المؤمنين قد إستدمتكم لتراجعوا الحق وتنيبوا إليه فلم تنتهوا عن طغيانكم ولم تجيبوا إلى الحق وإنى قد نبذت إليكم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ثم أوصى أصحابه فقال (لا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم فأنتم بحمد الله على حجة وترككم إياهم حجة أخرى فإذا هزمتموهم فلا تقتلوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تكشفوا عورة ولا تمثلوا بقتيل وإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا ستراً ولا تدخلوا داراً ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم ولا تهيجوا النساء بأذى وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم وصلحاءكم فإنهن ضعاف القوى والأنفس) ثم عبى جيشه وأمر أمراءه وكذلك فعل معاوية وابتدأ القتال يوم الثلاثاء أول يوم من صفر فخرجت فرقة من أهل العراق ومثلها من أهل الشام واقتتلتا طول النهار وهكذا فى الأيام التالية له فلما كان مساء الثلاثاء الثامن من صفر خطب على أصحابه فحمد الله وأثنى عليه فقال (الحمد الله الذى لا يبرم مانقضه وما أبرم لم ينقضه الناقضون ولو شاء الله ما اختلف إثنان من خلقه ولا اختلفت الأمه فى شيء ولا جحد المفضول ذا الفضل فضله وقد ساقتنا وهؤلاء القوم الأقدار فنحن بمرآى من ربنا ومسمع فلو شاء عجل الفتنة وكان منه التغيير حتى يكذب الظالم ويعلم الحق أين مصيره ولكنه جعل الدنيا دار الأعمال والآخرة دار القرار ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى، ألا وإنكم لاقوا القوم غداً فأطيلوا الليلة القيام وأكثروا تلاوة القرآن واسألوا الله النصر والصبر والقوهم بالجد والحزم وكونوا صادقين. وأجمع على أمره على ملاقاة جيش معاوية بجيشه كله فلما أصبحوا التقى الجيشان فتقاتلوا قتالاً

شديداً وانصرفوا عند المساء وكل غير غالب أما فى يوم الخميس عاشر صفر فان رحا الحرب دارت بشدة على الطائفتين وظهرت فصاحة الفصحاء وبلاغة البلغاء وكل يرى نفسه فى طاعة الله فكان أحدهم إذا رأى فرقة ملت القتال رمى عليها بصواعق من لسانه فتعود إليها حميتها وكان للأشتر بن الحارث اليد الطولى فأنه صار يتقدم بمن معه حتى قارب معاوية وكان معاوية بعدها يقول كدت أنهزم فذكرت قول ابن الاطنابة:

أبت لى عفتى وأبا بلائى وإقدامى على البطل المشيح
وإعطائى على المكروه مالى وأخذى الحمد بالثمن الربيح
وقولى كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدى أو تستريحى

فمنعنى ذلك من الفرار وأحاطت به جيوش الشام وحميت قلوبهم ولم يصدهم عن القتال إقبال الليل فاستمروا على ماهم عليه ليلة تعد من ليالى الإسلام المظلمة وأصبحوا وكان الملل والسآمة فى جيش الشام أبين ورأى ذلك معاوية وعمرو بن العاص فقال عمرو ندعوهم لكتاب الله أن يكون حكما بيننا وبينهم فأمر معاوية برفع المصاحف على الرماح ومنادياً يقول هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم من لثغور الشام بعد أهل الشام من لثغور العراق بعد أهل العراق فلما رآها أصحاب على وقد أشرفوا على الانتصار اختلفوا ففرقة تقول نجيب إلى كتاب الله عز وجل ورئيسهم الأشعث بن قيس الكندى وفرقة تأبى إلا القتال حتى يتم الأمر لأنهم ظنوا رفع المصاحف خديعة ورئيسهم الأشتر وكان هذا رأى أمير المؤمنين ولكنه اتبع رأى مخالفيه لكثرتهم فأرسل الأشعث إلى معاوية يسأله عما يريد فتوجه إاليه وقال لأى شيء رفعتم المصاحف فقال لنرجع نحن وأنتم إلى ماأمر الله فى كتابه تبعثون رُجلا ترضونه ونبعث رجلا نرضاه ونأخذ عليهما العهد أن يعملا بما فى كتاب الله لا يعدوانه ثم نتبع ما اتفقا عليه فعاد إلى على بالخبر فقال الناس رضينا وقبلنا واختار أهل الشام عمرو بن العاص واختار أهل العراق أبا موى الأشعرى فحصر عمرو ليكتب الكتاب بين الفريقين بذلك فكتبوا.

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ماتقاضى عليه أمير المؤمنين على فقال عمرو ليس لنا بأمير فمحاه على وقال (هذا ما تقاضى عليه على بن أبى طالب

ومعاوية بن أبى سفيان قاضى علىّ على أهل الكوفة ومن معهم وقاضى معاوية على أهل الشام ومن معهم أنا ننزل على حكم الله وكتابه وألا يجمع بيننا غيره وأن كتاب الله بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحيى ما أحيا ونميت ما أمات فما وجد الحكمان فى كتاب الله وهما أبو موسى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عملا به وما لم يجداه فى كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة وأخذ الحكمان من على ومعاوية ومن الجندين من العهود والمواثيق أنهما آمنان على أنفسهما وأهليهما والأمة لهما أنصار على الذى يتقاضيان عليه ، وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة لا يردانها فى حرب ولا فرقة حتى يقضيا ، وأجلا القضاء إلى رمضان وإن أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه وأن مكان قضيتهما مكان عدل من أهل الكوفة وأهل الشام) وشهد على الكتاب جماعة من جيش على ومثلهم من جيش معاوية وتاريخ الكتاب يوم الأربعاء لثلاثة عشرة بقيت من شهر صفر سنة سبع وثلاثين واتفقوا على أن يجتمع الحكمان بدومة الجندل أو بأذرح فى رمضان ثم انفض الناس من هذا المحل المشئوم الذى اجتمع فيه فئتان عظيمتان من المؤمنين يقاتل بعضهم بعضا ولكن الذى يخفف البلية أن الفريقين كانا يريدان الله بعملهما لأن الجميع كانوا يريدون إنفاذ حكمه حسبما اجتهدوا ورأوا ورجع أمير المؤمنين من صفين إلى الكوفة وجيشه فى شقاق واختلاف فريق راض بالتحكيم ظان أنه حاسم للخلاف وجامع لكلمة المسلمين وفريق كاره قائل كيف تحكم فى دين الله الرجال وهؤلاء اعتزلوا إخوانهم يقولون أدهنتم فى دين الله وأولئك يقولون فارقتم إمامنا فلما وصل علىّ الكوفة اعتزله جماعة ممن رأوا التحكيم ضلالا وأتوا حروراذ فنزلوا بها فى إثنى عشر ألفاً وأمروا على القتال شبث بن ربعى وعلى الصلاة عبد الله بن الكو اليشكرى والأمر شورى بعد الفتح والبيعة لله عز وجل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فبعث إليهم على عبد الله بن عباس وقال له لاتراجعهم حتى آتيك فلم يصبر عن مكالمتهم وقال مانقمتم من أمر الحكمين وقد أمر الله بهما بين الزوجين «**وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما**» فكيف بأمة محمد ﷺ ؟ فقالوا هذا لايكون بالرأى والقياس فإن ذلك قد جعله الله حكما

للعباد وهذا امضاه كما أمضى حكم الزانى والسارق فليس للعباد أن ينظروا فيه فقال ابن عباس قال الله تعالى «**يحكم به ذوو عدل منكم**» فقالوا والأخرى كذلك ليس أمر الزوجين والصيد كدماء المسلمين وقدحوا فى عدالة عمرو بن العاص وقالوا قد حكمتم فى أمر الله الرجال وقد أمضى الله حكمه فى معاوية وأصحابه أن يقتلوا أو يرجعوا وجعلتم بينكم الموادعة فى الكتب وقد قطعها الله بين المسلمين وأهل الحرب مذ نزلت براءة ، فخرج إليهم على ونزل فى فسطاط يزيد ابن قيس قريباً منهم بعد أن علم أنهم يرجعون إليه فى رأيهم فصلى عنده ركعتين وولاه أصبهان والرى ثم خرج إليهم وهم فى مجلس ابن عباس فقال من زعيمكم؟ قالوا : ابن الكوا قال فما هذا الخروج؟ قالوا : لحكومتكم يوم صفين قال قد اشترطت على الحكمين أن يحيا ماأحيا القرآن ويميتا ماأمات القرآن فليس لنا أن خالف وإن أبيا فنحن من حكمهما براء قالوا : فخبرنا أتراه عدلا تحكيم الرجال فى الدماء . فقال : إنا لسنا حكمنا الرجال وإنما حكمنا القرآن وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين لاينطق إنما يتكلم به الرجال . قالوا : فلم جعلتم الأجل بينكم قال ليعلم الجاهل ويثبت العالم ولعل الله يصلح فى هذه الهدنة هذه الأمة . فرجعوا إلى رأية فقال ادخلوا مصركم رحمكم الله فدخلوا عن آخرهم . .

* * *

اجتماع الحكمين

ولما انقضى الأجل وحل رمضان فى السنة السابعة والثلاثين أرسل على أبا موسيالأشعرى فى أربعمائة رجل عليهم شريح بن هانىء الحارثى ومعهم عبد الله بن عباس يصلى بهم ويلى أمورهم وأرسل معاوية عمرو بن العاص فى أربعمائة من أهل الشام عليهم شرحبيل بن الصمة فاجتمع الفريقان فى دومة الجندل وكان معهم عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبى بكر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام والمغيرة بن شعبة وسعد بن أبى وقاص ولما اجتمع الحكمان قام أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه وذكر الحدث الذى حل بالإسلام والخلاف الواقع بأهله ثم قال ياعمرو هلم إلى أمر يجمع الله فيه الألفة ويلم الشعث ويصلح ذات البين فجزاه عمرو خيراً وقال إن للكلام أولاً وآخراً ومتى تنازعنا الكلام خطباً لم نبلغ آخره حتى ننسى أوله فاجعل ماكان من كلام نتصادر عليه فى كتاب يصير إليه أمرنا . قال فاكتب ، فدعا عمرو بصحيفة وكاتب وقال له اكتب فإنك شاهد علينا ولا تكتب شيئاً يأمرك به أحدنا حتي تستأمر فيه الآخر فإذا أمرك فاكتب وإذا نهاك فانته حتى رأينا اكتب :

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ماتقاضى عليه أبو موسى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص تقاضيا على أنهما يشهدان أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ثم قال عمرو ونشهد أن أبا بكر خليفة رسول الله ﷺ عمل بكتاب الله وسنة رسوله حتى قبضه الله إليه وقد أدى الحق الذى عليه قال أبو موسى اكتب ثم قال فى عمر مثل ذلك قال عمرو اكتب (وأن عثمان ولى هذا

الأمر بعد عمر على إجماع من المسلمين وشورى من أصحاب رسول الله ﷺ ورضا منهم وأنه كان مؤمنا) قال أبو موسى ليس هذا مما قعدنا له قال عمرو لابد والله من أن يكون مؤمناً أو كافراً قال أبو موسى اكتب قال عمرو فظالماً قتل عثمان أو مظلوماً قال أبو موسى بل قتل مظلوماً قال عمرو أفليس قد جعل الله لولى المظلوم سلطاناً يطلب بدمه ؟ قال أبو موسى نعم . قال عمرو فهل تعلم لعثمان ولياً أولى من معاوية ؟ قال أبو موسى لا . قال عمرو لمعاوية أن يطلب قاتله حيثما كان أو يعجز ؟ قال أبو موسى بلى . قال عمرو للكاتب اكتب وأمره أبو موسى فكتب ثم قال أبو موسى هذا أمر قد حدث في الإسلام وإنما اجتمعنا لله فهلم إلى أمر يصلح الله به أمة محمد ، قال عمرو ماهو ؟ قال أبو موسى قد علمت أن أهل العراق لايحبون معاوية أبداً ، وأن أهل الشام لايحبون عليا أبداً فهل نخلعهما جميعاً ونستخلف عبد الله بن عمر قال عمرو أيفعل ذلك عبد الله بن عمر ؟ قال نعم إذا حمله الناس على ذلك فعل . فقال له عمرو هل لك فى سعد ؟ قال لافعدد له جماعة وكلهم يأباه أبو موسى ولا يرضى إلا عبد الله بن عمر فأخذ عمرو الصحيفة بعد أن ختما عليها جميعاً ولم يتفق الحكمان على من يولياء أمر هذه الأمة لأن أبا موسى رضى بخلع على ومعاوية ولم يختر للخلافة إلا عبد الله بن عمر ، وعمرو بن العاص لم يرضه . فافترقا على ذلك ولم يحصل بينهما غير ماكتب فى الصحيفة كما حكاه المسعودى فى رواية له فأما أبو موسى فإنه استحيا أن يقابل علياً بعد أن أقر على خلعه من الخلافة فلحق بمكة وأما عمرو بن العاص فرأى أن الأمر صار شورى بين المسلمين حسبما سطر فى الصحيفة ورضى به كلاهما فتوجه هو وأهل الشام إلى معاوية فبايعوه بالخلافة لأنهم رووه أهلا لأن يقوم بأعبائها أما أمير المؤمنين على فإنه رأى أن الحكمين لم يفيا بما تعهدا به من الحكم بالقرآن بل اتبع كل منهما هواه فصمم على حرب معاوية مرة أخرى وخطب أصحابه خطبة قال فيها (الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدثان الجلل وأشهد إن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله أما بعد فإن المعصية تورث الحسرة وتعقب الندم وقد

كنت أمرتكم فى هذين الرجلين وفى هذه الحكومة أمرى ونحلتكم رأيى لو كان

لقصير أمر ، ولكن أبيتم إلا ما أردتم فكنت أنا وأنتم كما قال أخو هوازن .

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

ألا أن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين قد نبذا حكم القرآن وراء ظهرهما وأحييا ما أمات القرآن واتبع كل واحد منهما هواه بغير هدى من الله فحكما بغير حجة بينة ولا سنة ماضية واختلفا فى حكمهما وكلاهما لم يرشد فبرىء الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين استعدوا وتأهبوا للمسير إلى الشام وأصبحوا فى معسكركم إن شاء الله يوم الإثنين) ولكن حال بينه وبين ذلك أن خرج عليه جماعة زعموا أن التحكيم نقص فى الدين وهم الذين كانوا اعتزلوه أولا فأرسل إليهم عبد الله بن عباس فلما صار إليهم رحبوا به وأكرموه فرأى منهم جباهاً قرحة لطول السجود وأيديا كثفنات الإبل عليهم قمص مرحضة وهم مشمرون فقالوا ما جاء بك ياابن عباس فقال جئتكم من عند صهر رسول الله وابن عمه وأعلمنا بربه وسنة نبيه قالوا إنا أتينا عظيما حين حكمنا الرجال فى دين الله فإن تاب كما تبنا ونهض لمجاهدة عدونا رجعنا فجادلوه وجادلهم ومما احتجوا به أن علياً محا نفسه من إمارة المسلمين وقت كتابة الصحيفة قال ابن عباس ليس ذلك بمزيلها عنه وقد محا رسول الله اسمه من النبوة وقد أخذ على الحكمين ألا يجورا وأن يحورا فعلى أولى من معاوية وغيره قالوا إن معاوية يدعى مثل دعوى على . قال فأيهما رأيتموه أولى فولوه . قالوا صدقت ياابن عباس . قال ابن عباس متى جار الحكمان فلا طاعة لهما ولا قبول لقولهما ، فرجع معه ألفان منهم وبقى الباقون فصلى بهم صلاتهم ابن الكوار وقال متى كانت حرب فرئيسكم شبث بن ربعى الرباحى وبقوا على ذلك يومين ثم أجمعوا على البيعة لعبد الله بن وهب الراسى ومضوا إلى النهروان فأصابوا مسلماً ونصرانياً فقتلوا المسلم وأوصوا بالنصرانى فقالوا احفظوا ذمة نبيكم ولقيهم عبد الله بن خباب بن الأرت وفى عنقه مصحف ومعه امرأته وهى حامل فقالوا إن هذا الذى فى عنقك ليأمرنا بقتلك قال ما أحيا القرآن فأحيوه وما أماته فأميتوه فوثب رجل منهم على رطبة فوضعها فى فيه فصاحوا به فلفظها تورعاً وعرض لرجل منهم خنزير فضربه الرجل فقتله فقالوا هذا فساد فى الأرض

فقال عبد الله بن خباب ما على منكم بأس إنى لمسلم قالوا حدثنا عن أبيك قال سمعت أبى يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول تكون فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه يمسى مؤمناً ويصبح كافراً فكن عبد الله المقتول ولا تكن القاتل . قالوا فما تقول فى أبى بكر وعمر فأثنى خيرا . فقالوا ما تقول فى على قبل التحكيم وفى عثمان ست سنين فأثنى خيراً . فقالوا فما تقول فى الحكومة والتحكيم . قال أقول إن علياً أعلم بكتاب الله منكم وأشد توقياً على دينه وأنفذ بصيرة . قالوا إنك لست تتبع الهدى إنك تتبع الرجال على أسمائها ثم قربوه إلى شاطىء النهر فذبحوه . وساوموا رجلاً نصرانياً بنخلة له فقال هى لكم فقالوا ما كنا نأخذها إلا بثمن فقال ما أعجب هذا تقتلون مثل عبد الله ابن خباب ولا تقبلون منى جنى نخلة ! فلما بلغ أمير المؤمنين عنهم هذا الفساد صمم على البدء بهم فسار إليهم وقدم لهم قيس بن سعد فقال لهم عباد الله اخرجوا إلينا طلبتنا (قتلة عبد الله بن خباب) ادخلوا فى هذا الأمر الذى خرجتم منه وعودوا بنا إلى قتال عدونا وعدوكم فإنكم ركبتم عظيما من الأمر تشهدون علينا بالشرك وتسفكون دماء المسلمين ! وقال لهم أبو أيوب الأنصارى عباد الله إنا وإياكم على الحال الأولى التى كنا عليها ليست بيننا وبينكم فرقة فعلام تقاتلوننا ؟ فأبى الخوارج إلا ما عزموا عليه وامتنعوا عن تسليم من قتل عبد الله بن خباب فعبى لهم أمير المؤمنين جيشه ونصب أبو أيوب راية الأمان وناداهم من جاء تحت هذه الراية فهو آمن ومن لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن ومن انصرف منكم إلى الكوفة أو إلى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن لا حاجة لنا بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم فى سفك دمائكم . فانصرف فروة بن نوفل بخمسمائة حتى نزل البندنجين والدسكرة . وانصرف جماعة إلى الكوفة . وخرج إلى على نحو مائة مسالمين . فبقى مع الخوارج ألفان وثمانمائة لم يلبثوا إلا ضحوة نهار حتى قتلوا ولم ينج منهم إلا ثمانية أشخاص . وقتل من أصحاب أمير المؤمنين تسعة ثم أخذ ما فى عسكرهم فأما السلاح والدواب وما شهر عليه فقسم . وأما الإماء والعبيد والمتاع فرده على أهله بالكوفة ثم إن الذين كانوا فارقوهم والذين لجئوا إلى راية أبى أيوب ومن كان أقام بالكوفة من الخوارج على الجياد تجمعوا وتأسفوا على خذلانهم أصحابهم

فقام فيهم المستورد أحد كبرائهم وخطبهم حاثا على قتال على فخرجوا إلى النخيلة فأرسل إليهم عبد الله ابن عباس ناصحاً فأبوا . فسار إليهم أمير المؤمنين وطحنهم جميعاً بالنخيلة ولم ينج منهم إلا خمسة منهم المستورد وابن جوين الطائى وابن شريك الأشجعى (ولما انتهى) أمير المؤمنين من الخوارج أمر أصحابه بالتوجه إلى الشام لقتال معاوية ومن معه فقالوا ياأمير المؤمنين نفدت نبالنا وكلت سيوفنا ونسلت أسنة رماحنا وعاد أكثرها قصدا فارجع بنا إلى مصرنا فلنستعد ولعل أمير المؤمنين يزيد فى عدتنا فإنه أقوى لنا على عدونا . ومن هذا يفهم أن القوم قلت عزائمهم فسئموا القتال وإذا كانت هذه حال الجيش فلا تستغرب ما آل إليه حال أمير المؤمنين على بن أبى طالب فان سلطته سارت إلى الوراء كل يوم فى نقصان وهو كل ساعة يحرضهم بما أتاه الله من فصاحة اللسان وبلاغة القول وهم لا يزدادون إلا فتوراً وقليل منهم الذى أخلص له القول والعمل وكثرت عليه الخوارج بحجتهم التى اتخذوها وهى أنه حكم الرجال فى دين الله ولا حكم إلا لله وكان فيمن خرج عليه الخريت بن راشد الناجى فى ثلاثمائة من بنى ناجية جاء إليه فقال ياعلى والله لا أطيع أمرك ولا أصلى خلفك وإنى غداً مفارق لك فقال له إذن تعصى ربك وتنكث عهدك ولا تضر إلا نفسك خبرنى لم تفعل ذلك؟ فقال لأنك حكمت وضعفت عن الحق وركنت إلى القوم الذين ظلموا فأنا عليك زار وعليهم ناقم ولكم جميعاً مباين . فقال له هلم أدارسك الكتاب وأناظرك فى السنن وأفاتحك أموراً أنا أعلم بها منك فلعلك تعرف الآن ماأنت له منكر . قال فإنى عائد إليك قال لا يستهوينك الشيطان ولا يستخفنك الجهال والله لئن استرشدتنى وقبلت منى لأهدينك سبيل الرشاد . فلم يسمع له قولا بل سار بمن معه نحو نفر فأرسل وراءهم زياد بن خصفة البكرى وقال له سر حتى تأتى دير أبو موسى وانتظر أمرى فسار زياد حتى أتى دير أبى موسى وبعد مسيره أرسل

إلى على قرظة بن كعب الأنصارى يخبره أن أصحاب الخريت قتلوا رجلا من الدهاقين كان قد أسلم فبعث إلى زياد أن يتبع آثارهم ويطلب منهم من قتل هذا الدهقان ثم يرده إليه فإن أبوا ناجزهم فسار زياد حتى لحقهم بالمذار فقال زياد للخريت ما الذى نقمت على أمير المؤمنين وعلينا حتى فارقتنا فقال لم أرض

صاحبكم إماما ولا سيرتكم سيرة فرأيت أن أعتزل وأكون مع من يدعو إلى الشورى . فقال له زياد وهل يجتمع الناس على رجل يشبه صاحبك الذى فارقته علماً بالله وسنته وكتابه مع قرابته من رسول الله ﷺ وسابقته بالإسلام فقال الخريت لا أقول فى ذلك لا . قال زياد ففيم قتلت المسلم الذى قتلته ؟ قال لم أقتله إنما قتله جماعة من أصحابى . قال فادفعهم إلينا . قال مالى إلى ذلك سبيل فقاتلهم زياد إلى الليل فهرب الخريت ليلا ولما أرى ذلك زياد رجع إلى البصرة لمداواة من معه من الجرحى وأرسل إلى على بالخبر . فأرسل إلى الخوارج معقل بن قيس الرياحى فى ألفين وكتب إلى ابن عباس بالبصرة أن يمده بألفين من أهلها عليهم رجل ذو نجدة فسار معقل ولحقه مدد أهل البصرة فوافوا الخوارج قرب جبل من جبال رامهرمز فقاتلوهم حتى قتل من أصحاب معقل نحو السبعين وانهزم الخريت ببعض أصحابه . فأمر على معقلا أن يتبعه فتبعه حتى أجهز على بقية من معه وقتل الخريت (ثم خرج) على أمير المؤمنين بعد ذلك كثير من الخوارج كلما أطفئت فتنة قامت أخرى (أما) معاوية رضى الله عنه فإنه منذ بويع بالخلافة استقام له الأمر بالشام وكانوا أحسن جند فى طاعة الأمراء فأراد أن يجمع كلمة المسلمين على بيعته كما كان يريد أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه فأرسل إلى مصر عمرو بن العاص.

وكان من خبرها أن علياً لما بويع أرسل إليها قيس بن سعد بن عبادة كما قدمنا فبايعه أهلها إلا جماعة منهم اعتزلوا بخربتا عليهم يزيد بن الحرث الدجلى أعظموا قتل عثمان ودخل معهم مسلمة بن مخلد فكف عنهم قيس لعلمه أنهم ليسوا ممن يخاف شره فلما علم بذلك أمير المؤمنين كتب إليه يأمره بقتالهم لأن معظم النار من مستصغر الشرر فكتب إليه قيس (أما بعد فقد عجبت لأمرك تأمرنى بقتال قوم كافين عنك مفرغيك لعدوك ومتى حاددناهم ساعدوا عليك عدوك فأطعنى ياأمير المؤمنين واكفف عنهم ، فإن الرأى تركهم والسلام) فعزله أمير المؤمنين عنها وولاها محمد بن أبى بكر الصديق فلما جاءها قصد المسجد وخطب أهلها فقال (الحمد لله الذى هدانا وإياكم لما اختلف فيه من الحق وبصرنا وإياكم كثيراً مما عمى عنه الجاهلون ألا إن أمير المؤمنين ولانى أمركم وعهد

إلى ما سمعتم وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب فإن يكن ما ترون من إمارتى وأعمالى طاعة فاحمدوا الله على ما كان من ذلك فإنه هو الهادى وإن رأيتم عاملا لى عمل بغير الحق فارفعوه إلى وعاتبونى فيه فإنى بذلك أسعد وأنتم جديرون وفقنا الله وإياكم لصالح الأعمال برحمته) ثم نزل وبعد شهر من مقدمه أرسل إلى المعتزلين بخربتا يخيرهم بين الطاعة أو الخروج من مصر فأجابوه إنا لا نفعل فدعنا حتى ننظر إلى ما يصير إليه أمرنا فلا تعجل لحربنا فأبى عليهم فامتنعوا وأخذوا حذرهم وكانت حينذاك وقعة صفين فتمت وهم حذرون من محمد فلما حصل التحكيم طعموا فيه ونابذوه فأرسل إليهم سرية لقتالهم فقتلوا رئيسها فأرسل أخرى فقتلوا رئيسها ثم خرج معاوية بن خديج السكونى مطالباً بدم عثمان فلما علم أمير المؤمنين بذلك رأى أن محمداً لا تمكنه المقاومة فولى على مصر الأشتر ابن الحارث النخعى وكتب إليه عهداً جمع فيه سياسة الدنيا وصلاح الآخرة فتوفى فى الطريق وشق على محمد بن أبى بكر عزله فأرسل إليه على (أما بعد فقد بلغنى موجدتك من تسريحى الأشتر إلى عملك وإنى لم أفعل ذلك إلا إزدياداً لك منى فى الجد ولو نزعت ما تحت يدك وليتك ما هو أيسر عليك مؤنة وأعجب إليك ولاية. إن الرجل الذى كنت وليته أمر مصر كان لنا نصيحاً وعلى عدونا شديداً وقد استكمل أيامه ولاقى حمامه ونحن عنه راضون فرضى الله عنه وضاعف له الثواب، أصبر لعدوك وشمر للحرب وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وأكثر ذكر الله والإستعانة وبه والخوف منه يكفك ما أهمك ويعنك على ما ولاك) فكتب إليه محمد (أمّا بعد فقد انتهى إلى كتابك وفهمته وليس أحد من الناس أرضى برأى أمير المؤمنين ولا أجهد على عدوه ولا أرأف بوليه منى وقد خرجت فعسكرت وأمنت الناس إلا من نصب لنا حرباً وأشهر لنا خلافاً وأنا متبع أمر أمير المؤمنين وحافظ له والسلام) فلما كانت سنة ثمان وثلاثين أرسل معاوية عمرو بن العاص فى ستة آلاف فسار حتى نزل أدانى مصر فجاءه من خالف على ومحمد بن أبى بكر وطالب بدم عثمان فاجتمع بهم وكتب إلى محمد أما بعد فتنح عنى بدمك ياابن أبى بكر فإنى لا أحب أن يصيبك منى ظفر إن الناس فى هذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك وهم مسلموك فاخرج منها إنى لك من الناصحين) فكتب محمد إلى

علي بالخبر واستمده فارسل إليه أن يضم شيعته إليه ويأمره بالصبر ويعده بإنفاذ الجيوش إليه فقام محمد فى الناس وندبهم إلى الخروج معه فانتدب له ألفان أمر عليهم كناية بن بشر فسيرهم أمامه وتوجه هو بألفين لقتال عمرو فلما التحم كنانة بجيوش الشام ومعهم معاوية بن خديج من أهل مصر انهزم المصريون وقتل كناية فلما سمع بذلك من مع محمد تفرقوا عنه فاختفى . أما عمرو فإنه سارحتى نزل الفسطاط وخرج معاوية بن خديج يطلب محمد بن أبى بكر حتى التقى به فقتله.

ولما بلغ قتله أم المؤمنين عائشة جزعت عليه جزعاً شديداً وضمت إليها أولاده . وبقتل محمد صارت مصر فى طاعة معاوية بن أبى سفيان وبايع له أهلها أما المدد الذى أرسله أمير المؤمنين لمساعدة محمد بن أبى بكر فإنه بلغهم وهم فى الطريق قتله فرجعوا (وبعد) أن تم لمعاوية أمر مصر سير إلى البصرة عبد الله بن الحضرمى وكان عليها إذ ذاك زياد بن أبى سفيان خليفة لابن عباس فاجتمع إلى ابن الحضرمى كثير من بنى تميم كانوا يطلبون بدم عثمان فطلب منهم المساعدة فقام إليه الضحاك بن قيس وكان على شرطة ابن عباس فقال قبح الله ما جئتنا به وما تدعون إليه نحن الآن مجتمعون على بيعة على وقد أقال العثرة وعفا عن المسيء أفتأمرنا أن ننتضى أسيافنا ويضرب بعضنا بعضاً ليكون معاوية أميراً فقام عبد الله بن خازم السلمى وقال للضحاك اسكت فلست بأهل لأن تتكلم وقال لعبد الله نحن أنصارك ويدك والقول قولك فلما رأى ذلك زياد استجار بالأزد فأجاروه هو وبيت ماله وأرسل إلى على بالخبر فبعث إليه أعين بن ضبيعة المجاشعى التميمى ليفرق تميم عن ابن الحضرمى فقتل غيلة فلما بلغ ذلك علياً أرسل جارية بن قدامة السعدى فسار إلى البصرة وخطب الأزد وجزاهم عن أمير المؤمنين خيراً وقرأ على أهل البصرة كتاب على يهددهم ويتوعدهم فيه بحرب أشد من وقعة الجمل فأجابه أكثر أهل البصرة فسار إلى ابن الحضرمى وقاتله هو ومن معه حتى هزمه فتبعوه حتى قتل.

ثم صار معاوية يوجه السرايا إلى بلاد أمير المؤمنين ليدخلها فى طاعته

وسير يزيد ابن شجرة إلى مكة ليحج بالناس ويبايع أهلها على طاعته وكان واليها من قبل على قثم بن العباس وليس عنده قوة يقاتل بها فلم يقدم على القتال فأما ابن شجرة فأمن الناس إلا من قاتل وأرسل إلى أبى سعيد الخدرى يخبره أن يأمر قثم ألا يصلى بالناس ولا يصلى أيضاً ابن شجرة ويختار الناس من يصلى فاختاروا شيبة بن عثمان فصلى بهم وتم الحج بسلام ولم يحصل إلحاد فى الحرام حذرا من وعيده تعالى فى قوله **«ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم»** وصارت السرايا بعد ذلك تتردد بين الجهتين وكل يريد جمع الكلمة فلم يتيسر لأحدهما ولكن الحجاز واليمن دخل أهلوهما فى طاعة معاوية حينما سير إليهما بسر بن أرطاة العامرى فلم يعد مستمسكا ببيعة أمير المؤمنين إلا العراق وما والاها من بلاد فارس وكلها نار تضطرم بالخلاف والشقاق فريق شيعه على وآخرون خوارج لايريدون عليا ولا معاوية وفريق منافق يظهر طاعة على ويخفى عداءه فملهم أمير المؤمنين وسئم إمارته عليهم حتى خاطبهم بذلك فى كثير من خطبه. وفى السنة الأربعين من الهجرة النبوية أراحه الله من هذا الشقاق المتتابع والخلاف المستعصى فضمه إلى إخوانه من الشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً وسبب ذلك أنه اجتمع ثلاثة من الخوارج وتذاكروا ما حل بإخوانهم من الخوارج وكرهوا المقام بعدهم فاتفقوا على أن يذهب أحدهم وهو عبد الرحمن بن ملجم المرادى إلى الكوفة فيقتل علياً ويذهب الثانى وهو البرك بن عبد الله التميمى إلى الشام فيقتل معاوية ويذهب ثالثهم وهو عمرو بن بكر التميمى إلى مصر فيقتل عمرو بن العاص واتعدوا بينهم ليلة ينفذون فيها ما اتفقوا عليه فأما البرك فذهب إلى معاوية وانتظره فى صلاة الصبح فضربه بالسيف فوقع فى أليته ولم يمته فأمر به معاوية فقتل وأما عمرو بن بكر فذهب إلى عمرو ولحسن حظه لم يخرج إلى الصلاة فى ذلك اليوم لمرضه فكان يصلى بالناس خارجة بن حبيب السهمى فضربه الخارجى فقتله ظناً منه أنه عمرو فخاب ظنه وقبض عليه فقتل وأما عبد الرحمن بن ملجم فقصد الكوفة وانتظر أمير المؤمنين فى صبح الليلة التى اتعد فيها الخوارج وهى ليلة الجمعة لسبع خلون من رمضان فبينما أمير المؤمنين ينادى الناس الصلاة الصلاة إذ ضربه هذا الشقى بسيفه قائلا الحكم لله لالك ياعلى ولا لأصحابك فقال على

لا يفوتنكم الرجل فشد عليه الناس وأخذوه وقدم جعدة بن هبيرة يصلى بالناس الصبح ثم قال رضى الله عنه النفس بالنفس إن هلكت فاقتلوه كما قتلنى وإن بقيت رأيت فيه رأيى يابنى عبد المطلب لاألفينكم تخوضون دماء المسلمون تقولون قتل أمير المؤمنين ألا لا يقتلن إلا قاتلى انظر ياحسن إن أنامت من ضربتى هذه فاضربه ضربة بضربة ولا تمثل بالرجل فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول «إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور» ودخل جندب بن عبد الله فقال ياأمير المؤمنين إن فقدناك ولا نفقدك فنبايع الحسن فقال ما آمركم ولا أنها كم أنتم أبصر ثم دعا الحسن والحسين فقال لهما (أوصيكما بتقوى الله ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ولا تبكيا على شىء أزوى عنكما وقولا الحق وارحما اليتيم وأعينا الضائع واصنعا للأخرى وكونا للظالم خصيما وللمظلوم ناصراً واعملا بما فى كتاب الله ولا تأخذكما فى الله لومة لائم) ثم نظر إلى محمد الأكبر بن الحنفية فقال له هل حفظت ماأوصيت به أخويك قال نعم قال فإنى أوصيك بمثله وأوصيك بتوقير أخويك لعظيم حقهما عليك وتزين أمرهما ولا تقطع أمراً دونهما ثم قال للحسن والحسين أوصيكما به فإنه شقيقكما وابن أبيكما وقد علمتما أن أباكما كان يحبه وقال للحسن أوصيك أى بنى بتقوى الله وإقام الصلاة لوقتها وإيتاء الزكاة عند محلها وحسن الوضوء فإنه لاصلاة إلا بطهور وأوصيك بغفر الذنب وكظم الغيظ وصلة الرحم والحلم عن الجاهل والتفقه فى الدين والتثبت فى الأمر والتعاهد للقرآن وحسن الجوار والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجتناب الفواحش ثم لم يزل يذكر الله حتى مات رضى الله عنه فغسله ولداه الحسن والحسين وابن أخيه عبد الله بن جعفر وكفن فى ثلاثة أثواب ليس فيها قميص وكبر عليه الحسن سبع تكبيرات. ومكث رضى الله عنه فى الخلافة أربع سنين وسبعة أشهر وأياما أراد الله فيها أن يذيق الأمة فيها كأس الضر من الإختلاف عليه لتكون قد ذاقت الأمرين السراء والضراء والأخوة والشقاق فتختار لنفسها ما يوفقها الله له وقد كان الله سبحانه وتعالى يعلم الأمة المحمدية فى عصر رسول الله ﷺ بعقاب يعجله جزاء على أعمال لتحذير الأمة من العودة لها كما عاقب بالهزيمة فى غزوة أحد إذ فشل المسلمون وتنازعوا فى الأمر وعصوا الرسول فلم تعد المسلمون بعد ذلك لشىء من هذه الثلاث لعلمهم

بأنه يبعدهم عن الله جل ذكره وما داموا كذلك فنصره بعيد عنهم وكذلك فى هذه الواقعة أراد الله أن يعاقبهم على ما فعله بعضهم فى خليفتهم الذى بايعوه وتعهدوا بطاعته ثم نكثوا بيعته وقتلوه ظلماً فعاقبهم الله بهذا العقاب الشديد وأوقع بأسهم بينهم حتى لا يعودوا لتفريق كلمتهم وشق عصا أئمتهم، نسأل الله التوفيق.

ولما استشهد على رضى الله عنه بايع أهل الكوفه ابنه الحسن وأول من بايعة قيس بن سعد بن عبادة قال له أبسط يدك ابايعك على كتاب الله وسنه رسوله وقتال المحلين فقال الحسن على كتاب الله وسنة نبيه فإنهما يأتيان على كل شرط فبايعه الناس على ذلك.

الحسن

هو الحسن بن علي بن أبي طالب وأمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ ولد بالمدينة المنورة في السنة الثالثة من الهجرة وكان أشبه الناس برسول الله ﷺ وكان عليه السلام يحبه حباً شديداً هو وأخوه الحسين وقال في حق الحسن «اللهم إني أحبه فأحبه وأحبب من يحبه» وقال فيه كما رواه البخاري في صحيحه «إن إبني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين طائفتين عظيمتين من المؤمنين» ولم يحضر غزوات رسول الله ﷺ لصغر سنه فقد توفي عليه السلام وقد جاوز سبع السنين ولما فرض عمر بن الخطاب رضي الله عنه العطاء أدخل الحسن في أهل البدر لمكانه من رسول الله ﷺ وكان ممن دافع عن عثمان وأبلى في ذلك بلاء حسناً حتى نهاه عثمان رضي الله عنه، ولما بويع أمير المؤمنين علي كان الحسن معه في جميع مشاهده ولما قتل علي رضي الله عنه أجمعت شيعة أبيه على بيعته وله كثير من الأولاد من أمهات شتى لم يعقب منهم إلا إبناه الحسن المثنى وزيداً.

أعماله فى الخلافة

لما بويع رضى الله عنه وكان أبوه قد جهز جيشاً لحرب أهل الشام أمر الحسن بخروج هذا الجيش لتتميم ما قد عزم عليه أبوه وسير قيس ابن سعد طليعة له. وليحقق الله سبحانه للحسن ما أخبر به رسول الله ﷺ ألهمه الرشد فنظر إلى بيعته فرآها ليست كبيعة أبيه فإنها ليست عامة ولكنها قاصرة على شيعتهم من أهل العراق ورأى من جهة أخرى أن جند العراق لا تقوم به دولة لما هو بينهم دائماً من الشقاق والنزاع والتطلع إلى ما ليس لهم حتى نازعوه بساطاً كان يجلس عليه فراسل معاوية بن أبى سفيان يبذل له الصلح ويشترط عليه شروطاً فأرسل له بصك مختوم ليس فيه كتابة وطلب منه أن يشترط لنفسه ما شاء فكتب فيها الحسن شروطاً أهمها تأمين جيشه وشيعة على كلهم فقبلها معاوية وقدم إلى العراق فقابله الحسن بجيشه وبايعه بالخلافة هو وجنده وبهذا صدق رسول الله ﷺ فى قوله «**إن ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين طائفتين عظيمتين من المؤمنين**» وبتسليمه رضى الله عنه انقضى الدور الثانى من دولة الخلفاء الراشدين وهو دور الفتن والشقاق وكان مبدؤه من قيام الثوار على عثمان رضى الله عنه ونهايته تسليم الحسن الخلافة لمعاوية. فتن دامت عشر سنين لو كانت فى أمة أخرى لهدمت أركانها وقوضت بنيانها ولكن الله نظر إلى دينه القويم بعين عنايته فألف كلمة أهله وحفظه كما وعد وكنت أود أن أجعل خاتمة الكتاب خلافة أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان ولكن منعنى من ذلك ما منع العلامة عبد الرحمن بن خلدون حيث قال فى خاتمة الجزء الثانى من تاريخه (وقد كان ينبغى أن نلحق دولة معاوية وأخباره بدولة الخلفاء وأخبارهم فهو تاليهم فى الفضل والعدالة والصحبة ولا ينظر فى ذلك إلى حديث «**الخلافة بعدى ثلاثون سنة**» فإنه لم يصح ، والحق أن معاوية فى عداد الخلفاء وإنما

أخره المؤرخون عنهم لأمرين (الأول) أن الخلافة لعهده كانت مغالبة لأجل ما قدمناه من العصبية التى حدثت لعصره وأما قبل ذلك فكانت إختياراً واجتماع فميزوا بين الحالتين فكأن معاوية أول خلفاء المغالبة والعصبية الذين يعبر عنهم أهل الأهواء بالملوك ويشبهون بعضهم ببعض وحاشا لله أن يشبه معاوية بأحد من بعده فهو من الخلفاء الراشدين ومن كان تلوه فى الدين والفضل من الخلفاء المراونية ممن تلاه فى المرتبة كذلك وكذلك من بعدهم من خلفاء بنى العباس ولا يقال إن الملك أدون مرتبة من الخلافة فكيف يكون خليفة ملكا؟ (واعلم) أن الملك الذى يخالف بل ينافى الخلافة هو الجبروتية المعبر عنها بالكسروية التى أنكرها عمر على معاوية حينما رأى ظواهرها وأما الملك الذى هو الغلبة والقهر بالعصبية والشوكة فلا ينافى الخلافة ولا النبوة فقد كان سليمان بن داود وأبوه صلوات الله عليهما نبيين وملكين وكانا على غاية الإستقامة فى دنياهما وعلى طاعة ربهما عز وجل ومعاوية لم يطلب الملك وأبهته للاستكثار من الدنيا وإنما ساقه أمر العصبية بطبعها لما استولى المسلمون على الدول كلها وكان هو خليفتهم فدعاهم بما يدعو الملوك إليه قومهم عند ما تستفحل العصبية وتدعو لطبيعة الملك وكذلك شأن الخلفاء أهل الدين من بعده إذا دعتهم ضرورة الملك إلى استفحال أحكامه ودواعية القانون فى ذلك عرض أفعالهم على الصحيح من الأخبار لا الواهى فمن جرت أفعاله عليها فهو خليفة النبى ﷺ فى المسلمين ومن خرجت أفعاله عن ذلك فهو من ملوك الدنيا وإنما سمى خليفة بالمجاز (الأمر الثانى) فى ذكر معاوية مع خلفاء بنى أمية دون الخلفاء الأربعة أنهم كانوا أهل نسب واحد وعظيمهم معاوية فجعل مع أهل نسبه والخلفاء الأولون مختلفو الأنساب فجعلوا فى نمط واحد وألحق بهم عثمان إن كان من أهل هذا النسب للحوق بهم قريباً فى الفضل والله يحشرنا فى زمرتهم ويرحمنا بالإقتداء بهم. وقد أفردنا نحن لبنى أمية وخلفائهم وأخبار دولتهم فى الشام والأندلس كتاباً نفيساً سميناه (الفتوحات الإسلامية فى عهد الدولة الأموية فى الشرق والأندلس).

الخاتمة

لما كنا قد ألزمنا أن نتبع كل دور بنتيجة ماحصل فيه رأينا أن نوفى هنا ماوعدنا به من ذلك فنقول إن لهذا الشقاق الذى حصل والخلاف الذى ألم سبباً واحداً به انصدع الحبل وتشتت الشمل وهو قتل عثمان بن عفان أمير المؤمنين رضى الله عنه. نقم عليه الناس إذ ذاك أمورا فعلها فقاموا عليه وحصروه فى داره ولم يقبلوا منه إلا أن يخلع نفسه ويدعوه مستندين على كتاب افتعل وادعى أنه من عثمان إلى عامله بمصر يأمره فيه بقتل بعضهم وجلد آخرين فلما امتنع من خلع نفسه قتلوه فى داره فى عاصمة الإسلام ومدينة النبى عليه الصلاة والسلام البلد الذى يأمن فيه الجانى ويلوذ به الآثم ولم يرعوا لرسول الله ﷺ حرمة ولا لخليفته عهده. انقسم الناس فيه على ثلاثة أقسام. منهم الناكث لبيعته وهم الزعانف الذين لم تستنر بصائرهم بصحبة رسول الله ﷺ ومنهم المقيم على ولائه الذاب عنه وهم أكثر الأمة وغالب أصحاب رسول الله ﷺ فى أمصار المسلمين ومنهم المقيم على الحياد لاينصره ولا يخذله فأما الأولون فقد خالفوا سنة رسول الله ﷺ وقد قدمنا لك فى صدر كتابنا هذا ماقاله عليه السلام فى الخروج عن طاعة الإمام ولم يجعل لها سبباً إلى الكفر البواح وهو الظاهر الصريح الذى لاتأويل فيه ولم يقل بذلك أحد منهم إلا الغلاة الذين صرحوا بذلك فإن كلامهم مردود عليهم من جميع الأمة حتى الشيعة والذى نقموه عليهم هو أمور لاتخرج عن حد الشرع وقد قدمناه لك أما الذين أقاموا على ولائه فمنهم المقيم بالمدينة وهؤلاء غلبوا عليها فلم يتمكنوا من المقاومة والذين قاوموا أوذوا فقتل بعضهم وجرح كثير منهم ومنهم المقيم بالأمصار وهؤلاء خرجوا لنصرته حينما بلغتهم الأخبار فلم يصلوها إلا وقد قضى الأمر وأما الذين كانوا على الحياد فلم يكونوا يظنون أن

الأمر يصل إلى القتل لأنهم رأوا أن عثمان قد صار أسيراً فى أيديهم وليس من العادة قتل الأسرى ولو كانوا كفاراً وحاشا لله أن نظن أن عليا والزبير وطلحة كانوا يظنون أن قصد الثائرين قتل عثمان ثم لا يدافعون بأنفسهم عنه حتى يهلكوا أو يخلصوه. أراد الله ماأراد ولا راد لقضائه. قتل عثمان فافترقت الأمة إذ ليس هذا بالأمر الهين حتى يقابل بالغض. فريق ناقم على قتلته ويود قبل كل شيء إقامة حداً لله والقصاص من قاتليه ثم يجتمع رجال الحل والعقد من الأمة فينتخبون بدله ومن هؤلاء عامة عشيرة عثمان ورأسهم وكبيرهم معاوية ابن أبى سفيان أمير الشام وكثير غيره من الصحابة كطلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة وعمرو بن العاص وغيرهم رضى الله عنهم وفريق رأوا أن الأولى بالمسلمين أن يبدأوا بإقامة خليفة لهم ثم ينفذ حكم الله فى القاتلين بعد أن تهدأ الأحوال ولا يتعسر أمر القصاص وتجتمع

جنود المسلمين للقدرة على الثائرين ومن هؤلاء على بن أبى طالب وكثير من أصحاب رسول الله ﷺ والفريق الثالث قتلة عثمان يرون بالطبع أنهم أصابوا فيما صنعوا ولا يستحقون قصاصاً. قام المسلمون بالمدينة وفيهم كثير من أصحاب رسول الله ﷺ وبايعوا علياً ليكون خليفة لهم فامتنع كل من ليس على رأيه وقاموا يدعون المسلمين للأخذ بناصرهم حتى يقيموا حد الله فيمن قتل عثمان فتوجه الزبير وطلحة وأم المؤمنين عائشة إلى البصرة للإستعانه بأهلها على القصاص فوافقهم جماعة وخالفهم آخرون فعدوا من خالفهم عاصياً مانعاً من إقامة حد الله وأصابوا بعضاً من قتله عثمان فقتلوهم. أما أمير المؤمنين فعدهم خارجين عن طاعته لأنه رأى أن بيعته تمت بمن حضرها فلزمت من لم يحضرها فتوجه إليهم وحاربهم حتى دخلوا فى طاعته بعد قتل رؤسائهم وأرجع أم المؤمنين إلى بيتها ثم عزم على حرب معاوية ومن رأى رأيه إن لم يدخلوا فى طاعته كيف يطيعون وقد رزئوا بقتل شيخهم وأمير المؤمنين والقصاص من قتلته أهم الأشياء عندهم فكيف يتركونه أو يؤجلونه وعدوا ذلك عصياناً لله سبحانه وتعالى وتعطيلا لحدوده ويتهموا عليا بالهوادة فى نصر الخليفة وإيواء قتلته فى جيشه فلما حاربهم حاربوه وظل السيف يعمل فى رقاب المسلمين فلما رأى ذلك معاوية وأصحابه أشاروا على أمير المؤمنين بتحكيم كتاب الله بينهم فقبل

ذلك حينما رأى أكثر جيشه راضين به فحكم كل فريق رجلا فهذان الحكمان لم يوفقا للإصلاح بين هاتين الطائفتين العظيمتين ولكنهما اختارا فى صحيفتهما خلع على ومعاوية ويختار المسلمون لأنفسهم من شاءوا فعرض كل منهما شخصاً فلم يقبل أحدهما ماعرضه الآخر فافترقا على ذلك. أنتج هذا التحكيم عند معاوية بن أبى سفيان أملا عظيماً فى تولى خلافة المسلمين حيث بايعه بها كثير من أصحاب رسول الله ﷺ لاعتقادهم فيه الكفاية وحسن السياسة وأنتج فى جيش على الإفتراق والشطط ففريق عده كفراً وضلالة زاعمين أن لا حكم إلا لله وهذا تحكيم للرجال فى أمر الله وفريق استحسنه؛ فعادي كل فريق الآخر واعتزل من قبحوا التحكيم علياً فشغل بهم وحاربهم مراراً فقتل كثيراً منهم ونجا آخرون. تأصل فيهم مذهب الخروج على خلفائهم زاعمين ألا يصلح لها إلا رجل يدين بمعتقدهم فشغلوا الخلفاء حينا من الدهر وألهوهم فى كثير من الأوقات عن جهاد الأعداء أما شيعة على رضى الله عنه فإنهم رأوا فعل معاوية وطلبه للخلافة أمراً إمراً لأنهم وزنوه بعلى فرأوه مرجوحاً فأرادوا إعادة الكرة ولكن الأجل المقدور قضى على حياة أمير المؤمنين فقضى نحبه ولحق بربه: وجاء السيد ابن السيد فأصلح بين المؤمنين ووحد الكلمة وأزال الفرقة ولكن الصدور لم تزل تكمن ما فيها فشيعة على لا تزال ترى هذا الأمر فى أولاده يطلبونه متى سنحت لهم الفرصة وصارت لهم مذاهب ونحل قد يعجز القلم عن استقصائها والخوارج لا تزال ترى التحكيم ضلالة ولا ترى البيعة إلا شورى ولا ينتخب إلا رجل على مذهبهم ومعتقدهم وتفرقوا شيعاً كل له مذهب يتبعه؛ وسنأتى عليها فى كتابنا فى أخبار الدولة الأموية إن شاء الله؛ ولا يخفى أن كلا من على ومعاوية رضى الله عنهما كان يظن فى الآخر الخطأ ومخالفة السنة وإلا لما جاز له قتاله حتى كان أمير المؤمنين على يدعو على معاوية فى صلاته وكذلك يفعل معاوية (وأما أخبار اللعن فمن أكاذيب التاريخ لأنه لم يقل أحد المتخاصمين بكفر الآخر حتى يجوز له لعنه بل يعتقد أنه مؤمن ولكن عاص وناهيك بما قاله أمير المؤمنين على عن قتلى الفريقين فى وقعة صفين والجمل وقال العلامة ابن كثير فى تاريخه إن خبر اللعن لم يصح) والعجب بعد ذلك ممن يأتى بعدهم وهو لا يعرف إلا القليل مما حصل لهم ثم هو يتشيع

لأحد الفريقين ويبغض الآخر وهذا ليس من الدين فى شىء فأولئك قوم اختلفوا فى الرأى ولم يتبعوا الهوى بل أرادوا الله بأعمالهم وهم أصحاب رسول الله ﷺ الذين تلقوا عنه الدين مباشرة ونقلوه إلينا وقد أجمع المسلمون على توثيقهم وعدالتهم فالخوض بعد ذلك فى تضليل بعضهم مما لا يرضى به الله ولا رسول الله ﷺ والأولى للمسلمين أن يعرفوا أن ما حصل فى زمنهم من الخلاف والفرقة أمران لا ينبغى عملهما فيتجنبوهما ويتخذون ذلك درساً فى أحوالهم وسياسة دنياهم بدل أن يشغلوا أنفسهم بما لا طائل تحته من تفضيل أحد الأخوين على الآخر وتضليل الثانى منهما. فالله الله فى أصحاب رسول الله ﷺ فلو أنفق أحدكم ياقوم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصفية بشهادة نبيكم ﷺ وإياكم ودجالين وكذابين من المؤرخين قضت عليهم ظروف زمنهم أن يقبلوا الحقائق ويكذبوا على الله وعلى الأمة الإسلامية فينسبون القبائح لأصحاب رسول الله ﷺ واشغلوا أنفسكم بتحسين حالكم وطاعة ربكم وها أنا قد نقلت لكم هذا التاريخ الصغير من أوثق المصادر التى يعتقدون بصحتها فليس بعد كتاب الله سبحانه وتعالى كتاب أوثق من صحيح الإمام البخارى وصحيح الإمام مسلم اللذين نقلنا عنهما كثيراً من أمهات المسائل وبعضاً من الأحاديث التى يدخل تحتها معظم الأمور التى منيت الأمة بها. وليس على الله بعزيز أن يؤلف كلمة الأمة ويلم شعثها ويوفقها لما فيه رضاه بمنه وكرمه. أسأله سبحانه وتعالى أن يوفقنا وجميع المسلمين إلى ذلك إنه على ما يشاء قدير.

قال مؤلفه: كان الفراغ من تأليفه خامس رمضان من سنة ١٣١٦ هجرية بمدينة المنصورة.

(تم بعون الله تعالى)

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الناشر	٢٥٠
مقدمة المؤلف	٢٥٢
المقدمة فى الخلافة	٢٥٤
معنى الخلافة	٢٥٤
وجوب إقامة الخليفة	٢٥٤
عدم تعدد الإمام	٢٥٥
صاحب الخلافة	٢٥٥
السر فى تخصيص قريش بالخلافة	٢٥٦
شروط الخليفة	٢٥٧
انتخاب الخليفة	٢٥٨
طاعة الإمام	٢٥٩
مخالفة الإمام	٢٥٩
منابذة الإمام	٢٥٩
جزاء المحاربين	٢٦٠
واجبات الإمام	٢٦١
القسم الأول من الكتاب	٢٦٢
خلافة أبى بكر	٢٦٢
ترجمة أبى بكر	٢٦٤
أعماله فى الخلافة	٢٦٦
أخبار الردة	٢٦٧
خبر عبس وذبيان	٢٦٨
تسيير الجيوش إلى أهل الردة	٢٦٩
كتاب أبى بكر للأمراء	٢٧٠
كتب أبى بكر للمرتدين	٢٧١
خبر طليحة	٢٧٣
خبر مالك بن تويرة	٢٧٥
خبر مسيلمة	٢٧٦
خبر البحرين	٢٧٩
خبر عمان	٢٨١
أخبار الأسود	٢٨٢
أخبار كنده	٢٨٤
أمر العراق	٢٨٦
وقعة الأبلة	٢٨٧
وقعة الثنى	٢٨٨
وقعة الولجة	٢٨٨
وقعة الليس	٢٨٨
فتح الحيرة	٢٨٩
مابعد الحيرة	٢٨٩
فتح الأنبار	٢٩٠
فتح عين التمر	٢٩١
فتح دومة الجندل	٢٩١
وقعة الحصير والخنافس	٢٩٢
وقعة الفراض	٢٩٢
صرف خالد إلى الشام	٢٩٣
وقعة بابل	٢٩٣
بدء أمر الروم	٢٩٤
وقعة اليرموك	٢٩٦
وفاة الصديق	٢٩٨
ترجمة عمر بن الخطاب	٣٠٠
أمر العراق فى عهد عمر	٣٠٢

الموضوع	الصفحة
وقعة الجسر	٣٠٣
وقعة القادسية	٣١٠
فتح البرس	٣١٥
فتح بابل	٣١٦
فتح كوثى	٣١٦
فتح ساباط	٣١٦
فتح جلولاء	٣١٩
فتح نينوى والموصل	٣٢٠
فتح ماسبذان	٣٢١
فتح هيت	٣٢١
تخطيط الكوفة	٣٢١
غزو الفرس من البحرين	٣٢٣
فتح الأهواز	٣٢٤
انتقاض الهرمزان	٣٢٥
فتح تستر	٣٢٦
فتح السوس	٣٢٦
وفود الهرمزان	٣٢٦
وقعة نهاوند	٣٢٨
فتح همذان	٣٣١
الإنسياح فى بلاد العجم	٣٣٣
فتح أذر بيجان	٣٣٣
فتح الباب	٣٣٤
فتح خراسان	٣٣٦
فتح فساودرابجرد	٣٣٧
فتح كرمان	٣٣٨
فتح سجستان	٣٣٨
فتح مكران	٣٣٩
فتح بلاد الشام	٣٤٠
فتح دمشق	٣٤١
فتح حمص	٣٤٢
فتح مصر	٣٤٧
مقام الخلافة	٣٥٠
الصلاة	٣٥٣
الزكاة	٣٥٤
الحج	٣٥٥
الصوم	٣٥٥
القضاء	٣٥٦
الفتيا	٣٥٨
الحدود	٣٥٩
الجهاد	٣٦٠
بيت المال	٣٦٤
العلم والتعليم	٣٦٦
القرآن	٣٦٧
السنة	٣٦٩
الفقه	٣٦٩
التوحيد	٣٧٠
الكتابة	٣٧٣
لغات الأعاجم	٣٧٣
الطب	٣٧٤
مقتل عمر	٣٨٠
ترجمة عثمان	٣٨٣
أعماله فى خلافته	٣٨٥

الصفحة	الموضوع

في الكوفة ....

في البصرة ٣٨٩

في الشام ٣٩١

في مصر ٣٩٤

القسم الثانى من الكتاب ٣٩٦

خلافة على ٤٠٨

ترجمة على ٤٠٩

أعمال على ٤١١

اجتماع الحكمين ٤٢٨

الحسن ٤٣٩

أعماله فى الخلافة ٤٤٠

الخاتمه ٤٤٢

Араб тилида

Шайх Муҳаммад Хўдари

НУРУЛ ЯҚИН
ва
ИТМОМУЛ ВАФОЪ

© Ўрта Осиё ва Қозоғистон мусулмонлари диний бошқармаси «Мовароуннаҳр» нашриёти

Босмахонага берилди 15. 01. 92 й. Босишга рухсат этилди 7. 02. 92 й. Офсет босма. Босма тобоқ 28,0. 25,000 нусхада босилди буюртма рақами 74,75. Баҳоси келишилган нархда.

Ўзбекистон республикаси Матбуот давлат қўмитасининг рангли босма фабрикаси. Тошкент Усмон Юсуп кўчаси 86. 1992 й мелодий 1413 ҳижрий.

الشيخ محمد الخضري

نور اليقين

في سيرة سيد المرسلين

مع

اتمام الوفاء

في سيرة الخلفاء

سنة ١٤١٣ هـ
١٩٩٢م

"ماوراء النهر"